علو الهمة في صناعة الحياة

✍ يا له من دين لو أن له رجالًا.

أرسل الله أعظم رسله محمدًا ﷺ إلى الناس كافة بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وضع على قفل الطبيعة البشرية مفتاحه، ذلك القفل المُعَقَّد الذي أعيا فتحه جميع المصلحين في عهد الفترة؛ وكل من حاول فتحه بغير مفتاحه، وهو مفتاح التوحيد والإيمان، وقرع أسماع أهل الجاهلية صوت النبي ﷺ داعيًا إلى الإيمان بالله وحده وبفضل الوحي والقرآن والإيمان الواسع العميق وسنة رسول الله ﷺ بعث رسول الله ﷺ في الإنسانية تَحَضُّرًا وحياة جديدة، وحوّل خامات الجاهلية إلى عجائب الإنسانية.

«عمد إلى الذخائر البشرية وهي أكداسٌ من المواد الخام لا يعرف أحدٌ غناءها، ولا يعرف محلها، وقد أضاعتها الجاهليةُ والكفرُ والإخلادُ إلى الأرض، فأوجد فيها بإذن الله الإيمان والعقيدة، وبعث فيها الروح الجديدة، وأثار من دفائنها وأشعل مواهبها، ثم وضع كلَّ واحدٍ في محله فكأنما خُلِقَ له، ولكأنما كان المكان شاغرًا لم يزل ينتظره ويتطلع إليه، وكأنما كان جمادًا فتحوَّل جسمًا ناميًا وإنسانًا متصرِّفًا، وكأنما كان ميتًا لا يتحرَّك فعادَ حيًّا يُملِي على العالَمَ إرادته، وكأنما كان أعمى لا يُبصر الطريقَ فأصبح قائدًا بصيرًا يقود الأمم ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

عمد إلى الأمة العربية الضائعة وإلى أناس من غيرها فما لبث العالم أن رأى منهم نوابغ كانوا من عجائب الدهر وسوانح التاريخ، فأصبح عمر

الذي كان يرعى الإبل لأبيه الخطاب وينهره، وكان من أوساط قريش جلادة وصرامة، ولا يتبوأ منها المكانة العُليا، ولا يحسب له أقرانه حسابًا كبيرًا، إذا به يفجأ العالم بعبقرِّيته وعصاميته، ويدحر كسرى وقيصر عن عروشهما، ويؤسس دولة إسلامية تجمع بين ممتلكاتهما وتفوقهما في الإدارة وحسن النظام فضلًا عن الورع والعدل الذي لا يزال فيه المثل السائر.

□ وهذا ابن الوليد كان أحد فرسان قريش الشُّبَّان انحصرت كفاءته الحربية في نطاق مَحَلِّيٍّ ضيّق يستعين به رؤساء قريش في المعارك القبلية فينال ثقتهم وثناءهم، ولم يُحرِز الشهرة الفائقة في نواحي الجزيرة، إذا به يلمعُ سيفًا إلهيًّا لا يقوم له شيء إلَّا حصده، وينزل كصاعقة على الروم، ويترك ذكرًا خالِدًا في التاريخ.

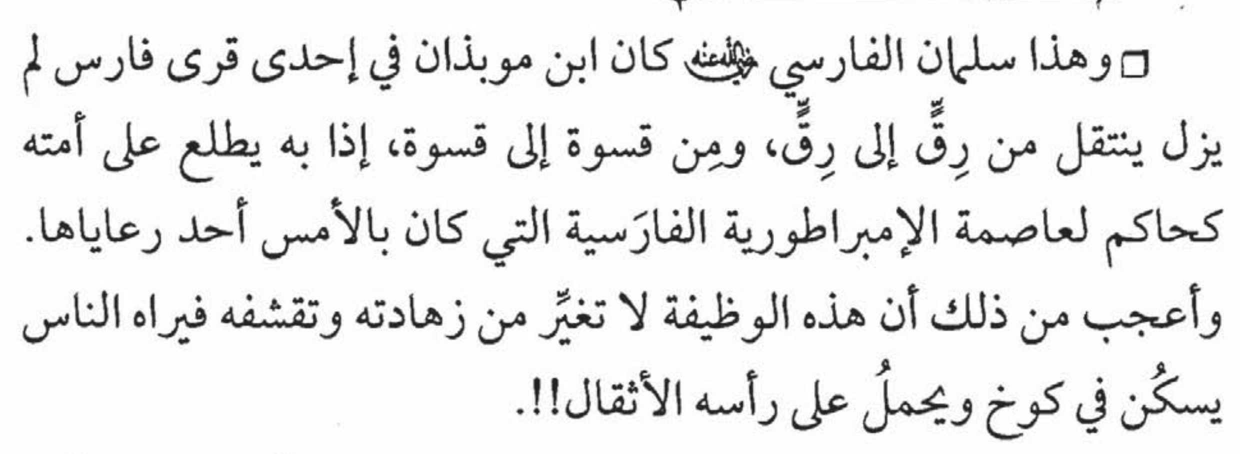
□ وهذا أبو عبيدة كان موصوفًا بالصلاح والأمانة والرفق [(١)] ويقود سرايا المسلمين، إذا به يتولَّى القيادة العظمى للمسلمين ويطرد هرقل من ربوع الشام ومروجها الخضراء ويلقي عليها نظرة الوداع ويقول: سلام على سورية سلامًا لا لقاء بعده.

وهذا عمرو بن العاص ﭬ كان يُعَدُّ من عقلاء قريش وتُرْسِله في سفارتها إلى الحبشة تستردُّ المهاجرين المسلمين فيرجع خائبًا إذا به يفتح مصر وتصير له صولة عظيمة.

□ وهذا سعد بن أبي وقَّاص لم نسمع به في التاريخ العربي قبل الإسلام كقائد جيش ورئيس كتيبة، إذا به يتقلَّد مفاتيح المدائن، وينيط باسمه فتح العراق وإيران.

---

(١) بل كان حفَّارًا للقبور، ولحَّادًا للموتى.



□ وهذا سلمان الفارسي رضي الله عنه كان ابن موبذان في إحدى قرى فارس لم يزل ينتقل من رِقٍّ إلى رِقٍّ، ومِن قسوة إلى قسوة، إذا به يطلع على أمته كحاكم لعاصمة الإمبراطورية الفارَسية التي كان بالأمس أحد رعاياها. وأعجب من ذلك أن هذه الوظيفة لا تغيِّر من زهادته وتقشفه فيراه الناس يسكُن في كوخ ويحملُ على رأسه الأثقال!!.

□ وهذا بلال الحبشي يبلغ من فضله وصلاحه مبلغًا يلقبه فيه أمير المؤمنين عمر بالسيد رضي الله عنهما.

□ وهذا سالم مولى أبي حذيفة يرى فيه عمر رضي الله عنه موضعًا للخلافة يقول: «لو كان حيًّا لاستخلفته».

□ وهذا زيد بن حارثة يقود جيش المسلمين إلى مؤتة وفيه مثل جعفر ابن أبي طالب وخالد بن الوليد، ويقود ابنه أسامة جيشًا فيه مثل أبي بكر وعمر رضي الله عنهم.

□ وهذا أبو ذر، والمقداد، وأبو الدرداء، وعمار بن يسار، ومعاذ بن جبل، وأُبيّ بن كعب، تهبُّ عليهم نفحة من نفحات الإسلام، فيصبحون من الزهَّاد المعدودين، والعلماء الراسخين.

□ وهذا علي بن أبي طالب، وعائشة، وعبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم، قد أصبحوا في أحضان النبي الأميِّ ﷺ من علماء العالم يتفجَّرُ العلم من جوانبهم، وتنطق الحكمة على لسانهم، أبرَّ الناس قلوبًا، وأعمقهم عِلمًا، وأقلَّهم تكلُّفًا، يتكلَّمُون فينصِتُ الزمان، ويخطبون فيسجِّلُ قلم التاريخ.

□ ثم لم يلبث العالم المتمدِّن أن يرى من هذه المواد الخام المبعثرة التي

استهانت بقيمتها الأمم المعاصرة، وسخرت منها البلاد المجاورة، لا يلبث أن يرى منها كتلة لم يشاهد الجنس البشري أحسن منها اتِّزانًا، كأنها حلقة مفرغة لا يُعرف طرفها، أو كالمطر لا يُدرَى أأوله خير أم آخره، كتلة فيها الكفاية التامة في كل ناحية من نواحي الإنسانية، كتلة هي في غنى عن العالم وليس العالم في غنى عنها، وضعَت مدنيَّتها، وأسست حكومتَها، وليس لها عهدٌ بها، فلم تضطر إلى أن تستعيرَ رجلًا من أمَّة، أو تستعين في إدارتها بحكومة، أسَّست حكومة تمدُّ رواقها على رقعة متَّسعة من قارَّتيْن عظيمتيْن. وملأت كل ثغر وسَدَّت كلَّ عوز برجل يجمع بين الكفاية والدِّيانة، والقوَّة والأمانة، تأسست هذه الحكومة المتشعِّبة الأطراف فأنجدتها هذه الأمة الوليدة التي لم يمض عليها إلَّا بعض العقود – كلها جهاد ودفاع ومُقاومة وكفاح- برجل من الرجال الأكفَّاء، فكان منها الأمير العادل، والخازن الأمين، والقاضي المقسط، والقائد العابد، والوالي المتورِّع، والجندي المُتَّقي، وكانت بفضل التربية الدينية التي لا تزال مستمرَّة، وبفضل الدعوة الإسلامية التي لا تزال سائرة، مادَّة لا تنقطع ومعينًا لا ينضب، لا تزال تسند الحكومة برجال يرجحون جانب الهداية على الجِباية، ولا يزالون يجمعون بين الصلاح والكفاية، وهنا ظهرت المدنيَّة الإسلامية بمظهرها الصحيح، وتجلَّت الحياة الدينية بخصائصها التي لم تتوافر لعهد من عهود التاريخ البشري.

لقد وضع محمد ﷺ مفتاح النبوة على قفل الطبيعة البشرية، فانفتح على ما فيها من كنوز وعجائب، وقوى ومواهب، أصاب الجاهلية في مقتلها وصميمها، فأصمى رميته، وأرغم العالم العنيد بحول الله على أن ينحو نحوًا جديدًا، ويفتح عهدًا سعيدًا، ذلك هو العهد الإسلامي الذي

لا يزال غُرَّة في جبين التاريخ»[١].

حضارة الإسلام:

كانت حضارة الإسلام هي الحضارة المثلى في التاريخ التي يتمجَّد الناس ويتظرّفون بتقليدها.

لقد كانت حضارة قادت العالم بجدارة واستحقاق، أشرف حضارة وأعظمها وأقواها في تاريخ العالم.

خضعت للغتها اللُّغات، ولثقافتها الثقافات.

□ حضارة الإسلام مختلفة عن غيرها من الحضارات هي حضارة لا إله إلَّا الله، وجهتها الله، عَلَّمَت الناس الحق والخير والجمال، ودَعَتْه إلى التفكر والبحث والدراسة والإبداع، وجعلت تخفيف أعباء الحياة وتوفير المتاع عبادة. أمَّا الحضارة الغربية فحضارة مركزها الإنسان.. هي حضارة المتاع.. حضارة نست الله وكفرت به لا همَّ لها إلَّا وحْل المادة ودنسها.

من روائع حضارتنا وخصائصها:

□ يقول الدكتور مصطفى السباعي في كتابه القيم «من روائع حضارتنا» تحت عنوان: «خصائص حضارتنا»: «يعرِّف الحضارة بعض الكاتبين في تاريخها بأنها: «نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي» وتتألف الحضارة من العناصر الأربعة الرئيسية: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون. ولاطراد الحضارة وتقدمها عوامل متعددة من جغرافية واقتصادية ونفسية

---

(١) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» للشيخ أبي الحسن الندوي (ص١١٨- ١٢١) - دار الأنصار الطبعة العاشرة.

كالدين واللغة والتربية، ولانهيارها عوامل هي عكس تلك العوامل التي تؤدي إلى قيامها وتطورها، ومن أهمها: الانحلال الخلقي والفكري، واضطراب القوانين والأنظمة، وشيوع الظلم والفقر، وانتشار التشاؤم أو اللامبالاة، وفقدان الموجهين الأكفاء والزعماء المخلصين.. وقصة الحضارة تبدأ منذ عُرف الإنسان، وهي حلقة متصلة تسلِّمها الأمة المتحضرة إلى من بعدها، ولا تختص بأرض ولا عرق، وإنما تنشأ من العوامل السابقة التي ذكرناها. وتكاد لا تخلو أمة من تسجيل بعض الصفحات في تاريخ الحضارة، غير أن ما تمتاز به حضارة عن حضارة إنما هو قوة الأسس التي تقوم عليها، والتأثير الكبير الذي يكون لها، والخير العميم الذي يصيب الإنسانية من قيامها، وكلما كانت الحضارة عالمية في رسالتها، إنسانية في نزعتها، خلقية في اتجاهاتها، واقعية في مبادئها، كانت أخلد في التاريخ، وأبقى على الزمن، وأجدر بالتكريم.

وحضارتنا حلقة من سلسلة الحضارات الإنسانية، سبقتها حضارات، وستتبعها حضارات. وقد كان لقيام حضارتنا عوامل، ولانهيارها أسباب، ليست هي مما تعنيه هذه السلسلة من أحاديثنا، وإنما نريد قبل أن نبدأ الحديث عن روائع هذه الحضارة، أن نتحدث عن دورها الخطير في تاريخ التقدم الإنساني، ومدى ما قدمته في ميدان العقيدة والعلم والخلق والحكم والفن والأدب من أياد خالدة على الإنسانية في مختلف شعوبها وأقطارها.

إن أبرز ما يلفت نظر الدارس لحضارتنا أنها تميزت بالخصائص التالية:

١- أنها قامت على أساس الوحدانية المطلقة في العقيدة، فهي أول

حضارة تنادي بالإله الواحد الذي لا شريك له في حكمه وملكه، هو وحده الذي يُعبد، وهو وحده الذي يُقصد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ وهو الذي يعز ويذل ويعطي ويمنح، وما من شيء في السموات والأرض إلَّا وهو تحت قدرته وفي متناول قبضته.

هذا السمو في فهم الوحدانية كان له أثر كبير في رفع مستوى الإنسان وتحرير الجماهير من طغيان الملوك والأشراف والأقوياء ورجال الدين، وتصحيح العلاقة بين الحاكمين والمحكومين، وتوجيه الأنظار إلى الله وحده وهو خالق الخلق ورب العالمين.. كما كان لهذه العقيدة أثر كبير في الحضارة الإسلامية تكاد تتميز به عن كل الحضارات السابقة واللاحقة، وهو: خلوها من كل مظاهر الوثنية وآدابها وفلسفتها في العقيدة والحكم والفن والشعر والأدب، وهذا هو سر إعراض الحضارة الإسلامية عن ترجمة الإلياذة وروائع الأدب اليوناني الوثني، وهو سر تقصير الحضارة الإسلامية في فنون النحت والتصوير مع تبريزها في فنون النقش والحفر وزخرفة البناء. إن الإسلام الذي أعلن الحرب الشعواء على الوثنية، ومظاهرها لم يسمح لحضارته أن تقوم فيها مظاهر الوثنية وبقاياها المستمرة من أقدم عصور التاريخ، كتماثيل العظماء والصالحين والأنبياء والفاتحين.

وقد كانت التماثيل من أبرز مظاهر الحضارات القديمة والحضارات الحديثة؛ لأن واحدة منها لم تذهب في عقيدة الوحدانية إلى المدى الذي وصلت إليه الحضارة الإسلامية.

وهذه الوحدة في العقيدة تطبع كل الأسس والنظم التي جاءت بها

حضارتنا، فهنالك الوحدة في الرسالة، والوحدة في التشريع، والوحدة في الأهداف العامة، والوحدة في الكيان الإنساني العام، والوحدة في وسائل المعيشة وطراز التفكير، حتى إن الباحثين في الفنون الإسلامية قد لحظوا وحدة الأسلوب والذوق في أنواعها المختلفة، فقطعة من العاج الأندلسي، وأخرى من النسيج المصري، وثالثة من الخزف الشامي، ورابعة من المعادن الإيرانية، تبدو رغم تنوع أشكالها وزخرفتها ذات أسلوب واحد وطابع واحد.

٢- وثاني خصائص حضارتنا: أنها إنسانية النزعة والهدف، عالمية الأفق والرسالة فالقرآن الذي أعلن وحدة النوع الإنساني رغم تنوع أعراقه ومنابته ومواطنه، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

إن القرآن حين أعلن هذه الوحدة الإنسانية العالمية على صعيد الحق والخير والكرامة جعل حضارته عقدًا تنتظم فيه جميع العبقريات للشعوب والأمم التي خفقت فوقها راية الفتوحات الإسلامية، ولذلك كانت كل حضارة تستطيع أن تفاخر بالعباقرة من أبناء جنس واحد وأمة واحدة، إلَّا الحضارة الإسلامية؛ فإنها تفاخر بالعباقرة الذين أقاموا صرحها من جميع الأمم والشعوب، فأبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والخليل وسيبويه والكندي والغزالي والفارابي وابن رشد وأمثالهم ممن اختلفت أصولهم وتباينت أوطانهم، ليسوا إلَّا عباقرة قدمت فيهم الحضارة الإسلامية إلى الإنسانية أروع نتاج الفكر الإنساني السليم.

٣- وثالث خصائص حضارتنا: أنها جعلت للمبادئ الأخلاقية المحل الأول في كل نظمها ومختلف ميادين نشاطها، وهي لم تتخل عن

هذه المبادئ قط، ولم تجعلها وسيلة لمنفعة دولة أو جماعة أو أفراد.. ففي الحكم، وفي العلم، وفي التشريع، وفي الحرب، وفي السلم، وفي الاقتصاد، وفي الأسرة.. روعيت المبادئ الأخلاقية تشريعًا وتطبيقًا، وبلغت في ذلك شأوًا ساميًا بعيدًا لم تبلغه حضارة في القديم والحديث، ولقد تركت الحضارة الإسلامية في ذلك آثارًا تستحق الإعجاب وتجعلها وحدها من بين الحضارات التي كفلت سعادة الإنسانية سعادة خالصة لا يشوبها شقاء.

٤- ورابع هذه الخصائص: أنها تؤمن بالعلم في أصدق أصوله، وترتكز على العقيدة في أصفى مبادئها، فهي خاطبت العقل والقلب معًا، وأثارت العاطفة والفكر في وقت واحد. وهي ميزة لم تشاركها فيها حضارة في التاريخ، وسر العجب في هذه الخاصة من خصائص حضارتنا أنها استطاعت أن تنشئ نظامًا للدولة قائمًا على مبادئ الحق والعدالة، مرتكزًا إلى الدين والعقيدة دون أن يقيم الدين عائقًا ما دون رقي الدولة واطراد الحضارة، بل كان الدين من أكبر عوامل الرقي فيها، فمن بين جدران المساجد في بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وغرناطة انطلقت أشعة العلم إلى أنحاء الدنيا قاطبة.

إن الحضارة الإسلامية هي الوحيدة التي لم يُفصل فيها الدين عن الدولة مع نجاتها من كل مآسي المزج بينهما كما عرفته أوربا في القرون الوسطى.

لقد كان رئيس الدولة خليفة وأميرًا للمؤمنين، لكن الحكم عنده للحق، والتشريع للمختصين فيه، ولكل فئة من العلماء اختصاصهم

والجميع يتساوون أمام القانون، والتفاضل بالتقوى والخدمة العامة للناس «**والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها**»[١].

* هذا هو الدين الذي قامت عليه حضارتنا، ليس فيه امتياز لرئيس ولا لرجل دين ولا لشريف ولا لغني.. ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [الكهف: ١١٠].

٥- وآخر ما نذكره من خصائص حضارتنا: هذا التسامح الديني العجيب الذي لم تعرفه حضارة مثلها قامت على الدين. إن الذي لا يؤمن بدين ولا بإله، لا يبدو عجيبًا إذا نظر إلى الأديان كلها على حد سواء، وإذا عامل أتباعها بالقسطاس المستقيم، ولكن صاحب الدين الذي يؤمن بأن دينه حق وأن عقيدته أقوم العقائد وأصحها، ثم يتاح له أن يحمل السيف، ويفتح المدن، ويستولي على الحكم، ويجلس على منصة القضاء، ثم لا يحمله إيمانه بدينه، واعتزازه بعقيدته، على أن يجور في الحكم، أو ينحرف عن سنن العدالة، أو يحمل الناس على اتباع دينه.. إنَّ رجلًا مثل هذا لعجيب أن يكون في التاريخ، فكيف إذا وجد في التاريخ حضارة قامت على الدين وشادت قواعدها على مبادئه، ثم هي من أشد ما عَرف التاريخ تسامحًا وعدالة ورحمة وإنسانية!.. هذا ما صنعته حضارتنا وسنجد له عشرات الأمثلة فيما نذكره في أحاديثنا المقبلة. وحسبنا أن نعرف أن حضارتنا تنفرد في التاريخ بأن الذي أقامها دين واحد، ولكنها كانت للأديان جميعًا.

هذه هي بعض خصائص حضارتنا وميزاتها في تاريخ الحضارات، ولقد كانت بذلك محل إعجاب العالم، ومهوى أفئدة الأحرار والأذكياء

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

من كل جنس ودين، يوم كانت قوية تحكم وتوجه وتهذب وتعلم، فلمّا انهارت وقامت من بعدها حضارة أخرى، اختلفت الأنظار في تقدير قيمة حضارتنا، فمن مزرٍ بها ومن معجب، ومن متحدث عن فضائلها، ومن مبالغ في الانتقاص منها، هكذا تختلف أنظار الباحثين الغربيين اليوم في حضارتنا، وما كانوا ليفعلوا ذلك لولا أنهم – وهم الذين بيدهم مقاييس الحكم وعنهم تؤخذ الآراء- هم الأقوياء الذين يمسكون بدفة الحضارة اليوم، وإن الذين يُحكم عليهم وعلى حضارتهم هم الضعفاء الذين تتطلع أبصار الأقوياء إلى استلاب خيراتهم وحكم بلادهم بشره وجشع، ولعله هو موقف القوي من الضعيف يزري به وينتقص قدره. كذلكم فعل الأقوياء في كل عصور التاريخ، إلّا نحن يوم كنا أقوياء، فقد أنصفنا الناس قويهم وضعيفهم، وعرفنا الفضل لأهله شرقيهم وغربيهم، ومن مثلنا في التاريخ، عدالة حكم، ونزاهة قصد، واستقامة ضمير؟.

ومن المؤسف أننا لم ننتبه تمامًا لعصبيَّة الأقوياء ضدنا وجورهم في الحكم على حضارتنا، وكثير منهم إما متعصب لدين أعمت العصبية بصره عن رؤية الحق، أو متعصب لقومية، حمله كبرياء القومية على أن لا يعترف لغير أمته بالفضل، ولكن ما عذرنا نحن في تأثرنا بآرائهم في حضارتنا؟ فيم يزري بعض الناس من أبناء أمتنا بهذه الحضارة التي ركعت الدنيا أمام قدميها بضعة قرون؟.

لعل حجة المستخفين من قومنا بقيمة حضارتنا أنها ليست شيئًا إذا **قيست بروائع** هذه الحضارات الحديثة واختراعاتها وفتوحاتها في آفاق **العلم الحديث**، وهذا لو صح لا يبرر الاستخفاف بحضارتنا لسببين:

الأول: أن كل حضارة فيها عنصران: عنصر روحي أخلاقي، وعنصر مادي.

أما العنصر المادي: فلا شك في أن كل حضارة متأخرة تفوق ما سبقها، تلك هي سنَّة الله في تطور الحياة ووسائلها، ومن العبث أن تطالب الحضارة السابقة بما وصلت إليه الحضارة اللاحقة، ولو جاز هذا لجاز لنا أن نزري بكل الحضارات التي سبقت حضارتنا، لما ابتدعته حضارتنا من وسائل الحياة ومظاهر الحضارة ما لم تعرفه الحضارات السابقة قط، فالعنصر المادي في الحضارات ليس هو أساس التفاضل بينها دائمًا وأبدًا.

وأما العنصر الأخلاقي والروحي: فهو الذي تخلد به الحضارات، وتؤدي به رسالتها من إسعاد الإنسانية وإبعادها عن المخاوف والآلام، ولقد سبقت حضارتنا كل الحضارات السابقة واللاحقة في هذا الميدان، وبلغت فيه شأوًا لا نظير له في أي عصر من عصور التاريخ، وحسب حضارتنا بهذا خلودًا.

إن الغاية من الحضارة هي أن تقرب الإنسان من ذروة السعادة، وقد عملت لذلك حضارتنا ما لم تعمله حضارة في الشرق والغرب.

الثاني: إن الحضارات لا يقارن بينها بالمقياس المادي، ولا بالكمية في الأعداد والمساحات، ولا بالترف المادي في المعيشة والمأكل والملبس، وإنما يقارن بينها بالآثار التي تتركها في تاريخ الإنسانية، شأنها في ذلك شأن المعارك والممالك، فهي لا تقارن بينها بسعة الرقعة ولا بحساب العدد، والمعارك الفاصلة في التاريخ القديم والوسيط لو قيست بمعارك الحرب العالمية الثانية من حيث إعداد الجيوش ووسائل القتال لكانت شيئًا تافهًا،

ولكنها لا تزال تعتبر معارك لها قيمتها البالغة في التاريخ لما كان لها من الآثار البعيدة. إن معركة «كاني» التي هزم فيها القائد القرطاجي الشهير «هنيبال» الرومانيين هزيمة منكرة لا تزال من المعارك التي تدرّس في المدارس العسكرية في أوربا حتى الآن.

وإن معارك خالد بن الوليد رضي الله عنه في فتوح الشام لا تزال محل دراسة العسكريين الغربيين وإعجابهم، وهي عندنا من الصفحات الذهبية في تاريخ الفتوحات العسكرية في حضارتنا.

ومع هذا فما كان قدم معركة «كاني» أو معركة «بدر» أو معركة «القادسية» أو «حطين» ليحول دون النظر إليها على أنها معارك فاصلة في التاريخ»[١].

آثار حضارتنا في التاريخ:

تكلمنا في الحديث الماضي عن الخصائص البارزة لحضارتنا، وقلنا: أن الحضارات إنما تخلد بمقدار ما تقدمه في تاريخ الإنسانية من آثار خالدة في مختلف النواحي الفكرية والخلقية والمادية، وإن حضارتنا لعبت دورًا خطيرًا في تاريخ التقدم الإنساني، وتركت في ميادين العقيدة والعلم والحكم والفلسفة والفن والأدب وغيرها آثارًا بعيدة المدى قوية التأثير فيما وصلت إليه الحضارة الحديثة، فما هي هذه الآثار؟ وما هي أهميتها؟.

نستطيع أن نجمل الآثار الخالدة لحضارتنا في ميادين خمسة رئيسية:

---

(١) «**من روائع حضارتنا**» للدكتور مصطفى السباعي (ص٣٥- ٣٩)- دار الورّاق- دار السلام.

أولها: في ميدان العقيدة والدين:

فقد كان لمبادئ الحضارة الإسلامية أثر كبير في حركات الإصلاح الدينية التي قامت في أوربا منذ القرن السابع حتى عصر النهضة الحديثة، فالإسلام الذي أعلن وحدة الله وانفراده بالسلطان وتنزيهه عن التجسيم والظلم والنقص، كما أعلن استقلال الإنسان في عبادته وصلته مع الله وفهمه لشرائعه دون وساطة رجال الدين، كان عاملًا كبيرًا في تفتح أذهان الشعوب إلى هذه المبادئ القوية الرائعة، وقد كانت الشعوب يومئذٍ ترسف في أغلال من الخصام المذهبي العنيف والخضوع لسلطان رجال الدين على أفكارهم وآرائهم وأموالهم وأبدانهم! فمن الطبيعي وقد وصلت فتوحاته في الشرق والغرب إلى ما وصلت إليه، أن تتأثر الأمم المجاورة له بمبادئه في العقيدة قبل كل شيء.

وهذا ما حدث فعلًا، إذ قام في القرن السابع الميلادي في الغربيين من ينكر عبادة الصور، ثم قام بعدهم من ينكر الوساطة بين الله وعباده، ويدعو إلى الاستقلال في فهم الكتب المقدسة بعيدًا عن سلطان رجال الدين ومراقبتهم، ويؤكد كثير من الباحثين أن «لوثر» في حركته الإصلاحية كان متأثرًا بما قرأه للفلاسفة العرب والعلماء المسلمين من آراء في الدين والعقيدة والوحي، وقد كانت الجامعات الأوربية في عصره لا تزال تعتمد على كتب الفلاسفة المسلمين التي ترجمت منذ عهد بعيد إلى اللاتينية.

ثانيها: في ميدان الفلسفة والعلوم:

من طب ورياضيات وكيمياء وجغرافيا وفلك. فلقد أفاقت أوربا على

صوت علمائنا وفلاسفتنا يدرسون هذه العلوم في مساجد أشبيلية وقرطبة وغرناطة وغيرها، وكان رواد الغربيين الأُوَل إلى مدارسنا شديدي الإعجاب والشغف بكل ما يستمعون إليه من هذه العلوم في جو من الحرية لا يعرفون له مثيلًا في بلادهم.

ففي الوقت الذي كان فيه علماؤنا يتحدثون في حلقاتهم العلمية ومؤلفاتهم عن دوران الأرض وكرويتها وحركات الأفلاك والأجرام السماوية، كانت عقول الأوربيين تمتلئ بالخرافات والأوهام عن هذه الحقائق كلها! ومن ثم ابتدأت عند الغربيين حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية، وغدت كتب علمائنا تدرَّس في الجامعات الغربية. فقد ترجم كتاب «القانون» في الطب لابن سينا في القرن الثاني عشر، كما ترجم كتاب «الحاوي» للرازي —وهو أوسع من القانون وأضخم- في نهاية القرن الثالث عشر، وظل هذان الكتابان عمدة لتدريس الطب في الجامعات الأوربية حتى القرن السادس عشر، أما كتب الفلسفة فقد استمرت أكثر من ذلك، ولم يعرف الغرب فلسفة اليونان إلَّا عن طريق مؤلفاتنا وترجماتنا.

ومن هنا يعترف كثير من الغربيين المنصفين بأننا كنا في القرون الوسطى أساتذة أوربا مدة لا تقل عن ستمئة سنة.

□ قال العلامة جوستاف لوبون: «ظلت ترجمات كتب العرب ولا سيما الكتب العلمية المصدر الوحيد تقريبًا للتدريس في جامعات أوربا خمسة قرون أو ستة قرون، ويمكننا أن نقول إن تأثير العرب في بعض العلوم كعلم الطب مثلًا دام إلى أيامنا، فقد شُرحت كتب ابن سينا في

«مونبلييه» في أواخر القرن الماضي».

□ ويقول هذا العالم أيضًا: «على كتب العرب وحدها عوَّل روجر بيكون وليونارد البيزي وأرنو الفيلفوفي وريمون لول وسان ثوما وألبرت الكبير والأذفونش العاشر القشتالي».

□ قال مسيو رينان: «إن ألبرت الكبير مدين لابن سينا، وسان توما مدين في فلسفته لابن رشد».

□ ويقول العلامة المستشرق سيديو: «كان العرب وحدهم حاملين لواء الحضارة الوسطى فدحروا بربرية أوربا التي زلزلتها غارات قبائل الشمال، وسار العرب إلى منابع فلسفة اليونان الخالدة»، فلم يقفوا عند حد ما اكتسبوه من كنوز المعرفة بل وسعوه وفتحوا أبوابًا جديدة لدرس الطبيعة».

□ ويقول أيضًا: «والعرب حين زاولوا علم الهيأة عنوا عناية خاصة بالعلوم الرياضية كلها فكان لهم فيها القدح المعلّي، فكانوا أساتذة لنا في هذا المضمار بالحقيقة».

□ ويقول: «وإذا بحثنا فيما اقتبسه اللاتين من العرب في بدء الأمر وجدنا أن جربرت الذي أضحى بابا باسم «سلفستر الثاني» أدخل إلينا بين سنة ٩٧٠ وسنة ٩٨٠ ما تعلمه في الأندلس من المعارف الرياضية، وأن «أوهيلارد الإنجليزي» طاف بين سنة ١١٠٠ وسنة ١١٢٨ في الأندلس ومصر فترجم من العربية كتاب الأركان لإقليدس الذي كان الغرب يجهله، وأن أفلاطون التيقولي ترجم من العربية كتاب الأُكَر لثاذوسيوس، وأن رودلف البروجي ترجم من العربية كتاب الجغرافيا في

المعمور من الأرض لبطليموس، وأن ليونارد البيزي ألَّف حوالي سنة ١٢٠٠ رسالة في الجبر الذي تعلمه من العرب، وأن كنيانوس النبري ترجم عن العرب في القرن الثالث عشر كتاب إقليدس ترجمة جيدة شارحًا له، وأن قيتليون البولوني ترجم «كتاب البصريات» للحسن بن الهيثم في ذلك القرن، وأن جيرارد الكريموني أذاع في ذلك القرن أيضًا علم الفلك الحقيقي المتين بترجمته المجسطي لبطليموس والشرح لجابر إلخ..، وفي سنة ١٢٥٠ أمر الأذفونش القشتالي بنشر الأزياج الفلكية التي تحمل اسمه، وإذا كان روجر الأول قد شجع على تحصيل علوم العرب في صقلية ولا سيما كتب الإدريسي، فإن الإمبراطور فردريك الثاني لم يبد أقل حضًّا على دراسة علوم العرب وآدابهم، وكان أبناء ابن رشد يقيمون ببلاط هذا الإمبراطور فيعلمونه تاريخ النباتات والحيوانات الطبيعي.

□ ويقول هومبلد في كتابه عن الكون: «والعرب هم الذين أوجدوا الصيدلية الكيماوية، ومن العرب أتت الوصايا المحكمة الأولى التي انتحلتها مدرسة ساليرم فانتشرت في جنوب أوربا بعد زمن، وأدّت الصيدلة ومادة الطب اللتان يقوم عليهما فن الشفاء إلى دراسة علم النبات والكيمياء في وقت واحد ومن طريقين مختلفين، وبالعرب فُتح عهد جديد لذلك العلم.. وأوجبت خبرة العرب بالعالم النباتي إضافتهم إلى أعشاب ذليفوريدس ألفي نبات، واشتمال صيدليتهم على عدة أعشاب كان يجهلها الإغريق جهلًا تامًّا».

□ ويقول سيديو عن الرازي وابن سينا: «بأنهما سيطرا بكتبهما على مدارس الغرب زمنًا طويلًا. وعرف ابن سينا في أوربا طبيبًا فكان له على مدارسها سلطان مطلق مدة ستة قرون تقريبًا؛ فترجم كتابه القانون

المشتمل على خمسة أجزاء فطُبع عدة مرات لعدِّه أساسًا للدراسات في جامعات فرنسا وإيطاليا».

ثالثها: في ميدان اللغة والأدب:

فقد تأثر الغربيون وخاصة شعراء الأسبان بالأدب العربي تأثرًا كبيرًا، فقد دخل أدب الفروسية والحماسة والمجاز والتخيلات الراقية البديعة إلى الآداب الغربية عن طريق الأدب العربي في الأندلس على الخصوص.

□ يقول الكاتب الأسباني المشهور «أبانيز»: «إن أوربة لم تكن تعرف الفروسية، ولا تدين بآدابها المرعية، ولا نخوتها الحماسية قبل وفود العرب إلى الأندلس، وانتشار فرسانهم وأبطالهم في أقطار الجنوب».

□ ويدلنا على مدى تأثر الأدباء الغربيين بالعربية وآدابها في تلك العصور ما نقله لنا «دوزي» في كتابه عن الإسلام من رسالة ذلك الكاتب الأسباني «الغارو» الذي كان يأسى أشد الأسى لإهمال لغة اللاتين والإغريق والإقبال على لغة المسلمين، فيقول: «إن أرباب الفطنة والتذوق سحرهم رنين الأدب العربي فاحتقروا اللاتينية، وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها، وساء ذلك معاصرًا كان على نصيب من النخوة الوطنية أوفى من نصيب معاصريه فأسف لذلك مُرّ الأسف وكتب يقول: «إن إخواني المسيحيين يعجبون بشعر العرب وأقاصيصهم، ويدرسون التصانيف التي كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون، ولا يفعلون ذلك لإدحاضها والرد عليها بل لاقتباس الأسلوب العربي الفصيح، فأين اليوم -من غير رجال الدين- من يقرأ التفاسير الدينية للتوراة والإنجيل؟ وأين اليوم من يقرأ الأناجيل وصحف الرسل والأنبياء؟ واأسفاه! إن الجيل

الناشئ من المسيحيين الأذكياء لا يحسنون أدبًا أو لغة غير الأدب العربي واللغة العربية، وإنهم ليلتهمون كتب العرب ويجمعون منها المكتبات الكبيرة بأغلى الأثمان ويترنمون في كل مكان بالثناء على الذخائر العربية، في حين يسمعون بالكتب المسيحية، فيأنفون من الإصغاء إليها محتجين بأنها شيء لا يستحق منهم مؤنة الالتفات. فيا للأسى! إن المسيحيين قد نسوا لغتهم فلن تجد فيهم اليوم واحدًا في كل ألف يكتب بها خطابًا إلى صديق، أما لغة العرب فما أكثر الذين يحسنون التعبير بها على أحسن أسلوب، وقد ينظمون بها شعرًا يفوق شعر العرب أنفسهم في الأناقة وصحة الأداء».

ومن عباقرة الأدب في أوربا في القرن الرابع عشر وما بعده من لا شك أبدًا في تأثير الآداب العربية على قصصهم وآدابهم، ففي سنة ١٣٤٩م كتب بوكاشيو حكاياته المسماة بالصباحات العشرة، وهي تحذو حذو ألف ليلة وليلة، ومنها اقتبس «شكسبير» موضوع مسرحيته العبرة بالخواتيم، كما اقتبس «لسنغ» الألماني مسرحيته ناتان الحكيم.

وكان شوسر إمام الشعر الحديث في اللغة الإنجليزية أكبر المقتبسين من «بوكاشيو» في زمانه، فقد لقيه في إيطاليا ونظم بعد ذلك قصصه المشهورة باسم حكايات كانتربري. سيرة النبي ﷺ فاطلع منها على قصة الإسراء والمعراج ووصف السماء.

أما بترارك فقد عاش في عصر الثقافة العربية بإيطاليا وفرنسا، وطلب العلم في جامعتي مونبلييه وباريس وكلتاهما قامتا على مؤلفات العرب وتلاميذهم في الجامعات الأندلسية.

وقد تأثرت القصة الأوربية في نشأتها بما كان عند العرب من فنون القصص في القرون الوسطى، وهي المقامات، وأخبار الفروسية ومغامرات الفرسان في سبيل المجد والعشق، وكان لألف ليلة وليلة بعد ترجمتها إلى اللغات الأوربية في القرن الثاني عشر أثر كبير جدًّا في هذا المجال، حتى أنها طبعت منذ ذلك الحين حتى الآن أكثر من ثلاثمئة طبعة في جميع لغات أوربا، حتى ليرى عدد من النقاد الأوربيين أن رحلات جليفر التي ألفها سويفت، ورحلة «روبنسون كروزو» التي ألفها ديفوه مدينة لألف ليلة وليلة ولرسالة حي بن يقظان للفيلسوف العرب ابن طفيل.

ولا يشك أحد في أن هذه الكثرة الهائلة لطبعات ألف ليلة وليلة دليل على إقبال الغربيين على قراءتها، ومن ثم على تأثرهم بها.

ولا حاجة بنا إلى أن نذكر ما دخل اللغات الأوربية على اختلافها من كلمات عربية في مختلف نواحي الحياة حتى أنها لتكاد تكون كما هي في اللغة العربية، كالقطن، والحرير الدمشقي، والمسك، والشراب، والجرة، والليمون، والصِّفر، وغير ذلك مما لا يحصى.

وحسبنا في هذا المقام قول للأستاذ «ماكييل»: «كانت أوربا مدينة بأدبها الروائي إلى بلاد العرب، وإلى الشعوب العربية الساكنة في النجد العربي السوري تدين بأكبر قسم أو بالدرجة الرئيسية لتلك القوى النشيطة التي جعلت القرون الوسطى الأوربية مختلفة روحًا وخيالًا عن العالم الذي كان يخضع لروحه».

رابعًا: في ميدان التشريع:

فقد كان لاتصال الطلاب الغربيين بالمدارس الإسلامية في الأندلس وغيرها أثر كبير في نقل مجموعة من الأحكام الفقهية والتشريعية إلى لغاتهم، ولم تكن أوربا في ذلك الحين على نظام متقن ولا قوانين عادلة. حتى إذا كان عهد نابليون في مصر ترجم أشهر كتب الفقه المالكي إلى اللغة الفرنسية، ومن أوائل هذه الكتب «كتاب خليل» الذي كان نواة القانون المدنس الفرنسي، وقد جاء متشابهًا إلى حد كبير مع أحكام الفقه المالكي.

□ يقول العلامة «سيديو»: «والمذهب المالكي هو الذي يستوقف نظرنا على الخصوص لما لنا من الصلات بعرب إفريقية، وعهدت الحكومة الفرنسية إلى الدكتور «بيرون» في أن يترجم إلى الفرنسية «كتاب المختصر في الفقه» للخليل بن إسحاق بن يعقوب المتوفى سنة ١٤٢٢م».

خامسها: في مفهوم الدولة وعلاقة الشعب الحكومة:

فقد كان العالم القديم والوسيط ينكر على الشعب حقه في الإشراف على أعمال حكامه، كما يجعلون الصلة بينه وبين الحاكم صلة بين العبد وسيده، فالحاكم هو السيد المطلق يتصرف بالشعب كما يشاء، وكانت المملكة تعتبر ملكًا خاصًّا للملك تورث عنه كما تورث بقية أمواله، ويستبيحون من أجل ذلك أن تقوم الحرب بين دولة وأخرى من أجل المطالبة بحصة أميره في العرش أو للخلاف على ميراث الأصهار!.

أما العلاقة بين الأمم المتحاربة: فهي استباحة الغالب لكل ما في يد المغلوب وما في وطنه من مال وعرض وحرية وكرامة، وظل الأمر كذلك

حتى قامت الحضارة الإسلامية تعلن فيما تعلن من مبادئها أن الشعب هو صاحب الحق في الإشراف على حكامه، وأن هؤلاء ليسوا إلَّا أجراء يسهرون على مصالح الشعب وكرامته بأمانة ونزاهة، وفي هذا يقع لأول مرة في التاريخ أن يحاسب فرد من أفراد الشعب حاكمه عما يلبس، من أين جاء به، فلا يحكم عليه بالإعدام، ولا يقاد إلى السجن، ولا ينفى من الأرض، ولكن يقدم له الحاكم حسابه حتى يقتنع ويقتنع الناس! ولأول مرة في التاريخ يقول أحد أفراد الرعية لحاكمه الأكبر: السلام عليك أيها الأجير! فيعترف الحاكم بأنه أجير الشعب، عليه ما على الأجير من حق الخدمة بإخلاص، والنصح بأمانة. أعلنت الحضارة الإسلامية هذا فيما أعلنته وطبقته بعد ذلك، فما هي إلَّا نسمة الحرية والوعي تهب في الشعوب المجاورة للمجتمع الإسلامي فتتململ، ثم تتحرك، ثم تثور، ثم تتحرر.

وهذا ما وقع في أوربا، فلقد جاء الغربيون إلى بلاد الشام في الحروب الصليبية، ورأوا من قبل في ممالك الخلافة الأندلسية أن الشعوب تراقب حكامها، وأن الحكام لا تخضع لإشراف أحد غير شعبها، وقارن الملوك الغربيون بين تحرر ملوك العرب والمسلمين من سلطان أية طبقة إلَّا مجموع الشعب، وبين خضوعهم هم لسلطان روما وتخويفهم بالحرمان والطرد بين ساعة وأخرى إذا لم يقدموا خضوعهم لملك روما الديني! فثاروا بعد رجوعهم إلى بلادهم حتى تحرروا، ثم ثارت شعوبهم عليهم حتى تحررت. وكانت الثورة الفرنسية بعد ذلك فلم تعلن من المبادئ أكثر مما أعلنته حضارتنا قبل اثني عشر قرنًا!

وكان مما أعلنته حضارتنا في حروبها: احترام العهود، وصيانة العقائد،

وترك المعابد لأهلها، وضمان حريات الناس وكرامتهم، فأثارت في الشعوب المغلوبة لحكمها روح العزة والكرامة، ونبهت فيهم معاني الإنسانية الكريمة العزيزة.

وكان في التاريخ لأول مرة أن يشكو والد مغلوب الحاكم الغالب إلى رئيس الدولة الأعلى من أن ولد الحاكم قد ضرب ولده الصغير خفقتين بالسوط على رأسه من غير حق.. ويغضب رئيس الدولة الأعلى ويحاسب ولد الحاكم ويقتص منه، ويقرِّع الحاكم ويؤنبه ويقول له: متى تعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟! إن هذه روح جديدة تبعثها حضارتنا في الأفراد والشعوب، وقد كان هذا الوالد الذي شكا ضرب ولده، كان قبل حكمنا وحضارتنا يعذب ويضرب ويسلب ماله ويضطهد في عقيدته فلا يثور، ولا يتألم ولا يحس بالعزة والكرامة، حتى إذا أشرقت عليه شمس حضارتنا رفع صوته ليقول لأمير المؤمنين: أنا عائذ بالله وبك من الظلم، وما كان الظلم الذي اشتكاه سفك دم ولا انتهاك عرض ولا سلب دين ولا اغتصاب أرض، وإنما كان ضربتين من ولد صغير لولده الصغير!

إن الغربيين اتصلوا بحضارتنا في القرون الوسطى عن طريق بلاد الشام، وعن طريق الأندلس، وكانوا قبل اتصالهم بنا لا يعرفون ثورة ملك على رئيس دين، ولا انتفاضة شعب على ملك، ولا يجدون أن من حقهم أن يحاسبوا حاكمًا أو ينصروا مظلومًا. وكانوا حين يختلف بعضهم مع بعض في العقيدة والمذهب يذبح بعضهم بعضًا كما يذبح الجزار غنمه! فلما اتصلوا بنا بدأت نهضتهم وثورتهم، ثم كان تحررهم، فهل ينكر بعد هذا أثر حضارتنا في تحير العالم وإنقاذ الشعوب؟.

وبعد، فهذه هي بعض الآثار الخالدة لحضارتنا في خمسة ميادين رئيسية هي أبرز مظاهر الحياة في الأمم والحضارات، ومن أجل ذلك كان لنا نحن أبناء هذه الحضارة دَين على الشعوب التي حررتها حضارتنا، يجب أن نسترده لا بالتفاخر الكاذب، ولا بالأماني والأباطيل، بل بمعرفتنا لقدر أنفسنا، وقيمة حضارتنا وسمو تراثنا، واستحقاقنا لأن نكون الأمة الوسط التي تشهد على الناس، وتقودهم إلى الخير والحق والكرامة ولعلنا فاعلون إن شاء الله»[١].

لَنْ يُعدَمَ الحقُّ أنصارًا من الكُبراء:

آراء المستشرقين في الحضارة الإسلامية:

١- شهادة المؤرخ الإنجليزي ويلز:

«كل دين لا يسير مع المدنية في كل أطوارها فاضرب به عرض الحائط، وإن الدين الحق الذي وجدته يسير مع المدنية أينما سارت هو الإسلام.. ومن أراد الدليل فليقرأ القرآن وما فيه من نظرات ومناهج علمية، وقوانين اجتماعية، فهو كتاب دين وعلم واجتماع وخلق وتاريخ، وإذا طُلبَ مني أن أحدّد معنى الإسلام فإني أحدده بهذه العبارة «الإسلام هو المدنية»»[٢].

٢- شهادة العلامة بريفولت:

«ما من ناحية من نواحي الازدهار الأوروبي إلَّا يمكن إرجاع أصلها

(١) «من روائع حضارتنا» (ص٤٠ - ٤٦).
(٢) عبد المنعم النمر: «الإسلام والمبادئ المستوردة» (ص٨٤).

إلى مؤثِّرات الثقافة الإسلامية بصورة قطعية، وإنَّ ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدَّموه لنا من كشوف مدهشة ونظريات مبتكرة، بل إنه مدين بوجوده ذاته.. ولم يكن بيكون إلَّا رسولًا من رسل العلم والمنهج الإسلامي إلى أوروبا المسيحية، وهو لم يَملَّ قطَّ من التصريح بأن اللغة العربية وعلوم العرب هما الطريق الوحيد لمعرفة الحق [1]، ولقد انبعثت الحضارة الإسلامية انبعاثًا طبيعيًّا من القرآن، وتميزت عن الحضارات البشرية المختلفة بطابع العدل والأخلاق والتوحيد، كما اتسمت بالسماحة والإنسانية والأخوَّة العالمية».

□ وقال أيضًا: «لم تكن العلوم الطبيعية -التي يرجع فيها الفضل إلى العرب- هي التي **أعادت** أوروبا إلى الحياة، ولكن الحضارة الإسلامية قد أثرت في حياة أوروبا **تأثيرات** كبيرة ومتنوعة منذ أرسلت أشعتها الأولى إلى أوروبا»[2].

٣- شهادة المفكر ليوبولد فايس:

«لسنا نبالغ إذا قلنا: إنَّ العصر العلمي الحديث الذي نعيش فيه، لم يُدشَّن في مدن أوروبا، ولكن في المراكز الإسلامية في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة»[3].

«نحن مدينون للمسلمين بكل محامد حضارتنا في العلم والفن

---

(١) أنور الجندي: «مقدمات العلوم والمناهج» (٤/ ٧١٠) نقلًا عن رويلت بريفولت: «بناء الإنسانية» (ص٢٠٢).

(٢) أنور الجندي: «أخطر ما تواصى به المسلمون عبر الأجيال» (ص١٦).

(٣) محمد أسد: «الإسلام على مفترق الطرق» (ص٤٠).

والصناعة، وحَسْبُ المسلمين أنهم كانوا مثالًا للكمال البشري، بينما كنَّا مثالًا للهمجية»[١].

٤- شهادة الكاتب الفرنسي أناتول فرانس:

«أسوأ يوم في التاريخ هو يوم معركة «بواتييه» عندما تراجع العلم والفن والحضارة العربية أمام بربرية الفرنجة، ألا ليت شارل مارتل قُطِعَت يدُه ولم ينتصر على القائد الإسلامي عبد الرحمن الغافقي».

«حين نتذكر كم كان العرب بدائيين في جاهليتهم يصبح مدى التقدم الثقافي الذي أحرزوه خلال مئتي سنة، وعمق ذلك التقدم -أمرًا يدعو إلى الذهول حقًّا، ذلك بأن علينا أن نتذكر أيضًا أن النصرانية احتاجت إلى نحوِ من ألفٍ وخمسمئة سنة لكي تُنشِئ ما يمكن أن يُدعَى حضارة مسيحية، وفي الإسلام لم يُولِّ كلٌّ من العلم والدين ظهره للآخر، بل كان الدين باعثًا على العلم، وإن الحضارة الغربية مدينة للحضارة الإسلامية بشيء كثير إلى درجة نعجز معها عن فهم الأولى إذا لم تتم معرفة الثانية»[٢].

٥- شهادة المسيو سيديو:

«لم يشهد المجتمع الإسلامي ما شهدته أوروبا من تحجُّر العقل، وشلِّ التفكير، وجدب الرُّوح، ومحاربة العلم والعلماء، ويذكر التاريخ أن اثنين وثلاثين ألف عالم قد أُحرِقوا أحياءً! ولا جدال في أن تاريخ الإسلام لم يعرف هذا الاضطهاد الشنيع لحرية الفكر، بل كان المسلمون منفردين

---

(١) عبد المنعم النمر: «الإسلام والمبادئ المستوردة» (ص٨٤).

(٢) روم لاندو: «الإسلام والعرب» (ص٩، ٢٤٦).

بالعلم في تلك العصور المظلمة، ولم يحدث أن انفرد دينٌ بالسلطة، ومنح مخالفيه في العقيدة كل أسباب الحرية كما فعل الإسلام»[١].

«لقد دِيسَت بالأقدام تلك المدنيةُ العظيمة في الأندلس! ولماذا؟ لأنها نشأت من أصول رفيعة، ومن طباع شريفة، نعم من رجال الإسلام. إن المدنية الإسلامية لم تتنكر يومًا للحياة»[٢].

٦- شهادة العلامة جورج سارتون:

«المسلمون عباقرة الشرق، لهم مأثرة عظمى على الإنسانية، تتمثل في أنهم تولَّوا كتابة أعظم الدراسات قيمة، وأكثرها أصالةً وعمقًا، مستخدمين اللغة العربية التي كانت بلا مراءٍ لغة العلم للجنس البشري»[٣].

٧- شهادة الدكتورة لويجي رينالدي:

«لما شعرنا بالحاجة إلى دفع الجهل الذي كان يثقل كاهلنا، تقدمنا إلى العرب ومددنا إليهم أيدينا؛ لأنهم كانوا الأساتذة الوحيدين في العالم»[٤].

٨- شهادة البروفسور غريسيب، مدير جامعة برلين:

«أيها المسلمون ما دام كتابكم المقدس عنوان نهضتكم موجودًا بينكم، وتعاليم نبيكم محفوظة عندكم، فارجعوا إلى الماضي لتؤسسوا

---

(١) حسان شمسي باشا: «هكذا كانوا يوم كنا» (ص٨٣).

(٢) محمد الغزالي: «ظلام من الغرب» (ص١٤٠).

(٣) حسان شمسي باشا: «هكذا كانوا يوم كنا» (ص٨)، وانظر: أحمد علي الملا: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية (ص١١٠، ١١١).

(٤) أنور الجندي: «مقدمات العلوم والمناهج» (٧/ ١٤١).

المستقبل»[١].

٩- شهادة آلبر شامدرور:

«لقد عاش العربي في أرض قاحلة، تلهب الشمس رمالها، فاتخذ النجوم دليلًا، والعلم مرشدًا واستطاع أن يجمع علم العالم في أقل من مئة عام، كما استطاع أن يفتح نصف العالم، في أقل من مئة عام أيضًا، وترك لنا في حمراء غرناطة، آثار علمه، وآثار مجده وفخاره»[٢].

١٠- شهادة المستشرق الفرنسي جاك رسلر:

«في غضون خمسمئة ما بين ٧٠٠ و ١٢٠٠م ساد الإسلام على العالم بقوة حضارته وعلمه.. فكان المقاتل العربي في القرن الحادي عشر مزودًا بالقوس والقذافة قبل الغربيين بمئتي عام وكانت القذافة تستعمل لغرضين فهي لم تكن تسمح بإطلاق عدة أسهم فحسب، بل كانت قادرة على قذفها لمسافة بعيدة، ومنها ما كان يطلق من على منصات إطلاق ثقيلة، ثم كان العرب أول من صنع البارود بعد ذلك بنصف قرن»[٣].

١١- شهادة رينان:

«ما يدرينا أن يعود العقل الإسلامي الوَلود إلى إبداع المدنية من جديد؟ إن فترات الازدهار والانحدار مرَّت على جميع الأمم بما فيها أوروبا المتعجرفة»[٤].

---

(١) حسان شمسي باشا: «هكذا كانوا يوم كنا» (ص٩).

(٢) استيفن هو كينج: «مبادئ السياسة العالمية» (ص٢٥)، نقلًا عن حمراء غرناطة لآلبر شامدرور.

(٣) جاك رسلر: «كتاب الحضارة العربية».

(٤) أنور الجندي: «مقدمات العلوم والمناهج» (٨/ ١٧٣).

١٢- شهادة غوستاف لوبون:

«إنَّ حضارة العرب المسلمين قد أدخلت الأمم الأوروبية الوحشية في عالم الإنسانية، فلقد كان العرب أساتذتنا.. وإن جامعات الغرب لم تعرف لها موردًا علميًّا سوى مؤلفات العرب، فهم الذين مدّنوا أوروبا مادةً وعقلًا وأخلاقًا، والتاريخ لا يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه.. إن أوروبا مَدينة للعرب بحضارتها.. وإن العرب هم أول من علَّم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين.. فهم الذين علَّموا الشعوب النصرانية، وإن شئت فقل: حاولوا أن يعلموها التسامح الذي هو أثمن صفات الإنسان.. ولقد كانت أخلاق المسلمين في أدوار الإسلام الأولى أرقى كثيرًا من أخلاق أمم الأرض قاطبةً..»[١].

١٣- شهادة جلين ليونارد:

«يجب أن تكون حالة أوروبا مع الإسلام بعيدة من كل هذه الاعتبارات الثقيلة، وأن تكون حالة شكرٍ أبديٍّ بدلًا من نكران الجميل الممقوت والازدراء المهين، فإنَّ أوروبا لم تعترف إلى يومنا هذا بإخلاص طوية وقلب سليم، بالدَّيْن العظيم المدينة به للتربية الإسلامية والمدنية العربية، فقد اعترفت به بفتور وعدم اكتراث عندما كان أهلها غارقين في بحار الهمجية والجهل في العصور المظلمة فقط. ولقد وصلت المدنية الإسلامية عند العرب إلى أعلى مستوى من عظمة العمران والعلم، فأحيت المجتمع الأوروبي وحفظته من الانحطاط، ولم نعترف -ونحن نرى أنفسنا في أعلى قمة من التهذيب والمدنية- بأنه لولا التهذيب

---

(١) انظر: غوستاف لوبون: «حضارة العرب» (ص٢٦، ٢٧٦، ٤٣٠، ٥٦٦).

الإسلامي، ومدنية العرب وعلمهم وعظمتهم في مسائل المدنية، وحُسن نظام مدارسهم، لكانت أوروبا إلى اليوم غارقة في ظلمات الجهل»[(١)].

١٤- شهادة كارادي فو:

«إن العرب ارتفعوا بالحياة العقلية والدراسة العلمية إلى المقام الأسمى في الوقت الذي كان العالم المسيحي يناضل نضال المستميت للانعتاق «للتحرُّر» من أحابيل البربرية وأغلالها، ووصلوا إلى قمة نشاطهم «الذي استمر حتى القرن الخامس عشر» في القرنين التاسع والعاشر. ومن القرن الثاني عشر فصاعدًا، كانت مراكش والشرق الأوسط محطَّ أنظار كل غربي يميل إلى العلم ويتذوقه، وفي هذه الفترة شرع أبناء أوروبا يترجمون آثار العرب، كما كان العرب قد ترجموا آثار الإغريق»[(٢)].

١٥- شهادة زيغريد هونكه:

«إن هذه القفزة السريعة المدهشة في سلم الحضارة التي قفزها أبناء الصحراء، والتي بدأت من بلا شيء لهي جديرة بالاعتبار في تاريخ الفكر الإنساني، وإن انتصاراتهم العلمية المتلاحقة التي جعلت منهم سادة للشعوب المتحضرة لَفَريدة من نوعها، لدرجة تجعلها أعظم من أن تُقارَن بغيرها، وتدعونا أن نقف متأملين: كيف حدث هذا؟ إنه الإسلام الذي جعل من القبائل المتفكّكة شعبًا عظيمًا، آخت بينه العقيدة، وبهذا الروح

---

(١) محمد كرد علي: «الإسلام والحضارة العربية القاهرة ١٩٦٨م» (ص٨٢).

(٢) كارداي فو: الفلك والرياضيات بحث منشور بكتاب «تراث الإسلام» بإشراف «أرنولد» (ص٥٦٤).

القوي الفتي شقَّ العربُ طريقهم بعزيمة قوية تحت قيادة حكيمة وضع أساسها الرسول بنفسه!! أوَ ليس في هذا الإيمان تفسير لذلك البعث الجديد؟! والواقع أن «روجر بيكون» أو «جاليليو» أو «دافنشي» ليسوا هم الذين أسسوا البحث العلمي.. إنما السبَّاقون في هذا المضمار كانوا من العرب الذين لجئوا في بحثهم إلى العقل والملاحظة والتحقيق والبحث المستقيم، لقد قدَّم المسلمون أثمن هدية وهي طريقة البحث العلمي الصحيح التي مهَّدت أمام الغرب طريقه لمعرفة أسرار الطبيعة وتسلطه عليها اليوم، وإنَّ كل مستشفى، وكل مركز علمي في أيامنا هذه إنما هي في حقيقة الأمر نُصب تذكاري للعبقرية العربية.

وقد بقي الطب الغربي قرونًا عديدةً نسخة ممسوخة عن الطب العربي، وعلى الرغم من إحراق كتب ابن سينا في مدينة بازل بحركة مسيحية عدائية، فإن كتب التراث العربي لم تختفِ من رفوف المكتبات وجيوب الأطباء، بل ظلَّت محفوظة يسرق منها السارقون ما أحبُّوا أن يسرقوا»[1].

□ وقالت أيضًا: «حول أعمدة المساجد أُتيحت للطلاب دائمًا فرصة الاستماع إلى الأساتذة الزائرين من كل أنحاء العالم العربي المترامي الأطراف.. سواءً أكان هؤلاء العلماء في طريقهم إلى الحج أو مسافرين خصِّيصًا لهذا الغرض، يجوبون أنحاء العالم الإسلامي من سواحل بحر قزوين إلى سواحل الأطلسي ومنهم المؤرخون والجغرافيون، ومنهم علماء الحيوان والنبات والباحثون في تراث الأدب القديم لقد قدَّم العرب

---

(١) زيغريد هونكه: «شمس العرب تسطع على الغرب» (ص١٤٨، ٢٦٩، ٣١٥، ٣٥٤).

بجامعاتهم التي بدأت تزدهر منذ القرن التاسع، والتي جذبت إليها منذ عهد البابا سلفستر الثاني عددًا من الغربيين من جانبيْ جبال البرانس، ظل يتزايد حتى صار تيَّارًا فكريًّا دائمًا، فقدَّم العرب بها للغرب نموذجًا حيًّا لإعداد المتعلِّمين لمهن الحياة العامة وللبحث العلمي.

لقد قدَّمت تلك الجامعات -بدرجاتها العلمية، وتقسيمها إلى كليات، واهتمامها بطرق التدريس- للغرب أروع الأمثال، ولم تقدم هذا المظهر فقط، بل وفرت له كذلك اللباب: مادة الدراسة»[(١)].

١٦- شهادة بلسنر:

«لا يكاد يوجد شيء من جهود المسلمين في ميدان العلوم لم يتأثر به الغرب بطريق أو بآخر».

«لم تكن علوم المسلمين بطبيعة الحال العامل الوحيد الذي أدى إلى إحياء العلم في الغرب، فتقاليد العلوم القديمة لم تتلاش تمامًا وسط الفوضى التي عمت خلال عصر غزوات البرابرة لأوروبا، ومع ذلك فمن الصحيح أن علماء المسلمين أعطوا العلم الأوروبي قوة دفع جديدة، وأهم من ذلك أن هذا العلم الغربي قد اكتسب مادة أدَّت إلى إثرائه بدرجة لا نظير لها بفضل الترجمات العربية عن الإغريق، وكذلك بفضل الإنتاج العلمي المستقل للمسلمين أنفسهم..»[(٢)].

---

(١) المصدر السابق «والأفضل في تسميته كما في أصله الألماني» «شمس الله تسطع على الغرب» (ص٣٦٩- ٣٧٤، ٣٩٣- ٣٩٨).

(٢) بلسنر: العلوم الطبيعية والطب دراسة منشورة بكتاب «تراث الإسلام» إشراف «شاخت» و«بوزورث» (ص٧٩، ٨١).

١٧- شهادة يبدي تومبسون:

«إن انتعاش العلم في العالم الغربي نشأ بسبب تأثر شعوب غربي أوروبا بالمعرفة العلمية العربية وبسبب الترجمة السريعة لمؤلفات المسلمين في حقل العلوم ونقلها من العربية إلى اللاتينية لغة التعليم الدولية آنذاك، ويقول في مكان آخر: إن ولادة العلم في الغرب ربما كانت أمجد قسم وأعظم إنجاز في تاريخ المكتبات الإسلامية»(١).

١٨- شهادة أوسلر:

«إن ابن سينا مكَّن علماء الغرب من الشروع في الثورة العلمية، التي بدأت فعلًا في القرن الثالث عشر وبلغت مرحلتها الأساسية في القرن السابع عشر»(٢).

١٩- شهادة جوان فرينيه:

«وإذا نحن تحرَّينا الدقة نجد أن أصول التطور العلمي للرياضيات عند المسلمين تبدأ مع القرآن الكريم، وذلك فيما ورد في القرآن من الأحكام المعقَّدة في تقسيم الميراث، ويُعَدُّ الخوارزمي أول رياضي مسلم، ونحن مدينون له بمحاولة وضع تنظيم منهجي باللغة العربية لكل المعارف العلمية والتقويم، كما ندين له باللفظ الإسباني «غوارزمي» الذي يعني الترقيم -أي: الأعداد ومنازلها والصفر-، وكان الجبر هو الميدان

---

(١) Yhompsonj J/W/The Medioval Library N.Y. Hafner Pibllishing Company ١٩٦٧ P٢٦٣.

(٢) شوقي أبو خليل: «دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوروبية» (ص١٢٣).

الثاني الذي عمل فيه الخوارزمي، وهو فرع من الرياضيات لم يكن حتى ذلك الوقت موضوعًا لأية دراسة منهجية جادة»[(١)].

٢٠- شهادة براند تراندجون:

«إن قرطبة التي فاقت كل حواضر أوروبا مدنيةً أثناء القرن العاشر كانت في الحقيقة محطَّ إعجاب العالم ودهشته، كمدينة فينسيا في أعين دول البلقان. وكان السياح القادمون من الشمال يسمعون بما هو أشبه بالخشوع والرهبة عن تلك المدينة التي تحوي سبعين مكتبة، وتسعمئة حمام عمومي؛ فإن أدركت الحاجة حكام ليون أو النافار أو برشلونة إلى جراحٍ أو مهندس أو معماري أو خائط ثياب أو موسيقي فلا يتجهون بمطالبهم إلَّا إلى قرطبة»[(٢)].

٢١- شهادة دوبير:

«ولما آلت الخلافة إلى المأمون سنة ٨١٣م صارت بغداد العاصمة العلمية العظمى في الأرض؛ فجمع الخليفة إليها كتبًا لا تحصى، وقرَّب إليه العلماء، وبالَغ في الحفاوة بهم، وقد كانت جامعات المسلمين مفتوحة للطلبة الأوروبيين الذين نزحوا إليها من بلادهم لطلب العلم، وكان ملوك أوروبا وأمراؤها يَغْدون على بلاد المسلمين يُعالَجوا فيها»[(٣)].

---

(١) جوان فرينيه: الرضيات والفلك والبصريات دراسة منشورة كتاب «تراث الإسلام» إشراف «شاخت» و«بوزورث» القسم الثالث (ص١٦٨).

(٢) براند تراند جون: إسبانيا والرتغال دراسة منشورة بكتاب تراث الإسلام بإشراف «أرنولد» (ص٢٧).

(٣) دوبير: «المنازعة بين العلم».

٢٢- شهادة نيكلسون:

«وما المكتَشَفات اليوم لَتُحسَب شيئًا مذكورًا إزاء ما نحن مدينون للرُّوَّاد العرب الذين كانوا مشعلًا وضَّاءً في القرون الوسطى ولا سيما في أوروبا»(١).

٢٣- شهادة وايدمان:

«إن العرب أخذوا بعض النظريات عن اليونان وفهموها جيدًا، وطبَّقوها على حالات كثيرة ومختلفة، ثم أنشؤوا من ذلك نظريات جديد وبحوث مبتكرة، فهم بذلك قد أسدوا إلى العلم خدماتٍ لا تقلُّ عن الخدمات التي أتت من مجهودات نبوتن، وفراداي، ورُنتجن»(٢).

٢٤- شهادة كمستون:

«إنَّه لو لم يكن للعرب غير هذا الفضل في الإنقاذ، لكفاهم خدمة وفخرًا، لقد رفع العرب شأن الطب ولهم الفضل في جعل الجراحة قسمًا منفصلًا عنه، وفي إنشاء المستشفيات والتفنن فيها، وفي الترخيص الشرعي لممارسة الطب»(٣).

٢٥- الباحث الألماني الدكتور بير بورمان:

«إن إنجازات المسلمين في العالم واضحة جليَّة في كل شؤون العلوم والثقافة، بل إن إنجازاتهم في مجال الطب لا يستطيع أحد إنكارها، وهذا هو ما دفعني إلى تأليف كتاب بعنوان «الطب الإسلامي في القرون الوسطى».

---

(١) قدري طوقان: «علماء العرب وما قدموه للحضارة» (ص٦).

(٢) المصدر السابق (ص١٠).

(٣) قدري طوقان: «علماء العرب وما قدموه للحضارة» (ص١٢).

وقال: «دفعني لتأليف هذا الكتاب أنني كمسيحي ألماني أدين بالفضل في جزء من ثقافتي للثقافة الإسلامية، وهذا ما أحاول توضيحه وتأكيده رغم محاولات البعض طمس الدور المهم الذي لعبه المسلمون في أوروبا والعالم، ولقد عكفت أنا وزميلتي الباحثة «إيميلي سافاج سميث» على رصد إنجازات المسلمين في مجال الطب في القرون الوسطى»، وأضاف: «إن المستشفيات الإسلامية كانت عبارة عن أوقاف إسلامية، وكانت تقدم الخدمة الطبية لكل الناس بصرف النظر عن ديانتهم، فهناك اليهود والمسيحيون والصابئة والزرادشتيون وغيرهم، فكان المستشفى الإسلامي يعالج الجميع، وهذا يعني تسامحًا إسلاميًّا كبيرًا مع غير المسلمين».. وعن أهم الأمراض التي أسهم فيها المسلمون بعلم جديد. قال: «الكثير من الأمراض، إلَّا أن أخطرها هو مرض المالنخوليا»[1].

٢٦- شهادة ي. هل:

«من تراث العرب علم حساب المثلثات ونظريات الزوايا والتَّماس، ولم يكن في استطاعة «بيورباخ» و«رجيوناس» و«كوبرنيق» أن يصلوا إلى ما وصلوا إليه دون أساس من علوم العرب وما أسهموا به في ميدان الرياضيات؛ ذلك أن العرب أحبُّوا تدعيم نظرياتهم بنماذج عملية، وساعدهم ذلك على وصول درجة الكمال في علم الجوادسيا «مقياس سطح الأرض» الخاص بقياس ارتفاع الجبال واتساع الوديان، أو حساب المسافة بين نقطتين تقعان على سطح منبسط، واستخدم العرب هذا العلم أيضًا في تصميم مجاري المياه»[2].

---

(١) حوار له بجريدة الأخبار المصرية بتاريخ ١٣/ ٤/ ٢٠٠٧م.

(٢) ي. هل: «الحضارة العربية» (ص١٠٨)، تعريب الدكتور إبراهيم العدوي.

٢٧- شهادة جوستاف!. فون جرونيباوم:

«كان الرازي يتناول الطب على صورة علمية حقًّا، حتى لقد كتب رسالة موضوعها «أن مهرة الأطباء أنفسهم لا يستطيعون شفاء جميع الأمراض»[١].

٢٨- شهادة مايرهوف:

«كان تفوق المسلمين العلمي والمادي في الشطر الأعظم من العصر الوسيط معتَرَفًا به غير منكور إلى حدٍّ بعيد، ثم يتناقص ذلك التفوق قرب نهاية ذلك العصر بدخول الشرق في دور الركود الذهني والاضمحلال الاقتصادي، على حين تنهض أوروبا وتتماسك وقد نبهها إلى حد كبير اطِّراد إلمامها بالعلوم الإسلامية»[٢].

٢٩- شهادة تشرش:

«يعود الفضل للعرب إذ إنهم كانوا أول من أوجد حوانيت الصيدلة لبيع الأقراباذينات[٣]، وغاب على الظن أنه لولا العرب لما وصل الطب الأوروبي إلى ما هو عليه الآن»[٤].

٣٠- شهادة تومبسون:

«إنَّ انتعاش العلم في العالم الغربي نشأ بسبب تأثُّر شعوب غربي أوروبا

---

(١) جوستاف إ. فون جرونيباوم: «حضارة الإسلام» (ص٤٢٤)، ترجمة عبد العزيز توفيق.

(٢) انظر: «تراث الإسلام» (ص٣٥٣).

(٣) الأقراباذين: فارسية تعني: فن تركيب الدواء.

(٤) محمد الصادق عفيفي: «تطور الفكر العلمي عند المسلمين» (ص١٨٨).

بالمعرفة العلمية العربية، وبسبب الترجمة السريعة لمؤلَّفات المسلمين في حقل العلوم، ونقلها من العربية إلى اللاتينية لغة التعليم الدولية آنذاك.. إنَّ ولادة العلم في الغرب، ربما كان أمجد قسم، وأعظم إنجاز في تاريخ المكتبات الإسلامية»[(١)] .

٣١- شهادة ماكس فانتيجو:

«كل الشواهد تؤكد أن العلم الغربي مدين بوجوده إلى الحضارة العربية الإسلامية، وأن المنهج العلمي الحديث القائم على البحث والملاحظة والتجربة، والذي أخذ به علماء أوروبا، إنما كان نتاج اتصال العلماء الأوروبيين بالعالم الإسلامي عن طريق دولة العرب المسلمين في الأندلس»[(٢)] .

٣٢- شهادة الزعيم الهندي «جواهر لال نهرو»:

«إنهم -الغرب- آباء العلم الحديث وإنَّ بغداد تفوقت على كل العواصم الأوروبية فيما عدا قرطبة عاصمة إسبانيا العربية «الأندلس»، وإنه كان لا بُدَّ من وجود ابن الهيثم والحسن والكِندي وابن سينا والخوارزمي والبيروني لكي يظهر عند الغرب «جاليليو، وكبلر، وكوبرنيق، ونيوتن»[(٣)] .

---

(١) Thompson The mediaeval n.y. hafner publishing combany page ٢٦٣.

(٢) ماكس فانتيجو: في كلمة له أمام مؤتمر الحضارة العربية الإسلامية المعقود في جامعة برنستون في واشنطن عام ١٩٥٣م. انظر شوقي أبو خليل، هاني المبارك: «دور الحضارة الإسلامية في النهضة الأوروبية» (ص١٢٥).

(٣) جواهر لال نهرو: «لمحات من تاريخ العالم».

٣٣- شهادة الأمير البريطاني تشارلز:

«إن الإسلام يمكن أن يعلمنا طريقة للتفاهم والعيش في العلم، الأمر الذي فقدته المسيحية، فالإسلام يرفض الفصل بين الإنسان والطبيعة، والدين والعلم، والعقل والمادة»[١].

٣٤- شهادة الموسوعة البريطانية:

«والحق أن كثيرًا من أسماء الأدوية وكثيرًا من مركباتها المعروفة حتى يومنا هذا، وفي الحقيقة المبنى العام للصيدلة الحديثة- فيما عدا التعديلات الكيماوية الحديثة بطبيعة الحال- قد بدأه العرب»[٢].

٣٥- شهادة البروفسور هوكينج:

«إن الشغف بالعلم والتعطش الدائم لارتياد مناهله، صفات امتاز بها العرب، وهي التي تمد عبقريتهم بالقوة المبدعة الخلاقة، يعشقون الحرية ويتطلعون دومًا إلى المثل العليا بدون تعصب ولا تزمت، ولسوف نرى عندما تزول اللفحة المحرقة التي أصابت العرب وخدَّرت نفوسهم، أن عناصر الثروة العلمية الكامنة والشجاعة الفكرية الخابية سوف تنطلق من عقالها، وتتحرر من أسرها ليعودوا سريعًا لاحتلال مكانتهم على الأرض»، ويضيف: «والدليل على قولي هو ما كان من انطلاق العرب في نهضتهم الأولى وما تركوا للأجيال من تراث علمي، وآثار خالدة، وهذا

---

(١) محاضرة «الإسلام والغرب» والتي ألقاها في مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية عام ١٩٩٣م.

(٢) «الموسوعة البريطانية» (١٨/ ٤٦) الطبعة الحادية عشرة.

ما يزمعون فعله في العصر الحاضر..»[١].

٣٦- شهادة الدكتور كمبل:

«إن أوروبا كانت من عصر شارلمان حتى تأسس مدرسة «سالرنو» الطبية «العرب هم الذين أسسوها»، قد انحدرت إلى أدنى دركات الانحطاط، وإن شعوبها لم تكن لتقارن بالهمج الأسطوريين الذين عاشوا في أدنى حدود المدنية، وأنها كانت كلها حتى الحروب الصليبية (١٠٩٦-١٢٧٢م) باستثناء إسبانيا وإيطاليا -وكانتا تحت النفوذ العربي الإسلامي- في حالة همجية تامة»[٢].

٣٧- شهادة أندرو ديكسون وايت:

«إن معاملة المجانين في العالم الإسلامي منذ عصر عمر وما بعده كانت أرحم بكثير من الوضع الذي سادت طول العالم المسيحي وعرضه مدة ثمانيةَ عشرَ قرنًا من الزمان، كان المجانين يُعتبَرون خلالها ممسوسين تقمصتهم الشياطين، ومن ثمَّةَ تعرَّضوا الأقصى ضروب التنكيل والوحشية».

□ ويقول أيضًا: «إن الراهب «جون هوارد» لاحظ في القرن الثامن عشر ما لاحظه غيره من الرُّهبان والرَّحالة الأوروبيين في ذلك العصر وقبل ذلك، أنَّ المسلمين قد وفَّروا كثيرًا من الوسائل الرحيمة للمجانين، لم يَرَ هؤلاء لها مثيلًا في أراضي أوروبا المسيحية، والحق أن المسلمين هم الذين نبهوا إلى ضرورة بذل الجهود التي بدأت في أوروبا ابتداء من القرن

---

(١) استيفن هركينج: «مبادئ السياسة العالمية» (ص٢٥).

(٢) D. Campbell: ARABIAN Medicine Nol ١/١٠٧. ١٠٨.

الثامن عشر لمعاملة المجانين معاملة رحيمة»[١].

٣٨- شهادة سميث:

«إن البيروني كان ألمع أهل زمانه في الرياضيات، وإن الغربيين مدينون له بمعلوماتهم عن الهند ومآثرهم في العلوم»[٢].

٣٩- شهادة سنجر:

«نستطيع أن نستبين بوضوح الحالة الراهنة في ذلك العصر بأن نستجمع الصورة الحقيقية من وثائق مختلفة، تدل على أن طالب العلم الأوروبي، المشغوف بالعلم، المتطلع إلى الاستزادة من المعرفة ذاك الذي كانت الدراسة في باريس أو بادوا أو أكسفورد لا ترضيه، إنما كان يذهب إلى طليطلة أو قرطبة»[٣].

٤٠- شهادة جون هرمان راندال:

«وسط هذا العالم الذي أخذت رقعته في الاتساع اتجه رجال القرون الوسطى إلى المعرفة العلمية التي وجدوها في مكاتب العرب وجامعاتهم الغنية، وحين أخذ الغرب يستيقظ في مطلع القرون الوسطى انتقل مركز الثقافة الإسلامية بنتيجة فعل المتعصبين من المصلحين المسلمين من الخلافة الشرقية إلى إسبانيا، وعن طريق إسبانيا جاءت أول معرفة

---

(١) انظر: A.D. White: A History of the Warfare of Science with Theology in Christendom Vol.١٢٣/١١.

(٢) قدري حافظ طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك (ص٣١١)، نقلًا عن سميث: «تاريخ الرياضيات» الجزء الأول.

(٣) Ch. Singer: Medieval Contribution to modern civilization p.١٢٤.

بمؤلفات أرسطو الكبيرة، ولكن المسلمين أنقذوا من العالم القديم شيئًا كان أرسطو بالرغم من عبقريته عاجزًا كل العجز عنه وهو العلم الرياضي والآلي»[١] اهـ[٢].

٤١- شهادة الدكتور لويس يونج:

□ قال الدكتور «لويس يونج» في مقدمة كتابه «العرب وأوروبا»: «نحن حينما نسلِّم اليوم أن آسيا وأفريقيا تتمثلان أوروبا قدوة لهما، يجب ألا ننسى الوجه الآخر للصورة في العصور الوسطى، عندما عكفت أوروبا على علوم العرب من طب وفلسفة وطبيعة، واستمر ذلك لفترة طويلة. حتى إذا كان القرن الثامن عشر قبست منهم نار الرومانطيقية. وفي القرن التاسع عشر سلبتهم أراضيهم، ثم بترولهم في القرن العشرين.

وعلى الرغم من سجل أوروبا الطافح بالتزمّت الفكري واللا تسامح الديني، على النقيض من المسلمين، فإنها ظلَّت ترفض الاعتراف بما للعرب من يدٍ طولى على حضارتها، وتتجاهل دورهم الحضاري وتقلِّل من شأنه.

لقد هَوَّل المؤرخون الأوربيون في وصفهم الفتوحات الإسلامية في أوروبا خلال العصور الوسطى ومدى تهديدها للدين المسيحي، بينما تغافلوا عن ظاهره انتكاس الحضارة في البلدان التي أُجلِي العرب عنها، وما أسبانيا والبرتغال وصقلية إلَّا أمثلة لذلك.

ففي أسبانيا يسود التعصُّب الديني وتهذيب الحيوانات «كمصارعة

---

(١) جون هرمان راندال: «تكوين العقل الحديث» (١/ ٣٣١).

(٢) «العلم وبناء الأمم» للدكتور راغب السرجاني (ص١٧٩- ١٩٠) مؤسسة اقرأ.

الثيران» كمشهد مألوف، وفي البرتغال أعلى نسبة للأميِّة في أوروبا، وفي صقلية عصابة المافيا السيئة السمعة.

□ما الذي تركته حضارة العرب والمسلمين في أوروبا؟

لقد تركت بصماتها على جميع المستويات.. وانتهاء بالعلوم حيث يستخدم ملَّاحو الفضاء اصطلاحات عربية مثل: السمت، وسمت الرأس. وهناك في خرائط القمر أكثر من موقع أُطلِق عليها أسماء لبعض العلماء العرب: كالزركلي والبتاني وأبي الفداء.

إن أشياء كثيرة لا يزال على الغرب أن يتعلمها من الحضارة الإسلامية، منها نظرة العرب المتسامحة وعدم تمييزهم فروق الدين والعِرق واللون» [١].

٤٢- موريس لومبار:

□يقول «موريس لومبار» في كتابه «الإسلام في فجر عظمته» عن تأثير الفتوحات الإسلامية على تحضُّر الغرب وانطلاقه نحو الحضارة: «لم يترافق الفتح بالتخريب مطلَقًا، فلم تُحرق المدن ولم تُنهبَ.. وبالنسبة للقسم الغربي فكان تجدُّدًا حقيقيًّا.

إننا نعتقد بالواقع أن الغرب استأنف التماس بالحضارات الشرقية، وعبرها بالحركات العالمية الكبرى للتجارة والثقافة، بفضل الفتح الإسلامي، وفي حين أن الغزوات البربريَّة الكبرى في القرنيْن الرابع

(١) «**العرب وأوروبا**» (ص٩- ١٠)، وانظر: «الحضارة الإسلامية وجهتها الله، **والحضارة الغربية** مركزها الإنسان» للواء أحمد عبد الوهاب (ص٢٤- ٢٥)- دار **الصحيفة- المركز** الإسلامي بمسجد العزيز بالله.

والخامس أدَّت إلى التقهقر الاقتصادي للغرب، فقد جلب قيام الإمبراطورية الإسلامية الجديدة لهذا الغرب نفسه تطورًا مُدْهِشًا.

وإذا كانت الغزوات الجرمانيَّة قد عجَّلت بانحطاط الغرب، فإن الفتوحات الإسلامية كانت حافزًا على انطلاق حضارته» [١].

٤٣- الكاتب الهندي *Mehta* :

□ يقول في كتابه «الحضارة الهندية والإسلام»: «بقيت حقيقة الإسلام في حجاب، وبقيت هباته وأياديه الجميلة مختفية عن الأنظار.

إن الإسلام قد حمل إلى الهند مشعلًا من نور قد انجلت به الظلمات في عصر مالت فيه المدنيات القديمة إلى الانحطاط والتدلي.. لقد كانت فتوح الإسلام في عالم الأفكار أوسع وأعظم منها في حقل السياسة.

٤٤- أبانيز:

□ قال «عبَّاس محمود العقَّاد» في معرض رده على صنف الجائرين الجاحدين المتعصبين [٢]: «وقد أصاب «أبانيز» حين قال: إنَّ عصر النَّهضة مَدِينٌ للحضارة الأندلسيَّة قبل الحضارة الإيطالية التي أعقبتها؛ لأن عصر النهضة لم يكن عصر تجديد للفنون الإغريقية القديمة، ولا مزيد على ذلك من عنده، ولكنَّه كان عصر تجديد في الحياة العلمية والمرافق الصناعيَّة والتجاريَّة، وفَهْمٍ مُسْتَحدثٍ للعقيدة وللعالَم، وللعلاقات بين الحاكمين والمحكومين، أو كان عصر معيشة جديدةٍ تناولت بالتبديل والتعديل طبقات الشعوب من العِلْيَةِ إلى السوَّاد، وذلك أولى أن يأتي من

---

(١) «الإسلام في فجر عظمته» لموريس لومبار (ص١٢).

(٢) في كتابه «أثر العرب في الحضارة الأوربية» للعقاد (ص١٢٢- ١٢٣).

القدوة الشعبية في جميع الشُّؤون العمليَّة بعد اتصال المعاشرة بين حضارة العرب -أي: المسلمين- وأبناء أوروبة الغربية عدَّة قرون.

وفي وسع الأرقام والألفاظ أن تُحْصِيَ لنا آثار العرب -أي: المسلمين- في بعض العلوم أو بعض الصناعات، ولكنَّ آثار العرب -أي: المسلمين- في الحضارة العامة لا تستقصيها الأرقام ولا الألفاظ، ولا هي موقوفة على استقصاء أرقام وألفاظ لأنَّ زعم الزاعم أنَّها قد مضت بغير أثر كبير يُناقض العقل البشري، كما يُناقض المشاهد والمحسُوس، وإسناد هذا الأثر إلى غيرها بلا مشاركة منها على الأقلَّ تعسُّفٌ لا يُؤْخَذُ به في سياق التاريخ.

وقد جاءت النهضة بعد عهد الحضارة الأندلسيَّة، وجاء الإصلاح الديني بعد النهْضَة، وجاءت الحرية السياسيَّة بعد الإصلاح، ولم ينكر أحدٌ من الأوروبيين أثر واحدة من هذه الحركات في الأخرى، فليس في وُسْعِ المتعصّبين منهم أن يقطعوا الصلة بين الحركة الأولى وما تلاها، مع هذا التلازم في الزمان والأسباب»[١] اهـ.

٤٥- العلامة «دريبر»:

□ ويقول العلامة «دريبر» في معرض الدفاع عن حضارة العرب -أي: المسلمين- وتَسْفيه الطريقة التي انتهجها زملاؤه من كُتَّاب أوروبا للتَّعْمية على أفضال المسلمين على الحضارة»[٢]: «ينبغي علي أن أنْعَى على

---

(١) «الحضارة الإسلامية» للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني (ص٦٥٢- ٦٥٣)- دار العلم.

(٢) نقلًا من كتاب «أثر العرب في الحضارة الأوربية» لجلال مظهر (ص١٧٠).

الطريقة الرتيبة التي تَحايل بها الأدب الأوروبيُّ ليُخْفِي عن الأنظار مآثر المسلمين العلميَّة علينا، أمَّا هذه المآثر فإنَّها على اليقين لَنْ تظلَّ كثيرًا بعد الآن مَخْفِيَّة ن الأنظار، إنَّ الجوْرَ المبنيِّ على الحقد الديني والغرور الوطني لا يمكن أَنْ يستمر إلى الأبَد» اهـ.

٤٦- سارتون:

□ ويقول «سارتون»[(١)]: «حقَّق المسلمون عباقرةُ الشَّرق أعْظَمَ المآثر في القرون الوسْطَى. فكُتِبَتْ أعظم المؤلّفات قِيمةً، وأكثرها أصالةً، وأغْزَرُها مادَّةً باللغة العربية، وكانت من منتصف القرن الثامن حتَّى نهاية القرن الحادي عشر لُغَة العلم الارتقائية للجنس البشري، حتَّى لقد كان ينبغي لأيِّ كائن إذا أراد أنْ يُلِمَّ بثقافة عصره، وبأحْدَث صورها أن يتعلم اللُّغة العربية. ولقد فعل ذلك كثيرون من غير المتكلمين بها»[(٢)] اهـ.

٤٧- هربرت فيشر[(٣)]:

□ يقول في كتابه «تاريخ أوروبا»: «لقد وصلنا الآن إلى نقطة يصبح عندها تاريخ أوروبا مُعَقَّدًا بسبب انتصارات الدين الإسلامي. ففي خلال القرون الستة الأولى من التقويم المسيحي ما كان يمكن لأي سياسي متميز في أوروبا أن يجد فرصة يتذكَّرُ بلاد العرب.

ولكن ما إن انقضت مئة عام حتى استطاع هؤلاء المتوحشون

---

(١) المصدر السابق.

(٢) «الحضارة الإسلامية» للشيخ عبد الرحمن جبنكة الميداني (ص٦٥٣).

(٣) مؤرخ وسياسي إنجليزي عمل بعد الحرب العالمية الأولى مندوبًا مفوّضًا لدى عصبة الأمم، ثم عميدًا لكلية new college في جامعة أوكسفورد.

المغمورون أن يصبحوا قوة عالمية عظمى.. وما بين أحد طرفيْ أوروبا حتى طرفها الآخر، وجدت الدول المسيحية نفسها تواجه التحدي من خلال حضارة شرقية جديدة تأسست على دين شرقي جديد. وخلال السنوات الأولى من التوسُّع العربي ما كان الفاتحون في حاجة إلى بذل مجهود كبير لكسب مهتدين إلى الإسلام. فعلى العكس من ذلك كان نجاحهم في الحكم متوقفًا إلى حد كبير على سياستهم الحكيمة في التسامح التي مارسوها تجاه اليهود والمسيحيين.

وهكذا انتشرت الحضارة الإسلامية، وكانت مراكزها السياسية في دمشق تحت حكم الأمويين، وفي بغداد تحت حكم العباسيين، وفي مصر تحت حكم الفاطميين، ولقد ساهم فيها السوريون والفرس والترك والبربر والأسبان ليقدموا جميعًا العصر الرائع للآداب والفنون الإسلامية، التي مكَّنت شعوب الإسلام من السيادة الفِكْرِيَّة للعالم طيلة أربعة قرون، بينما كان العقل الأوروبي غارقًا في قيعان الجهل والكسل»[(١)].

٤٨- برنارد لويس[(٢)]:

□ يقول «برنارد لويس» عن «الإسلام منذ الأمس حتى اليوم»: «إن المسيحية في إخلاصها إلى «إنسان - إله» إنما تلهم مثلًا عليًا دنيوية، بينما الإسلام في إخلاصه للقرآن إنما هو حضارة، إذ لا يُمكن فصل محتواه الديني عن تنظيم حياة البشر ذلك التنظيم الذي كان يُوضع موضع

(١) «تاريخ أوروبا» لفيشر (١/ ١٥٠- ١٥٤).

(٢) مستشرق إنجليزي. أستاذ دراسات الشرق الأدنى بجامعة برنستون وأستاذ زائر في جامعات كاليفورنيا وانديانا وعضو في عدد من الجمعيات العلمية العالمية.

التنفيذ فورًا بمجرَّد التنزيل.

وعلى المستوى الديني، يُعتبر الإسلام هو النهاية، ولكن من الوجهة التاريخيَّة، يُمكِنُ النظر إليه باعتباره بداية.

فقد كان تأسيسًا لدين جديد، وإمبراطورية جديدة، وحضارة جديدة.. ويُزعَم أحيانًا أن الدين الإسلامي قد فُرض بالقوَّة، إن هذا القول غير صحيح «لقد قامت حضارة أصيلة مستوحاة من العقيدة الإسلامية، ومتمتعة بحماية الدولة الإسلامية، ومُدَعَّمَة بثراء اللغة العربية.. حضارة تنمو وتتَّسع وتعيش طويلًا، وقد صنعها الرجال والنساء من مختلف الأعراق والديانات، وقد اصطبغ كل شيء فيها بالعروبة والمبادئ والقيم الإسلامية» اهـ.

٤٩- مارسيل بوازار[(١)]:

□ يقول «مارسيل بوازار» في كتابه «إنسانية الإسلام»: «في كلمة موجزة، فإن الإسلام حضارة أعطت مفهومًا خاصًّا للفرد، وحدَّدت بدقة مكانة في المجتمع وقدَّمت عددًا من الحقائق الأولية التي تحكم العلاقات بين الشعوب، كما أن هذه الحضارة لم تقدم فقط مساهمتها التاريخية الخاصة في الثقافة العالمية، ولكنها تؤكِّد أيضًا، ولها مبرِّراتها، على تقديم حلول للمشاكل الرئيسية للأفراد والمجتمعات والمشاكل الدولية التي تثير

---

(١) أستاذ جامعة سويسري عَمِل ممثلًا للجنة الدولية للصليب الأحمر في عدة دول إسلامية ومديرًا مشاركًا في برامج التثقيف الدبلوماسي بالمعهد الجامعي للدراسات الدولية العليا بجنيف ومندوبًا مفوَّضا أوروبيًّا بالجمعية الثقافية الدولية المعروفة باسم: «الإسلام والغرب».

الاضطرابات في العالم المعاصر.

إن الإسلام هو اتصال بين الله كإله وبين الإنسان كإنسان، فالإسلام تسليم يقيني نشط وعن طواعية إلى المشيئة الإلهية.

ومن الناحية التاريخية، فلقد أنجب هذا الدين «أُمَّةً»، وأوجد أُسلوبًا للحياة والعمل والتفكير. وفي كلمة واحدة: فقد أنجب حضارة.

ويدلُّ التاريخ على وجود حقيقة ثابتة مثالية في الحضارة الإسلامية، التي كانت منذ بدئها ولا تزال، متوجِّهة توجُّهًا كاملًا نحو الله. وهذه الظاهرة التي تغيب دائمًا عن الفكر والتحليل الغربي الحديث، تُعطي للإسلام طابعه المتميِّز بالدوام. وربما كان ديكارت الذي تُغذِّي فلسفته ومنهجيّته التفكير اليومي لأوروبا، قام بإحداث شق يعتبر واحدًا من أكثر الشقوق عمقًا بين الشرق والغرب، ففي اختياره للاتجاه العقلاني، فإنه حوَّل الثقافة الأوروبية من ثقافة تعتبر «الإنسان مركز الكون» ويبقى الله هو المرجع الرئيسي في الفكر الإسلامي، سواءً في علوم الدين أو القانون أو السياسة، ويضطلع الدين بصورة مباشرة بتنظيم الحياة الروحية والزمنية للفرد والجماعة [(١)].

□ ويقول أيضًا: «وتُظهر الرسالة القرآنية وتعاليم النبي أنها تقدُّمية بشكل جوهري. وتفسِّر هذه الخصائص المميزة، انتشار الإسلام السريع بصورة عجيبة خلال القرون الأولى من تاريخه.

ومن المفيد أن نُسجِّل إلى أيّ مدى يؤثِّر مفهوم معين للعالم والإيمان بمصير عالمي للإنسانية، في طبع السلوك اليومي لملايين الأنفس من

---

(١) «إنسانية الإسلام» لبوازار (ص٢٧ – ٣٨).

البشر. ولا يُمكن لأي طريقة مُثلى «أيديلوجية» معاصرة أن تدَّعى منافسة الإسلام في هذا الصدد» [١].

□ وقال: «لقد كان هذا الدين حافزًا على تشكيل كيان متميّز لم تستطع تقلُّبات الزمن والاحتكاك بالحضارات المختلفة أن تفُتَّ في عضده على مرِّ العصور. إن الشعور المتيقِّظ بالانتماء إلى كيان متميِّز، والوعي النشيط بامتلاك الحقيقة قد خلق حضارة خاصة بالمسلمين، فرضت تعريفًا خاصًا للفرد والدولة والعالم».

٥٠- المؤرخ الأمريكي درايبر:

□ يقول المؤرخ الأمريكي «درايبر» في كتابه «النمو الثقافي في أوروبا»: «ما إن رسخت أقدام العرب في أسبانيا حتى شرعوا في عملهم الفريد الوضَّاء. وأصبح خلفاء قرطبة أكبر حماة للعلوم. وأقاموا الدليل على سموِّ ذوقٍ يتناقض بصورة صارخة مع بدائية الأمراء الأوربيين. وتحت إدارة هؤلاء الخلفاء بلغت قرطبة أوج ازدهارها. فبعد غروب الشمس، يُمكِنُ للمرء بها أن يقطع عشرة أميال في شوارع مستقيمة مضاءة بالفوانيس. وبعد سبعة قرون من ذلك لم تكن لندن عرفت بعد الإضاءة العمومية، وكانت شوارع قرطبة مُبَلَّطة بطريقة جيدة. وبعد أربعة قرون من ذلك لم يكن الباريسي يستطيع أن يخطو عتبة بيته دون أن يغوص في الوحل إلى كعبه. إن العرب لم يحملوا معهم إلى أسبانيا: الأحقاد الطائفية أو الدينية، أو محاكم التفتيش، وإنما حملوا معهم أَنْفس شيئيْن في العالم، هما أصل عظمة الأمم: السماحة والفلاحة» [٢].

---

(١) المصدر السابق (ص٦٢- ٧٢) مختصرًا.

(٢) «الحضارة الإسلامية وجهتها الله والحضارة الغربية مركزها الإنسان» (ص٩٦-٩٧)

=

٥١- مرة أخرى مع الأمير تشارلز وليّ عهد بريطانيا:

في عام ١٩٩٣م ألقى الأمير تشارلز وليٍّ عهد بريطانيا محاضرة في افتتاح مركز الدراسات الإسلامية في أوكسفورد جاء فيها: «إن العالم الإسلامي في العصور الوسطى، من آسيا الصغرى إلى شواطئ الأطلسي، كان عالمًا ازدهر فيه البَّحاثة المختصون ورجال العلم. ولكن بالنظر إلى أننا نميل إلى اعتبار الإسلام عدوًا للغرب ونظام عقيدة وثقافة ومجتمعًا غريبًا، قد جنحنا إلى تجاهله ومحو أهميته بالنسبة إلى تاريخنا. فقد قللنا مثلًا من أهمية ٨٠٠ عام من المجتمع والثقافة الإسلامية في أسبانيا بين القرنين الثامن والخامس عشر.

لقد تم الاعتراف منذ عهد طويل بمساهمة أسبانيا في ظل الحكم الإسلامي، في المحافظة على العلوم والمعارف الكلاسيكية خلال عصور الظلام، وفي وضع اللبنات الأولى للنهضة الأوروبية، لقد شجع الإسلام البحث والتنقيب وحافظ عليهما، وثمة قول مأثور جاء فيه: إن حبر العالم أقدس من دم الشهيد، لقد كانت قرطبة في القرن العاشر أكثر المدن تحضرًا في أوروبا، فنحن نعرف وجود مكتبات عمومية في أسبانيا، في الوقت الذي كان الملك الفرد يرتكب أخطاء في فنون الطبخ في هذه البلاد ويقال: أن مكتبة حاكم قرطبة كانت تضم ٤٠٠٠٠٠ مجلد، أي ما يزيد على عدد الكتب في جميع المكتبات في بقية أوروبا، إن كثيرًا من المزايا التي تفخر بها أوروبا العصرية جاءت أصلًا من أسبانيا أثناء الحكم الإسلامي، فالدبلوماسية، وحرية التجارة، والحدود المفتوحة، وأساليب البحث

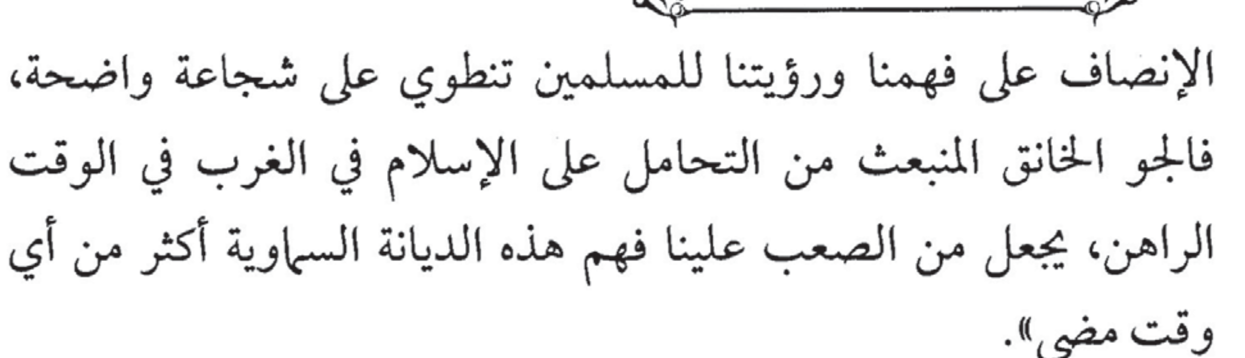
للواء أحمد عبد الوهاب.

الأكاديمي، وعلم الأنثروبولوجيا، وآداب السلوك والموضة، والطب البديل والمستشفيات جاءت كلها من تلك المدينة العظيمة، وقد كان الإسلام في العصور الوسطى دينًا يتسم بقدر ملفت للنظر من التسامح بالنسبة إلى تلك الحقبة، وكان بذلك قدوة لم تحتذ بها - للأسف- دول كثيرة في الغرب.

إن الإسلام جزء من ماضينا وحاضرنا في جميع مجالات البحث الإنساني، وقد ساهم في إنشاء أوروبا العصرية، إنه جزء من تراثنا وليس منفصلًا عنه.

وعلاوة على ذلك، فإن الإسلام يمكن أن يعلِّمَنا طريقة للتفاهم والعيش في العالم، الأمر الذي فقدته الديانة المسيحية مما أدى إلى إفقارها، ويكمن في جوهر الإسلام محافظته على نظرة متكاملة إلى الكون، فالإسلام يرفض الفصل بين الإنسان والطبيعة، والدين والعلم، والعقل والمادة.

□ وبعد نحو ثلاث سنوات -في ديسمبر ١٩٩٦- ألقى الأمير حديثًا آخر في «ديلتون بارك»، أمام حشد من الأكاديميين ورجال الأعمال وممثلي الهيئات المعنية بموضوع الإسلام والغرب، وقد كتب «جون كيسي» الأستاذ بجامعة «كمبريدج» مقالًا نشرته صحيفة «الديلي تلجراف»، تعليقًا على شجاعة الأمير تشارلز ورؤيته الواسعة للعلاقات الدولية، قال فيه: «من تجربتي الخاصة، فإنك عندما تكتب شيئًا يظهر التعاطف والإحترام للإسلام، تتلقى فيضًا من الرسائل المعادية، ومعظم تلك الرسائل تصدر عن أناس يؤمنون بأن هناك مؤامرة إسلامية عالمية، إن هذه الأجواء السلبية تجعل من محاولات الأمير تشارلز إضفاء شيء من



الإنصاف على فهمنا ورؤيتنا للمسلمين تنطوي على شجاعة واضحة، فالجو الخانق المنبعث من التحامل على الإسلام في الغرب في الوقت الراهن، يجعل من الصعب علينا فهم هذه الديانة السماوية أكثر من أي وقت مضى».

□ ولقد قال الأمير «تشارلز» في حديثه هذا: «إننا الآن بدأنا ندرك العواقب المدمرة لاستسلامنا للتعاليم والرؤى التي تتبناها الحضارة الغربية، حتى سعى العلم إلى الاستيلاء على الطبيعة من الخالق حين جَزَّأ الكون إلى مزق، وأقصى المقدَّس إلى زاوية نائية ثانوية، وحين فقد الإحساس الكلي بالبيئة وبمسؤوليتنا الشاملة إزاء الخليقة كلها». ولقد امتدح الأمير الثقافة الإسلامية التي جاهدت للحفاظ على الرؤية الروحية المتكاملة إلى العالم بطريقة لم تتوافر في العالم الغربي، كما أشاد بقدرة الإسلام على الوصل بين الديني والدنيوي، والمادي والمعنوي، بصورة كفلت توازن البشر وأشاعت السكينة لدى جماهير المؤمنين، وكانت دعوته إلى ضرورة التعلم من الإسلام أكثر ما لفت الانتباه في حديثه حتى إن صحيفتا التايمز والديلي تلجراف أظهرتها بجعلها عنوانًا لحديث الأمير يقول: «لنتعلم من الإسلام»[1].

٥١- صموئيل هنتنجتون صاحب نظرية «صراع الحضارات» وتراجعه:

□ ولعل رؤية الأمير «تشارلز» وأمثاله من عقلاء الغرب ومفكريه الموضوعيين لما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الإسلام والغرب، هي السبب وراء ظهور وعي متنام في هذا الاتجاه، أدى إلى تراجع بعض

---

(١) صحيفة الشرق الاوسط ٢٣/ ١٢/ ١٩٩٦.

المفكرين الغربيين عن نظرياتهم السابقة بحتمية الصراع بين الإسلام والغرب. فلقد عقدت في أكتوبر ١٩٩٧م في معهد الفرد هير هاوزن بالعاصمة الألمانية بون ندوة موضوعها: الإسلام والغرب، شارك فيها حشد كبير من السياسيين والمفكرين الغربيين ومنهم صموائيل هنتنجتون صاحب نظرية «صراع الحضارات» الشهيرة والذي توقع فيها صدامًا بين الحضارة الغربية من جهة والحضارتين الإسلامية والكونفوشية الصينية من جهة أخرى.

□ وفي هذه الندوة كرر «جون كالفن» السكرتير العام السابق لحلف الأطلنطي ما سبق أن أعلنه من أن الإسلام هو العدو الجديد للغرب بدل الشيوعية التي انهارت، إلَّا أنه فوجئ بأن الحاضرين لم يوافقوه على هذا الرأي، فلم يكد كالفن ينهي حديثه، حتى تصدى له -على غير المتوقع- «صموئيل هنتجتون». وقد تصور الحاضرون أن هذا الأخير سيواصل ما بدأه الأول من هجوم على الإسلام والمسلمين، خصوصًا أنه صاحب مقولة أن «الإسلام سينتهي أمره على يد الغرب بلا أدنى شك»، إلَّا أن «هنتنجتون» جاء برأي آخر في صالح الحضارة الإسلامية، بل إنه اعترف أمام هذه الندوة بأنه أخطأ في تقديره وكتابه: «صراع الحضارات»، عندما قال: «إن الإسلام سينهار».

وفي هذه الندوة قال «هنتنجتون»: «ما من أمة إلَّا تركت حضارة وراءها، ولكن هذه الحضارة اندثرت وصارت أثرًا بعد عين -مثل: الرومان والفرس والأشوريين وغيرهم- إلَّا الحضارة الإسلامية التي بقيت إلى الآن شاهدة على إمكانية عودة المسلمين إلى قيادة العالم مرة أخرى، حتى إن المعاهد العلمية التي أقاموها في أوروبا والشرق الأوسط

وأفريقيا وآسيا لا تزال تستمد المعرفة من علمها، وهو أكبر دليل على قدرة المسلمين على الإبداع العلمي والقدرة على الخروج من المأزق الذي يعيشونه، ولم يقف هنتنجتون عند هذا الحد، بل واصل حديثه بالاعتراف بأنه أخطأ في تقدير قوة وبقاء الحضارة الإسلامية؛ مثلما أخطأ غيره عندما تصوَّر أن الإسلام سينهار بعد إلغاء أتاتورك للخلافة الإسلامية»[١].

□ وفي نفس الشهر -أكتوبر ١٩٩٧م- الذي عقدت فيه تلك الندوة عن الإسلام والغرب في العاصمة الألمانية «بون»، عقدت كذلك ندوة أخرى عن نفس الموضوع في العاصمة القبرصية «نيقوسيا»، وفيها قال «صموئيل هنتنجتون»: «**إن** عدم الاستقرار السياسي والصراع القادم خلال الأعوام الخمسة والعشرين القادمة، سيكون وراء صعود قوة الإسلام والنهضة الكبرى في **الصين**»[٢].

٥٢- روبين كوك وزير خارجية بريطانيا:

□ في أكتوبر ١٩٩٨م، ألقى «روبين كوك» وزير الخارجية البريطانية خطابًا في أحد المراكز الإسلامية في لندن، جاء فيه: «**إن** جذور ثقافتنا الإنجليزية ليست يونانية أو رومانية الأصل فحسب، بل هي إسلامية أيضًا، فالفن الإسلامي والعلوم والفلسفة الإسلامية قد ساعدت على تشكيل تطورنا، والأرقام الإسلامية ما زالت يعتمد عليها وهي التي علمتنا طريقة العد الصحيحة، ثم إن ثقافة الغرب مدينة للإسلام، ونحن

---

(١) صحيفة الشعب ٣١/ ١٠/ ١٩٩٧.

(٢) «الحضارة الإسلامية» للواء أحمد عبد الوهاب (ص١١٧- ١١٨)، وصحيفة الأهرام ١/ ١١/ ١٩٩٧م.

نقوم حاليًا بتطوير علاقتنا مع العالم الإسلامي بعد ما سمحنا للأيام أن تباعد بيننا، البعض يقول: إن الغرب بحاجة إلى عدو بعد انتهاء الحرب الباردة، وإن الإسلام هو العدو الجديد الذي سيأخذ مكان الشيوعية في الاتحاد السوفيتي، كما يقولون: إن صراع الحضارات قادم لا مفر منه.

وأنا أقول: أنهم مخطئون، بل مخطئون خطأً فادحًا؛ فنحن لسنا بحاجة إلى الإسلام كعدو، بل نحن في حاجة إليه كصديق، والقرآن الكريم يقول في الآية ١٣ من سورة الحجرات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ فالآية توضح أن نعمل معًا لتحسين التفاهم بيننا، وتوضيح تلك الصور الخاطئة والمشوهة لبعضنا البعض، وعلينا أن نتخلص كليةً من مشاعر عدم الثقة التي تضر الجميع، إن الغرب مدين للإسلام بالشيء الكثير؛ فالإسلام قد وضع الأسس الفكرية لمجالات عديدة مهمة وكبيرة في الحضارة الغربية.

فأسس حضارتنا يعود الفضل فيها إلى الإسلام، لذلك من أكبر الأخطاء التي يمكن للغرب أن يرتكبها هو الظن بأن الثقافة الإسلامية شيء غريب عنا، فهي ليست كذلك، فإن ثقافتينا قد تشابكتا عبر التاريخ والأجيال، وما زالتا تتلاقيان أيضًا في وقتنا الحاضر»[1].

---

(١) «الحضارة الإسلامية» للواء أحمد عبد الوهاب (ص١١٨- ١٢٠)، صحيفة الأهرام ١٦/١٠/١٩٩٨.

شمس العرب تسطع على الغرب:

□ جاء في كتاب «شمس العرب تسطع على الغرب» للمستشرقة الألمانية «زيغريد هونكه»: «أنَّ «جربرت» الذي ارتقى كرسي البابوية سنة (٩٩٩م) قد تعلَّم الرياضيات والفلك على أيدي أساتذة من العرب في إسبانية، وأنَّه استمع إلى الأساتذة العرب، وتعلَّم أشياء لم يكن أحدٌ في أوروبة ليَحْلُم بأن يَسْمَع بها، وكان من أهم ما تعلَّمه «جربرت» نظام الأرقام والأعداد العربية.

وأنَّه حيَّر بعلمه معاصريه، وأن قَوْمه نظروا إليه كساحر، وكفنَّانٍ غريب، ونسجوا حوله **الإشاعات**، حتَّى قيل: إنَّه كان يهرب ليلًا من الدَّير إلى إسبانية **ليتعلم** على أيدي العرب علم الفلك والفنون الأخرى»[1] اهـ.

□ وجاء فيه أيضًا قولها: «فقد كان في مدينة قرطبة وحدها خمسون مستشفى في أواسط القرن العاشر الميلادي، فطغَتْ بهذا العدد على مدينة «بغداد» عاصمة الدنيا آنذاك، ومضرب الأمثال في عصر الخليفة «هارون الرشيد» وكانت المستشفيات تتمتّع بموقع تتوافر فيه فيه كلُّ شروط الصحة والجمال، وتُزَوَّد بماء جَارٍ للحمَّامات مُدَّ لها من نَهْر دجلة»[2] اهـ.

□ وجاء فيه أيضًا قولها: «قبل ٦٠٠ عام كان لكلية الطب الباريسية أصغر مكتبة في العالم، لا تحتوي إلَّا على مؤلَّف واحد، وهذا المؤلف كان لعربيٍّ كبير.

---

(١) «شمس العرب تسطع على الغرب» لزيغريد هونكه (ص٨٠- ٨١).

(٢) المصدر السابق (ص٢٢٨- ٢٢٩).

ولقد اعترف الباريسيون بقيمة هذا الكنز العظيم، وبفضل صاحبه عليهم وعلى الطب إجمالًا، فأقاموا له نُصُبًا في باحة القاعة الكبيرة في مدرسة الطب لديهم، وعلقوا صورته وصورة عربيٍّ آخر في قاعة أخرى كبيرة تقع في شارع «سان جرمان» إنَّه أبو بكر محمد بن زكريا الرازي»[(١)] اهـ.

□ وقولها: «لم يكن الرازي ذلك الطبيب العظيم فحسب، بل كان أيضًا أحد الأوائل الذين جعلوا من الكيمياء علمًا صحيحًا»[(٢)].

□ وجاء فيه أيضًا ما خلاصته: «أنَّ «قسطنطين» الأفريقي الأصل، الذي عاش في القرن الحادي عشر الميلادي، وعمل بالتجارة، وتاجر بالعقاقير والأدوية، واحتك بالطب العربي احتكاكًا مباشرًا، والتقى في «بغداد» وفي «حلب» وفي «أنطاكية» بابن بطلان. وكان يحمل العقاقير والأدوية من بلدان المسلمين، ويبيعها للإفرنج في «سالرنو»[(٣)] قد وعَدَ أصدقاءه الفرنجة بأن يزودهم في سفراته القادمات بكنوز من الطب العربي، بدلًا من عقاقيره وحدها.

وأنَّه عاد إلى مصر، ودخل مدارس الطبّ، ليمضي فيها السَّنوات الطوال دارسًا، وهو في نضجه الكامل، وبعد سنين طِوال عاد إلى «سالرنو» ومعه مجموعة من الكتب المكتوبة باللسان العربي.

وأنَّه أكَبَّ على ترجمة هذه الكتب، إلَّا أنَّه كان يُقدِّم مخطوطاته المترجمة

---

(١) المصدر السابق (ص٢٤٣- ٢٤٤).

(٢) «شمس العرب تسطع» (ص٢٥١).

(٣) سالرنو: مدينة في وسط إيطاليا على البحر التيراني، قرب مدينة نابلي.

إلى لاتينيةٍ ركيكة على أنَّها من تأليفه، وساعده الراهبان «آتو» و«يوحنّا» على تنقيحها وإجلاء غوامضها، وصياغتها بأسلوب واضح.

وأنَّ الناس تلقفوا مؤلفاته بإعجاب كبير، إذ كانت تنزل كالوحي على أطباء «سالرنو».

وأنَّ شهرته الكبيرة استمرَّت مدَّة أربعين سنة، ثم ظهَرَ فجأةً أنَّه كان تاجرًا غشاشًا، عرف كيف يُغَلفُ بضاعةً قديمة بغلاف جديدٍ يَبهَرَ الأنظار، وأنَّه قد كان يترجم كُتُبًا مكتوبة باللِّسان العربي وينسبها إلى نفسه»[١].

▫ وجاء فيه أيضًا قولُها: «لقد انطلق الأوروبيون إلى مُدنٍ إسبانية، وخُلْجانٍ إيطاليَّة، بل إلى مُدنِ المشرق، سعيًا وراء المعارف العربية.

فاهتمام «فريدريك الأول» بعلم النجوم العربي، هو الذي حَدَا به إلى انتزاع «جيرارد» من قلْب مدينته الوفية «كريمونا»[٢] وإرساله إلى إسبانيا، وقد أوصاه بهمة جلب «المجسْطِي»[٣] لـ «بطليموس» من مدينة «طُليطُلة» وكان ذلك في الوقت الذي تغَني به القوم بشهرة «سالرنو» المتفتِّحة تحْتَ شمس المعرفة العربية.

ولكنَّه ما إن وصل إلى هذه القلعة السابقة للفكر العربي -أي: فكر المسلمين- ورأى هذه الكنوز الفكرية العظيمة، التي ظهرت للأعين فيها حتى قرَّر البقاء هناك. وبقي مدَّةً تزيد على العشرين سنة، جمع فيها أكثر

(١) «شمس العرب تسطع» (ص٢٩٣- ٢٩٧).
(٢) «مدينة إيطالية».
(٣) المَجِسطي: أقدم كتاب في الفَلَك ألَّفه بطليموس.

من ثمانين مخطوطة بالإضافة إلى كتاب «المجِسْطِي» وعاد بها إلى موطنه «كريمونا».

وكانت هذه المخطوطات كنوزًا فكريَّة بِحَدِّ ذاتها، وثمراتٍ عظيماتِ قيماتٍ وسافراتِ النضج»[1] اهـ.

□ وجاء فيه أيضًا قولها: «وتدفَّق سيل الترجمة تدفُّقًا متواصلًا لم يكن بوُسْعِ أحدٍ أن يمْنَعه، وانْطَلَقَ من إسبانيا، وصقلّية، وشمالي إيطالية، فمن مدينة «بادوا» جاءت ترجمة «الكليات» لابن رُشد، وترجمة كتاب «التيسير» لابن زهر، مرتين على التوالي. ومن «صقلية» جاءت ترجمة «الحاوي» أضخم كتابٍ للرازي، وقد أمضى اليهودي «ابن سليم» المتعلم في «سالرنو» نصف حياته في ترجمته.

وظلَّت حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية على أَشُدَّها حتى القرن السادس عشر الميلادي، وأضيفت أشياء جديدة لم تكن معروفة، وأعيدت ترجمة كتُبٍ أخرى مرّةً ثانيةً، ككتاب «القانون» لابن سينا، وكتاب «زاد المسافرين» لابن الجزّار، وكتُبٍ أخرى للرازي، ولابن رُشد.

وبهذا انطلقت حركةٌ فكريةٌ جبارة لم يَقْدِرْ أيٌّ من العلماء في القرون التي تَلَتْ إلَّا أن يتأثر بها»[2].

□ وجاء فيه أيضًا قولها: «إنَّ سَيْلًا عرِمًا من نتاج الفكر العربي «تقصد من نتاج المسلمين» ومواد الحقيقة والعلم قد نقحتْهُ أيدٍ عربية -أي: أيْدٍ مسلمة- ونظمته، وعرضته بشكل مثالي، قد اكتسح أوروبة -ولو في رداءٍ

---

(١) «شمس العرب» (ص٣٠٣).

(٢) المصدر السابق (ص٣٠٣- ٣٠٤).

ركيك من اللُّغة اللاتينيَّة -وغَمَر أرضها الجافَّة غَمْرًا، فأشْبَعها كما يُشْبع الماء الرِّمال الظمأى.

وبعد الموجه الأولى التي سَمَتْ بـ «سالرنو» إلى ذُرى من الشهرة العالمية التي لا تُضَاهى، جاءت الموجة الثانية فبعثت الحياة النابضة في مدينة «مونبليه» الواقعة على مفترق الطرق بين إسبانيا وما تبقَّى من بلاد الغرب، وأمَدَّتْ مدرسَةَ «بولونية» الإيطالية، وجامِعَتها، بدفعات جديدات من الذُّخر العربي، وأعْطَتْ موادَّ الدراسة المثالية إلى «بادوا» و«باريس» و«أكسفورد».

وفي مراكز العلم الأوروبية لم يكن هنَاك عالمٌ واحدٌ من بين العلماء، إلَّا ومَدَّ يَدَيْهِ إلى الكنوز العربية هذه يغترف منها ما شاء الله له أن يغترف، ويَنْهَلُ منها كما ينْهَلُ الظمآن من الماء العَذْب، رغبةً منه في سد الثغرات التي لدَيْه، وفي الارتقاء إلى مستوى عصْره العلمي.

ولم يكُنْ هناك كتابٌ واحدٌ من بين الكتب التي صَدَرتْ في أوروبة آنذاك إلَّا وقد ارتوت صفحاته بالري العميم من الينابيع العربية، وأخذ عنها.. وظهر فيه تأثير واضحًا كُلَّ الوضوح، ليس فقط في كلماته العربية المترجمة، بل في محتواه وأفكاره»[1] اهـ.

□ وجاء فيه قولها متحدثة عن صقليَّة التي حكمها المسلمون قرنين ونصفًا، وكانوا فيها سادة للجزيرة على طرف أوروبة الجنوبي، ثم طردهم منها الكونت «روجر الاول» النورماني: «فمنذ مائتي سنة قدم العرب إلى صقلية من تونس، من المنطقة التي حول القيروان، وحوَّلُوا خرائب

(١) «شمس العرب تسطع» (ص٣٠٥- ٣٠٦).

صقلية إلى حدائق غنَّاء، واستوردوا لها من بلادهم أشجار النخيل، وزرعوا فيها أشجار البرتقال والفستق والموز والزعفران، فحولوا الجزيرة الفقيرة بالقطن وقَصَب السكر إلى بلد يزخر بالخيرات، وزينوها بالقصور والمساجد الرائعة التي كانت تعجّ بالشعراء والمغنين[1] والفلاسفة والأطباء وعلماء الرياضة والطبيعة، ويُحصيها ابن حوقل عام (٩٧٠م) في «بالرمو» فقط بثلاثمئة ما بين قصر ومسجد. واستخدم المتعلمون في صقليَّة في كتاباتهم ورقًا أبيض كان أوَّلَ ورقٍ عرفته أوروبة، وكان ذلك قبل أن تُصَدِّرَه إسبانية إلى الغرب بزمن طويل»[2] اهـ.

نماذج من علوم المسلمين في الحضارة الإسلامية وذكر عُلاة الهمم الروَّاد الأوائل للدنيا بأسرها:

علمُ الطب في الحضارة الإسلامية[3]:

يُعدُّ الطب من أوسع مجالات العلوم الحياتية التي كان للمسلمين فيها إسهامات بارزة على مدار عصور حضارتهم الزاهرة، وكانت تلك الإسهامات على نحو غير مسبوق شمولًا وتميُّزًا وتصحيحًا للمسار، حتى ليُخيَّل للمطَّلع على هذه الإسهامات الخالدة كأن لم يكن طبٌّ قبل حضارة المسلمين.

---

(١) الغناء حرام في شرعنا وهذا البعد عن تعاليم الإسلام أدى إلى سقوط الأندلس وانهيار حضارته بعد ذلك، وطرد المسلمين من أسبانيا.

(٢) «شمس العرب» (ص٤١٠).

(٣) هذا المبحث مأخوذ ومُلخَّص من كتاب «العلم وبناء الأمم» للدكتور راغب السرجاني (ص١٠٠-١٢٦).

ولم يقتصر الإبداع على علاج الأمراض فحسب، بل تعدَّاه إلى تأسيس منهج تجريبي أصيل انعكست آثاره الراقية والرائعة على جميع جوانب الممارسة الطبيَّة وقاية وعلاجًا، أو مرافق وأدوات، أو أبعادًا إنسانية وأخلاقية تحكم الأداء الطبي.

وتتجلى روعة الإسهامات الإسلامية في الطب في تخريج هذا الحشد من العبقريات الطبية النادرة التي كان لها -بعد الله- الفضل الكبير في تحويل مسار الطب اتِّجاهًا آخر تابعت المسير على نهجه أجيالُ الأطباء إلى يوم الناس هذا.

وقد تميز علماء الطب المسلمون بأنهم أول من عرف التخصص؛ فكان منهم: أطباء العيون، ويسمَّون «الكحَّالين»، ومنهم الجراحون، والفاصدون «الحجَّامون»، ومنهم المختصون في أمراض النساء وهكذا.

وكان من سمات هذا العصر إنشاء المستشفيات النظامية، وبروز الشخصيات الإسلامية في ميدان علم الطب، وكانت عائلة أبي الحكم الدمشقي هي المسيطرة على هذه المهنة في العصر الأموي، وكان من هذه الشخصيات أيضًا: تياذوق، وقد كان قريبًا من الحجاج بن يوسف الثقفي، وأحمد بن إبراهيم الذي كان طبيب الخليفة الأموي يزيد بن عبدالملك»[1].

وما كادت عجلة الأيام تدور العباسي حتى أجاد المسلمون في كل فرع من فروع الطب، وصححوا ما كان من أخطاء العلماء السابقين تجاه نظريات بعينها، ولم يقفوا عند حد النقل والترجمة فقط وإنما اصلوا

(١) «عيون الأنبياء في طبقات الأطباء» (١/ ٤٠٥- ٤١٠).

البحث وصوَّبوا أخطاء السابقين.

□ وكان من عمالقة هذا العصر المبهرين أبو بكر الرازي رحمه الله، والذي يعتبر من أعظم علماء الطب في التاريخ قاطبة، وله من الإنجازات ما يعجز هذا الكتاب عن ضمِّه.

طب العيون «الكحالة»:

كما تطوَّر عند المسلمين طب العيون «الكحالة» ولم يُطاوِلهم فيه أحدٌ؛ فلا اليونان من قبلهم، ولا اللاتين المعاصرون لهم، ولا الذين أتوا من بعدهم بقرون بلغوا فيه شأوهم؛ فقد كانت مؤلفاتهم فيه الحجة الأولى خلال قرون طوال، ولا عجب أن كثيرين من المؤلفين كادوا يعتبرون طب العيون طبًّا عربيًّا، ويقرِّر المؤرخون أن علي بن عيسى الكحال (ت٤٠٠هـ) كان أعظم طبيب عيون في القرون الوسطى برمتها، ومؤلفه -التذكرة- أعظم مؤلفاته [(١)].

أبو القاسم الزهراوي أعظم الجرَّاحين في التاريخ:

وإذا طوينا تلك الصفحة المشرقة للرازي وابن عيسى الكحال، فإننا نجد أنفسنا أمام عملاق آخر يعتبر من أعظم الجراحين في التاريخ -إن لم يكن أعظمهم على الإطلاق- وهو أبو القاسم الزهراوي (ت٤٠٣هـ) الذي تمكن من اختراع أولى أدوات الجراحة كالمشرط والمقص الجراحي، كما وضع الأسس والقوانين للجراحة، والتي من أهمها ربط الأوعية لمنع نزفها، واخترع خيوط الجراحة، وتمكن من إيقاف النزف بالتخثير.

---

(١) المصدر السابق (ص٢/ ٢٦٣).



وقد كان الزهراوي هو الواضع الأول لعلم «المناظير الجراحية»، وذلك باختراعه واستخدامه للمحاقن والمبازل الجراحية والتي عليها يقوم هذا العلم، وقام بالفعل بتفتيت حصوة المثانة بما يشبه المنظار في الوقت الحاضر، إلى جانب أنه أول مخترع ومستخدم لمنظار المهبل.

ويعتبر كتاب الزهراوي: «التصريف لمن عجز عن التأليف»- والذي قام بترجمته إلى اللاتينية العالم الإيطالي جيراردوا [(١)] تحت اسم ALTASRIF- موسوعة طبية متكاملة لمؤسسي علم الجراحة بأوروبا وهذا باعترافهم، «تتألف هذه الموسوعة من ثلاثين مجلدًا مقسمة إلى ثلاثة أقسام: الأول في «الطب»، والثاني في «الكيمياء»، والثالث في «الجراحة والأدوات الجراحية»، ويذهب مؤرخو الطب على أن الزهراوي كان أول من خص الجراحة بدراسة متميزة، وفصلها عن سائر الأمراض التي تعتري جسم الإنسان.

ولقد حلَّ مبحث أبي القاسم الزهراوي في الجراحة محل كتابات القدماء، وظل مبحثه هذا العمدة في فن الجراحة حتى القرن السادس عشر «أي: لما يزيد على خمسة قرون من زمانه»، ويشتمل على صور توضيحية للعديد من آلات الجراحة «أكثر من مئتي آلة جراحية!!» كان لها أكبر الأثر فيمن أتى من بعده من الجراحين الغربيين، وكانت بالغة

---

(١)جيراردوا دا كريمونا (١١١٤- ١١٨٧م) مستشرق إيطالي. مولده ووفاته في «كريمونا» من مدن إيطاليا الشمالية أقام زمنًا في طليطلة بـ «الأندلس» فترجم عن العربية إلى اللاتينية أكثر من سبعين كتابًا من كتب الهيئة وأحكام النجوم والهندسة والطب والطبيعة والكيمياء والفلسفة.

الأهمية على الأخص بالنسبة لأولئك الذين أصلحوا فن الجراحة في أوروبا في القرن السادس عشر، يقول عالم وظائف الأعضاء الكبير هالر: «إن جميع الجراحين الأوروبيين الذين ظهروا بعد القرن الرابع عشر قد نهلوا واستقوا من هذا المبحث»[١].

ابن سينا الطبيب الرئيس:

□ وكانت قد برزت كذلك شخصيات إسلامية أخرى لامعة في ميدان علم الطب من أمثال ابن سينا [٢] (ت٤٢٨هـ)، الذي استطاع أن يقدم للإنسانية أعظم الخدمات بما توصل إليه من اكتشافات، وما يسره الله له من فتوحات طبية جليلة؛ فقد كان أول من اكتشف العديد من الأمراض التي ما زالت منتشرة حتى الآن، فهو الذي اكتشف لأول مرة طفيل «الإنكلستوما» وسماها الدودة المستديرة، وهو بذلك قد سبق العالم الإيطالي «دوبيني» بنحو ٩٠٠سنة، كما أنه أول من وصف الالتهاب السحائي، وأول من فرَّق بين الشلل الناجم عن سبب داخلي في الدماغ والشلل الناتج عن سبب خارجي، ووصف السكتة الدماغية الناتجة عن كثرة الدم، مخالفًا بذلك ما استقر عليه أساطين الطب اليوناني القديم، فضلًا عن أنه أول من فرَّق بين المغص المعوي والمغص الكلوي [٣].

□ كما كشف ابن سينا -لأول مرة أيضًا- طرق العدوي لبعض

---

(١) «حضارة العرب» لجوستاف لوبون (ص٥٩١).

(٢) شيعي إسماعيلي، ومن فلاسفة المسلمين، رأس في البدعة، بل كفَّره جمع كبير من علماء المسلمين على رأسهم شيخا الإسلام: ابن تيمية وابن قيم الجوزية.

(٣) في «تاريخ الطب في الدولة الإسلامية» لعامر النجار (ص١٣٢، ١٣٣).

الأمراض المعدية كالجدري والحصبة، وذكر أنها تنتقل عن طريق بعض الكائنات الحية الدقيقة في الماء والجو، وقال: «إن الماء يحتوي على حيوانات صغيرة جدًّا لا تُرى بالعين المجردة، وهي التي تسبب بعض الأمراض..»[١] وهو ما أكده «فان ليوتهوك» في القرن الثامن عشر والعلماء المتأخرون من بعده، بعد اختراع المجهر.

□ ولهذا فإن ابن سينا يعد أول من رأي «علم الطفيليات» الذي يحتل مرتبة عالية في الطب الحديث؛ فقد وصف لأول مرة «التهاب السحايا الأولي» وفرَّقه عن «التهاب السحايا الثانوي» - وهو الالتهاب السحائي - وغيره من الأمراض المماثلة، كما تحدث أيضًا عن طريقة استئصال «اللوزتين»، وتناول في آرائه الطبية أنواعًا من السرطانات كسرطان الكبد، والثدي، وأورام العقد الليمفاوية، وغيرها[٢].

□ ويُظهر ابن سينا براعة كبيرة ومقدرة فائقة في علم الجراحة؛ فقد ذكر عدة طرق لإيقاف النزيف، سواء بالربط أو إدخال الفتائل أو بالكي بالنار أو بدواء كاوٍ، أو بضغط اللحم فوق العرق، كما تحدث عن كيفية التعامل مع السِّهام واستخراجها من الجروح، وحذَّر المعالجين من إصابة الشرايين أو الأعصاب عند إخراج السهام من الجروح، كما نبَّه إلى ضرورة أن يكون المعالج على معرفة تامة بالتشريح[٣].

□ ويعتبر ابن سينا أول من اكتشف ووصف عضلات العين

---

(١) «رُوَّاد علم الطبِّ في الحضارة الإسلامية» (ص٢٩٨).

(٢) «في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية» لعامر النجار (ص١٣٣).

(٣) «الطب عند العرب والمسلمين» (ص١١٨).

الداخلية، وأول من قال بأن مركز البصر ليس في الجسم البلوري كما كان يُعتقد من قبل، وإنما هو في العصب البصري [١].

□ وكان ابن سينا جرَّاحًا بارعًا؛ فقد قام بعمليات جراحية دقيقة للغاية مثل استئصال الأورام السرطانية في مراحلها الأولى [٢] وشقِّ الحنجرة والقصبة الهوائية، واستئصال الخرَّاج من الغشاء البلوري بالرئة، كما عالج البواسير بطريقة الربط، ووصف -بدقة- حالات البواسير البولية، إلى جانب أنه توصل إلى طريقة مبتكرة لعلاج الباسور الشرجي لا تزال تستخدم حتى الآن! وتعرَّض لحصاة الكلى وشرح كيفية استخراجها والمحاذير التي يجب مراعاتها، كما ذكر حالات استعمال القسطرة، وكذلك الحالات التي يُحذر استعمالها فيها [٣].

□ كما كان له باع كبير في مجال الأمراض التناسلية؛ فوصف بدقة بعض أمراض النساء مثل: الانسداد المهبلي والإسقاط، والأورام الليفية.

□ وتحدث عن الأمراض التي يمكن أن تصيب النفساء، مثل: النزيف، واحتباس الدم، وما قد يسببه من أورام وحميات حادة، وأشار إلى أن تعفن الرحم قد ينشأ من عسر الولادة أو موت الجنين، وعزاها إلى الرجل دون المرأة، وهو الأمر الذي أكده مؤخرًا العلم الحديث [٤].

□ وإلى جانب كل ما سبق، كان ابن سينا على دراية واسعة بطب

---

(١) «المسلمون علماء حكماء» لحسن الشرقاوي (ص١٦٠).

(٢) «الطب عند العرب والمسلمين» لمحمود الحاج قاسم (ص١٤٨).

(٣) «القانون» لابن سينا (٣/ ١٦٥).

(٤) المصدر السابق (٢/ ٥٨٦).

الأسنان، وكان واضحًا دقيقًا في تحديده للغاية والهدف من مداواة نخور الأسنان حين قال: «الغرض من علاج التآكل منع الزيادة على ما تآكل؛ وذلك بتنقية الجوهر الفاسد منه، وتحليل المادة المؤدية إلى ذلك..». ونلاحظ أن المبدأ الأساسي لمداواة الأسنان هو المحافظة عليها، وذلك بإعداد الحفرة إعدادًا فنيًّا ملائمًا مع رفع الأجزاء النخرة منها، ثم يعمد إلى ملئها بالمادة الحاشية المناسبة لتعريض الضياع المادي الذي تعرضت له السن، مما يعيدها بالتالي إلى أداء وظيفتها من جديد [1].

□ ولم تكن تلك حالات استثنائية للعبقرية الإسلامية في مجال الطب، فقد حفل سجل الأمجاد الحضارية الإسلامية بالعشرات، بل المئات من الرواد الذين تتلمذت عليهم البشرية قرونًا طويلة وشهد بفضلهم وسبْقهم الأعداء قبل الأصدقاء؛ فكان منهم أيضًا ابن النفيس.

ابن النفيس الفقيه الشافعي مكتشف الدورة الدمويّة الصغرى (٦٠٧-٦٨٧هـ/١٢١٠-١٢٨٨م):

أعلم الناس في عصره، وأعظم وأشهر عالم بوظائف الأعضاء في القرون الوسطى برمتها، والرَّائد الذي مهَّد الطريق أمام وليام هارفي، العالم الفسيولوجي الإنجليزي مكتشف الدورة الدموية الكبرى سنة ١٦٢٨م؛ حيث استطاع ابن النفيس اكتشاف الدورة الدموية الصغرى، وأن يصفها لأول مرة ليكون رائدًا لمن أتوا بعده!!.

وبحق كان مثالًا للعالم الورع التقي المنقطع إلى العلم، وواحدًا من أكبر الأطباء العرب والمسلمين الذين حققوا اكتشافات عظيمة وجليلة،

(١) المصدر السابق (١/ ١٩٢).

يفتخر بها الطب الإسلامي والحضارة الإسلامية إلى يومنا هذا.

□ قال عنه السبكي: «وأما الطب فلم يكن على وجه الأرض مثله قبلُ، ولا جاء بعد ابن سينا مثله، قالوا: وكان في العلاج أعظم من ابن سينا».

□ وقال الإسنوي: «كان إمام وقته في فنه شرقًا وغربًا بلا مدافعة، أعجوبة فيه وفي غاية الذكاء»(١).

وكان قد أُشكِل على «جالينوس» فادَّعى أنَّ في الحاجز الذي بين الجانب الأيمن والجانب الأيسر في القلب ثقوبًا غير منظورة يتسرب فيها الدم من الجانب الواحد إلى الجانب الآخر، وما وظيفة الرئتين إلَّا أن ترفرفا فوق القلب فتبردا حرارته وحرارة الدم، ويتسرب شيء من الهواء فيها بواسطة المنافذ التي بينهما وبين القلب فيغذي ذلك القلب والدم.

فجاء هو وعارض هذه النظرية معارضة شديدة، وأثبت بما لا يدع مجالًا للشك أن اليونان لم يفهموا وظيفة الرئتين والأوعية التي بين القلب والرئتين، وأنه فهم وظيفتها وأوعيتها وتركيب الرئة والأوعية الشَّعْرية التي بين الشرايين والأوردة الرئوية، وشرح الفُرَج الرئوية شرحًا واضحًا، كما فهم أيضًا وظائف الأوعية الإكليلية، وأنها تنقل الدم ليتغذى القلب به، ونفى التعليم القائل بأن يتغذى من الدم الموجود في البطين الأيمن.

ثم كرَّر تعاليمه في الدورة الدموية الصغرى وطريقة عملها؛ ذلك أنه كرَّر هذه التعاليم في خمسة مواضع متفرقة، ذاكرًا آراء ابن سينا، ومكررًا أقوال «جالينوس» التي اعتمد عليها ابن سينا، ثم عارضها بمنتهى

---

(١) «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة (١/ ١٠٧).

الحماسة.. وكان حقيقًا بعدُ بأن يصفه «جورج سارتون» بأنه أول من اكتشف الدورة الدموية، ليكون بذلك الرائد لـ «وليام هارفي» يُنسب إليه هذا الاكتشاف [(١)].

إنه الفقيه الطبيب العلامة علاء الدين علي بن أبي الحزم، القَرْشي «نسبة إلى قرية قَرْش» الدمشقي، الملقَّب بابن النفيس، وهو سوري ولد في قرية «قَرْش» بالقرب من دمشق سنة (٦٠٧هـ/ ١٢١٠م)[(٢)].

نشأة ابن النفيس العالِم:

□ كغيره من علماء المسلمين بدأ ابن النفيس حياته العلمية بحفظ القرآن الكريم، وكذا درس النحو واللغة، والفقه والأصول والحديث، والمنطق والسيرة وغيرها، ثم في سنة (٦٢٩هـ/ ١٢٣١م) وهو في الثانية والعشرين من عمره اتجه إلى دراسة الطب، وذلك بعد أزمة صحية ألمت به.. وتراه يحكي ذلك فيقول: «قد عرض لنا حميات مختلفة، وكانت سِنُّنا في ذلك الزمان قريبة من اثنتين وعشرين سنة، ومن حين عُوفينا من تلك المرضة سوء ظنِّنا بأولئك الأطباء «الذين عالجوه» على الاشتغال بصناعة الطب لننفع بها الناس».

وكان تعليمه الطب في دمشق على يد طبيب العيون البارع مهذب

---

(١) «حضارة الإسلام وأثرها في الترقِّي العالمي» لجلال مظهر (ص٣٤٦، ٣٤٧)، و«رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية» لعلي عبد الله الدفاع (ص٤٥١) و«مسلمون علَّموا العالم» لمحمد علي عثمان (ص٥١، ٥٢).

(٢) «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة (١/ ١٠٧)، و«معجم المؤلفين» لكحالة (٧/ ٥٨)، و«الأعلام» للزِّركلي (٤/ ٢٧١).

الدين عبد الرحمن المشهور باسم الدخوار، وهو أحد كبار الأطباء في التاريخ الإسلامي، وكان في ذلك الوقت كبير الأطباء في البيمارستان النوري العظيم، الذي أنشأه نور الدين محمود واحتذب إليه أمهر أطباء العصر الذين توافدوا عليه من كل مكان. وكان من أساتذته في الطب أيضًا عمريان الإسرائيلي، ورضي الدين الرجي.

وكان رفيق دراسته ابن أبي أُصَيْبعة «صاحب طبقات الأطباء»، وقد رحلا معًا إلى القاهرة سنة ٦٣٣هـ، وعملا في البيمارستان الناصري الذي شغل فيه ابن النفيس منصب الرئاسة، وعميدًا للمدرسة الطبية الملتحقة به، وشغل ابن أبي أصيبعة رئيس قسم الكحالة.

□ ولم يكتفِ ابن النفيس بما درسه على أساتذة عظام في البيمارستان النوري، بل إنه انكبَّ أيضًا على كتب ابن سينا وأبقراط وجالينوس وغيرهم، وقال البعض: «إنه كان يحفظ كتاب القانون في الطب لابن سينا عن ظهر قلب».

كما أنه أهتم أيضًا بدراسة الفلسفة والمنطق والبيان، وتعمق في دراسة الفقه، وعلوم الشريعة، حتى إنه أصبح أستاذًا لفقه الشافعي في المدرسة المسرورية بالقاهرة، إلى جانب نبوغه وعبقريته في الطب [1].

العالم المغمور:

لم يكن ابن النفيس مجهولًا في عصره؛ فقد أطنب في الحديث عنه العمري في مسالك الأبصار، والصفدي في الوافي بالوفيات، وابن أبي أصيبعة في إحدى مخطوطاته «طبقات الأطباء»، إلَّا أنَّ ابن النفيس لم يأخذ

---

(١) «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة (١/ ١٠٧).



حقه من الذيوع والشهرة بما يوازي ويضارع إنتاجه واكتشافاته، ولعلَّ ذلك بسبب عدم التقدير أو عدم الإحاطة بهذه الاكتشافات في ذلك الوقت.

وقد تناول ابنَ النفيس من المستشرقين الأجانب لكلير في كتابه «الطب العربي»، والمستشرق الألماني «مايرهوف» في كثير من مقالاته، ووضع الدكتور «بول غليونجي» كتابًا وافيًا، يُعَدُّ أجمعَ كتاب عن ابن النفيس [١].

ويقرِّر «بول» في كتابه هذا أنَّ أول من كشف عن ابن النفيس في وقتنا الحاضر، ورَدَّ إليه اعتباره، هو الطبيب المصري الدكتور محيي الدين التطاوي؛ حيث عثر على نسخة من مخطوطة «شرح تشريح القانون» لابن النفيس في مكتبة برلين، وقام بإعداد رسالة في الدكتوراه عنها، وعُنِيَ فيها بجانب واحد من جوانب هذا الكتاب العظيم، ألا وهو موضوع: «الدورة الدموية تبعًا للقرْشي»، وذلك سنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م.

وقد ذُهل أساتذتُه والمشرفون على الرسالة، وأصابتهم الدهشة حين اطَّلعوا على ما فيها، وما كادوا يصدقونه!!.

ولجهلهم باللغة العربية بعثوا بنسخة من الرسالة إلى الدكتور «مايرهوف» المستشرق الألماني الذي كان آنذاك يقيم بالقاهرة، وطلبوا رأيه فيما كتبه الباحث، وكانت النتيجة أن أيد «مايرهوف» الدكتور التطاوي، وأبلغ حقيقة ما كشفه من جهود ابن النفيس إلى المؤرِّخ «جورج سارتون»، فنشر هذه الحقيقة في آخر جزء من كتابه المعروف «تاريخ

---

(١) انظر: «ابن النفيس» - «سلسلة أعلام العرب» رقم (٥٧).

العلم»، ثم بادر «مايرهوف» إلى البحث عن مخطوطات أخرى لابن النفيس وعن تراجم له، ونشر نتيجة بحوثه في عدة مقالات.. ومنذ ذلك الحين بدأ الاهتمام بهذا العالم الكبير وإعادة اكتشافه [١]!!.

ابن النفيس والدورة الدموية:

□ اقترن اسم ابن النفيس باكتشاف الدورة الدموية الصغرى، والتي سجلها بدقة في كتابه «شرح تشريح القانون»، غير أن هذه الحقيقة ظلت مختفية قرونًا طويلة، ونُسِبت وهمًا إلى الطبيب الإنجليزي «وليام هارفي» (ت١٠٦٨هـ/ ١٦٥٧م) الذي بحث في دورة الدم بعد وفاة ابن النفيس بأكثر من ثلاثة قرون، وظل الناس يتداولون هذا الوهم حتى أبان عن الحقيقة الدكتور محيي الدين التطاوي في رسالته كما أشرنا سابقًا.

□ وكان الطبيب الإيطالي ألباجو قد ترجم في سنة ٩٥٤هـ/ ١٥٤٧م أقسامًا من كتاب ابن النفيس «شرح تشريح القانون» إلى اللاتينية، وهذا الطبيب أقام ما يقرب من ثلاثين عامًا في «الرَّها» وأتقن اللغة العربية لينقل منها إلى اللاتينية، وكان القسم المتعلق بالدورة الدموية في الرئة ضمن ما ترجمه من أقسام الكتاب، غير أن هذه الترجمة فُقِدَت، واتفق أن عالمًا إسبانيًّا ليس من رجال الطب كان يدعى «سيرفيتوس» كان يدرس في جامعة باريس اطَّلع على ما ترجمه ألباجو من كتاب ابن النفيس، ونظرًا لاتهام «سيرفيتوس» في عقيدته، فقد طُرِد من الجامعة، وتشرَّد بين المدن، وانتهى به الحال إلى الإعدام حرقًا هو وأكثر كتبه في سنة (١٠٦٥هـ/ ١٥٥٣م).

---

(١) «تطور الفكر العلمي عند المسلمين» لمحمد الصادق عفيفي (ص٢٠٨)، و«رُوَّاد علم الطب في الحضارة الإسلامية» (ص٤٥١).

على أنَّ الله ﷻ شاء أن تبقى بعض كتبه دون حرق، وكان من بينها ما نقله من ترجمة ألباجو عن ابن النفيس فيما يخص الدورة الدموية، واعتقد الباحثون أن فضل اكتشافها يعود إلى هذا العالم الإسباني ومن بعده هارفي حتى سنة ١٣٤٣/ ١٩٢٤م حتى صحَّح الطبيب المصري هذا الوهم، وأعاد الحق إلى صاحبه.

□ وقد أثار ما كتبه الطبيب التطاوي اهتمام الباحثين، وفي مقدمتهم «مايرهوف» المستشرق الألماني الذي كتب في أحد بحوثه عن ابن النفيس: «إن ما أذهلني هو مشابهة، لا بل مماثلة بعض الجمل الأساسية في كلمات «سيرفيتوس» لأقوال ابن النفيس التي تُرجِمت ترجمة حرفية.. أي أن «سرفيتوس»، وهو رجل دين متحرِّر وليس طبيبًا، قد ذكر الدورة الدموية في الرئة بلغة ابن النفيس الذي عاش قبله بما يزيد على القرن والنصف»!!.

□ ولما اطلع «ألدو ميلي» على المتنين قال: «إن لابن النفيس وصفًا للدوران الصغير تطابق كلماته كلمات سيرفيتوس تمامًا، وهكذا فمن الحق الصريح أن يُعْزَى كشف الدوران الرئيسي إلى ابن النفيس لا إلى سيرفيتوس أو هارفي»(١).

□ ويُعتبَر اكتشاف الدورة الدموية الصغرى واحدًا فقط من إسهامات واكتشافات ابن النفيس العديدة؛ فهو -بحسب ما كُتِب عنه حديثًا- يُعَد مكتشف الدورتين الصغرى والكبرى للدورة الدموية، وواضع نظرية باهرة في الإبصار والرؤية، وكاشف العديد من الحقائق التشريحية، وجامع

(١) «رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية» لعلي عبد الله الدفاع (ص٤٥١).

شتات المعرفة الطبية والصيدلانية في عصره، وقد قدَّم للعلم قواعد للبحث العلمي، وتصورات للمنهج العلمي التجريبي.

مؤلَّفات ابن النفيس:

◻ خلَّف ابن النفيس مؤلفاتٍ علمية عديدة، نُشِرَ بعضُها وما زال البعض الآخر في غياهب المكتبات، وحبيس رفوف المخطوطات لم يرَ النورَ بعد، ومن مؤلفاته ما يلي:

١- «شرح تشريح القانون»، وهو من أهم كتب ابن النفيس، وقد نشر في القاهرة سنة ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م بتحقيق الدكتور سلمان قطابة، وتبرز قيمته في وصفه للدورة الدموية الصغرى، واكتشافه أن عضلات القلب تتغذى من الأوعية المبثوثة في داخلها لا من الدم الموجود في جوفه، كما يظهر في الكتاب ثقة ابن النفيس في علمه؛ حيث نقض كلام أعظم طبيبين عرفهما العرب في ذلك الوقت، وهما: جالينوس، وابن سينا.

٢- «الشامل في الصناعة الطبية»، ويعد أعظم مؤلفاته، كما يعتبر أضخم موسوعة طبية يكتبها شخص واحد في التاريخ الإنساني، وقد نجح الدكتور يوسف زيدان في مصر في جمع أجزاء الكتاب المخطوطة، كما تطلَّع المجمع الثقافي في أبو ظبي إلى تلك الموسوعة، وأخذ على عاتقه نشر الكتاب محققًا، حتى خرج إلى النور ثلاثة أجزاء منه، وذلكم في سنة ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

وكان ابن النفيس قد عكف على إعداد هذه الموسوعة وهو ينوي أن يجعلها مرجعًا طبيًا شاملًا، ولولا أن وافته المنية بعد أن أعدَّ منها ثمانين جزءًا، وهي تمثل صياغة علمية لجهود المسلمين في الطب والصيدلة على

مدى خمسة قرون من العمل المتواصل.

٣- «الموجز في الطب»، ويعتبر هذا الكتاب مرجعًا لكل من أراد دراسة الطب، وممارسة هذه المهنة العظيمة، وقد تناقله العلماء بعضهم من بعض، وكَثُرَت شروحُه والتعليقات عليه لما نال من منزله بين علماء العصور كلها حتى يومنا هذا، ويذكر «بول غليونجي» في كتابه «ابن النفيس» أنَّ كتاب الموجز في الطب لابن النفيس عبارة عن شرح مختصر جدًّا لكتاب القانون بالطب لابن سينا، تناول كل أجزاء القانون بلغة علمية سهلة ما عدا الجزء الخاص بالتشريح ووظائف الأعضاء، الأمر الذي جعله محبوبًا محبة بالغة من الوجهة العلمية لممارسي الطب.

الجدير بالذكر أنه يوجد نسخ منه على شكل مخطوط في كل من باريس وأكسفورد وفلورنسا وميونيخ والأسكوريال، ويقع «الموجز في الطب» في أربعة أجزاء، وقد نال تقدير وإجلال أطباء العلم؛ لذا فقد كُثَرت ترجمته إلى اللغات الأجنبية وتعدَّدت التعليقات عليه، وقد نُشِر سنة ١٤٠٦هـ-١٩٨٥م في القاهرة بتحقيق عبد المنعم محمد عمر، وكانت قد سبقته نشرة ماكس مايرهوف ويوسف شاخت ضمن منشورات أكسفورد سنة ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.

٤-«شرح فصول أبقراط»، وقد طبع في بيروت سنة ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م، بتحقيق ماهر عبد القادر ويوسف زيدان.

٥- «المهذَّب في الكُحل المجرب»، ونشر في الرباط سنة ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م، بتحقيق ظافر الوفائي ومحمد رواس قلعة جي.

٦- «المختصر في أصول علم الحديث»، ونشر بالقاهرة سنة ١٤١٢هـ-

١٩٩١م بتحقيق يوسف زيدان [١].

ولاشك أنَّ لكتب ابن النفيس قيمةً كبيرة بالنسبة لتاريخ الطب العربي والغربي على حدٍّ سواء وإضافة إلى ذلك، فإنه ألَّف في السيرة وعلم الحديث والنحو والفلسفة والمنطق [٢].

□ أما عن طريقته في التأليف يقول ابن قاضي شهبة: «وكانت تصانيفه يمليها من حفظه، ولا يحتاج إلى مراجعة لتبحُّرِه في الفن».

□ وقال السبكي: «صنَّف شرحًا على التنبيه، وصنَّف في أصول الفقه، وفي المنطق، وكان مشاركًا في فنون» [٣].

□ وقال صاحب «الأعلام»: «وكانت طريقته في التأليف أن يكتب من حفظه وتجاربه ومشاهداته ومستنبطاته، وقلَّ أن يراجع أو ينقل»، ثم تراه يقول آخرًا: «وخلَّف مالًا كثيرًا، ووقف كتبه وأملاكه على البيمارستان المنصوري بالقاهرة!!» [٤].

□ وفي أيامه الأخيرة مرض ابن النفيس مرضًا شديدًا، وقد حاول الأطباء أن يعالجوه بالخمر إلَّا أنه دفعها عن فمه وهو يقاسي عذاب المرض قائلًا: «لا ألقى الله تعالى وفي جوفي شيءٌ من الخمر!!»، ولم يدهم في مرضه هذا طويلًا حتى وافته المنية، وكان ذلك سنة ٦٨٧هـ- ١٢٨٨م [٥]؛ فرحمه

---

(١) «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة (١/ ١٠٧).
(٢) «١٠٠ عالم غيّروا وجه العالم» لأكرم عبد الوهاب (ص٤١)، و«طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة (١/ ١٠٧).
(٣) «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة (١/ ١٠٧).
(٤) «الأعلام» للزِّركلي (٤/ ٢٧١).
(٥) المصدر السابق (٤/ ٢٧١).

الله رحمة واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

المسلمون وابتكار المستشفيات:

لا شك أن إسهامات المسلمين في مجال الطب لا تُحصى، ولعل من أجَلِّ هذه الإسهامات وأعظمها أن المسلمين هم أول من أسس المستشفيات في العالم، بل إنهم سبقوا غيرهم في ذلك الأمر بأكثر من تسعة قرون!!

فقد أُسِّس أول مستشفى إسلامي في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، والذي حكم من سنة ٨٦هـ إلى سنة ٩٦هـ، وكان هذا المستشفى متخصصًا في الجذام [١]، وأنشئت بعد ذلك المستشفيات العديدة في العالم الإسلامي، وبلغ بعضها شأوًّا عظيمًا؛ حتى كانت هذه المستشفيات تُعدَّ قلاعًا للعلم والطب، وتُعتبر من أوائل الكليات والجامعات في العالم بينما أُنشِئ أول مستشفى أوروبي في باريس بعد ذلك بأكثر من تسعة قرون!!

وكانت المستشفيات تُعرف بـ «البيمارِ سْتانات»، وكان منها الثابت ومنها المتنقَّل، فالثابت هو الذي يُنشَأ في المدن، وقلَّما تجد مدينـة إسلامية -ولو صغيرة- بغير مستشفى، أما المستشفى المتنقل فهو الذي يجوب القرى البعيدة والصحارى والجبال!!.

وكانت المستشفيات المتنقَّلة تُحمَل على مجموعة كبيرة من الجِمال «وصلت في بعض الأحيان إلى أربعين جملًا!! وذلك في عهد السلطان محمود السلجوقي رحمه الله، والذي حكم من سنة ٥١١ هـ إلى سنة ٥٢٥هـ

---

(١) «تاريخ الطبري» (٤/ ٢٩).

وكانت هذه القوافل مُزَوَّدة بالآلات العلاجية والأدوية، ويرافقها عدد من الأطباء، وإن بمقدورها الوصول إلى كل رقعة في الأمة الإسلامية[١].

وقد وصلت المستشفيات الثابتة في المدن الكبرى إلى درجة راقية جدًّا في المستوى، وكان من أشهرها المستشفى العضُدي ببغداد، والذي أنشئ في سنة ٣٧١هـ، والمستشفى النوري بدمشق، والذي أنشئ في سنة ٥٤٩هـ، والمستشفى المنصوري الكبير بالقاهرة، والذي أُنشئ سنة ٦٨٣هـ، وكان بقرطبة وحدها أكثر من خمسين مستشفى!![٢].

وكانت هذه المستشفيات العملاقة تُقسَّم إلى أقسام بحسب التخصص؛ فهناك أقسام للأمراض الباطنة، وأقسام للجراحة، وأقسام للأمراض الجلدية، وأقسام لأمراض العيون، وأقسام للأمراض النفسية، وأقسام للعظام والكسور وغيرها.

ولم تكن تلك المستشفيات مجرد دور علاج، بل كانت كلّيات طب حقيقية على أرقى مستوى؛ فكان الطبيب المتخصص «الأستاذ» يمرُّ على الحالات في الصباح، ومعه الأطباء الذين هم في أولى مراحلهم الطبية، فيعلمهم، ويدوِّن ملاحظاته، ويصف العلاج، وهم يراقبون ويتعلمون، ثم ينتقل الأستاذ بعد ذلك إلى قاعة كبيرة ويجلس حوله الطلاب فيقرأ عليهم الكتب الطبية، ويشرح ويوضِّح، ويجيب عن أسئلتهم، بل إنه يعقد لهم امتحانًا في نهاية كل برنامج تعليمي معين ينتهون من دراسته، ومن ثم يعطيهم إجازة في الفرع الذي تخصصوا فيه.

---

(١) «تاريخ الحكماء» لابن القفطي (ص٤٠٥).

(٢) «الطب عند العرب والمسلمين» (ص٣٢٨، ٣٢٩).

وكانت المستشفيات الإسلامية تضم في داخلها مكتبات ضخمة تحوي عددًا هائلًا من الكتب المتخصصة في الطب والصيدلية وعلم التشريح ووظائف الأعضاء، إلى جانب علوم الفقه المتعلقة بالطب، وغير ذلك من علوم تهم الطبيب.

□ ومما يذكر على سبيل المثال -لنعرف ضخامة هذه المكتبات- أن مكتبة مستشفى ابن طولون بالقاهرة كانت تضم بين جنباتها أكثر من مئة ألف كتاب!!.

□ وكانت تُزرَع -إلى جوار المستشفيات- المزارع الضخمة التي تنمو فيها الأعشاب الطبية والنباتات العلاجية؛ وذلك لإمداد المستشفى بما يحتاجه من الأدوية.

□ أما الإجراءات التي كانت تُتخذ في المستشفيات لتجنب العدوى فكانت من نوع خاص فريد؛ فكان المريض إذا دخل المستشفى يُسلِّم ملابسه التي دخل بها، ثم يُعطَى ملابس جديدة مجانية لمنع انتقال العدوى عن طريق ملابسه التي كان يرتديها حين مرضه، ثم يدخل كل مريض في عنبر مختص بمرضه، ولا يُسمح له بدخول العنابر الأخرى لمنع انتقال العدوى أيضًا، وينام كل مريض على سرير خاص به، وعليه ملاءات جديدة وأدوات خاصة!!.

□ قارن كل ذلك بالمستشفى الذي أُنشئ في باريس بعد هذه المستشفيات الإسلامية بقرون، حيث كان المرضى يُجبرون على الإقامة في عنبر واحد، وذلك بصرف النظر عن نوعية أمراضهم، بل ويُضطرون لنوم ثلاثة أو أربعة، وأحيانًا خمسة من المرضى على سريرٍ واحدًا!! فتجد

مريض الجدري إلى جوار حالات الكسور إلى جوار السيدة التي تلد!! كما كان الأطباء والمرضون لا يستطيعون دخول العنابر إلَّا بوضع كمَّامات على الأنف من الرائحة شديدة العفونة في داخل هذه العنابر! بل كان الموتى لا يُنقلون إلى خارج العنابر إلَّا بعد مرور أربع وعشرين ساعةً على الأقل حتى الوفاة!! ولك أن تتخيل مدى خطورة هذا الأمر على بقية المرضى!!(١).

□ وإذا أردنا أن نستعرض بعضًا من المستشفيات الرائدة في التاريخ الإسلامي، فكان من أعظمها: المستشفى العضُدي، الذي أنشأه عضد الدولة ابن بويه عام ٣٧١هـ في بغداد، وكان يقوم بالعلاج فيه عند إنشائه أربعة عشرون طبيبًا، تزايدوا بعد ذلك جدًّا، كما كان يضم مكتبة علمية فخمة وصيدلية ومطابخ، وكان يخدم فيه عدد ضخم من الموظفين والفرَّاشين، وكان الأطباء يتناوبون على خدمة المرضى بحيث يكون هناك أطباء بالمستشفى أربعةً وعشرين ساعة يوميًّا.

□ ومن المستشفيات الإسلامية العظمى أيضًا: المستشفى النوري الكبير بدمشق، والذي أنشأه السلطان العادل نور الدين محمود الشهيد رحمه الله، وذلك في سنة ٥٤٩هـ، وكان من أجَلِّ المستشفيات وأعظمها، واستمر في العمل فترة طويلة جدًّا من الزمان، حيث بقي يستقبل المرضى حتى سنة ١٣١٧هـ - ١٨٩٩م أي قرابة ثمانمئة سنة!!

□ كذلك من أعظم المستشفيات في تاريخ الإسلام: المستشفى المنصوري الكبير، الذي أنشأه الملك المنصور سيف الدين قلاوون رحمه الله في

(١) «من روائع حضارتنا» للدكتور مصطفى السباعي (ص١١٦، ١١٧).

القاهرة، وذلك سنة ٦٨٣هـ، وكان آية من آيات الدنيا في الدقة والنظام والنظافة، وكان من الضخامة بحيث إنه كان يعالج في اليوم الواحد أكثر من أربعة آلاف مريض!!.

□ ولا ننسى في هذا المضمار مستشفى مراكش، والذي أنشأه المنصور أبو يوسف يعقوب رحمه الله، ملك دولة الموحدين بالمغرب، والذي حكم من ٥٨٠هـ إلى ٥٩٥هـ، وكان بناء هذا المستشفى آية من آيات الإتقان والروعة! فقد غُرست فيه جميع أنواع الأشجار والزروع، بل كانت في داخله أربع بحيرات صناعية صغيرة!! وكان على مستوى عالٍ جدًّا من حيث الإمكانيات الطبية والأدوية الحديثة والأطباء المهرة[1].

لقد كان -بحق- درَّة في جبين الأمة الإسلامية.

ليس هذا فقط، بل كانت هناك المستشفيات المتخصصة، التي لا تعالج إلَّا نوعًا معينًا من الأمراض: كمستشفيات العيون، ومستشفيات الجذام، ومستشفيات الأمراض العقلية، وغير ذلك.

□ وأعجب منه وأغرب: أنه كانت توجد في بعض المدن الإسلامية الكبرى أحياء طبية متكاملة؛ فقد حدَّث ابن جبير رحمه الله في رحلته التي قام بها في سنة ٥٨٠هـ تقريبًا، أنه رأى في بغداد -عاصمة الخلافة العباسية- حيًّا كاملًا من أحيائها يشبه المدينة الصغيرة، يتوسطه قصر فخم جميل، تحيط به الحدائق والبيوت المتعددة، وكان كل ذلك وقفًا على المرضى، وكان يؤمه الأطباء من مختلف التخصصات، فضلًا عن الصيادلة وطلبة الطب، وكانت النفقة جارية عليهم من الدولة ومن الأوقاف التي يجعلها

---

(١) المصدر السابق (ص١١٠- ١١٨).

الأغنياء من الأمة لعلاج الفقراء وغيرهم[١].

الرازي معجزة الطب عبر الأجيال:

لم يكن الرازي طبيبًا فحسب، ولا معلمًا فقط.. ولكنه أبدع كذلك في مجالات الأخلاق والقيم والدين.. كما أبدع -ولا شك في ذلك- في مجال الإنسانية.. حتى أصبح علمًا من أعلام الفضيلة، كما كان علمًا من أعلام الطب.. ولا شك أن هذا الرجل العظيم من أعظم صورة الحضارة الإسلامية.

□ فهو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي.. وقد وُلِدَ في مدينة الرَّي وإليها نُسِب.. ومدينة الري تقع على بعد ستة كيلومترات جنوب شرقي طهران وكان ميلاده في سنة ٢٥٠هـ- ٨٦٤م، وكان منذ طفولته محبًا للعلم والعلماء، فدرس في بلدته «الري» العلوم الشرعية والطبية والفلسفية[٢].

ولكن هذا لم يُشْبع نَهَمَه لطب العلم، فلم تكن مدينة الري - على اتساعها وكثرة علمائها- بالمدينة التي تحوي علوم الأرض في ذلك الوقت، ولذلك يمَّم الرازي وجهه شطر عاصمة العلم في العالم في ذلك الوقت وهي «بغداد» عاصمة الخلافة العباسية، فذهب إليها في شِبه بعثة علمية مكثفة، تعلم فيها علومًا كثيرة، ولكنه ركَّز اهتمامه في الأساس على الطب، وكان أستاذه الأول في هذا المجال هو «علي بن زين الطبري»، وهو صاحب أول موسوعة طبية عالمية «فردوس الحكمة»[٣].

---

(١) المصدر السابق (ص١٠١).

(٢) «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» (١/ ٦٣).

(٣) «نوابغ المسلمين» لمصطفى وهبة (١/ ١١٧).

□ اهتمَّ الرازي أيضًا بالعلوم التي لها علاقة بالطب، كعلم الكيمياء والأعشاب [١]، وكذلك علم الفلسفة؛ لكونه يحوي آراء الكثير من الفلاسفة اليونان والذين كانوا يتكلمون في الطب أيضًا.. وكان أستاذه الأول في الفلسفة هو «البلخي»[٢]، وهكذا أنفق الرازي عدة سنوات من عمره في تعلم كل ما يقع تحت يديه من أمور الطب، حتى تفوق في هذا المجال تفوقًا ملموسًا.. ثم عاد الرازي بعد هذا التميز إلى الري فتقلَّد منصب مدير مستشفى مدينة الري، وكان من المستشفيات المتقدمة في الإسلام، وذاعت شهرته، ونجح في علاج الكثير من الحالات المستعصية في زمانه، وسمع بأمره الكبير والصغير والقريب والبعيد، حتى سمع به «عضد الدولة بن بويه» كبير الوزراء في الدولة العباسية فاستقدمه إلى بغداد ليتولى منصب رئيس الأطباء في المستشفى العضدي، وهو أكبر مستشفى في العالم في ذلك الوقت،وكان يعمل به خمسون طبيبًا [٣].

□ والحق أنه لم يكن مستشفى فقط بل كان جامعة علمية وكليَّة للطب على أعلى مستوى، وقد أصبح الرازي فيه مرجعية علمية لا مثيل لها، ليس في بغداد فقط، وإنما في العالم كله، وليس على مدى سنوات معدودة، ولكن لقرون متتالية، فكان معجزة الطب عبر الأجيال!!.

□ ولعلَّه من المهم جدًّا أن نقف وقفة ونتساءل: كيف وصل الرازي إلى هذا المجد، وإلى هذه المكانة؟

---

(١) «الفهرست» لابن النديم (١/ ٤١٦).

(٢) «أبجد العلوم» (٣/ ١١٤) للقنوجي.

(٣) «رُوَّاد في الحضارة الإسلامية» للدفاع (ص٢١٨).

□ لا بدَّ أن نعلم أن النجاح لا يأتي مصادفة، وأن التفوق لا يكون إلَّا بجهد وتعب وبذل وتضحية، كما أن الإبداع لا يكون عشوائيًا أبدًا، إنما يحتاج إلى تخطيط وتدريب ومهارة، وهكذا كانت حياة الرازي رحمه الله.

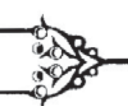
□ لقد بحث الرازي عن العلم في كل مصادره، واجتهد قدر استطاعته في تحصيل كل ما يقع تحت يده من معلومات، ثم أتبع ذلك بتفكير عميق وتجارب متعددة ودراسة متأنية، حتى بدأ يعدِّل في النظريات التي يقرؤها، وأخذ ينقد ويحلل، ثم وصل إلى الاختراع والإبداع.

□ لقد انتشر في زمان الرازي الطب اليوناني والفارسي والهندي والمصري نتيجة اجتهاد العلماء في ترجمة كتب تلك الأمم، فقرأها الرازي جميعًا، لكنه لم يكتف بالقراءة بل سلك مسلكًا رائعًا من أرقى مسالك العلم وهو الملاحظة والتجربة والاستنتاج.

□ فقد كان الطب اليوناني هو أهم طب في تلك الفترة، ولكنه كان يعتمد في الأساس على النظريات غير المجرَّبة، وكان كل أطباء اليونان يعتمدون هذه الطريقة حتى عرفوا بفلاسفة الطب، فهم لم يُخضعوا نظرياتهم لواقع الحياة إلَّا قليلًا، ولا يُستثنَى من ذلك أحدٌ من أطباء اليونان حتى العمالقة منهم أمثال جالينوس وأبقراط!! ولكن الرازي قال كلمته المشهورة التي تعتبر الآن قانونًا من قوانين العلم بصفة عامة والطب بصفة خاصة، قال: «عندما تكون الواقعة التي تواجهنا متعارضة والنظرية الرائدة وجب قبول الواقعة، حتى وإن أخذ الجميع بالنظرية تأييدًا لمشاهير العلماء!!»[1].

---

(١) «طبقات الأطباء» (١/ ٧٧، ٧٨).



□ ولذلك نجد أن الرازي كثيرًا ما انتقد آراء العلماء السابقين نتيجة تجاربه المتكررة، بل إنه أَلَّف كتابًا خصِّيصًا للرد على جالينوس أعظم أطباء اليونان وسمَّى الكتاب «الشكوك على جالينوس»، ذكر في هذا الكتاب الأخطاء التي وقع فيها جالينوس، والتصويب الذي قام هو به لهذه الأخطاء، وكيف وصل إلى هذه النتائج (١).

□ بل إن الرازي وصل إلى ما هو أروع من ذلك، حيث أرسى دعائم الطب التجريبي على الحيوانات، فقد كان يجرب بعض الأدوية على القرود، فإن أثبتت كفاءة وأمانًا جربها مع الإنسان، وهذا من أروع ما يكون، ومعظم الأدوية **الآن لا** يمكن إجازتها إلَّا بتجارب على الحيوانات كما كان يفعل الرازي رحمه الله (٢).

ولقد كان من نتيجة هذا الأسلوب العلمي المتميز للرازي، أن وصل إلى الكثير من النتائج المذهلة، وحقق سبقًا علميًا في كثير من الأمور.

فالرازي هو أول مبتكر لخيوط الجراحة، وقد ابتكرها من أمعاء القطة! وقد ظلت تستعمل بعد وفاته لعدة قرون، ولم يتوقف الجراحون عن استعمالها إلَّا منذ سنوات معدودة في أواخر القرن العشرين، عند اختراع أنواع أفضل من الخيوط، وهذه الخيوط هي المعروفة بخيوط أمعاء القط (٣).

---

(١) المصدر السابق (١/ ٦٨).

(٢) «طبقات الأطباء» (١/ ٧٨).

(٣) «الموجز لما أضافه العرب في الطب» (ص٤٣).

والرازي هو أول من صنع مراهم الزئبق [(١)].

وهو أول من فرَّق بين النزيف الوريدي والنزيف الشرياني، واستخدم الضغط بالأصابع لإيقاف النزف الوريدي، واستخدم الربط لإيقاف النزيف الشرياني، وهذا عين ما يستخدم الآن!!

وهو أول من وصف عملية استخراج الماء من العيون [(٢)].

وهو أول من استخدم الأفيون في علاج حالات السعال الجاف.

وهو أول من أدخل الملِيِّنات في علم الصيدلة.

وهو أول من اعتبر الحمَّى عرضًا لا مرضًا [(٣)].

وكان رحمه الله يهتم بالتعليق على وصف البول ودم المريض للخروج منهما بمعلومات تفيده في العلاج [(٤)].

كما نصح بتجنب الأدوية الكيميائية إذا كانت هناك فرصة للعلاج بالغذاء والأعشاب، وهو عين ما ينصح به الأطباء الآن [(٥)].

ولم يكن الرازي مبدعًا في فرع واحد من فروع الطب، بل قدم شرحًا مفصلًا للأمراض الباطنية والأطفال والنساء والولادة والأمراض التناسلية والعيون والجراحة وغير ذلك.

---

(١)«قصة الحضارة» لول ديورانت (٤/ ٤).

(٢)«الطب عند العرب والمسلمين» لمحمود الحاج قاسم (ص٣٠٨) نقلًا عن مجلة جامعة الموصل عدد ١٥، السنة الثانية (ص٦٧) مقال لعبد المنعم عبد الحميد.

(٣)«الطب عند العرب والمسلمين» (ص٧٢).

(٤)«الحاوي» للرازي (١٠/ ١٠).

(٥)«نوابغ المسلمين» (١/ ١٢١).

□ ولم يكن الرازي يكتفي فقط بالتدريس والتعليم والامتحانات لنقل العلم، بل اهتم بجانب آخر لا يقل أهمية عن هذه الجوانب وهو جانب التأليف، فكان رحمه الله مُكثرًا من التأليف وتدوين المعلومات وكتابة الكتب الطبية، حتى أحصى له ابن النديم في كتابه «الفهرست» ١١٣ كتابًا و٢٨ رسالة، وهذا عدد هائل، خاصةً وأنها جميعًا في مجال الطب[١].

وقد كان من أعظم مؤلفات الرازي كتاب«الحاوي في علم التداوي» وهو موسوعة طبية شاملة لجميع المعلومات الطبية المعروفة حتى عصر الرازي، وقد جمع فيه رحمه الله كل الخبرات الإكلينيكية التي عرفها، وكل الحالات المستعصية التي عالجها، وتتجلى في هذا الكتاب مهارة الرازي رحمه الله، ودقة ملاحظاته، وغزارة علمه، وقوة استنتاجه.

وقد تُرجِم هذا الكتاب إلى أكثر من لغة أوروبية، وطُبع لأول مرة في بريشيا بشمال إيطاليا سنة ٨٩١هـ- ١٤٨٦م، وهو أضخم كتاب طُبع بعد اختراع المطبعة مباشرة، وكان مطبوعًا في ٢٥ مجلدًا، وقد أُعيدت طباعته مرارًا في البندقية بإيطاليا في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ويذكر المؤرخ «ماكس مايرهوف» أنه في عام ١٥٠٠ ميلادية كان هناك خمس طبعات لكتاب الحاوي مع عشرات الطبعات لأجزاء منه.

□ ومن كتبه أيضًا «المنصوري»، وقد سماه بهذا الاسم نسبة إلى المنصور بن إسحاق حاكم خراسان، وقد تناول فيه موضوعات طبية متعددة في الأمراض الباطنية والجراحة والعيون، وقد تعمَّد الرازي

---

(١) «الفهرست» لابن القيم (١/ ٤٢٠).

الاختصار في هذا الكتاب فجاء في عشرة أجزاء!! لذلك رغب العلماء الأوروبيون في ترجمته عدة مرات إلى لغات مختلفة، منها اللاتينية والإنجليزية والألمانية والعبرية! وقد تم نشره لأول مرة في ميلانو سنة ١٤٨١م، وظل مرجعًا لأطباء أوروبا حتى القرن السابع عشر الميلادي[١].

□ ومن أروع كتبه كذلك كتاب «الجدري والحصبة»، وفيه يتبين أن الرازي أول من فرق بين الجدري والحصبة، ودوَّن ملاحظات في غاية الأهمية والدقة للتفرقة بين المرضين، وقد أُعيدت طباعة هذا الكتاب في أوروبا أربع مرات بين عامي (٩٠٣- ١٢٨٣هـ) (١٤٩٨- ١٨٦٩م)[٢].

□ ومن كتبه أيضًا كتاب «الأسرار في الكيمياء»، والذي بقي مدة طويلة مرجعًا أساسيًّا في الكيمياء في مدارس الشرق والغرب[٣].

□ ومن كتبه المهمة كذلك كتاب «الطب الروحاني» الذي ذكر فيه أن غايته من الكتاب هو إصلاح أخلاق النفس، وحضَّ في كتابه هذا على تكريم العقل، وعلى قمع الهوى ومخالفة الطباع السيئة وتدريب النفس على ذلك[٤].

□ وألف أيضًا «طب الفقراء»[٥] و«أخلاق الطبيب».

هذا.. وقد اعترف القاصي والداني لأبي بكر الرازي بالفضل والمجد والعظمة والعلم والسبق، ولا نقصد بذلك المسلمين فقط، بل اهتم غير

---

(١) «تطور الفكر العلمي عند المسلمين» (ص١٩٢).

(٢) «الطب عند العرب والمسلمين» (ص٧٣).

(٣) «تطور الفكر العلمي عند المسلمين» (ص١٩١).

(٤) «في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية» لعامر النجار (ص٩٥).

(٥) المصدر السابق (ص١١٥، ١١٦).

المسلمين أيضًا بإنجازات الرازي وابتكاراته.

فنجد فضلًا عن ترجمة كتبه إلى اللغات الأوروبية وطبعها أكثر من مرة، نجد إشارات لطيفة وأحداثًا عظيمة تشير إلى أهمية ذلك العالم الجليل، ومن ذلك أن الملك الفرنسي الشهير لويس الحادي عشر، والذي حكم من عام ١٤٦١م إلى ١٤٨٣م، قد دفع الذهب الغزير لينسخ له أطباؤه نسخة خاصة من كتاب «الحاوي»؛ كي يكون مرجعًا لهم إذا أصابه مرض ما!!.

□ ونجد أن الشاعر الإنجليزي القديم «جوفري تشوسر» قد ذكر الرازي بالمدح في إحدى قصائده المشهورة في كتابه «أقاصيص كونتربري»!!

ولعله من أوجه الفخار أيضًا أنه رغم تطور العلم وتعدد الفنون إلَّا أن جامعة «بربستون» الأمريكية ما زالت تطلق اسم الرازي على جناح من أكبر أجنحتها [(١)]، كما تضع كلية الطب بجامعة باريس نصبًا تذكاريًا للرازي، بالإضافة إلى صورته في شارع سان جيرامان بباريس.

□ لقد كان الرازي بحق صورة رائعة من صورة الحضارة الإسلامية، قلَّما تتكرر في التاريخ، لقد كان طبيبًا وعالمًا ومعلمًا وإنسانًا، عاش حياته لخدمة الإسلام والعلم والبشرية، ومات عن عمر بلغ ستين عامًا، وكانت وفاته في شعبان ٣١١هـ/ نوفمبر ٩٢٣م [(٢)].

ومن نوابغ المسلمين في الطب:

□ «عمار بن علي الموصلي.. - نحو ٤٠٠هـ» امتاز بعلم أمراض

---

(١) «أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية» (ص١٣٨).

(٢) «العلم وبناء الأمم» (ص٥٣٥- ٥٤٢) ملخَّصًا.

العيون ومداواتها، له كتاب: «المنتخب -خ» في علم طب العين، وعِلَلِها ومداواتها.

□ و«علي بن عيسَى بن علي الكحَّال..- ٤٣٠هـ» كان طبيبًا حاذقًا في أمراض العيون ومداواتها، واشتهر بكتابه «تذكرة الكحَّالين».

وكان يسمَّى طَبِيبُ العيون كحَّالًا.

ابن الجزَّار:

هو «أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد القيرواني..- ٣٦٩هـ» طبيب مؤرخ من أهل القيروان، له عدَّة مؤلفات، منها:

كتاب: «زاد المسافر وقوت الحاضر -خ» في الطب، وهو مجلَّدان، ترجم إلى اللاتينية واليونانية والإيطالية، وكتاب: «الاعتماد- خ» في الأدوية المفردة. وكتاب: «البغية» في الأدوية المركبة. وكتاب «طب الفقراء- خ». وكتاب: «أسباب الوباء بمصر والحيلة في دفعه».

ولشدَّة اهتمام غير المسلمين بهذا الطبيب المسلم تُرجِمَتْ بعض مؤلفاته.

علي بن عباس:

هو «علي بن عباس.. نحو ٤٠٠هـ» كان أبوه مجوسيًّا، فارسيُّ الأصل، من أهل الأهواز، عالم بالطب، من تلاميذ «موسى بن يوسف بن سيَّار المتوفَّى سنة ٣٨٤هـ».

كان متصلًا بعَضدُ الدولة ابن بويه، وصنَّف له كتاب: «كامل الصناعة الطبيَّة الضروريَّة-ط» ويُسمَّى الكتاب الملكِّي، تُرْجِم إلى اللاتينية، وطبع في فيينا سنة ١٤٩٢م.

انتقد في كتبه ما اعتقد من الأغاليط في كتب أبقراط وجالينوس

وغيرهما.

ابن رُشْد:

هو «أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رُشْد الأندلسي ٥٢٠-٥٩٥هـ» من أهل قرطبة، وهو ابن رُشد الحفيد تمييزًا له عن جدَّه.

عُنِي بكلام أرسطو، وترجمه إلى العربية، وله مصنَّفات كثيرة في الفلسفة والفقه والطبِّ وغيرها.

□ قال ابن الأبَّار: «كان يُفْزَعُ إلى فتواه في الطب، كما يُفْزَعُ إلى فتواه في الفقه».

له في الطب «الكليَّات» مطبوع بالتصوير الشَّمْسي، تُرْجم إلى اللاتينيَّة والإسبانية والعبريَّة.

ابن خاتمة:

هو «أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن خاتمة.. -بعد ٧٧٠هـ».

طبيب مؤرخ من الأدباء البلغاء من أهل الْمَرِيَّة بالأندلس.

له كتاب: «تحصيل غرض القاصد في المرض الوافد-خ» وضعه سنة (٧٤٧هجرية).

وبحثه في هذا الكتاب تفوق على جميع البحوث العديدة التي انتشرت في أوروبا عن الطاعون، فيما بين القرن الرابع والقرن السادس عشر الميلادية، وهذا موضوع لم يعالجه من قبل أطباء اليونان قط، ومرَّ عليه الكاتبون في الطبِّ في القرون الوسطى مرَّ الكرام.

العلاجات والعقاقير:

□ وكان الأطباء المسلمون يُعِدُّون بأنفسهم الأدوية والعلاجات

والعقاقير، ويركِّبُون المركبات الدوائيَّة، ويُعْطونها لمرضاهم، فهم أطباء وصيادلة معًا.

□ ووضع المسلمون أول مؤلَّف في العقاقير، وأنشَؤُوا أوَّل صيدلية عرفها التاريخ البشري.

واشتهرت مهارتهم في صناعة العقاقير العلاجية، حتَّى صارت مطلوبةً من مختلف بلدان العالم، وازدهرت تجارة العقاقير المصدرة من بُلدان العالم الإسلامي إلى سائر البلدان، لِمَا رأى الناس فيها، من نَفْعٍ وتأثير، فقد كانت عقاقيرهم تُرْسَلُ إلى أوروبا وإفريقية والصين والهند وسيلان، وكان استيراد عقاقير البلاد الإسلامية من أهَمِّ عناصر التجارة بينها وبين إيطاليا.

الأدوات الطبيَّة:

واهتمَّ الأطباء المسلمون بصُنْعِ الآلات والأدوات الطبيَّة، ومنها الآلات الجراحيَّة المختلفة، وتوجَدُ في كتُبهم صُوَرٌ لها، وتُوجَد في المتاحف الغربية وغيرها نماذج عديدة منها.

المصنَّفات في الطبِّ والعقاقير:

□ ولأطبَّاء المسلمين مصنَّفاتٌ ضَخْمَةٌ وكثيرة، في الطبِّ والمفردات التي تستخدم في الأدوية والعلاجات، وتركيب الأدوية والعقاقير.

وبقيت مؤلَّفَاتُ أطباء المسلمين تُدَرَّسُ في جامعات أوروبَّا متعمدَةً، حتَّى بداية القرن الثامن عشر الميلادي، الثاني عشر الهجري.

ابن البيطار إمام الصيادلة:

هو «ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد المالقي المعروف بابْنِ

البيطار ..- ٦٤٦هـ».

إمام النباتيين وعلماء الأعشاب، وُلِدَ في «مالقة» وهي: مرفأ في جنوب إسبانيا بالأندلس على البحر الأبيض المتوسط، وتعلَّم الطبَّ، ورحل إلى بلاد الأغارقة وأقصى بلاد الروم، باحثًا عن الأعشاب والعارفين بها، حتَّى كان الحجَّةَ في معرفة أنواع النبات، وتحقيقه وصفاته وأسمائه وأماكنه.

وجعله الملك «محمد الكامل الأيوبي» رئيسًا للعشَّابين في الديار المصريَّة، واستبقاه الملك «الصالح أيوب»، واشتهر شُهْرةً عظيمة.

وهو صاحب كتاب: «الأدوية المفردة- ط» في مجلّدين، المعروف بمفردات ابن البيطار، وله كتاب: «المغني في الأدوية المفردة- خ» مرتب على مداواة الأعضاء. وله كتاب: «ميزان الطبيب- خ» وله غيرها من الكتب.

٢- الكيمياء [1] وعلوّ همة علماء المسلمين فيها:

□ كان للمسلمين اهتمام بالغ في علم الكيمياء المبنيّ على التجربة، والملاحظة، ورصد النتائج، والاستعانة بالعلوم الرياضية، ودَأَبَ المشتغلون منهم في هذا المجال وتجوَّلُوا في البلدان بحثًا عن تَجاربِ الناس وما اكتسبوا من خِبْرَاتٍ علمية، ودونوا ما توَصَّلُوا إليه من معارف، حتَّى صارتِ الكيمياءُ علمًا صحيحًا بفضل جهودهم الطويلة، وتجرباتِهم الكثيرة التي أفادوا منها علمًا وأفادوا منها في حياتهم، وقدَّموا بها للصناعات منافع كثيرة كانت لها آثارها الطيِّبة في الرقيّ الحضاري.

---

(١) انظر: «العلوم البحتة في العصور الإسلامية» لعمر رضا كحالة، وكتاب «العلوم عند العرب» لقدري حافظ طوقان.

□ وممَّا ينبغي التَّنْبِيه عليه أنَّهم استعملوا القياس في تجرباتهم، واجتهدوا اجتهادات مضنياتٍ للحصول على معلوماتٍ جَدِيدات لمْ تكن معروفة للنَّاس من قَبْلُ.

وكان اعتمادُهم على التجربة المتابَعَةِ بالتكرار والتحسين والتجويد، والمصحوبة بالمراقبة ودِقَّة الملاحظة، والمقترنة باختبار مختَلِف الاحتمالات وملاحظة نتائجها، مع استخدام ما كان لدى الناس وما ابتكروه من أدوات وآلات، سببًا في تمكينهم من اسْتِنْتاجات جَدِيدَةٍ جَلِيلة، وإضافَةِ مَعْلوماتٍ جوهريَّة في عِلْمِ الكيمياء، وسببًا في توصُّلهم إلى ابتكاراتٍ واكتشافاتٍ كثيرة، وتقدَّم بهم علْمُ الكيمياء تقدُّمًا واسعًا.

□ وقاد المنهجُ التجريبيُّ عُلَماءَ المسلمين الذين اشتغلوا بالكيمياء لاختراع التصفية، والتبخير، ورفع الأثقال، واستخدام الموازنة في الكيمياء.

وبه توصّلُوا إلى استخدام عمليَّات التقطير، والترشيح، والتصعيد، والتذويب، وإلى اكتشاف واختراع وسائل ذلك.

وبه اكتشفوا بعض الأجزاء الكيميائية ذات الأهمية، وبه استخرجوا الكُحول «الغَوْل» من المواد السكريَّة، والنشويَّة، واكتشفوا القلويات، والنشادر، ونترات الفضة، وحامض الطرطير، والراسب الأحمر.

□ وكانوا أوَّل من استحضر حامض الكبريتيك، وحامض النتريك، والماء الملكي «حامض النتروهيدروكلوريك» وماء الذهب، والصودا الكاوية، وكربونات البوتاسيوم، وكربونات الصوديوم.

واستخدموا الزرنيخ، والإثمد، ومواد كثيرة أخرى.

□ وما توصل المسلمون إليه بالعمليَّات الكيميائية التي أجْرَوْها، وما اكتشفوه أو اكتشفوا تأثيراته من المواد الكيميائية، هو من العناصر التي تقوم عليها الصناعات الحديثة في القرن العشرين الميلادي.

□ واستخدم المسلمون علْمَ الكيمياء في الطب، والصناعات، وصنع العقاقير، وتركيب الأدوية، وتنقية المعادن، وتركيب الروائح العطريَّة، ودبغ الجلود، وصَبْغِ الأقمشة.

□ وكان من وصايا أهل البصيرة والرُّشد من علماء المسلمين المشتغلين بالكيمياء، وجوبُ الاعتماد في الكيمياء على العمل وإجراء التجارب، ومعرفة الأسباب في أجزاء كلِّ عمليَّة، مع الصَّبْر والمثابرة والتأنِّي في استخراج واستنباط النتائج، وكان من وصايا هؤلاء وجوبُ عدَمِ إضاعة الأوقات فيما هو عديم النَّفْع، أَوْ ثبت بالتجربات المتكرراتِ تعذُّر الوصول إليه، كتحويل المعادن الخسيسة كالرصاص والقصدير، إلى معادن نفيسَةٍ كالذهب والفضَّة.

□ وقد اعتمدت النهضة الغربية العلمية والعملية على منهج علماء المسلمين التجريبي، وعلى ما توصلوا إليه في علم الكيمياء، وكان هذان الأمران هما القاعدتين الأساسيّتان، اللتان أقام عليهما الباحثون الغربيون في علم الكيمياء نهضَتَهُم، التي انطلقت صاعدة منذ بدايات القرن السابع عشر الميلادي، وفي حركة البناء والصعود الحضاري طوَّروا وجَوَّدُوا وحَسَّنُوا وابْتكَروا وتفوقوا.

□ وقد برز في تاريخ المسلمين في مجال الكيمياء أعلام كثيرون أذكر طائفة منهم فيما يلي:

أبرز علماء المسلمين في الكيمياء:

١- أبو الكيمياء جابر بن حيان الصوفي [(١)] مؤسس علم الكيمياء:

وصفه ابن خلدون في مقدمته وهو بصدد الحديث عن علم الكيمياء فقال: «إمام المدونين فيها جابر بن حيان، حتى إنهم يخصونها به فيسمونها: «علم جابر»، وله فيها سبعون رسالة» [(٢)].

إنه أبو موسى جابر بن حيان بن عبد الله الأزدي، نسبة إلى قبيلة أزد اليمنية التي هاجر البعض منها إلى الكوفة بعد انهيار سد مأرب. وُلِدَ في «طوس» واستقرَّ في بغداد بعد قيام الدولة العباسية، وتوثقت علاقته بأسرة البرامكة الفارسية، وامتدت حياته ما بين (١٠٣- ٢٠٠هـ/ ٧٢١- ٨١٥م) [(٣)] ويُعرَف بـ «الصوفي».

يُعَد مؤسس علم الكيمياء التجريبي؛ فهو أول من استخلص معلوماته الكيميائية من خلال التجارب والاستقراء والاستنتاج العلمي،

---

(١) كان شيعيًا، نذكره هنا لتميّزه في علم «الكيمياء» مع التنبيه على بدعته حتى لا يغتر العوام. مثلما ذكرنا من قبله ابن سينا وهو أشنع منه بدعة.
قال ابن قيم الجوزية: «وكان ابن سينا- كما أخبر هو عنه نفسه- هو وأبوه من أهل دعوة الحاكم، من القرامطة الباطنيين». نذكره؛ لأنه كان علمًا في الطب فقد قالوا: كان الطب معدومًا فأوجده بقراط، وكان ميتًا فأحياه جالينوس، وكان متفرِّقًا فجمعه الرازي، وكان ناقصًا فأكمله ابن سينا». ولعل هذا يكون حافزًا لأهل السنة والجماعة أن يكون منهم من يفوق ابن سينا في «الطب» فكل علم شريف نحن أولى به من أهل البدع «بضاعتنا رُدَّت إلينا».

(٢) «مقدمة ابن خلدون» (١/ ٣٢٢).

(٣) «الفهرست» لابن النديم (ص٤٢٠)، و«الأعلام» للزركلي (٢/ ١٠٣).

وكان غزير الإنتاج والاكتشافات، حتى إن الكيمياء اقترنت باسمه فقالوا: «كيمياء جابر»، و«الكيمياء لجابر»، وكذلك: «صنعة جابر». كما أُطلق عليه أيضًا: «شيخ الكيميائيين» و«أبو الكيمياء».

فقبل جابر كان هناك مجموعة من المهن البدائية القديمة، وقد اختلطت مع كثير من الحرف، كالتحنيط «في مصر القديمة» والدِّباغة، والصباغة والتعدين واستخلاص الزيوت، لكن جابر بن حيان استطاع أن يطوِّر الكيمياء ويرفعها من تلك المنزلة البدائية التي كانت عليها إلى منزلة عالية، وذلك بإضافته للكثير من المعارف النظرية والعلمية، وإرسائه أسسَ وأصولَ تحضير المواد الكيميائية والتعامل معها؛ لذلك يُعتبَر ابنُ حيان شيخ الكيميائيين بلا منازع [1].

اتَّصل بالبرامكة، وانقطع إلى «جعفر بن يحيى» منهم، وتوفِّي بطوس.

له تصانيف كثيرة قيل: عددها (٢٣٢) كتابًا، وقيل: بلغت (٥٠٠) ضاع أكثرها، وتُرْجم بعض ما بقي منها إلى اللاتينيَّة.

ولجابر بن حيَّان شهرةٌ كبيرةٌ عند الإفرنج بما نقلوه من كتبه، في بدء نهضتهم العلميَّة.

□ قال «برتلو M.Berthelot »: لجابر في الكيمياء ما لأرسطو طاليس قبله في المنطق».

□ وجابر بن حيَّان هو «أبو المنهج التجريبي في علم الكيمياء».

□ وعن هذا المنهج التجريبي يقول جابر بن حيان: «ومِلاك كمال هذه

---

(١) «١٠٠ عالِمٍ غيَّروا وجه العالم» لأكرم عبد الوهاب (ص١٧).

الصنعة العمل والتجربة؛ فمن لم يعمل ولم يجرِّب لم يظفر بشيء أبدًا»[(١)].

□ وفي كتاب الخواص الكبير المقالة الأولى يقول: «إننا نذكر في هذه الكتب خواص ما رأيناه فقط دون ما سمعناه، أو قيل لنا وقرأناه، بعد أن امتحنَّاه وجرَّبناه، فما صحَّ أوردناه، وما بطل رفضناه، وما استخرجناه نحن أيضًا قايسناه على أحوال هؤلاء القوم»[(٢)].

ولذلك يُعَد جابر أول من أدخل التجربة العلمية المخبرية في منهج البحث العلمي الذي أرسى قواعده، وكان أحيانًا ما يُسمي التجربة بالتدريب، فكان يقول: «فمن كان دَرِبًا كان عالمًا حقًّا، ومن لم يكن دَرِبًا لم يكن عالمًا، وحسبُك بالدربة في جميع الصنائع أن الصانع الدَّرِب يحذق،، وغير الدَّرب يُعطل»[(٣)].

وعليه قطع جابر خطوة أبعد مما قطع اليونان في وضع التجربة أساس العمل.

□ ولقد اهتم هوليارد Holmyard بأعمال جابر ومنهجه العلمي ومؤلفاته، وعكف على إبراز القيمة العلمية لعلمه، وتراه بعد ذلك يقول: «إن الصنعة الخاصة عند جابر هي أنه قد عرف وأكَّد على أهمية التجريب بشكل أوضح من كل من سبقه من الكيميائيين»[(٤)].

---

(١) كتاب «التجريد» لجابر بن حيان، ضمن مجموعة حقَّقها ونشرها هولميارد بعنوان «مصنفات في علم الكيمياء» للحكيم جابر بن حيان، باريس ١٩٢٨م.

(٢) كتاب «الخواص الكبير» (ص٢٣٢) لجابر بن حيان ضمن مجموعة كراوس.

(٣) «كتاب السبعين» لجابر بن حيان (ص٤٦٤)، ضمن مجموعة كراوس.

(٤) «تاريخ العلوم عند العرب» لعمر فروخ (ص٢٥١).

جابر بن حيان أوَّليات وإنجازات:

قام جابر بإجراء كثير من العمليات المخبرية، كان بعضها معروفًا من قبلُ فطوَّره، وأدخل عملياتٍ جديدة. ومن الوسائل التي استخدمها: التبخُّر، والتقطير [(١)]، والتبلُّر [(٢)]، والتسامي [(٣)]، والترشيح [(٤)]، والصَّهر، والتكثيف، والإذابة، ودرس خواص بعض المواد دراسة دقيقة؛ فتعرف على أيون الفضة النشادري المعقد [(٥)].

كما قام بتحضير عدد كبير من المواد الكيميائية، فهو أول من حضَّر حمض الكبريتيك بالتقطير من الشَّب، وحضَّر أكسيد الزئبق، وحمض النتريك؛ أي ماء الفضة، وكان يسميه الماء المحلل أو ماء النار، وحضر حمض الكلوريدريك المسمَّى بروح الملح، وهو أول من اكتشف الصودا الكاوية، وأول من استخرج نترات الفضة وقد سمَّاها حجر جهنم، وثاني كلوريد الزئبق «السليماني»، وحمض النتروهيدروكلوريك «الماء الملكي»، وسُمِّي كذلك؛ لأنه يذيب الذهب ملك المعادن.

وهو أول من لاحظ رواسب كلوريد الفضة عند إضافة ملح الطعام إلى نترات الفضة، كما استخدم الشب في تثبيت الأصباغ في الأقمشة،

---

(١) هو فصل الجسم المراد تحضيره بتصعيده إلى بخار ثم تكثيفه إلى سائل.

(٢) هو فصل البلُّورات من ماء البحر المالح والحالات المشابهة.

(٣) هو فصل الجسم الطيار بتسخينه حيث يتكاثف بخاره إلى مادة صلبة دون المرور على الحالة السائلة.

(٤) تمكَّن بواسطة منخل أو قطعة قماش أن يرشِّح كثيرًا من المواد.

(٥) «دراسات في تاريخ العلوم عند العرب» لحكمت نجيب (ص٢٦٦)، و«حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي» (ص٢٨٠، ٢٨١).

وحضَّر بعض المواد التي تمنع الثياب من البلل؛ وهذه المواد هي أملاح الألومنيوم المشتقة من الأحماض العضوية ذات الأجزاء الهيدروكربونية، ومن استنتاجاته أن اللهب يُكسِب النحاس اللون الأزرق، بينما يكسب النحاس اللهب لونًا أخضر. وهو أول من فصل الذهب عن الفضة بالحل بوساطة الحمض، وشرح بالتفصيل عملية تحضير الزرنيخ، وتنقية المعادن، وصبغ الأقمشة (١).

ويُعزَى إليه أنه أولُ من استعمل الميزان الحساس والأوزان متناهية الدقة في تجاربه المخبرية؛ وقد وزن مقادير يقل وزنها عن ١/ ١٠٠ من الرطل، ويُنسَب إليه تحضير مركبات كل من كربونات البوتاسيوم والصوديوم والرصاص القاعدي والإثمد «الأنتيمون»، كما استخدم ثاني أكسيد المنجنيز لإزالة الألوان في صناعة الزجاج، كما بلور جابر النظرية التي مفادها أن الاتحاد الكيميائي يتم باتصال ذرات العناصر المتفاعلة مع بعضها، ومثَّل على ذلك بكلٍّ من الزئبق والكبريت عندما يتحدان ويكونان مادة جديدة. وقد كان يجري معظم تجاربه في مختبر خاص اكتُشِف في أنقاض مدينة الكوفة في أواخر القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي.

وقد فحص «جابر بن حيان» ما خلَّفه الأقدمون، فخالف «أرسطو» في نظريته عن تكوين الفلزات، وخرج بنظرية جديدة، ونظريته التي خرج بها قد بقيت معمولًا بها حتى القرن الثامن عشر الميلادي.

ويُنْسَبُ إليه أيضًا استحضار مركبات أخرى، مثل: كربونات

---

(١) «حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي» لجلال مظهر (ص٢٨١).

البوتاسيوم، وكربونات الصوديوم.

وقد درس خصائص مركبات الزئبق واستحضرها.

مؤلَّفات جابر:

في مجمل مصنفاته يقول «لوبون G.Lebon »: «تتألف من كتب جابر موسوعة علمية تحتوي على خلاصة ما وصل إليه علم الكيمياء عند العرب في عصره، وقد اشتملت كتبه على بيان مركبات كيميائية كانت مجهولة قبله»[١].

فقد كان لجابر بن حيان العديد من المؤلفات العلمية، والتي تأثر بها الغرب ونقل عنها، حتى قرر ابن النديم أن له ٣٠٦ كتب في الكيمياء بأسلوبه الخاص في أنحاء العالم، ورغم أن معظمها قد فُقِد، إلَّا أنه يوجد منها الآن ثمانون كتابًا محفوظًا في مكتبات الشرق والغرب، وقد تَرْجم معظمَ كتبه إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي روبرت الشستري (ت٥٣٩هـ/ ١١٤٤م) وجيرار الكريموني (ت ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) وغيرهما، ومثّلت مصنفاته المترجمة الركيزه التي انطلق منها علم الكيمياء الحديث في العالم[٢].

ويُعَدُّ كتاب «السموم ودفع مضارها» أشهر مؤلفات جابر، ويقع في خمسة فصول، وفيه قسَّم السموم إلى حيوانية ونباتية وحجرية، وذكر الأدوية المضادة لها وتفاعلها في الجسم، وهذا الكتاب يعتبر همزة وصل بين الطب والكيمياء.

---

(١) «حضارة العرب» لجوستاف لوبون (ص٢٥).

(٢) «الفهرست» لابن النديم (ص٤٢٠).

ومن أشهر كتبه أيضًا كتابه «الخواصّ الكبير»، ونسخته الأصلية موجودة في المتحف البريطاني.

وله أيضًا كتاب «التدابير»، وتعني العمل القائم على التجربة، وكتاب «الموازين»، وكتاب «الحديد» وفيه يصف جابر عملية استخراج الحديد الصلب من خاماته الأولى، كما يصف كيفية صنع الفولاذ بوساطة الصهر بالبواتق، ومن كتبه كذلك «نهاية الإتقان» وهو مؤلف رائد في الكيمياء، ورسالة «في الأفران».

وله أيضًا رسائل عن المرايا، كما أَلَّف كتاب «السبعين» والذي يشمل سبعين مقالة حول أهم تجاربه في الكيمياء والنتائج التي توصل إليها، ويمكن اعتباره خلاصة ما وصل إليه علم الكيمياء عند العرب في عصره.

وله كذلك كتاب «الرحمة» أَلَّفه في الكيمياء وتطرق فيه إلى إمكانية تحويل المعادن إلى ذهب، وكتاب «الجمل العشرون» و«أسرار الكيمياء» و«أصول الكيمياء»، وهذا غير مؤلفات أخرى في الرياضيات والفلسفة والشعر، وقد ترجمت بعض كتبه إلى اللاتينية مثل كتاب السبعين وكتاب الرحمة، وهناك كتب له باللاتينية لم يتم العثور على أصولها العربية، مثل: «البحث عن الكمال» و«كتاب العهد»، و«كتاب الأتون»[(١)].

ولقد تُرجِمت كتب جابر إلى اللاتينية، وظلَّت المرجع الأوفى للكيمياء زهاء ألف عام، وكانت مؤلفاته موضع دراسة مشاهير علماء الغرب، أمثال: كوب، وبرثوليه، وكراوس وهولميار الذي أنصفه ووضعه في القمة، وبدَّد الشكوك التي أثارها حوله العلماء المغرضون. وأيضًا سارتون

(١) انظر في مؤلفاته «الفهرست» (ص٤٢١) وما بعدها.

الذي أرّخ به حقبة من الزمن في تاريخ الحضارة الإسلامية، يقول: «ما قدَّر جابر أن الكتب التي ألَّفها لا يمكن أن تكون من وضع رجل عاش في القرن الثاني للهجرة لكثرتها ووفرة ما بها من معلومات»[١].

٢- ذو النون المصري:

هو «أبو الفيّاض ثوبان بن إبراهيم الإخميمي المصري..- ٢٤٥هـ» أحد العباد الزُّهاد المشهورين، من أهل مصر، نوبيّ الأصل، من الموالي.

فقد كان له اشتغال في الكيمياء، وله كتاب: «الثقة في الصنعة»، والمراد من الصنعة الأعمال الكيميائية.

٣- ابن وحشيّة:

هو «أبو بكر أحمد بن علي بن قيس بن المختار بن عبد الكريم بن حرثيا ويعرف بابن الوحشية.. -٢٩٦هـ».

ينعت بالصوفي، وهو كلدانيُّ الأصل، نبطِيٌّ من أهل قُسِّين «كورة من نواحي الكوفة» وكان طبيبًا للعيون.

له من الكتب في صناعة الكيمياء: كتاب «الأصول الكبير»، وكتاب «الأصول الصغير» وكتاب «المدرجة» وكتاب «المذاكرة» وكتاب يحتوي على عشرين كتابًا في صناعة الكيمياء.

٤- أبو بكر محمد بن زكريا الرازي:

سبقت ترجمته في «أبرز أعلام المسلمين في الطبّ والصيدلة»، ويعتبر أبو بكر الرازي هذا من مؤسسي الكيمياء العلميَّة، فقد سلك في تجاربه

---

(١) «تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه» (ص١٠٦).

مسلكًا علميًّا خالصًا، الأمر الذي جعل لبحوثه في الكيمياء قيمة عظيمة.

وقد ترجمت طائفة من كتبه إلى اللاتينيَّة، وظلَّت مدَّة طويلة تدرّس في جامعات أوروبّة.

ويُعَدُّ الرازي هذا من الأوائل الذين طبَّقُوا معلوماتهم في الكيمياء على الطبّ.

ويتجلّى فضل الرازي في الكيمياء بصورة واضحة في تقسيمه المواد الكيميائية المعروفة في زمانه إلى أربعة أقسام أساسيَّة وهي:

١- المواد المعدنية.

٢- المواد النباتيَّة.

٣- المواد الحيوانية.

٤- المواد المشتقة.

٥- وقسَّم المعدنيات إلى ست طوائف فرعيَّة هي: الأرواح، والأجساد، والأحجار، والزاجات، والبورقات، والأملاح.

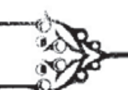
ومثل هذا التقسيم لا يكون إلَّا مستندًا إلى بحثٍ وتجربة.

واشتغل الرازي في حساب الكثافات النوعيَّة للسوائل، واستعمل لذلك ميزانًا خاصًّا سمّاه الميزان الطبيعي.

وله في علم الكيمياء كتاب يحتوي على اثني عشر كتابًا.

٣- علم الجغرافيا والتدوين فيه لدى الرُّواد المسلمين العظام:

كان لعلماء الجغرافيا من المسلمين روائع من الإنجازات المُبهِرة التي غيّرت مجرى النَّظر الجغرافي عبر تاريخ الإنسانية كله.



المسلمون وإثبات كرويَّة الأرض:

بالرغم من أن «كروية الأرض» تُعَدُّ الآن من الحقائق العلمية البديهية التي لا يشك فيها أحد من الناس إلَّا أن الكنائس التي حكمت العقل الأوروبي قرونًا طويلة ضاقت بهذه الحقيقة العلمية ضيقًا حملها على تكفير من يؤمن بها من العلماء، وربما بلغ الأمر حدّ التعذيب أو الإعدام بأبشع الأساليب..!! كالتعذيب على الخازوق أو الحرق حيًّا.

وكان علماء أوروبا حتى القرن الثالث عشر الميلادي يرسمون خريطة العالم على شكل صليب: رأسه الجنة، وقدماه النار، وذراعاه: البحر الأبيض والبحر الأحمر.. وبيت المقدس «أورشليم» في موضع القلب!!.

□ وقد كان من أشهر العلماء الأوروبيين الذين تبنَّوا نظريَّة كرويَّة الأرض «نيقولا كوبرنيكوس» (١٤٧٣م- ١٥٤٣) الذي توصَّل إلى أن الأرض ليست مركز الكون.. إلَّا أنه لم يتجرأ على نشر كتابه إلَّا وهو على فراش الموت!! وظل كتاب «كوبرنيكوس» من الكتب المحرمة، واضطهدت الكنيسة كل من يؤيد اعتقاد «كوبرنيكوس» مثل «برونو» الذي أُعدم حرقًا، و«جاليليو» الذي أودع السجن حتى أُرغم على التنكر لنظرية «كوبرنيكوس» والتخلي عن آرائه، والانصياع للفكر الكنسي!!!.

❊ ولما جاءت الحضارة الإسلامية، عملت على إحياء نظرية كروية الأرض وتبنَّتها، وربما كان من أهم أسباب ذلك أن القرآن أشار بصورة مختلفة إلى كروية الأرض.. كقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النازعات].

□ ونقل ابن حزم في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنِّحَل» إجماع

أئمة المسلمين على كرويَّة الأرض، فيقول عنهم: «قالوا: إن البراهين قد صحت بأن الأرض كروية، والعامة تقول غير ذلك.. وجوابنا وبالله تعالى التوفيق: إن أحدًا من أئمة المسلمين المستحقين لاسم الإمامة بالعلم لم ينكروا تكوير الأرض، ولا يُحفَظ لأحد منهم في دفعه كلمةٌ.. بل البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتكويرها، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ [الزمر: ٥]، وهذا أوضح بيان في تكوير بعضها على بعض، مأخوذ من: «كَوْرِ العمامة..» وهو إدارتها، وهذا نص على تكوير الأرض..»[١].

ولا بد أن نلاحظ هنا إلى أي مدى وصل ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في اعتراضه على مخالفيه في قضية بديهية كهذه، إنه لم يَزِد على وصفهم بـ «العامَّة» دونما تكفير ولا أحكام بالقتل، لا سيَّما وهو أحد فقهاء عصره، ولنقارن ذلك بما أشرنا إليه من مصادرة الكنيسة الأوروبية لآراء الآخرين معتمدة على سطوة النفوذ الديني والروحي!!

وها هي أقوال علماء الجغرافيا المسلمين:

□ يقول «ابن خرداذبة» (ت٢٧٢هـ-٨٨٥م) في كتابه «المسالك والممالك»: «إن الأرض مُدَوَّرَةٌ كدوران الكرة.. موضحة كالمحة «المحة هي: صفار البيض» في جوف البيضة»[٢].

□ وكتب «ابن رُستة» (ت٢٩٠هـ- ٩٠٣م) في كتابه «الأعلاق النفيسة»: «إن الله عَزَّوَجَلَّ وضع الفلك مستديرًا كاستدارة الكرة أجوف

---

(١) «الفصل في الملل» بن حزم (٢/ ٧٨).

(١) «المسالك والممالك» لابن خرداذبة (ص٤).

دوَّارًا، والأرض مستديرة أيضًا ومصمتة في جوف الفلك»[١].

□ وكتب «المسعودي» (ت٣٤٦هـ- ٩٥٦م) في كتابه «التنبيه والإشراف»: «جعل الله عَزَّ وَجَلَّ الفلك الأعلى وهو فلك الاستواء وما يشمل عليه من طبائع التدوير، فأولها كرة الأرض يحيط بها فلك القمر..»[٢].

□ وقد ذكر «الشريف الإدريسي» (ت٥٦٠هـ-١١٦٦م) في كتابه «نزهة المشتاق» ما نصه: «.. وإن الأرض مدورة كتدوير الكرة، والماء لاصق بها، وراكد عليها ركودًا طبيعيًّا لا يفارقها، والأرض والماء مستقرَّان في جوف الفلك كالمحة في جوف البيضة.. ووضعهما وضع متوسط، والنسيم يحيط بها «يقصد الغلاف الجوي» من جميع جهاتها..»[٣].

□ ويُذكَر أن الإدريسيَّ لما أراد صُنع نموذج للأرض كان على شكل الكرة المجسمة[٤]..

□ ويقول «القزويني» (ت٦٨٢هـ- ١٢٨٣م) في كتابه «عجائب المخلوقات»: «الأرض كرة، والدليل على ذلك أن خسوف القمر إذا كان يُرى من بلدان مختلفة، فإنه لا يُرى فيها كلها في وقت واحد بل في أوقات متعاقبة؛ لأن طلوع القمر وغروبه يكونان في أوقات مختلفة في الأماكن المختلفة. والأرض واقفة في وسط الأفلاك كلها بإذن الله تعالى..».

□ ثم يفنِّد القزويني آراء علماء القرون الوسطى في أوروبا ورجال

---

(١) «**الأعلاق النفيسة**» لابن رستة (ص٨).

(٢) «**أعلام الجغرافيين العرب**» لعبد الرحمن حميدة (ص٣١٩).

(٣) «**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**» للإدريسي (ص٧).

(٤) «**حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي**» (ص٤٠٢، ٤٠٣) لجلال مظهر.

الكنيسة الذين يقولون: «إن الأرض لو كانت كرة لسقط الناس في الجانب الآخر منها، أو كانت رؤوسهم مقلوبة، فيقول: «إن الإنسان في أي موضع يقف على سطح الأرض فرأسه أبدًا مما يلي السماء، ورجله أبدًا مما يلي الأرض، وهو يرى من السماء نصفها، وإذا انتقل إلى موضع آخر ظهر له من جانب السماء الذي أمامه بقدر ما كان قد خفي عنه من الجانب الآخر..»[1].

والعجيب -بعد كل ما سبق- أن بعض الكتب والمراجع العربية ما زالت تنقل عن المراجع الأجنبية أن المسلمين لم يعرفوا نظرية كروية الأرض.. وأن هذه النظرية لم تعلن إلَّا بفضل «كوبرنيكوس» (١٤٧٣م-١٥٤٣م)!!.

وحَسبُكَ الآن مقارنة تاريخ وفاة «كوبرنيكوس» بأعوام وَفَيَات علماء المسلمين الذين سبق ذكرهم؛ ليتبيَّن لك: مَن أخذ ممَّن؟!!.

من إنجازات المسلمين في علم الجغرافيا:

وستتوقف بنا الصفحات القادمة أمام بعض الإنجازات المبهرة التي سبق إليها المسلمون في الجغرافيا، والتي تُشكِّل معالم فارقة في مسيرة هذا العلم عبر التاريخ الإنساني، القديم والحديث على حد سواء..

خطوط الطول وخطوط العرض:

يُعدُّ المسلمون أول من وضع خطوط الطول وخطوط العرض على خريطة الكرة الأرضية، وقد وضعها العالم أبو علي المراكشي (٦٦٠هـ-

---

(١) «عجائب المخلوقات» للقزويني (ص٣٥).

١٢٦٢م)؛ وذلك لكي يستدل المسلمون على الساعات المساوية في بقاع الأرض المختلفة للصلاة.. كما وضع البيروني قاعدة حسابية لتسطيح الكرة أي نقل الخطوط والخرائط من الكرة إلى سطح مسطح وبالعكس.. وبهذا سهل رسم الخرائط الجغرافية [(١)].

قياس محيط الأرض:

كان أول من قام بمحاولة قياس أبعاد الكرة الأرضية الخليفة العباسي العالم المأمون (ت٢١٨هـ-٨٨٣م)، فقد جاء بفريقين من علماء الفلك والجغرافيا؛ فريق برئاسة «سند بن علي»، وفريق بقيادة «علي بن عيسى الإسطرلابي» «ويقال: إن رئاسة أحد الفريقين كانت لبني موسى بن شاكر، وهو ما ذكرناه في الفصل السابق» واتفق معهما أن يذهبا إلى بقعتين مختلفتين على الدائرة العظمى من محيط الأرض شرقًا وغربًا، ثم يقيسا مقدار درجة واحدة من خطوط الطول «التي تبلغ ٣٦٠خطَّ طول».

ويحكي في ذلك ابن خلكان أن كل فريق اختار بقعة واسعة مسطحة، وركز في مكانٍ منها وتدًا، واتخذ النجم القطبي نقطةً ثابتةً، ثم قاس الزاوية بين الوتر وبين النجم القطبي والأرض، ثم سار شمالًا إلى مكان زادت فيه تلك الزاوية، وقاس كل فريق المسافة بين الوتدين، وكانوا يقيسون المسافات على الأرض بحبال يشدونها على الأوتاد [(٢)].

والعجيب أن النتائج جاءت دقيقة وقريبة مما توصل إليه العلم المعاصر؛ فقد أخذ المأمون متوسط قياس الفريقين، فوجده ٥٦,٦٦ ميل

---

(١) «أعلام الجغرافيين العرب» (ص٤٥٩).

(٢) «وفيات الأعيان» (٥/ ١٦٢).

تقريبًا، والذي توصل إليه العلم المعاصر هو ٥٦,٩٣ ميل. وعلى قياس المأمون هذا فإن محيط الأرض يبلغ ٢٠,٤٠٠ ميل، أي حوالي: ٤١,٤٨كم.

ومن خلال مقارنة هذه القيمة مع القيمة التي قيست بواسطة الأقمار الصناعية في العصر الحديث، وهي ٤٠,٠٧٠كم، يتضح أن نسبة الخطأ في قياسات فريق المأمون لم تتجاوز (٣٪)!! وهو أمر جدير بالتقدير [(١)].

ثم جاء «البيروني» فقام بتجربة جديدة على أساس مختلف، بقياس الانخفاض الرأسي من «قلل الجبال» في الهند، فجاءت شبيهة بأرقام فلكيي المأمون فأثنى عليهم [(٢)].

□ وفي ذلك يقول المستشرق «نلليتو» - كما أشرنا سابقًا - في كتابه «علم الفلك عند العرب»: «إن قياس العرب للكرة الأرضية هو أول قياس حقيقي أُجري كله مباشرة مع كل ما تقتضيه تلك المسافة الطويلة، وهذا الفريق الكبير من العلماء والمساحين العرب، فهو يعد من أعمال العرب المأثورة وأمجادهم العلمية!!» [(٣)].

دوران الأرض حول نفسها:

في الوقت الذي كان العالم لا يتخيل فيه أن الأرض كرة لم يكن هناك من يناقش مسألة دوران الكرة حول نفسها، ولكن ثلاثة من علماء المسلمين كانوا أول من ناقش فكرة دوران الأرض في القرن الثالث عشر

---

(١) «كنوز علم الفلك» ليوهانس فيلارز (ص٢٥).

(٢) «تراث العرب العلمي» لقدري طوقان (ص٦٣).

(٣) «علم الفلك عند العرب» لنللينو.

الميلادي «السابع الهجري» وهم «علي بن عمر الكاتبي»، و«قطب الدين الشيرازي» من الأندلس و«أبو الفرج علي» من سوريا.. فقد كان هؤلاء الثلاثة أول من أشار في التاريخ الإنساني إلى احتمال دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس مرة كل يوم وليلة.

□ وعن هؤلاء العلماء يقول «سارتون»: «إن أبحاث هؤلاء العلماء الثلاثة في القرن ١٣ لم تذهب سُدى، بل كانت العوامل التي أثرت على أبحاث «كوبرنيكوس» في نظريته التي أعلنها سنة ١٥٤٣م»(١).

علم الخرائط:

لا يُنكِر أحدٌ أن الغرب قد استفاد من مجهودات المسلمين في علم الجغرافيا عامة أيَّما استفادة، بل إن «أطلس الإسلام» أو الخرائط الإسلامية كانت في مقدمة مظاهر التأثير الإسلامي المباشر في الحضارة الغربية.

فقد تخطَّف «الغرب» مؤلَّف «الإدريسي» «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» وقاموا بطباعته طبعات كثيرة ومختلفة، حتى ظل هذا الكتاب مصدرًا أساسيًّا لدارسي الجغرافيا الأوروبيين على مدار أكثر من أربعة قرون!!.

صمم «الإدريسي» خريطته على الطريقة العربية في ذلك الوقت حيث بدأ بالجنوب في أعلى الخريطة، ثم انتقل إلى الشمال في أسفلها، وتتكون مخطوطة الخريطة من ٧٠ ورقة (٣٣×٢١سم) تصل إلى نحو خمسة أمتار مربعة.

---

(١) «مقدمة في تاريخ العلم» (١/ ٤٦).

وقد قام العالم الألماني «كونراد ميلر» بنشر نسخة مُلَوَّنة منها سنة ١٩٢٨م بعد أن بذل جهودًا خارقةً من أجل تجميع أجزائها المختلفة وترجمة الأسماء العربية إلى الألمانية، ثم اهتمَّ المجمع العراقي بهذا الكتاب؛ فعمل باحثوه على مراجعة وتدقيق كل النسخ الموجودة في العالم، وأخرجوا خريطة الإدريسي وطبعوها سنة ١٩٥١م وهي بطول مترَيْن وعُرْض متر واحد [١].

والجغرافي المتمكن «د.حسين مؤنس» في كتابه الكبير «أطْلَس تاريخ الإسلام» يرفض بشدّة الزعم الشائع بين الناس الذي يرى أن المسلمين أخذوا فنَّ الخرائط عن الإغريق، وأنَّ خرائطهم قامت على أساس خرائط بطليموس الإسكندري المتوفَّى في القرن المسيحي الثاني.

ويرى أنَّ الخرائط الإسلاميَّة الأصيلة هي خرائط البلدانيين والمسالكيّين الذين زاروا في رحلاتهم البلدان وسلكوا المسالك، وقام علمهم الجغرافي على الرحلة والمشاهدة المباشرة.

أمَّا ما أخذه بعض المسلمين عن الإغريق من علم الخرائط فهو الخرائط الفلكيَّة، التي هي فرعٌ من فروع عِلْم الفلك القديم، وهو عِلْمٌ وهْمِيٌّ كلُّه، لا أساس له من الصحة.

وذكر أنَّ خريطة الشريف الإدريسي الذائعة بين أيدي الناس هي أول خريطة كاملة للأرض عَمِلَها إنسان، وقد نشرها في أطلسه المذكور [٢].

---

(١) «علماء العرب وما أعْطوْه للحضارة» لقدري طوقان (ص١٩٩).

(٢) «أطلس تاريخ الإسلام» للدكتور حسين مؤنس (ص٢٤).

تصحيح أخطاء السابقين:

بين أيدينا الآن شهادة لمؤرخ غربي مشهور هو «جوستاف لوبون» الذي ستؤكد كلماته ما سبق بخصوص تفوق المسلمين في مجال الخرائط، إلى جانب أنها ستضيف إلى عظمة إسهامات المسلمين في الجغرافيا بُعدًا جديدًا بالغ الأهمية.

□ يقول «جوستاف لوبون»: «يكفي أن نشير إلى ما حققه العرب في الجغرافيا لإثبات قيمتهم العالية؛ فالعرب هم الذين عيَّنُوا بمعارفهم الفلكية مواقع الأماكن تعيينًا مضبوطًا في الخرائط، فصححوا بذلك أغاليط علماء اليونان، والعرب هم الذين نشروا رحلاتهم الممتعة عن بقاع العالم التي كان يشك الأوروبيون في وجودها، والعرب هم الذين وضعوا الكتب الجغرافية التي جاءت ناسخة لما تقدمها، فاقتصرت أمم الغرب عليها وحدها قرونًا كثيرة..»[١].

فالروعة والإنجاز لا يتجسَّدان فقط في الجديد الذي قدَّمه الجغرافيُّون المسلمون للعالم، وإنما يتجسد الإنجاز وتتجلَّى الروعة كذلك في التصويب والتعديل الذي عاد به عباقرة الجغرافيين المسلمين على التراث الجغرافي اليوناني.

لقد وقع «بطليموس»- على الرغم من براعته المعروفة- في العديد من الأخطاء عند تحديد الأطوال والأعراض، ومن هذه الأخطاء:

أنه بالغ كثيرًا في تحديد طول البحر المتوسط.

وبالغ في تحديد امتداد الجزء المعمور من الأرض المعروف له.

(١) «الإسلام وأثره في الثقافة العالمية» لمحمود الشرقاوي (ص٩٧).

وجعل المحيط الهندي والهادي بحيرة!!! وذلك عندما وصل جنوبي آسيا بجنوبي أفريقيا.

وبالغ في تحديد حجم جزيرة «سيلان».

وأخطأ في وضع بحر قزوين والخليج العربي خطأً فاحشًا[١].

وقد صحح المسلمون كل هذه الأخطاء وغيرها، ولم يأخذ الغرب هذه التعديلات إلَّا عنهم، ومن هنا يتجلَّى دور المسلمين في إنقاذ الدراسات الجغرافيَّة من التشوُّهات العلمية والمنهجيَّة، كما رأينا من قبل دورهم في إنقاذها من بطش السلطة الكنسيَّة الغاشم.

وقد بدأت تلك المسيرة التصحيحية منذ عهد الخليفة «المأمون» (ت٢١٨هـ-٨٣٣م).

فقد أسدت الخريطة المأمونية التي أمر علماء عصره بتنفيذها، إلى الحضارة الغربية فضلًا عظيمًا، رغم ضعف إمكانات المسلمين من حيث الأجهزة الجغرافية في ذلك العصر، وقام المسلمون بإدخال الكثير ن التعديلات المهمة على خريطة بطليموس، وحسَّنوها وأضافوا إليها الكثير من التصحيحات الجوهرية.

وقد أقبل الغرب على عطاء الجغرافيين المسلمين بشغف واهتمام بالغين؛ فلم يكن الأوروبيون حتى بداية القرن الخامس عشر يرجعون إلَّا إلى الجغرافيا الإسلامية كما يقرر «كراتشكوفسكي».. وقد ظلت الكارتوغرافيا الأوروبية «علم الخرائط» تعتمد على خريطة الإدريسي

(١) «حضارة الإسلام» (ص٣٩٠- ٣٩٣).

حتى قبيل القرن الخامس عشر الميلادي [(١)].

وإجمالًا، فإنه منذ وقت الإدريسي ١١٥٠م إلى حوالي ١٤٥٠م استُمِدَّت الجغرافيا الأوروبية رأسًا من الجغرافيا الإسلامية.. إلَّا أن تحوُّلًا عنصريًّا أصاب الفكر الأوروبي فيما بين (١٤٥٠م) إلى (١٥٥٠م)، فنهضت حملة ضد المسلمين لا أساس لها من العلم، وأسفرت عن تحول الجغرافيين الأوروبيين إلى جغرافيا «بطليموس»!! ولما كان استمرار هذا الأمر غير منطقي فقد اضطُرَّ العلماء ثانيةً إلى هجر بطليموس [(٢)].

والحقُّ أنَّ إسهامات المسلمين في الجغرافيا محيط واسع، ربما بقدر سعة الآماد المذهلة التي بلغتها رحلات علمائهم الاستكشافية برًّا وبحرًا.

علو همَّة الروَّاد المسلمين في الكشوف الجغرافية:

لم تكن النهضة الجغرافية الإسلامية لتظهر لولا جهود مضنية -بعد توفيق الله عَزَّ وَجَلَّ- قام بها العديد من العلماء الأفذاذ الذين مرَّ بنا نبأ بعضهم في صفحات سابقة.

ولم تكن جهود أولئك العلماء حبيسة الجدران، ولا أسيرة خيالات أو موروثات بالية.. بل كان السير في الأرض والضرب في مناكبها طولًا وعرضًا، والنظر عن قرب إلى طبائعها في شتى البقاع، وملامح الحياة المتباينة فوق كل شبر منها، كان كل ذلك هو الطابع المميز للدراسات الجغرافية عند المسلمين.

---

(١) «حضارة الإسلام» لجلال مظهر (ص٤٠٥).

(٢) المصدر السابق (ص٤١١، ٤١٢).

استكشاف القارَّات:

١- في آسيا:

وقد اكتشف المسلمون عن طريق أساطيلهم التجارية التي كانت تُبحر من ميناء عدن إلى ميناء كانتون بالصين أن بحر الصين يتصل بالمحيط الهندي، كما اكتشفوا بحيرة «آرال» شمالي شرق قزوين، فوُضِعَتْ لأول مرة على الخرائط المأمونية في عهد المأمون باسم «بحيرة خوارزم»، وقد زار «البيروني» (ت٤٤٠هـ-١٠٤٨م) سيبيريا الشرقية، وكان أول من سَمَّى نهر أنجارا «الواقع شمال غرب بحيرة بيكال شرقيَّ سيبيريا»، كما أنه عاش في الهند قُرَابة عشرين عامًا؛ فأبدع في وصفها بما لم يسبقه إليه أحد، وذلك في كتابه «ما للهند من مقولة»[(١)].

٢- في أوروبا:

لقد عرف المسلمون أوروبا رغم تخلفها وخمولها الحضاري في ذلك الوقت؛ ففي عام (٣٠٨هـ- ٩٢١م) ذهب «ابن فضلان» رسولًا من قِبَل الخليفة العباسي «المقتدر» إلى بلاد البلغار في الفولجا «تطلق عند العرب على بلاد الصقالبة الروس وعلى عاصمتهم التي تقع شرقي نهر الفولجا» كما وصف البيروني بلاد «الفرنج» وهم النرويج والإسكندنافيون، ووصف «بحر الثلج» وهو القطب الشمالي كما عرف المسلمون «بلاد الغال» وهي فرنسا[(٢)].

وقد عُثِر حديثًا على عملات إسلامية في كل من روسيا وإسكندنافيا

---

(١) «الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي» لنفيس أحمد ترجمة فتحى عثمان (ص٤٤).

(٢) المصدر السابق.

تعود إلى العصر العباسي!!

٣- في أفريقيا:

توقفت معلومات الإغريق والرومان في أفريقيا على البلاد الساحلية وحدها، أما قلب القارة السوداء فقد بقي غامضًا أمام العالم حتى وصله المسلمون كتجار أو رحَّالة أو سفراء، فاستكشفوا القارة الغامضة، ونشروا الإسلام في السودان والسنغال والنيجر وغيرها، وكانوا أول من اكتشف مدغشقر، وقد وصلت مراكبهم من الأندلس والجزائر إلى الصومال وزنجبار وموزمبيق وجزائر الكومور.

ومما يُعد من إنجازات المسلمين السبَّاقة أنهم أول من اكتشف منابع نهر النيل العظيمة قبل أن تصل إليها حملات الاستكشاف البريطانية بعدة قرون؛ فقد ذكر الرحالة البريطاني «ستانلي» أنه في رحلاته لاكتشاف منابع النيل قد وجد التجار العرب قد سبقوه، وأن القبائل الأفريقية تدين بالإسلام!!

الاكتشافات البحرية:

يُعتبَر اكتشاف «كريستوفر كولومبوس» لأمريكا عام ١٤٩٢م، واكتشاف «فاسكو دي جاما» لطريق الهند البحري عام ١٤٩٧م من أكثر الكشوف الجغرافية تأثيرًا في مجرى التاريخ الإنساني، وبالرغم من مرور ما يزيد على خمسمئة عام على هذين الكشفين إلَّا أن الجدل لم يُحسَم بعد حول أسبقيتهما.

فهل كان «كريستوفر كولومبوس» ذلك البحار الإيطالي هو أول مكتشف للسواحل الأمريكية بالفعل؟؟

وما السِّرُّ وراءِ انطلاق رحلته من إسبانيا التي كانت قد فرغت للتو من القضاء على الوجود الإسلامي في أراضيها؟

ألم يستفِد «كولومبوس» ومَنْ معه من آلاف الوثائق العلمية والخرائط الإسلامية التي وضع الإسبان أيديهم عليها من ميراث الحضارة الإسلامية الطويل؛ فأحرقوا بعضها، واستولوا على البعض الآخر مما لم يظهر بعد ذلك إلَّا حديثًا في مكتبة الإسكوريال في مدريد..؟؟

وما حقيقة الأهداف التي حركت الكشوف البحرية الأوروبية على نحو كثيف ومتزامن..؟!!

إننا في السطور القادمة سنحاول -بإذن الله- إلقاء الضوء على حقيقة هذا الأمر.

فمنذ أعلن المسلمون كروية الأرض، وأثبتوا ذلك بالبراهين الفلكية والحسابية بدأت الإشارات تظهر في كتبهم إلى أنه لا بد من وجود جزر معمورة في الوجه الآخر من الكرة الأرضية لم تُكتَشَف بعد، وقد بُنِيَت هذه النظرية على أنه ليس من المعقول أن يكون أحد سطحي الكرة يابسة بالكامل بينما يغطي الماء الجانب الآخر؛ لأنَّ هذا سيؤدي إلى اختلال توازن الأرض وانتظام دورانها (١).

وقد كان «البيروني» أول من أشار إلى هذه الحقيقة وبَشَّر بها في كتبه، وبناءً على هذه النظرية ابتدأت مغامرات الكشف الجغرافي التي جاء ذكرها في مخطوطات كبار الجغرافيين المسلمين، ومنهم «المسعودي» في كتابه «مروج الذهب» و«الإدريسي» في كتابه «نزهة المشتاق..» وغيرهما.

---

(١) «حضارة الإسلام» (ص٣٩٦، ٣٩٧).

□ وأول إشارة في ذلك تقول: إن بحارًا عربيًّا أندلسيًّا اسمه «خشخاش البحري» أبحر بسفينته من «لشبونة» إلى الغرب في بحر الظلمات «المحيط الأطلنطي» (سنة ٢٣٥هـ تقريبًا- ٨٥٠م)، وقد اكتشف في هذا البحر جزيرة مأهولة بالسكان أحضر منها الهدايا إلى حاكم الأندلس «عبد الرحمن الثاني» الذي كافأه بتعيينه أميرًا للبحرية الإسلامية، وقد استُشهِد هذا الرجل في معركة بحرية مع قرصان «الفايكنج»[(١)].

□ ثم يتلو ذلك قصة «الفتية المغرَّرين» الذين تحدَّث عنهم المسعودي والإدريسي، وتقول هذه القصة: إن ثمانية من الشباب العرب في مدينة لشبونة من عائلة واحدة من البحارة، قرروا المغامرة «في بحر الظلمات» بحثًا عن تلك الجزر التي هلك من سبقوهم دون خبر عنها، وأن أهل المدينة أطلقوا عليهم لقب «الفتية المغررين» نسبة إلى «الغُرَّة» أي «المقدمة» فمن ذلك ما ذكره المسعودي في كتابه «مروج الذهب» عن أخبار «من خاطر بنفسه في ركوبه -أي المحيط الأطلسي- ومن نجا منهم ومن تلف، وما شاهدوا منه وما رأوا»[(٢)].

وعندما يورِد «الإدريسي» هذه القصة يذكر أن هؤلاء الفتية الثمانية عندما عادوا إلى الأندلس احتفى بهم أهل لشبونة، واستقبلوهم بالزينات والأفراح، وأطلقوا على الشارع الذي يسكنون فيه اسم «شارع الفتية المغرَّرين»، كان ذلك في أواخر القرن العاشر الميلادي، ثم ظل هذا الاسم

---

(١) «مروج الذهب» للمسعودي (١/ ٤٥).
(٢) «مروج الذهب» للمسعودي (١/ ٤٥).

معروفًا بعد ذلك في لشبونة لمئات من السنين[1].

□ كانت هذه صورة موجزة لما أورده جغرافيو الأندلس عن سبق العرب لاكتشاف أمريكا، يعضدها ما ذكره العالم المؤرخ اللغوي «الأب إنستاس الكرملي» من أن العرب قد وصلوا أمريكا من لشبونة قبل «كولومبوس» بفضل معرفتهم لتيار الخليج الحار في الأطلسي، فيقول: «سَبَقَ العرب سائر الأمم إلى معرفة هذا التيار وخواصه، وإلى حركته من المكسيك إلى إيرلندا وبالعكس..»[2].

□ على أن هناك إشارة تظهر في أقوال «كولومبوس» نفسه؛ حيث يذكر أنه كان يعتقد أولَ الأمر أن الهنود الحمر الذين رآهم في تلك الجزر لا بد أن يكونوا من سلالة العرب «الذين سبقوه..» كما قرأ في المخطوطات العربية، وقد قامت «الجمعية الجغرافية البريطانية» بإنتاج مسلسل تليفزيوني وثائقي بعنوان «المكتشفون» وفيه حلقة مستقلة عن «كولومبوس» واكتشافاته، وهي تبين أنه قد اختار أحد رجاله الذين يعرفون اللغة العربية -لأنه من أصل عربي- وبعث معه برسالة إلى ملك الهنود الحمر كُتِبَتْ باللغة العربية يقول فيها: «يا صاحب الجلالة.. إن الملكة «إيزابيلا» ملكة إسبانيا وقشتالة تهديك السلام، وتطمع أن يكون بينها وبين بلادك علاقات صداقة.. إلخ»[3].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) «عرف العرب أمريكا قبل أن يعرفها الغَرب»، نُشِر هذا البحث في مجلة المقتطف عدد (١٠٦) للأب أنستاس الكرملي، وأشار إليه العقاد في كتابه «أثر العرب في الحضارة» (ص٤٧).

(٣) «تاريخ أوروبا الحديث» لزينب عصمت راشد (ص٤٧)-دار الفكر العربي.

إلَّا أن أكثر تلك الإشارات إبهارًا وإثارة للدهشة هي تلك الخريطة التي اكتشفها المستشرق الألماني «كال Kahle» في مكتبة «طوب كابي سراي» بإسطنبول، ونشرها على العالم سنة ١٩٢٩م بعد تحقيق علمي دولي استمر عدة سنوات.

فقد حيَّرت هذه الخريطة العلماء وأذهلت العالم، وهي من تأليف جغرافي تركي مسلم هو «بيري ريس» واسمه الكامل «محيي الدين بن محمد الريس» (ت١٥١٣م)، وكان أحد قادة البحرية في الأسطول التركي الذي كان سيد البحار في تلك الآونة، وهذه الخريطة تنقسم في الواقع إلى عدة خرائط مفردة؛ فهي تبين شرقي المحيط الأطلسي حيث السواحل الإسبانية والأفريقية الغربية، أما في غربي المحيط فأنت ترى القارة الأمريكية بسواحلها وجزرها وموانيها وحيواناتها فضلًا عن سكانها الأصليين «الهنود الحمر» الذين يرسمهم عراةً وهو يرعون الغنم.

ويذكر المستشرق «كراتشكوفسكي» في كتابه «تاريخ الأدب الجغرافي العربي» تعليلًا لهذه الخريطة أن لا بد أن يكون «الريس» قد بناها على أساس خرائط «كولومبوس» التي ربما تكون قد سقطت في يده عندما انتصر الأسطول التركي على أسطول البندقية سنة ١٤٩٩م، وأَسَرَ بعض سفنه[١].

إلَّا أن هذا الرأي يلقى معارضة من كثير من الباحثين؛ لأن الخريطة بها تفاصيل لأماكن لم يعرفها «كولومبوس»، ولم يكن اكتشفها، ولكن هؤلاء الباحثين لم يقدموا تعليلًا بديلًا يكشف سِرَّ هذه الخريطة الغامضة.

---

(١) «تاريخ الأدب الجغرافي العربي» لكراتشوفسكي (٢/ ٥٦٢)- النسخة العربية.

اكتشاف القارة السادسة في القطب الجنوبي!! وخريطة بيري ريس:

إن أعجب ما في خرائط «بيري ريس» أنها عادت لتشغل العلماء بعد عصر رحلات الفضاء وتصوير الأرض من الأقمار الصناعية؛ فقد كان الاعتقاد الأول لدى علماء الخرائط في أمريكا وأوروبا في القرن العشرين أن الخرائط غير دقيقة، وأن بها أخطاءً في الرسم حسب أحدث معلوماتهم عن الشاطئ الأمريكي، ولكنهم فوجؤوا بعد ظهور أول صورة مأخوذة من القمر الصناعي لهذه المناطق أن خرائط «محيي الدين الريس» أدقُّ من كل ما عرفوه وتصوروه!!، وأنها تطابق تمامًا صور القمر الصناعي، وأن معلوماتهم هي التي كانت خاطئة.

وعلى أثر ذلك عكف فريق من العلماء في وكالة الفضاء الأمريكية على إعادة دراسة الخرائط مقطعيًّا بعد تكبيرها عدة مرات، فكانت المفاجأة الثانية، وهي أن «بيري ريس» قد وضع في خرائطه القارة السادسة في القطب الجنوبي والمسماة Antarctica قبل اكتشافها بأكثر من قرنين!!، كما أنه وصف جبالها ووديانها التي لم تكتشف حتى سنة ١٩٥٢م!![(١)].

□ يحكي الكاتب «إريك فون دانيكن» في كتابه « Chariots of the gods»[(٢)] أن خرائط «بيري ريس» سُلِّمت إلى الدكتور «ماليري آرلنجتون» أستاذ الخرائط الجغرافية في الجامعات الأمريكية الذي قرَّر بعد فحص دقيق أنها تحتوي على كل الحقائق الجغرافية حول أمريكا.. ولكنه

---

(١) «عربات الآلهة» لإريك فون دانيكين (ص٢٩).

(٢) اسم الكتاب: عربات الآلهة، وهو يتحدَّث عن سفن الفضاء، ولا نُقرّ هذا الاسم ونعترض عليه.

شكٌّ في وجود خطأ أو عدم دقة في بعض الأماكن، فطلب الاستعانة بجغرافيي الأسطول الأمريكي الذين أظهرت دراساتهم أن خرائط «بيري ريس» قد نقلت الطبوغرافيا الداخلية للقارات «أي: التضاريس» بدقة مذهلة؛ فتظهر فيها الجبال والأنهار والسهول وكأنها أُخِذَت من الفضاء الخارجي..!!

وفي سنة ١٩٥٧م عكف فريق من علماء الجغرافيا بالمراصد الكبرى والبحرية الأمريكية على مزيد من دراسة خرائط «الريس»، وبعد دراسات على أجهزة متطورة وجدوا أن صورة عن القارة السادسة Antarctica صحيحة ودقيقة بدرجة مذهلة، حتى بالنسبة للمناطق التي لم يُستكمَل اكتشافها في عصرنا الحاضر!! فالجبال على قارة القطب الجنوبي لم تُكْتَشَف حتى عام ١٩٥٢م، فهي دائمًا مغطاة بطبقة سميكة من الثلوج بحيث إن اكتشاف وجودها على الخرائط الحديثة كان باستعمال أجهزة صدى الصوت Echo-Sounding apparatus.

والجدير بالذكر هنا أيضًا هو اهتمام وكالة الفضاء الأمريكية بمواصلة دراسة هذه الخرائط، حيث اتضح أنها تشبه تمامًا الصور المأخوذة للكرة الأرضية من مركبة فضائية أثناء مرورها فوق منطقة القارة القطبية الجنوبية، وهي صورة تغطي مسافة «خمسة آلاف ميل» فوجدوا تشابهًا مذهلًا بين صور القمر الصناعي وبين خريطة «بيري ريس» [١]!!» اهـ [٢].

---

(١) «عربات الآلهة» (ص٢٩).

(٢) هذا البحث مأخوذ برمته من كتاب «العلم وبناء الأمم» (ص١٤١- ١٥٩) ملخصًا ومضاف إليه من كتاب «الحضارة الإسلامية» للأستاذ عبد الرحمن حبنكة.

رُوَّاد وعلماء جغرافيون عَلَت هممهم وسبقوا عصرهم:

إن عباقرة المسلمين في علم الجغرافيا كثيرون عددًا، غزيرون إنتاجًا، واسعون سَبْقًا ورِيادة.

وسنذكر هنا بعض الموسوعيين المسلمين في الجغرافيين الذين سبقوا عصرهم وسبقوا العالم بعلمهم.

١- الإصطرخي (الكرخي) ت٣٤٦هـ:

أبو إسحاق بن محمد الفارسي الإصطخري ويُقال له: «الكرخي».

ولد بمدينة إصطخر بإيران وهو أحد أبرز عباقرة الجغرافيا المسلمين، عاش في القرن الرابع الهجري -العاشر الميلادي، وهو جغرافي رحَّالة، طاف ببلاد المسلمين، وجمع معلومات جغرافية دقيقة ووافية.

وقد ألف كتابه «المسالك والممالك» فيما بين سنتي (٣١٨-٣٢١هـ) وهو أوَّل من رسم خريطة لعالم الأمة الإسلامية، على مذهب أهل الرحلة والمشاهدة الشخصيَّة، وكلُّ المسالكيين المسلمين الذين جاؤوا بعده تأثَّروا به، ونقلوا من خرائطه، وهو أول خرائطيّ مُسْلم رسم خرائط الأقاليم التي كتب عنها، دون أن يتأثَّر باليونانيين في مذاهبهم الفلكيَّة.

وقد قسَّم أقاليم العالم الإسلاميّ في عصره إلى عشرين إقليميًّا، واختص كلَّ إقليم منها بخريطة.

□ وكتابه «المسالك والممالك» أشهر مؤلفاته، وقد نهج فيه منهجًا عِلْميًّا يدلُّ على قدرته الفائقة في تصوُّر شكل الأرض؛ فلم يتجاهل الناحية الفلكلورية أو الاقتصادية أو الإثنوغرافية!! «الإثنوغرافيا هو علم في وصف السلالات البشرية وعادات وأخلاق الشعوب»، والحق أن هذه

الطريقة التي سار عليها «الإصطخري» هي ذات الطريقة التي ينتهجها العلماء المعاصرون في مثل هذا النوع من الدراسات؛ وهو ألا تقتصر الدراسات الجغرافية على الجوانب الطبيعية فقط، دون التفات إلى الأبعاد الاقتصادية والثقافية والسلالية وغيرها مما يخص البشر الذين يحيون في هذه البقعة من الأرض.

كما يُحسَب للإصطخري رحمه الله أنه ركَّز على المدلول الجغرافي والسياسي والإداري، وتجنب النظريات التقليدية التي تنُصُّ على تقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم، وأخذ كل إقليم بذاته كوحدة جغرافية مستقلة.

لقد فهم «الإصطخري» منهج علماء المسلمين في مجال علم الجغرافيا فهمًا جيدًا مُحكمًا، وطبَّقه في مؤلفاته بدقة واستنباط ذكي؛ وبهذا عَرَفَ أصول المنهج العلمي التجريبي القائم على القياس والاستقراء، والمستند على المشاهدة والتجربة والتمثيل.

وإضافة إلى كل هذا فقد اشتهر أبو إسحاق الإصطخري بالإنصاف لمن سبقوه من علماء الجغرافيا، كما اتَّصف بالصدق والأمانة العلمية وتقوى الله، وهي صفات -كما ترى- نحن في أَمَسِّ الحاجة إليها في ميادين العلوم التجريبية وغيرها، وهي الصفات التي- كما رأينا من قبل كثيرًا- كانت تميِّز البحث العلمي في عصور الحضارة الإسلامية، ولم تكن ثمار تلك الصفات مقصورة على الأمة الإسلامية، بل أفادت منها الإنسانية جمعاء.

أما عن مؤلَّفات «الإصطخري» فإنه لم يكن صاحب مؤلفات كثيرة، وكل ما وصلنا من أعماله كتابان، هما: «صور الأقاليم»، والثاني: «المسالك

والممالك»، ولعل تأثُّر «الإصطخري» واضح بعالم الجغرافيا السابق عليه ابن خرداذبة» الذي أَلَّف كتابًا بنفس العنوان «المسالك والممالك».

كذلك اعتمد على كتاب «البلخي» «تقويم البلدان»؛ فماثل «الإصطخري» كتاب البلخي في مخططه، ولكن بتوسع ومراجعة وتصحيح لكثير مما جاء فيه، وهذان المؤلفان للإصطخري يعدان من المراجع الأمهات في علم الجغرافيا بالأخص.

وقد كان اعتماده الأكبر في تصنيف مؤلَّفَيْهِ السابقَيْن على رحلاته العديدة في طلب العلم في شتى الآفاق الإسلامية؛ فجاء وصف تلك البلدان بإطناب، إضافة إلى تزيينه كتابه الأول «صور الأقاليم» بالخرائط والأشكال التوضيحية [١].

أما مؤلَّفُه الأشهر «المسالك والممالك» فقد ظل في معظم مكتبات العالم كمخطوط حتى جاءت سنة (١٢٨٧هـ-١٨٧٠م) وطبعه المستشرق «دي خويه» في ليدن بهولندا، وقد أُعِيدَ طبعه بالصور سنة (١٣٤٦هـ-١٩٢٧م)، وقام بتحقيقه محمد جابر عبد العال الحسيني سنة (١٣٨١هـ-١٩٦١م) ونشرته وزارة الثقافة المصرية بالقاهرة آنذاك؛ ولعل ذلك كان السبب في انتشار الكتاب وتداوله من قِبَل القراء في جميع أنحاء المعمورة، ومنه عُرفت مكانة الإصطخري في ميدان علم الجغرافيا الإقليمية [٢].

والحقيقة أن إنجازات الإصطخري في علم الجغرافيا كانت أكبر بكثير

---

(١) «رُوَّاد علم الجغرافيا في الحضارة العربية والإسلامية» لعلي بن عبد الله الدفاع (ص١٠٤، ١٠٥).

(٢) «تطور الفكر العلمي عند المسلمين» لمحمد الصادق عفيفي (ص٢٧٦، ٢٧٧).

من أن ينظر إليها على أساس مؤلفاته، فالإصطخري يعد من أوائل العلماء الذين جمعوا بين الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا السكانية في كتبهم، وإذا كان قد اقتصر في مؤلفيه على وصف العالم الإسلامي، فقد قسَّمَهُ إلى عشرين إقليمًا، وكان يتحدث عن الإقليم لا بوصفه نطاقًا يضم عددًا من درجات خطوط العرض، ولكن بوصفه منطقة جغرافية واسعة، لها خصائصها الطبيعية والسكانية والثقافية والاقتصادية التي تميزها، وقد أولى «الإصطخري» عناية خاصة لموضوع المد والجزر؛ فله نظريات جزئية في هذا المضمار؛ مما يدل على طول باعه في علم الأنواء، والمعروف بين العلماء في الماضي أن علم الأنواء جزء لا يتجزأ من علم الجغرافيا.

ولا ننسى في حديثنا عن إنجازات «الإصطخري» أنه حاول بكل ما يملك أن يصحح الأخطاء الجغرافية التي وقع فيها علماء الجغرافيا السابقون له، واتخذ من الخرائط التي زخرت بها مؤلفاته وسيلة لشرح وإبراز الأفكار الجغرافية التصحيحية، ومن أبرز تلك الخرائط «خريطة بحر قزوين» التي شهد المستشرقون بدقتها، كما ركز على طريقة المقارنة بين المدن[1].

إلى غير ذلك من الإنجازات المبدعة التي تحملك على الاعتقاد بأنك أمام سيرةٍ وإنجازات لعالمٍ من القرن العشرين الميلادي «الخامس عشر الهجري»، إلَّا أنه كان يعيش بين علماء القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي!!.

---

(١) «رواد علم الجغرافيا» للدفاع (ص١٠٤).

٢- البَلْخَي:

وهو «أبو زيد أحمد بن سهل البَلْخِي ٢٣٥- ٣٢٢هـ» أحد الكبار الأفذاذ من علماء المسلمين، جمع بين الشريعة والفلسفة والأدب والفنون، ولد في إحدى قرى «بَلْخ» وساح سياحة طويلة، ويعتبر المؤسس الحقيقي لمدرسة المسالكيين المسلمين، وله مؤلفات كثيرة.

وضع كتابًا يسمَّى «صُور الأقاليم» ويسمَّى أيضًا «أشكال البلاد» أو «تقويم البلدان» ويُظَنَّ أنَّ هذا الكتاب أول ما أَلَّف المسلمون في الجغرافية الوصفيَّة المسالكيَّة، وقد رسم خرائط الأقاليم الإسلاميَّة بالألوان على قدر ما تيسَّر له، وقد قيل: إنَّ كتاب «الإصْطَخْرِي» نَقْلٌ عن كتاب «البَلْخِي».

٣- الجيهاني:

وهو «أبو عبد الله أحمد بن محمد بن نصر الجيهاني المتوفى سنة ٣٧٥هـ».

استوزره أمير خراسان «إسماعيل الساماني».

أَلَّف الجيهاني كتاب «المسالك في معرفة الممالك» اعتمد فيه على الإصطخري وخرائطه، وأَضَاف إلى ذلك معلومات قيمَّة عن بلاد الهند والسند وإيران والصين وآسيا، وهذا الكتاب مفقود إلَّا أنَّ الجغرافيين نقلوا عنه، ومنهم الإدريسي.

وقد وصلَتْ إلينا خريطة العالم كما تصوَّرها، وهي أول خريطة للأرض لم تتأثر بآراء اليونان، وإنَّما قامَتْ على أساس البلدان والمسالك.

٤- ابن حَوْقَل:

وهو «أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي البغدادي الموصلي، توفي بعد سنة ٣٦٧هـ».

هو ثالث المسالكيين العرب الكبار بعد «البَلْخِي» و«الإصْطَخْرِي» رحَّالة جغرافي اعتمد في كتابة جغرافيته ورسم خرائطها على رحلاته ومشاهداته، وكتابات ابن خرداذبة والإصْطَخْري، له كتاب: «المسالك والممالك».

وقد وصل إلينا نص كتاب «صورة الأرض» لابن حوقل، وخرائطه كلُّها، كما يقول «د. حسين مؤنس».

٥- المسعودي:

سبقت ترجمته في المؤرخين برقم (١١)، هو رجل موسوعيّ، وعَلَمٌ من أعلام الجغرافيين المسلمين، وخرائطه التي ذكر أنه رسمها لبعض الأقاليم مفقودة، لكن ذكرها الجغرافيون الذين جاؤوا بعده ونقلوا عنها، وهو يُعدُّ من أعلام مدرسة المسالكيين الخرائطيين المسلمين.

وقد وصلت إلينا خريطته للعالم، وهي تُعَدُّ من أدَقّ الخرائط العربية الإسلامية، يقول «د. حسين مؤنس»: ومنها نرى أنَّ المسعودي من أعظم الخرائطيين العرب، وأَحْسَنهم تصوُّرًا لصورة الأرض.

٦- المقدسي:

وهو «شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي، ويقال له: البشاري ٣٣٦- نحو ٣٨٠هـ».

رحَّالة جغرافي، وُلد في القدس، طاف أكثر بلاد المسلمين، وصنف

كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» وهو مطبوع، قد أثنى بعض المستشرقين المتخصصين في الجغرافية على المقدسي، إذ امتاز بكثرة ملاحظاته وسعة نظره وحُسْن ترتيبه.

ومن الخرائط التي عُثر عليها للمقدسيِّ خريطةٌ تتضمَّن الحقيقة الكبرى التي اطلع عليها «كولومبوس» وكانت أساسًا للكَشْف الكولومبي لأمريكا، الذي غير وجه التاريخ، ولهذا تُعَدُّ ذروة علم الخرائط الإسلامية قبل الإدريسي.

العالم الفلكي المسلم ثابت بن قُرَّة بن عرفان الحرّاني (٢٢١هـ- ٢٨٢هـ) (٨٣٦- ٩٠١م):

اشتهر بعلوم مختلفة: رياضيَّات، وطب، وفلك، وفلسفة.

وكان يجيد عدَّة لغات أهمها السريانية، واليونانية، والعبرية بالإضافة إلى العربية، وإليه وإلى تلاميذه يعود الفضل في ترجمة معظم المؤلَّفات اليونانية في الفلك والرياضيَّات، لا سيما مؤلفات بطليموس وأرخميدس[1].

□ وقد ترجم لبطليموس «المجسطي»، وكتاب «جغرافية المعمورة»، وقد تعهَّد هذا العمل بعد ثابت ابن له وحفيدان وابن لأحد أحفاده، وبنى كلٌّ منهم شهرة لنفسه في ذلك[2].

□ وعن ثابت يقول جورج سارتون في كتابه «المدخل في تاريخ العلوم»: «إن ثابت بن قُرَّة يُعَدُّ من أعظم المترجمين وأعظم من عُرِف في

---

(١) «الفهرست» (ص٢٦٧- ٢٦٨).

(٢) المصدر السابق (ص٣٠٢).

مدرسة حرّان في العالم العربي، وقد ترجم كتبًا كثيرة من علوم الأقدمين في الرياضيات والمنطق والطب، وذلك بسبب مقدرته على إجادة مختلف اللغات الأجنبية.

□ وقال عنه الدكتور فرانسيس كرمودي في كتابه «أعمال ثابت بن قُرّة الفلكيّة»: «إن ثابت بن قُرّة طوَّر وترجم معظم الإنتاج العلمي لإقليدس، وأرخميدس، وأبو لونيوس، وبطليموس، حتى صارت مؤلفاتهم كتبًا مدرسية معتمدة في جميع الدول الإسلامية.

ويتفق علماء الرياضيات في المشرق والمغرب أن ثابت بن قُرّة مَهَّد تمهيدًا علميًّا لحساب التكامل والتفاضل.

□ وعنه قال ديفيد يوجين سمث في كتابه «تاريخ الرياضيَّات» المجلد الثاني: «.. من هؤلاء يجدر بنا أن نذكر العالم العربي ثابت بن قُرَّة، الذي أوجد «حجم الجسم المتولِّد من دوران القطع المكافئ حول محوره».

وكان الخليفة المعتضد يحترم ثابت بن قرة احترامًا شديدًا، وقد كان ثابت بن قُرة بصحبته ذات مرَّة في حديقة تابعة لبيت الخليفة، فسَها الخليفة واتَّكأ على يد ثابت فسحب الخليفة يده بشدَّة وقدَّم اعتذاره، وقال: يا أبا الحسن سهوت ووضعت يدي على كتفك، واستندت إليها، وليس هكذا يجب أن يكون؛ فإن العلماء يَعْلُون ولا يُعْلَون»[1].

٧- البَتّانِي:

وهو «أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان الحرَّاني الرقّي المعروف

---

(١) البتاني الرَّقي لعلي شواخ إسحاق الشُّعيبي (ص٤٧- ٤٨)- طبع دار السلام.

بالبَتَّاني، ولد قبل سنة ٢٤٤هـ وتوفي سنة ٣١٧هـ».

فلكي مهندس، وهو صاحب كتاب «الزيج» المعروف بزيج الصابي، مطبوع في ثلاثة أجزاء، ترجم إلى اللاتينية، وقيل: إنه أصحُّ من زيج بطليموس[1].

له مصنفات متعدِّدة في الفلك، ولم يُعْلَم أحدٌ في المسلمين بلغ مبلغ ابن جابر الْبَتَّاني في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركاتها. وقال «لاند» الفلكي الفرنسي: «البَتّاني أحد الفلكيين العشرين الأئمة الذين ظهروا في العالم كله»[2].

□ ويقول «د.حسين مؤنس» في كتابه «أطلس تاريخ الإسلام»: «وخريطته للعالم التي نشرناها هنا تُعَدُّ أول خريطة جامعة مفصلة للعالم بعد خريطة بطليموس، وهي أصحُّ من خريطة بطليموس، لأَنَّه اتَّبع في رسمها طريقة التسطيح البسيط، وخطوط الطول والعرض فيها مستقيمة، أمَّا خريطة بطليموس فَعُمِلت على أساس التسطيح المخروطي.

قالوا عن البتَّاني محمد بن جابر بن سنان:

□ قال المستشرق «نلينو»: «إن له رصودًا جليلة للكسوف والخسوف اعتمد عليها دنتورن سنة ١٧٤٩م في تحديد مسار القمر في حركته خلال قرن من الزمان.

□ وقال «لالند» الفلكي الفرنسي: «البتَّاني أحد الفلكيين العشرين

---

(١) الزيج: كلُّ كتاب يتضمَّن جداول فلكية يُعرَف منها سير النجوم، ويُستخرج بواسطتها تقويم السنين.

(٢) «الأعلام» للزركلي (٦/ ٦٨).

الأئمة الذين ظهروا في العالم كله»[١].

▫ وقال «ديفيد يوجين سمث» في كتابه «تاريخ الرياضيات» الجزء الأول: «ونال البتاني شهرته العظيمة في تطويره لعلم الفلك، وتُرجمت مؤلفاته في هذا المجال من اللغة العربية إلى لغات أوربية عديدة».

▫ وأضاف «إيرك بل» في كتابه «تطورات الرياضيَّات»: «إن البتاني هو أول عالم أدخل علم الجبر على علم حساب المثلثات بدلًا من الهندسة كما كان في القديم».

▫ ولا يبالغ البروفيسور الأمريكي «درك ستروك» عندما يقول في كتابه «ملخص تاريخ الرياضيات»: «إن البتاني أعظم عالم عربي في علم الفلك عبر التاريخ»، وكان الأجدر به أن يقول: «أعظم عالم فلكي عرفه التاريخ»[٢].

▫ قال الزركلي في «الأعلام»: «ولم يُعْلَم أحدٌ بلغ مبلغ ابن جابر في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركاتها»[٣].

▫ وقال محمد مسعود: «هو أول من كشف السمت Azimoth والنظير Nadir اكتشف حركة أوج الشمس وانحرافه، والجيب الهندسي والأوتار وقد قاله تشمبرلن في موسوعة العلوم الفلكية الإنجليزية[٤].

---

(١) «مجلة المقتطف المصرية» (١/ ١٨)، و«الأعلام» (٦/ ٦٨)- دار العلم للملايين.

(٢) «العلوم البحتة في الحضارة العربية الإسلامية» للدكتور علي عبد الله الدفاع (ص٣٦٥).

(٣) «الأعلام» (٨/ ٦٨).

(٤) «البتاني» (ص٧٣) لعلي شواخ.

□ وقال «قب» و«كريمر» الأوربيان في كتابهما «دائرة المعارف في الإسلام»: «إن البتاني عنده سرعة البديهة وباستطاعتنا أن نسمِّيه «قاموس كليات المعارف عند المسلمين»، وله كتاب «الزيج الصابئ» وهو أعظم ما قام به ولجداوله منزلة عالية عند علماء الفلك في هذا العصر ولا يستغنون عنها عند البحث في تاريخ بعض الكواكب ومواقعها وحركاتها[١].

وقالوا عن كتابه: إنه أصح من زيج بطليموس.

٨- الإدْريسي:

وهو الشريف أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدْريس الإدريسي الحسني الطالبي (٤٩٣- ٥٦٠هـ).

من أكابر العلماء بالجغرافية، وهو من أدراسة المغرب الأقصى، وُلِد في سَبْتَة، ونشأ وتعلم بقرطبة، ورحل رحلة طويلة انتهى بها إلى صَقَلِّيَّة، فنزل على صاحبها «روجار الثاني» ووضع له كتابًا سمَّاه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق- مخطوط» وهو أصحُّ كتاب أَلَّفه العرب في وصف بلاد أوروبة وإيطالية.

وله كتاب «روض الأنس ونزهة النفس» ويُعْرَف بالممالك والمسالك، وكان له ولَعٌ بعلم الجغرافية، وكان بفطرته ذا عقليَّة علميَّة ممتازة.

□ يقول «د. حسين مؤنس» في «أطلسه»: «والكرة التي صنعها للأرض بناء على طلب «روجار الثاني» النورمندي، ملك صقليَّة، تعتبر عملًا مبتكرًا في فن الخرائط من بدايته إلى يومنا هذا، فهي خريطة للأرض مجسَّمة، رسمها في أوَّل الأمر على الورق، ثم جسمها في صورة كُرَة من

(١) «العلوم البحتة في العصور الإسلامية» لعمر رضا كحالة (ص١٦٩).

الفضَّة، ورسم عليها اليابسَ بالذهب، وبعد ذلك سطَّحها تسطيحًا بسيطًا يشبه ما جرى عليه «مركاتور» في عمل مسقط لخريطة الأرض المبسوطة، وعمل كلَّ الحسابات الرياضية التي يتطلَّبها التحويل من الاستدارة إلى التسطيح.

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جريرُ المجامع

البيروني [1] أعظم عقلية عرفها التاريخ (٣٦٢-٤٤٠هـ/٩٦٣-١٠٤٨م):

□ عرَّفه «جورج سارتون» في كتابه «مقدمة لدراسة تاريخ العلم» بقوله: «كان رحّالة وفيلسوفًا، ورياضيًّا، وفلكيًّا، وجغرافيًّا، وعالمًا موسوعيًّا، ومن أكبر عظماء الإسلام، ومن أكابر علماء العالم»، ووصفه المستشرق الألماني سخاو بقوله: «أعظم عقلية عرفها التاريخ» [2].

إنه أبو الريحان أحمد بن محمد البيروني الخوارزمي، الذي وُلِدَ في بلدة بيرون، إحدى ضواحي مدينة «كاث» عاصمة الدولة الخوارزمية، سنة ٣٦٢هـ-٩٦٣م، والذي اطَّلع على فلسفة اليونانيين والهنود، وعَلَتْ شهرته، وارتفعت منزلته عند ملوك عصره [3].

كان لمؤلَّفاته اليد الطُّولى في صناعة أمجاد عصر النهضة والثورة الصناعية في العالم الغربي؛ فقد حدَّد بدقة خطوط الطول وخطوط العرض، وناقش مسألة ما إذا كانت الأرض تدور حول محورها أم لا،

---

(١) «العلم وبناء الأمم» (ص٥٤٧- ٥٥٠).

(٢) «نوابغ المسلمين» (٢/ ٥٣، ٦٤، ٦٥).

(٣) «الوافي بالوفيات» للصفدي (١/ ١٠٧٠)، و«الأعلام» للزركلي (٥/ ٣١٤)، و«موسوعة العرب: أبو الريحان البيروني» (ص٢٦).

وسبق في ذلك جاليليو وكوبرنيكوس، إضافةً إلى اكتشافاتٍ أخرى عديدة.

وقد رحل البيروني إلى الهند وأقام فيها بضع سنين، نتج عنها كتابه «الطائر الصيت»، المعروف بكتاب الهند، والمعروف بـ «كتاب البيروني في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة» أودع فيها نتيجة دراساته من تاريخ وأخلاق وعادات وعقائد وآداب وعلوم الهند، ومن جملتها ما كان عندهم من المعرفة بصورة الأرض.

ويصف المستشرق «روزن» منذ أكثر من سبعين عامًا هذا الكتاب بأنه «أثر فريد في بابه، لا مثيل له في الأدب العلمي القديم أو الوسيط، سواء في الغرب أم في الشرق»[(١)].

وغير كتابه السابق كان للبيروني أيضًا كتب أخرى كثيرة ومهمة في ضروب مختلفة من العلم؛ ففي الجغرافيا ألَّف: تصحيح الطول والعرض لمساكن المعمور من الأرض، وتحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن، أمَّا في التاريخ؛ فله: تصحيح التواريخ، والآثار الباقية عن القرون الخالية، وفي الفلك كان له مؤلفات عديدة، مثل: الاستشهاد باختلاف الأرصاد، واختصار كتاب البطليموس القلوذي، والزيج المسعودي، والاستيعاب للوجوه الممكنة في صنعة الإسطرلاب، وتعبير الميزان لتقدير الأزمان، وقانون المسعودي في الهيئة، وفي الرياضيات أُثِرَ عن البيروني مؤلَّفات عِدَّة؛ كاستخراج الكعاب والأضلاع وما وراءه من مراتب الحساب، وكتاب الأرقام، ورغم اهتمامه بالعلم فإنه كان ذا باعٍ

---

(١) «أعلام الجغرافيين العرب» لعبد الرحمن حميدة (ص٣٤١).

طويل في الأدب؛ لذا كتب شرح ديوان أبي تمام، ومختار الأشعار والآثار، وفوق كل ذلك كان له مؤلَّفات عديدة في الفلسفة، مثل: كتاب المقالات والآراء والديانات، ومفتاح علم الهند، وجوامع الموجود في خواطر الهنود، وغير ذلك العشرات من المؤلَّفات الضخمة (١).

وبهذه المؤلفات يكاد البيروني يكون قد ألَّف في كل فروع المعرفة التي عهدها عصره؛ فقد كتب في الرياضيات والفلك والتنجيم والحكمة والأديان والتاريخ والجغرافيا والجيولوجيا والأحياء والصيدلة.

أما في مجال الطبيعيات فقد اهتم بالخواص الفيزيائية لكثير من المواد، وتناولت أبحاثه علم ميكانيكا الموائع والهيدروستاتيكا، ولجأ في بحوثه إلى التجربة وجعلها محورًا لاستنتاجاته (٢)، كما انضم مع ابن سينا إلى الذين شاركوا ابن الهيثم في رأيه القائل بأن الضوء يأتي من الجسم المرئي إلى العين (٣).

ومن أبرز ما توصل إليه البيروني تحديده الثقل النوعي لـ ١٨ عنصرًا ومركبًا بعضها من الأحجار الكريمة، وقد أجرى تجاربَ لذلك، استعمل فيها وعاءً مصبه متجه إلى أسفل، ومن وزن الجسم في الهواء تمكن من معرفة مقدار الماء المزاح، ومن هذا الأخير ووزن الجسم في الهواء حسب الوزن النوعي، وكانت حساباته دقيقة إلى حد كبير، وهي لا تختلف كثيرًا

---

(١) «**هدية العارفين**» للباباني (١/ ٤٨٠) و«الوافي بالوفيات» للصفدي (١/ ٤٨٠).

(٢) «**تطور الفكر العلمي عند المسلمين**» (ص١١٤، ١١٥).

(٣) «**العلماء العرب وما أعطوه للحضارة**» لقدري طوقان (ص١٦٣).

عن النتائج الحديثة [(١)].

وفي ظاهرة الجاذبية كان البيروني مع ابن الحائك، من الرواد اللذين قالوا: بأن للأرض خاصية جذب الأجسام نحو مركزها، وقد تناول ذلك في آراء بثَّها في كتب مختلفة، ولكنَّ أشهر آرائه في ذلك ضمَّنها كتابه القانون المسعودي [(٢)].

ومن المسائل الفيزيائية التي تناولها «البيروني» في كتاباته ظاهرة تأثير الحرارة في المعادن، وضغط السوائل وتوازنها، وتفسير بعض الظواهر المتعلقة بسريان الموائع، وظاهرة المد والجزر وسريان الضوء، فقد لاحظ أن المعادن تتمدَّد عند تسخينها، وتنكمش إذا تعرضت للبرودة [(٣)].

وأولى ملاحظاته في هذا الشأن كانت في تأثير تباين درجة الحرارة في دقة أجهزة الرصد، حيث تطرأ عليها تغيرات في الطول والقصر في قيظ النهار وصقيع آخر الليل، وتعرض في كتابه الآثار الباقية عن القرون الخالية لميكانيكا الموائع؛ فشرح الظواهر التي تقوم على ضغط السوائل واتزانها وتوازنها، وأوضح صعود مياه النافورات والعيون إلى أعلى مستندًا إلى خاصية سلوك السوائل في الأواني المستطرقة، كما شرع بجمع مياه الآبار بالرشح من الجوانب حيث يكون مصدرها من المياه القريبة منها، وتكون سطوح ما يجتمع منها موازنة لتلك المياه، وبيَّن كيف تفور العيون وكيف يمكن أن تصعد مياهها إلى القلاع ورؤوس المنارات.

---

(١) «نوابغ المسلمين» لمصطفى وهبة (٢/ ٦٣) بتصرف.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

وتحدث عن ظاهرة المد والجزر في البحار والأنهار وعزاهما إلى التغير الدوري لوجه القمر (١).

أما فيما يختص بسريان الضوء، فقد فطن إلى أن سرعة الضوء تفوق سرعة الصوت (٢)، واتفق مع ابن الهيثم وابن سينا في قولهما بأن الرؤية تحدث بخروج الشعاع الضوئي من الجسم المرئي إلى العين وليس العكس(٣)، كما يقرر أن القمر جسم معتم لا يضيء بذاته وإنما يضيء بانعكاس أشعة الشمس عليه، وكان البيروني يشرح كل ذلك بوضوح تام، ودقة متناهية في تعبيرات سهلة لا تعقيد فيها ولا التواء (٤).

□ وفطن البيروني إلى أن سرعة الضوء تفوق سرعة الصوت، واتفق مع ابن الهيثم في أن الرؤية تحدث بخروج الشعاع الضوئي من الجسم المرئي إلى العين وليس العكس.

كما وضع البيروني قاعدة حسابية لتسطيح الكرة، أي نقل الخطوط والخرائط من الكرة إلى سطح مسطح وبالعكس، وبهذا سهل رسم الخرائط الجغرافية (٥).

ويعتبر البيروني بعدُ أحدَ ألمع الوجوه التي يمكن أن تعتز بها الثقافة العربية من خلال تاريخ الفكر الإسلامي وأكثرها جاذبية، فعلى الرغم من أن اسم البيروني يحتل مكانته من الأدب العربي في ميدان الجغرافيا

(١) «العلماء العرب وما أعطوه للحضارة» (ص١٧٦) بتصرف.

(٢) «تراث الإسلام» لحسن نافعة (٢/ ١٩٣).

(٣) «العلماء العرب وما أعطوه للحضارة» (ص١٦٣).

(٤) انظر: «موقع الموسوعة العربية العالمية».

(٥) «أعلام الجغرافيين العرب» لعبد الرحمن حميدة (ص٤٥٩).

والرحلات، إلَّا أنه يتبين لنا من خلال المصنفات السابقة أنه لم يكن جغرافيًا فحسب، بل كان رياضيًّا وفلكيًّا، وفيلسوفًا، وشاعرًا وأديبًا، وعالم اجتماعٍ ومؤرخًا!!

نعم كان كلَّ أولئك، وبرز في كل فروع المعرفة الإنسانية هذه، وبعبارة أخرى: كان مؤلفًا انتظم نشاطه كل دائرة العلوم المعاصرة له، والتي تحتل بينها العلوم الرياضة والفيزيائية مكانة الصدارة عنده [١].

◻ وفي رجب سنة ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م توفي البيروني، وكانت وفاته ختام حياة حافلة لرجل حكيم وعظيم، وفي وفاته يحكي أبو الحسن علي بن عيسى -كما ذكرنا من قبل- فيقول: دخلت على أبي الريحان وهو يجود بنفسه، فقال لي: كيف قلتَ لي يومًا في حساب الجدَّات الفاسدة؟ فقلت له إشفاقًا عليه: أفي هذه الحالة؟ قال: يا هذا، أودِّع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة، ألَا يكون خيرًا من أن أخلِّيها وأنا جاهل بها؟ فأعدتُ ذلك عليه وحفظ، وعلَّمني ما وعد، وخرجت من عنده، وأنا في الطريق فسمعت الصراخ عليه!! [٢].

الخوارزمي مؤسس علم الجَبر:

أبو الجبر أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي.. تعود أصوله إلى خوارزم «أوزبكستان اليوم» وعاش في بغداد فيما بين سنة ١٦٤ وسنة ٢٣٥هـ (٧٨٠-٨٥٠م)، ولمع في علم الرياضيات والفلك في زمن خلافة المأمون الخليفة العباسي.

---

(١) المصدر السابق (ص٣٤١، ٣٤٢).

(٢) «الوافي بالوفيات» (١/ ١٠٧٠).

▢ قال عنه المستشرق «ألدوميلي»: «إذا انتقلنا إلى الرياضيات والفلك فسنلتقي منذ البدء بعلماء من الطراز الأول، ومن أشهر هؤلاء العلماء أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي!!».

فالخوارزمي الرياضي والجغرافي والفلكي يُعَدُّ من أكبر علماء المسلمين، ومن العلماء العالميين الذين كان لهم تأثير كبير على العلوم الرياضية والفلكية، وهو مؤسس ومبتدع علم الجبر كعلمٍ مستقلٍّ عن الحساب، وقد أخذه الأوروبيون عنه، كما أنَّه أول من استعمل كلمة «جبر» للعلم المعروف الآن بهذا الاسم، فحتى الآن ما زال الجبر يعرف باسمه العربي في جميع اللغات الأوروبية، وترجع كل الكلمات التي تنتهي في اللغات الأوروبية بـ «algorism/algorithme» إلى اسم الخوارزمي، كما يرجع إليه الفضل في تعريف الناس بالأرقام العربية؛ ولهذا كان الخوارزمي أهلًا لتسميته بأبي الجبر [١].

وقد اشتغل المسلمون بالجبر واستعملوه حتى نبغوا فيه، بينما كان بمثابة الألغاز بالنسبة للأوروبيين؛ يقول الدكتور ديفيد يوجين سميث في كتابه «تاريخ الرياضيات»- المجلد الثاني: «إنَّ الجبر عُرِفَ في اللغة الإنجليزية في القرن السادس عشر الميلادي بالجبر والمقابلة، ولكنَّ هذا الاسم اختُصِرَ في النهاية من مخطوطه محمد بن موسى الخوارزمي الذي نال الشهرة العظيمة عام ٨٢٥م، وذلك في بيت الحكمة في بغداد حيث ألَّف هناك كتابه القيم «الجبر والمقابلة»، وفيه حلَّ الكثير من المعادلات

(١) «مسلمون علموا العالم» لمحمد علي عثمان (ص٧٤، ٧٥)، و«١٠٠ عالم غيرُّوا وجه العالم» لأكرم عبد الوهاب (ص٢٠).

ذات الدرجة الأولى والثانية من ذات المجهول الواحد».

واعترف رام لاندو في كتابه «مآثر العرب في الحضارة» بأنَّ الخوارزمي «ابتكر علم الجبر، ونقل العدد من صفة البدائية الحسابية لكمية محدودة إلى عنصر ذي علاقة وحدود لا نهاية لها من الاحتمالات، ويمكننا القول بأن الخطوة من الحساب إلى الجبر هي في جوهرها الخطوة من الكينونة إلى الملائمة، أو من العالم الإغريقي الساكن إلى العالم الإسلامي المتحرك الأبدي الرباني»(١).

وقد طوَّر الخوارزمي علم الجبر كعلمٍ مستقل عن الحساب؛ ولذا ينسب إليه هذا العلم في جميع المعمورة، فقد ابتكر الخوارزمي في بيت الحكمة الفكر الرياضي بإيجاد نظام لتحليل كل معادلات الدرجة الأولى والثانية ذات المجهول الواحد بطرق جبرية وهندسية(٢).

□ ولذا فقد سمَّى «جورج سارتون» في كتابه «مقدمة من تاريخ العلوم» النصف الأول من القرن التاسع بـ «عصر الخوارزمي»؛ وذلك لأن الخوارمي كان أعظم رياضيٍّ في ذلك العصر على حَدِّ تعبير سارتون، ويستطرد «سارتون» فيقول: «وإذا أخذنا جميع الحالات بعين الاعتبار فإنَّ الخوارزمي أحد أعظم الرياضيين في كل العصور».

وإضافة إلى ذلك أكَّد الدكتور «أي وايدمان» أن أعمال الخوارزمي

---

(١) «مبتكر علم الجبر» محمد بن موسى الخوارزمي مقالة لعلي بن عبد الله الدفاع-مجلة البحوث الإسلامية- الرياض- العدد الخامس ١٤٠٠هـ (٥/ ١٧٣).

(٢) «التراث العلمي للحضارة الإسلامية في الشام والعراق خلال القرن الرابع الهجري» (ص٦٤٢، ٦٤٣).

تتميز بالأصالة والأهمية العظمى، وفيها تظهر عبقريته، كما قال الدكتور «ديفيد يوجين سميث» و«لويس شارلز كاربينسكي» في كتابهما «الأعداد الهندية والعربية»: «إنَّ الخوارزمي هو الأستاذ الكبير في عصر بغداد الذهبي؛ إذ إنه أحد الكُتَّاب المسلمين الأوائل الذين جمعوا الرياضيات الكلاسيكية من الشرق والغرب، محتفظين بها حتى استفادت منها أوروبا المتيقظة آنذاك، إنَّ لهذا الرجل معرفة كبيرة، ويدين له العالم بمعرفتنا الحالية لعلمي الجبر والحساب»[١].

وقد وجد الخوارزمي متسعًا من الوقت لكتابة علم الجبر حينما كان منهمكًا في الأعمال الفلكية في بغداد، فقد أسس المأمون «بيت الحكمة» وكان يحتوي على مكتبة تضمُّ نصوصًا مترجَمة لأهم الكتب اللاتينية، ثم يعين الخوارزمي رئيسًا له، وعهد إليه بجميع الكتب اليونانية وترجمتها، الأمر الذي أفاد الخوارزمي كثيرًا؛ حيث درس الرياضيات والجغرافيا، والفلك، والتاريخ، إضافة إلى إحاطته بالمعارف اليونانية والهندية حتى كان نبوغه في حدود سنة ٢٠٥هـ[٢].

□ ولم يكتشف الخوارزمي علم الجبر ونظرية الخطأين «وهما أداة أساسية في التحليل العلمي الرياضي» فحسب، وإنما وضع كذلك أسس البحث التجريبي الحديث باستخدام النماذج الرياضية، كما نشر أول

---

(١) «مبتكر علم الجبر.. محمد بن موسى الخوارزمي» مقالة للدفاع- مجلة البحوث الإسلامية- (٥/ ١٧٢) وللدفاع أيضًا «العلوم البحتة في الحضارة العربية والإسلامية» (ص١٤٩).

(٢) «الفهرست» لابن النديم (ص٣٣٣)، و«العلوم البحتة» للدفاع (ص١٤٨).

الجداول العربية عن المثلثات للجيوب والظلال، وقد تُرجِمت إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر[١].

وإضافةً إلى إسهاماته الكبرى في الحساب، أبدع الخوارزمي أيضًا في علم الفلك، وأتى ببحوث جديدة في المثلثات، ووضع جدولًا فلكيًّا «زيجًا»، وقد كان لهذا الزيج الأثر الكبير على الجداول الأخرى التي وضعها العرب فيما بعد، إذ استعانوا به واعتمدوا عليه وأخذوا منه، وكان من أهم إسهامات الخوارزمي العلمية التحسينات التي أدخلها على جغرافية بطليموس سواء بالنسبة للنص أو الخرائط[٢].

مؤلَّفات الخوارزمي:

□ يقول محمد خان في كتابه «نظرة مختصرة لمآثر المسلمين في العلوم والثقافة»: «إنَّ الخوارزمي يقف في الصف الأول من صفوف الرياضيين في جميع العصور، وكانت مؤلفاته هي المصدر الرئيسي للمعرفة الرياضية لعدة قرون في الشرق والغرب»[٣].

□ وقد اهتم الخوارزمي في بداية الأمر بالاكتشافات في علم الرياضيات والفلك، ثم بعدها بدأ التأليف فصنَّف كتابًا كثيرة، منها على سبيل المثال لا الحصر:

١ - كتاب «الجبر والمقابلة»، وهو الكتاب الرئيسي ذو الأثر الحاسم، والذي درس فيه تحويل المعادلات وحلها، وقد ترجمه إلى اللاتينية

---

(١) «مبتكر علم الجبر للدفاع».

(٢) «١٠٠ عالم غيَّروا وجه العالم» لأكرم عبد الوهاب (ص٢٠).

(٣) «مبتكر علم الجبر» -مجلة البحوث الإسلامية (٥/ ١٧٢)

«جيراردو دي كريمونا» ونشر النص العربي «روزن» مع ترجمة إنجليزية في لندن سنة ١٨٥١م.

وترجم له أيضًا «يوحنا الإسباني» الذي ترجم من العربية إلى اللاتينية عدة مؤلفات في الفلك والنجوم، من بينها كتاب للخوارزمي، بفضلها انتقل الحساب الهندي والنظام العشري في الحساب إلى أوروبا؛ حتى عرفت العمليات الحسابية باسم Alguarismo. والغريب أنها ترجمت إلى العربية باسم «اللوغاريتمات» وهي في الأصل منسوبة إلى الخوارزمي!! والصحيح أن تترجم «الخورازميات» أو «الجداول الخوارزمية».

وقد أصبح الكتاب مصدرًا أساسيًّا في الرياضيات في الجامعات الأوروبية حتى القرن السادس عشر، وكان معظم ما أَلَّفه مَنْ جاء بعده في علم الجبر مستندًا عليه، وقد نقله من اللغة العربية إلى اللاتينية «روبرت أوف شستر Robert of chester» فاستنارت به أوروبا.

وحديثًا حقق الدكتوران علي مصطفى مشرفة ومحمد مرسي هذا الكتاب، والمطبوع في سنة ١٩٦٨م[1].

٢- كتاب في الجغرافيا شرح فيه آراء بطليموس.

٣- كتاب جداول للنجوم وحركاتها من مجلدين.

٤- كتاب شرح فيه طريقة معرفة الوقت بواسطة الشمس.

٥- كتاب جمع فيه بين الحساب والهندسة والموسيقى والفلك، ويقول البروفيسور «جورج سارتون» في كتابه «المدخل إلى تاريخ العلوم» عن

---

(١) «مبتكر علم الجبر.. الخوارزمي» للدفاع- مجلة البحوث الإسلامية- (٥/ ١٨٧).

هذا الكتاب: «إنه يشتمل على خلاصة دراساته لا على ابتكاراته العظيمة».

٦- كتاب «العمل بالإسطرلاب».

٧- كتاب «صنع الإسطرلاب».

٨- كتاب وضح فيه طريقة الجمع والطرح.

٩- كتاب «صورة الأرض وجغرافيتها».

١٠- كتاب صورة الأرض، نشر سنة ١٩٢٩م.

١١- كتاب «المعرفة»، وهو يبحث في علم النجوم.

١٢- كتاب «زيج الخوارزمي الأول».

١٣- كتاب «زيج الخوارزمي الثاني»، وهو جداول فلكية سماه «السند هند»، جمع فيه بين مذهب الهند والفرس. وهو اختصار «المَجَسْطي» لبطليموس وزاد عليه زيادات كثيرة، وكان هذا الكتاب أساسًا لعلم الفلك عند الأوربيين.

١٤- رسالة عن النسبة التقريبية وقيمتها الرياضية.

١٥- رسالة وضح فيها معنى الوحدة المستعملة في المساحات والحجوم.

١٦- رسالة ذكر فيها برهانًا آخر لنظرية فيثاغورس مستخدمًا مثلثًا قائم الزاوية ومتساوي الساقين.

١٧- رسالة مفصلة وضح فيها قوانين لجمع المقادير الجبرية وطرحها وضربها وقسمها.

١٨- رسالة شرح فيها طريقة إجراء العمليات الحسابية الأربع على

الكميات الصُّم.

١٩- كتاب «رسم الربع المعمور».

٢٠- كتاب «الجمع والتفريق».

٢١- كتاب «الرُّخامة» «الرخامة قطعة من الرخام مخططة تساعد على معرفة الوقت عن طريق الشمس».

٢٢- كتاب «هيئة الأرض».

٢٣- كتاب «المعاملات»، ويتضمن المعاملات التي يقوم بها الناس من بيع وشراء [(١)].

لقد عاش الخوارزمي رحمه الله حياةً عمادُها العلمُ؛ بحثًا واكتشافًا وتأليفًا ابتغاء مرضاة الله عز وجل، وسعيًا وراء راحة البشرية، ورقي الحضارة، وظلَّ كذلك حتى وافته المَنِيَّة سنة ٢٣٥هـ/ ٨٥٠م؛ فرحمه الله رحمةً وسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء»اهـ [(٢)].

علم الفلك:

كان للمسلمين عناية فائقة بالفلك، وكان حكيم آل مروان الخليفة الأموي أبو هاشم خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان «عالمًا بالكيمياء والطب والنجوم، وألف فيها رسائل، واهتم بنقل الكتب من اللسان اليوناني والقبطي إلى اللسان العربي.

□ وكان للخلفاء العباسيين عناية بالعلوم الكونية، وبتوجيهِ طائفةٍ

---

(١) «الفهرست» لابن النديم (ص٣٣٣)، و«مبتكر علم الجبر» (٥/ ١٨٦، ١٨٧)، و«العلوم البحتة» للدفاع (ص١٧٢، ١٧٣).

(٢) «العلم وبناء الأمم» (ص٥٢٨- ٥٣٤).

منهم تُرْجِمَتْ إلى اللغة العربية كتُبٌ كثيرةٌ، ممَّا لدى الهنود والإغريق من هذه العلوم، وكانت مدينة بغداد مركزًا مُهمًّا لها في ظل الخلفاء العباسيين، وكان «أبو جعفر المنصور العباسي وهو عبد الله بن محمد بن علي بن العباس ٩٥- ١٥٨هـ» ثاني خلفاء بني العباس، أول من عُنِي بالعلوم الكونية والطبيعية من ملوك المسلمين، وهو باني مدينة بغداد، وفي أيامه شرع المسلمون يطلبون علوم اليونانيين والفرس، وعُمِل أول إصطرلاب في الإسلام، صنعه «محمد بن إبراهيم الفزاري».

□ وامتدت دراسة العلوم الكونية والطبيعية في معظم مراكز العلم والمعرفة في العالم الإسلامي، حتى النائية منها، مثل صقلية والأندلس.

وألَّف المسلمون جداول «تُسَمَّى الأَزْيَاج» في حركات الكواكب.

وفي زمن «المأمون» ظهر علماء مسلمون كثيرون، ألَّفُوا في علم الفلك، وعملوا أرصادًا وأزياجًا جليلة تقدم بها هذا العلم تقدُّمًا ارتقائيًا مثيرًا للإعجاب، ولم يقفوا في علم الفلك عند حدِّ النظريَّات، بل خرجوا إلى الرَّصْدِ الفِعْلِي والأعمال التجريبية.

والمسلمون قد ضبطوا حركة أوج الشمس، وتداخل فلكِهَا في أفلاك أخرى.

وللمسلمين جداول دقيقة لبعض النجوم الثوابت.

□ ووجه المسلمون عنايتهم لبناء الأرصاد الفلكية، فأقاموا بعضها في دمشق، وفي بغداد، وفي القاهرة، وفي غيرها من بلدان العالم الإسلامي.

واشتهرت الأعمال التي عملها الفلكيون المسلمون بالاستناد إلى هذه الأرصاد بالدقة، وقد اعتمد عليها علماء أوروبا في عصر النهضة وما بَعْدَهُ

في بحوثهم الفلكية.

وابتكر المسلمون آلات مختلفات لأعمال الرصد، وقد اعترف الإفرنج بأن المسلمين قد أتقنوا صناعة هذه الآلات، على الرغم من أنها كانت صناعات يدوية.

المحدث الرُّوداني السوسي صاحب «جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد» وصاحب «كرة التوقيت والهيئة»:

□ الرُّودَاني: هو «شمس الدين أبو عبد الله محمد بن سليمان بن الفاسي ابن طاهر الرُّوداني السوسي المكي (١٠٣٧-١٠٩٤هـ» محدث مغربيٌّ مالكيّ، عالم بالفلك، رحَّال.

وُلد في «تارودانت» وجال في المغرب الأقصى والأوسط، ودخل مصر والشام والآستانة، واستوطن الحجاز، وكان له بمكة شأن.

له مصنفات منها «جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد- ط» في الحديث، ومنها في الفلك «تحفة أولي الألباب في العمل بالإصطرلاب-خ» وكتاب «بهجة الطلاب في الأصطرلاب».

ومن أشهر آثاره «كُرَةٌ» في التوقيت والهَيْئَة[1]، وُصِفَتْ بأنَّها آلة في التوقيت والهَيْئَةِ لم يُسْبَقْ إلى مِثلها، وهي كَرَةٌ مستديرة الشكل، يحسَبُها الناظر إليها بيضةً مسطرَة، كُلُّها دوائر ورسوم، وقد رُكِّبَتْ عليها أُخْرَى مُجَوَّفَةٌ منقسمةُ النِّصفين، فيها تخاريم وتجاويف لدوائر البروج وغيرها، مصبوغة باللون الأخضر، تغني عن كل آلة تُستعْمل في فَنِّي التوقيت

(١) علم الهيئة: هو علم الفلك، وهو علم يبحث عن أحوال الأجرام السماوية، وعلاقة بعضها ببعض، وما لها من تأثير على الأرض.

والهيئة، مع سهولة المدرك، وتصلُح لكل البلاد على اختلاف أعراضها وأطوالها»[١].

العلامة الرياضي «غياث الدين جمشيد الكاشي»:

هو مبتكر الكسور العشرية وواضع علامة الكسر العشري قبل «ستيفن» بأكثر من (١٧٥) سنة على ما ذكر «قدري طوقان» في كتابه تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك»[٢].

علم البصريات في الحضارة الإسلامية ورائده الحسن بن الهيثم:

كان للحضارة الإسلامية إسهامات في علم البصريَّات ونسق فريد متطوِّر؛ وذلك نظرًا لنبوغهم في العديد من العلوم المرتبطة بهذا العلم مثل الفلك والهندسة الميكانيكية وغيرهما، إذ أنَّ ابتكاراتهم قد تتداخل فيها هذه العلوم.

الفيلسوف أبو يوسف الكندي صاحب كتاب «علم المناظر»:

يعد أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي الفيلسوف[٣] من أوائل العلماء المسلمين الذين طرقوا ميدان علم الطبيعة، وتناول الظواهر الضوئية وعالجها في كتابه الشهير «علم المناظر»، وهو أول كتاب عربي يُعنَى بعلم البصريَّات.

ولقد أضاف وصفًا دقيقًا لمبدأ الإشعاع، وصاغ من خلال ذلك

---

(١) «الحضارة» للشيخ الميداني (ص٥٥٥).

(٢) المصدر السابق (ص٥٥٨)، و«التراث العربي العلمي في الرياضيات والفلك» (ص٥٢).

(٣) في فلسفته كثير من الزيغ والبدع والضلالات فهو يسير على نظْم فلاسفة اليونان.

أساس نظام تصوري جديد يحل في نهاية الأمر محل نظرية الانبعاث الإغريقية، وكان لهذا الكتاب صدى في المحافل العلمية العربية، ثم الأوروبية خلال العصور الوسطى.

أبو علي الحسن بن الهيثم «رائد علم البصريَّات» (٣٥٤-٤٣٠هـ):

□ أبو علي الحسن بن الهيثم «بطليموس الثاني» المعروف عند الأوروبيين بـ «alhazen» تعد أعماله العلمية فتحًا جديدًا ووثبة خطيرة في عالم البصريات، وفزيلوجية الإبصار، وكانت أعماله هي الأساس الذي بنى عليه علماء الغرب جميع نظرياتهم في هذا الميدان، وكان في طليعة العلماء الأجانب الذين اعتمدوا على نظرياته- بل أغاروا عليها ونسبوها لأنفسهم- روجر بيكون وفيتلو وعلماء آخرون، ولا سيما في بحوثهم الخاصة بالمجهر والتلسكوب والعدسة المكبرة [١].

□ بدأ ابن الهيثم أولًا بمناقشة نظريات إقليدس وبطليموس في مجال الإبصار، وأظهر فساد بعض جوانبها، ثم في أثناء ذلك قدم وصفًا دقيقًا للعين وللعدسات وللإبصار بواسطة العينين، ووصف أطوار انكسار الأشعة الضوئية عند نفوذها في الهواء المحيط بالكرة الأرضية بعامة، وخاصة إذا نفذ من جسم شفاف كالهواء والماء والذرات العالقة بالجو، فإنه ينعطف -أي: ينكسر- عن استقامته [٢].

□ وقد بحث في «الانعكاس» وتبيان الزوايا المترتبة على ذلك، كما تطرق إلى شرح أن الأجرام السماوية تظهر في الأفق عند الشروق قبل أن

---

(١) «ابن الهيثم عبقري في ثوب الجنون»- موضع إسلام أون لاين.

(٢) «روائع الحضارة الإسلامية في العلوم» للدفاع (ص١٢٤).

تصل إليه فعلًا، والعكس صحيح عند غروبها، فإنها تبقى ظاهرة في المجال الأفقي بعد أن تكون قد احتجبت تحته، وهو أول من نوه باستخدام الحجرة السوداء التي تعتبر أساس التصوير الفوتوغرافي[1].

والكتاب الذي خلَّد اسم ابن الهيثم عبر القرون هو «كتاب المناظر»، ويوضح هذا الكتاب تصور البصريات كنظرية أولية في الإبصار، مختلفة جذريًّا عن فرض الشعاع المرئي الذي حافظ عليه التقليد الرياضي منذ إقليدس وحتى الكندي.

ولقد أدخل ابن الهيثم أيضًا منهجية جديدة على هذا التفسير لعملية الإبصار، وبهذا تمكن من صياغة مسائل كانت إمَّا غير مفهومة طبقًا لنظرية الشعاع البصري، أو مُهمَلة من جانب فلاسفة يهدفون أساسًا إلى تفسير ماهية الرؤية أكثر من اهتمامهم بشرح كيفية حدوث الإبصار.

وعلى الرغم من مكانة ابن الهيثم وبحوثه المبتكرة في علم الضوء، إلَّا أنه ظل مغمورًا لا يعرفه كثير من الناس، حتى قيض الله له من يكشف عن جهوده وينقب عن آثاره ويجليها، وكان من هؤلاء العالم العربي مصطفى نظيف، وذلك حين كتب عنه دراسة طيبة رائدة نشرتها جامعة القاهرة في مجلدين، وقد بذل فيها جهدًا مضنيًا في قراءة مخطوطات ابن الهيثم ومئات المراجع الأخرى، حتى خلص إلى حقيقة صادقة، وهي أنَّ ابن الهيثم يُعَد واضع أسس علم الضوء بالمعنى الحديث!!

□ يقول الأستاذ مصطفى نظيف: «لقد قلب ابن الهيثم الأوضاع القديمة، وأنشأ علمًا جديدًا أبطل فيه علم المناظر، الذي أنشأه اليونان، كما

---

(١) «تطور الفكر العلمي عند المسلمين» (ص١٤٨).

أنشأ علم الضوء الحديث، وإن أثره في الضوء لا يقل عن أثر «نيوتن» في الميكانيكا، فإن عُدَّ «نيوتن» بحق رائد علم الميكانيكا في القرن السابع عشر، فإن ابن الهيثم خليقٌ بأن يُعد بحق رائد علم الضوء في مستهل القرن الحادي عشر»[(١)].

□ وأتقن ابن الهيثم الطب وصنف فيه لكنه لم يمارسه، وكان دائمًا يقول: «وإني ما مُدَّت لي الحياة، باذل جهدي، ومستفرغ قوتي في مثل ذلك «يقصد الدراسة وتحصيل العلوم»، متوخيًا منه أمورًا ثلاثة: أحدها إفادة من يطلب الحق ويؤثره، في حياتي وبعد مماتي، والآخر أني جعلت ذلك ارتياضًا لي بهذه الأمور في إثبات ما يتصوره ويتقنه فكري من تلك العلوم، والثالث أني صيرته ذخيرة وعدة لزمان الشيخوخة وأوان الهرم»[(٢)].

□ ولقد كان في كل أحواله زاهدًا عن الدنيا مقبلًا على التحصيل والدراسة، يصفه ابن أبي أصيبعة فيقول: «كان ابن الهيثم فاضل النفس، قوي الذكاء، متفننًا في العلوم، لم يماثله أحد من أهل زمانه في العلم الرياضي، ولا يقرب منه، وكان دائم الاشتغال، كثير التصنيف، وافر التزهد»[(٣)].

□ ومما يُذكَر في ذلك أنه وهو بالشام عند أحد أمرائها فأعجب به وأراد أن يغمره بالأموال، فقال ابن الهيثم: «يكفيني قوت يوم وتكفيني

---

(١) «عيون الأنبياء في طبقات الأطباء» لابن أصيبعة (٣/ ٣٨٠).

(٢) «المناظر» لابن الهيثم (ص٦٢).

(٣) «عيون الأنباء» (٣/ ٣٧٢).

جارية وخادم، فما زاد على قوت يوم إن أمسكتُه كنتُ خازنَك، وإن أنفقتُه كنتُ وكيلك، وإذا اشتغلتُ بهذين الأمرين فمن الذي يشتغل بأمري وعلمي؟!»[١].

وقد درس في بغداد الطب، واجتاز امتحانًا مقررًا لكل من يريد العمل بالمهنة، وتخصَّص في طب الكحالة «طب العيون»، وكان أهل بغداد يقصدونه للسؤال في عدة علوم، برغم أن المدينة كانت زاخرة بصفوة من كبار علماء العصر.

استقر بمصر واتخذ من غرفة بجوار الجامع الأزهر سكنًا، ومن مهنة نسخ بعض الكتب العالمية موردًا لرزقه، هذا بخلاف التأليف والترجمة؛ حيث كان متمكنًا من عدة لغات، ولكنه لم يكن في سعة من العيش، فقد كان يرتزق من نسخ كتابين أو ثلاثة كتب رياضية، منها كتاب الأصول لإقليدس في الهندسة، وكتب المجسطي لبطليموس في الفلك، فكان ينسخها كل عام فيأتيه من أقاصي البلاد من يشتريها منه بثمن معلوم، لا مساومة فيه ولا معاودة، فيبيعها ويجعلها مئونة حياته طول سنته»[٢].

□ تقول «زيجريد هونكه»: «والواقع أن روجر بيكون، أو باكوفون فارولام، أو ليوناردو دافنشي، أو جاليليو، ليسوا هم الذين أسسوا البحث العلمي؛ إنما السابقون في هذا المضمار كانوا من العرب، والذي حققه ابن الهيثم لم يكن إلَّا علم الطبيعة الحديث، بفضل التأمل النظري والتجربة

(١) «تتمة صوان الحكمة» للبيهقي ظهير الدين (ص١٦).
(٢) «عيون الأنباء» (٣/ ٣٨٠).

الدقيقة»[١].

□ وعلى هذا المنهج سار ابن الهيثم في كل مؤلفاته وتصانيفه، وقد كان غزير التأليف متدفق الإنتاج في شتى أنواع المعرفة، فطرق الفلسفة والمنطق والطب والفلك والبصريات والرياضيات، مستحدثًا أنماطًا جديدة من الفكر العلمي الأصيل، وقد بلغ عدد مؤلفاته ما يربو على مائتي مؤلف (٢٣٧ مخطوطة ورسالة في مختلف فروع العلم والمعرفة).

□ وفي البصريات وحدها أَلَّفَ ابن الهيثم ما يقرب من أربعة وعشرين موضوعًا، ما بين كتاب ورسالة ومقالة، غير أن أكثر هذه الكتب فقد فُقد فيها فقد من تراثنا العلمي، وما بقي منها فقد ضمته مكتبات إستانبول ولندن وغيرهما، وقد سلم من الضياع كتابه العظيم «المناظر» الذي احتوى على نظريات مبتكرة في علم الضوء، وظل المرجع الرئيسي لهذا العلم حتى القرن السابع عشر الميلادي بعد ترجمته إلى اللاتينية [٢].

□ ولا يعرف العالم من مؤلفات ابن الهيثم حاليًا سوى خمسين كتابًا لم يبق منها في القاهرة سوى ثلاثة فقط، حيث تسرب العديد من كتبه الأخرى إلى أوروبا أثناء الحملة الفرنسية على مصر وأثناء الحروب الصليبية.

□ وإلى جانب البصريات فقد كانت له مساهماته في الهندسة، وله فيها ثمانية وخمسون مؤلفًا، تضم آراءه وبراهينه المبتكرة لمسائل تواترت عن إقليدس وأرشميدس بدون برهان، أو في حاجة إلى شرح وإثبات، ويوجد

---

(١) «شمس العرب تسطع على الغرب» لزيغريد هونكه (ص١٤٨، ١٤٩).
(٢) «روائع الحضارة العربية والإسلامية في العلوم» للدفاع (ص١٢٣).

في مكتبات العالم في القاهرة ولندن وباريس وإستانبول أكثر من واحد وعشرين مخطوطًا لابن الهيثم في هذا التخصص، وفي الحساب والجبر والمقابلة ألَّف ما لا يقل عن عشرة كتب، لا يوجد منها سوى مخطوطات قليلة في مكتبة عاطف بتركيا منها: حساب المعاملات واستخراج مسألة عددية.

□ وفي الفلك أبدع ابن الهيثم وأسهم فيه بفاعلية حتى أطلق عليه «بطليموس الثاني»، ولم يصلنا من تراث ابن الهيثم في الفلكيات إلَّا نحو سبع عشرة مقالة من أربعة وعشرين تأليفًا، تحدث فيها عن أبعاد الأجرام السماوية وأحجامها وكيفية رؤيتها وغير ذلك [١].

□ كما أن له في الطب كتابين: أحدهما في «تقويم الصناعة الطبية» ضمَّنه خلاصة ثلاثين كتابًا قرأها لجالينوس، والآخر «مقالة في الرد على أبي الفرج عبد الله بن الطيب» لإبطال رأيه الذي يخالف فيه رأي جالينوس، وله أيضًا رسالة في تشريح العين وكيفية الإبصار [٢].

كتاب المناظر لابن الهيثم ثورة في علم البصريَّات:

لم يتبنَّ ابن الهيثم نظريات «بطليموس» ليشرحها ويجري عليها بعض التعديل، بل إنه رفض عددًا من نظرياته في علم الضوء، بعدما توصل إلى نظريات جديدة غدت نواة علم البصريات الحديث.

فقد كان «بطليموس» - كما ذكرنا - يزعم أن الرؤية تتم بواسطة أشعَّة تنبعث من العين إلى الجسم المرئي، وقد تبنى العلماء اللاحقون هذه

---

(١) «الحسن بن الهيثم» لرحاب العكاوي (ص٧٢).

(٢) «رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية» للدفاع (ص٣١٨).

النظرية، ولما جاء ابن الهيثم نسف هذه النظرية في كتابه «المناظر»، وبين أن الرؤية تتم بواسطة الأشعة التي تنبعث من الجسم المرئي باتجاه عين المبصر، وبعد سلسلة من الاختبارات أجراها ابن الهيثم بيّن أن الشعاع الضوئي ينتشر في خط مستقيم ضمن وسط متجانس.

وكان ابن الهيثم أول من درس العين دراسة علمية، وعرف أجزاءها وتشريحها ورسمها، وأول من أطلق على أجزاء العين أسماء أخذها الغرب بنطقها أو ترجمها إلى لغاته، ومن هذه الأسماء: القرنية «Cornea»، والشبكية «Retina»، والسائل الزجاجي «Vitrous Humour»، والسائل المائي «Aqueous Humour».

□ وضع ابن الهيثم ولأول مرة قوانين الانعكاس والانعطاف في علم الضوء، وعلّل لانكسار الضوء في مساره، وهو الانكسار الذي يحدث عن طريق وسائط كالماء والزجاج والهواء، فسبق ابن الهيثم بما قاله العالم الإنجليزي نيوتن [(١)].

□ وكان أول من قال بأن للضوء سرعة محددة يُمكن قياسها [(٢)].

وخلاصة القول أنَّ ما أتى به ابن الهيثم قبل أكثر من ألف عام، شيء كثير يستحق إجلالَ العلماء وتقديرهم؛ فهو بحق أكبر فيزيائي مسلم، وكتابه في البصريات تضمن أول وصف صحيح للعين بأخلاطها المائية وجسمها البللوري وقرنيتها وشبكيتها وغرفتها المظلمة.

كما اتضح لنا أن ابن الهيثم جعل علم الضوء يتخذ صبغة جديدة،

---

(١) «حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالم» لجلال مظهر (ص٣٠٣).

(٢) «الحسن بن الهيثم الحكيم بطليموس الثاني» لرحاب عكاوي (ص١١٧).

وينشأ نشأة أخرى غير نشأته الأولى، حتى أصبح أثره في علم الضوء يشبه تأثير نيوتن العام في علم الميكانيكا، فكانت المعلومات في علم الضوء قبل ابن الهيثم متفرقة لا يربطها رابط، فأعاد البحث فيها من جديد، واتجه في بحثه وجهة لم يسبقه إليها أحد من قبله، فأصلح الأخطاء وأتم النقص، وابتكر المستحدث من البحوث، وأضاف الجديد من الكشوف، واستطاع أن يؤلف من ذلك كله وحدة مترابطة الأجزاء، وأقام الأساس الذي انبنى عليه صرح علم الضوء.

□ يقول الدكتور محمد يونس الحملاوي: «لقد حفر ابن الهيثم مكانه في سجل تقدم البشرية بحروفٍ من نور حين درس واستوعب ونقد وفنَّد المسلمات التي عاشت عند رواد علم المناظر من أمثال «إقليدس» و«بطليموس» وغيرهما.. لقد أضاف الكثير لعلم الضوء حين قال بوجود سرعة للضوء، وحدد أن هذه السرعة متناهية، ولكنها كبيرة جدًّا لدرجة تبدو في بعض الأحيان لا متناهية، وبرهن على ذلك معتمدًا على الأجهزة التي ابتكرها. لقد اخترع ابن الهيثم وصنع بيديه العديد من الأجهزة الفلكية والطبيعية في مجال تجاربه، وبهذا يكون ابن الهيثم قد سبق كُلًّا من ديكارت ونيوتن، كما سبق ابن الهيثم أينشتاين حينما بيَّن أن سرعة الضوء محدودة، ورغم هذا يتعلم طلابنا تلكم الحقائق عن أي طريق وعن كل طريق إلَّا عن أصله العربي الأصيل، وعن كل العلماء إلَّا عن علماء أمتهم!!».

ابن الهيثم وعلماء الغرب:

وعن طريق الترجمات لأعمال ابن الهيثم تأثَّر «روجر بيكون وجون

بيكام» و«فيتلو» في بحوثهم، فكتاب جون بيكام الموسوم بالمنظور ليس إلَّا اقتباسًا ناقصًا من كتاب ابن الهيثم في البصريات، وأما كتاب فيتلو الذي ألفه سنة (٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م) فمأخوذ في قسم كبير منه عن ابن الهيثم، ولا يتجاوز النتائج التي وصل إليها.

وكان كتاب «المناظر» معينًا للعديد من العلماء الحقيقيين وغيرهم، فقبل أكثر من خمسة قرون ترجم الإيطالي «جيرادي كيرمونا» هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية، وما زالت مكتبة الفاتيكان تحتفظ بنسخة من تلك الترجمة حتى الآن، وتلقف علماء الغرب كتاب «المناظر» ليستفيدوا منه في علوم الضوء والرياضيات، ولينسب البعض إلى أنفسهم بعض الآراء التي جاءت فيه.

□ ومن بين من نسب لنفسه بعض ما جاء في الكتاب في القرن السابع عشر الميلادي الألماني «كبلر»، كما أن عالم البصريات فيتلو البولوني في كتابه «الذخيرة» نسب لنفسه الكثير مما قاله ابن الهيثم؛ مما حدا بالعالم دي لابورتا أن يقول: «لقد أخطأ فيتلو فيما نقله عن المازن -ابن الهيثم كما يطلق عليه الأوروبيون- وكان كالقرد المقلد، ولبث هذا الكتاب المنقول عن العربية مرجعًا لأهل أوروبا في علم الضوء خلال القرون الوسطى»[1].

لقد سبق ابن الهيثم كلًّا من «فيتلو» و«كبلر» في وضع أساس علم البصريات ورغم ذلك ما زلنا نشير إلى كليهما على أنهما واضعا أساس علم البصريات في كتبنا!!

---

(١) «الحسن بن الهيثم بحوثه وكشوفه البصرية» لمصطفى نظيف (١٠/ ٣).

□ ومهما يكن من أمر، فقد حاز ابن الهيثم إعجاب كثير من المصنفين الغربيين، حتى وصفه «جورج سارتون»- وهو من كبار مؤرخي العلم- بقوله: «هو أعظم عالم فيزيائي مسلم، وأحد كبار العلماء الذين بحثوا في البصريات في جميع العصور»(١).

□ ووصفه «أرنولد» في كتاب «تراث الإسلام» يقول عنه: «إن علم البصريات وصل إلى الأوج بظهور ابن الهيثم»(٢).

□ وقد سحرت بحوث ابن الهيثم في الضوء «ماكس مايرهوف» وأثارت إعجابه إلى درجة جعلته يقول: «إن عظمة الابتكار الإسلامي تتجلى لنا في البصريات»(٣).

□ أما دائرة المعارف البريطانية فقد وصفته بأنه رائد علم البصريات بعد بطليموس.

□ وتقول «زيغريد هونكه» الألمانية: «كان الحسن بن الهيثم أحد أكثر معلمي العرب في بلاد الغرب أثرًا وتأثيرًا..».

□ وتقول أيضًا: «لقد كان تأثير هذا العربي «ابن الهيثم» النابغة على بلاد الغرب عظيم الشأن فسيطرت نظرياته في علمي الفيزياء والبصريات على العلوم الأوروبية حتى أيامنا هذه، فعلى أساس كتاب المناظر لابن الهيثم نشأ كل ما يتعلق بالبصريات ابتداء من الإنكليزي «روجر بيكون» حتى الألماني «فيتلو» وأما «ليوناردوا دافنشي» الإيطالي مخترع آلة «التصوير

---

(١) «مقدمة لتاريخ العلم» لجورج سارتون (١/ ٧٢١).

(٢) «تراث الإسلام» لأرنولد.

(٣) «علماء العرب وما أعطوه للحضارة» لقدري حافظ طوقان (ص١٦٧).

الثقب» أو الآلة المعتمة ومخترع المضخة والمخرط وأول طائرة - ادعاءً- فقد كان متأثرًا تأثيرًا مباشرًا بالعرب، وأوحت إليه آثار ابن الهيثم أفكارًا كثيرة، وعندما قام «كبلر» في ألمانيا خلال القرن السادس عشر ببحث القوانين التي تمكن «جاليليو» بالاستناد إليها من رؤية نجوم مجهولة من خلال منظار كبير كان ظل ابن الهيثم الكبير يجثم خلفه، وما تزال حتى أيامنا هذه المسألة الفيزيائية الرياضية الصعبة التي حلها ابن الهيثم واسطة معادلة من الدرجة الرابعة مبرهنًا بهذا عن تضلعه البالغ في علم الجبر، نقول: ما تزال المسألة القائمة على حسب موقع نقطة التقاء الصورة التي تعكسها المرآة المحرقة بالدوائر على مسافة منها ما تزال تسمى «بالمسألة الهيثمية» نسبة إلى ابن الهيثم نفسه» (١).

□ ويقول «د. تشارلز جروسي» -متخصص في فسيولوجيا الأعصاب والجوانب العصبية والنفسية للإبصار- بعد دراسة قيمة في كتاب المناظر: «والخلاصة الأساسية التي يمكننا الخروج بها هي أن هذا الرجل المرموق يستحق منا دراسة أعمق، فمع أن العمل الفريد الذي قام به الهيثم في دمج الفيزياء والرياضيات ووظائف الأعضاء في نظرية جديدة عن الإبصار قد احتل مكانة تاريخية، إلَّا أن نظرياته عن سيكولوجية الإدراك وآثارها ستظل مجالًا خصبًا ومهمًا للبحث والدراسة» (٢).

وأخيرًا كانت هذه الحقيقة.. يقول العالم الرياضي الفرنسي «شارل أبرنون» (١٨٨٠م): «إن بحوث ابن الهيثم في ميدان المناظر تُعَدُّ أصل

---

(١) «شمس العرب تسطع على الغرب» (ص١٥٠).

(٢) «آراء ابن الهيثم في العين والمخ واستيعابها» مقال لتشارلز جروسي، موقع ويكبيديا.

معارفنا في علم الضوء»[(١)] اهـ [(٢)].

العلامة ابن خلدون رائد علم الاجتماع والتاريخ (٧٣٢هـ- ٨٠٨هـ/١٣٣٢- ١٤٠٦):

□ هو «أبو زيد»، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، الحضرمي، الإشبيلي. وُلِدَ بتُونُس سنة (٧٣٢هـ-١٣٣٢م)، ويعود أصله إلى عائلة يمنية هاجرت إلى إشبيلية ولعبت دورًا كبيرًا في التاريخ العربي لهذه المدينة، وشاع ذكرها على امتداد القرن الثامن إلى أن أصبحت في القرن العاشر من أعرق العائلات بإشبيلية. ولما تمكَّن ملوك الصليبيين من السيطرة على هذه المدينة نزح أجداده إلى سبتة، ثم إلى تُونُس.

□ وفي كتاب «التعريف» لابن خلدون، يشير إلى أنه حفظ القرآن الكريم وألمَّ بالقراءات السبع وعني بالتفسير والحديث، وتعمق في النحو والفقه، ولم يقتصر في تلقي هذه العلوم على أبيه محمد، بل اتصل بكبار علماء تُونُس، ولم يبلغ الثامنة عشرة حتى أصبح طويل الباع في الفقه وعلوم الدين، كما درس علم الحديث وأحاط بأصول المنطق وآراء الفلاسفة وكتبهم [(٣)].

□ وبعد قضائه سنوات في خدمة حكَّام إفريقية، ركب البحر مهاجرًا إلى أرض أجداده «الأندلس» لينزل عند سلطان غرناطة آخر الممالك الأندلسية، وبعد سلسلة من المكايد والفتن التي حِيكت ضدَّه، آثر الرجوع إلى إفريقية، واختار قلعة ابن سلامة بالجزائر ليقيم بها، ويباشر

---

(١) «موقع مهارات النجاح».

(٢) انظر: «العلم وبناء الأمم» (ص١٦٢ – ١٧٨) مُلَخَّصًا.

(٣) «ابن خلدون» لعمر فاروق الطباع (ص٣١- ٣٢).

كتابه مؤلَّفه الشهير المعروف بتاريخ ابن خلدون، الذي قَدَّم فيه نظريات جديدة في علمي الاجتماع والتاريخ[١].

عاش هذا العلَّامة الكبير في عصر مضطرب؛ تميز بالهزائم والانكسارات ليس على مستوى العالم فقط بل على مستوى الشخص أيضًا، فقد نُكِبَ أكثرَ من مرة بأحبائه وأسرته، ولم يشأ له القدر أن يسكن بلدًا واحدًا، أو أن يمتهن عملًا محددًا؛ فقد تنقَّل من الأندلس حتى بلاد الشام، وشهد بنفسه تسليم غرناط ودمشق، ورأى بأمِّ عينه انهيار الحضارات، وسيطرة القوي وغطرسته عند النصر.

ورغم حياته القاسية والمضطربة استطاع أن يكون مثقف عصره، وشاهدًا عليه، واستطاع أن ينتزع وقتًا للكتابة والتأليف، وأن يقدِّم للأجيال من بعده عصارة ذهنه ورحيق روحه.

مؤلَّفاته:

يُعتَبَر «ابنُ خلدون» واحدًا من أعظم المفكِّرين المسلمين، وأبرز من كَتَبَ في علم التاريخ، وعنوان كتابه بـ «كتاب العِبَر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، وينقسم هذا الكتاب إلى ثلاثة أجزاء: الأول: المقدِّمة؛ وفيها تأمُّلات عميقة حول الحضارة الإنسانية، والثاني: يهتم بتاريخ الأمم والممالك، والثالث: سيرة ابن خلدون الذاتية. وقد تُرجِمَت مقدمتُه إلى مختلف لغات العالم عدَّة مرات.

---

(١) السابق (ص٣٣- ٤٥).

كتاب «تاريخ ابن خلدون»:

«تاريخ ابن خلدون» هو الكتاب الذي رفعت مقدمتُه ابنَ خلدون إلى مصافِّ كبار فلاسفة العالم. وهي كما قال توينبي [(١)] -مستعيرًا كلمة المقريزي-[(٢)] : «عملٌ لم يقم بمثله إنسان في أي زمان ومكان»[(٣)] .

وفيها أرسى قواعد فقه التاريخ وعلم العمران، وهو علمٌ أعثره عليه اللهُ كما يقول [(٤)]، وموضوعه: «البحث في أسباب انهيار الدول وازدهارها»[(٥)]، وأراد أن تجد به الملوك ما يغني عن «سِرّ الأسرار» الذي ألَّفه أرسطو للإسكندر، وأنجزه أولًا في مدة خمسة أشهر، من عام (٧٧٩هـ) أثناء إقامته عند بني العريف في قلعة بني سلامة بوهران، ثم نقَّحه بعد ذلك، وهذَّبه، وألحق به تاريخ العرب وأخبار البربر وزناتة، وأهداه إلى المستنصر أبي العباس، الذي تولَّى إمارة تونس من سنة (٧٧٢ حتى ٧٩٦هـ). وكانت هذه النسخة موجودة حتى عام (١٨٥٨م)، فلمَّا ترك تُونُس إلى مصر عكف على تهذيب الكتاب والزيادة عليه، زُهْاء

---

(١) أرنولد جوزيف توينبي (١٨٨٩ - ١٩٧٥م): أستاذ الدراسات اليونانيَّة والبيزنطيَّة في جامعة لندن، ومدير دائرة الدراسات في وزارة الخارجية البريطانية؛ من أشهر مؤرخي القرن العشرين، أهم أعماله «موسوعة دراسة للتاريخ».

(٢) «تقي الدين» أحمد بن علي المقريزي (٧٦٦-٨٤٥هـ): شيخ المؤرخين المصريين، عاش من المماليك، من أشهر كتابه: السلوك لمعرفة دول المملوك، والمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار «المعروف بخطط المقريزي».

(٣) نقلًا عن زهير ظاظا- شبكة الورَّاق.

(٤) السابق نفسه.

(٥) «موسوعة عباقرة الإسلام» لمحمد أمين فرشوخ (١/ ٦٨- ٧١).

عشرين سنة، فأضاف إليه الجزء الخاص بملوك العجم، وأقسامًا أخرى ألحقها بمواضعها، وأهدى هذه النسخة للسلطان برقوق؛ فنَحَلَه لقلب: «ولي الدين»، و«فرغ منها سنة ٧٩٧هـ» وانتسخ منها نسخة وقفها على طلبة العلم في جامع القرويين بفاس»[١].

ومن مؤلَّفاته الأخرى: «شرح قصيدة البردة»، و«تلخيص مجموعة من كتب ابن رشد، تلخيص محصّل الإمام فخر الدين الرازي، كتاب في الحساب، تعريف مفيد في المنطق، لباب المحصول في أصول الدين، شرح أرجوزة ابن الخطيب، شفاء السائل لتهذيب المسائل»[٢].

أفكاره:

أشار باحثون عِدَّة في فكر ابن خلدون إلى ريادته في الإشارة إلى مسألتين مهمتين تنبَّه إليهما الفكر الحديث، وهما:

أولًا: أن القيمة الاقتصادية للسلعة يحددها الجهد الإنساني/ العمالي المبذول فيها من ليس مجرد قيمتها المادية. وهي مسألة انبنى عليها الفكر الاجتماعي الحديث -الاشتراكي بخاصة- في دعوته إلى إنصاف العمال الذين يضيف جهدهم إلى قيمة السلعة، وهي قيمة يستفيد منها الرأسماليون عادة. والواقع أنه لم يصل إلى هذه الدعوة الصريحة لكنه اقترب كثيرًا من مضمونها الفكري[٣].

---

(١) «مؤلفات ابن خلدون» لعبد الرحمن بدوي.

(٢) «ابن خلدون» لعمر فاروق الطباع (ص٥٤- ٥٦).

(٣) «ابن خلدون وسيطًا بين العروبيين والإسلاميين» مقال لمحمد جابر الأنصار بمجلة العربي مارس (١٩٨٣).

ثانيًا: أومأ ابن خلدون إلى شيء قريب من الفكرة القومية الجامعة، عندما تحدث عن «دولة العرب»، ثم «دولة الفرس»، ثم «دولة الترك» في سياق التاريخ الإسلامي، صحيح أنه بنى فكره في تفسير الاجتماع والتاريخ لدى العرب على «العصبية القبلية» -وهو واقع لا يستطيع أي مفكر حقيقي تجاهله-- لكنه أشار أيضًا إلى أن تلك العصائب القبلية إذا تحالفت، خاصة في ظل «دعوة دينية»، تستطيع أن تؤسس تحالفًا أوسع بينها يستند إلى حقيقة كونها منتمية إلى «قوم» متميز من الأقوام.

إلَّا أن أهمية ابن خلدون وطرافة فكره، وإن تمثّلت في إيماءات فكريَّة تتخطى عصرها كالفكرة الاقتصادية، والفكرة القومية؛ فإنه كان محدّدًا وواضحًا في أفكار أخرى، ما زالت واقعًا لا يمكن إنكاره في حياتنا العربية الراهنة؛ ومن ذلك تحذيره من اشتغال رجال السلطة بالتجارة، ومنافستهم لأهل البلد وتجّاره، بما يؤدِّي إلى عرقلة الاقتصاد وتدميره، وانعكاس ذلك وبالًا على الدولة نفسها في نهاية الأمر؛ يقول ابن خلدون: «إن التجارة من السلطان مُضِرَّةٌ بالرعايا ومُفْسِدَةٌ للجباية»[(١)].

كما لَخَّصَ رؤيته لآثار الاستبداد والتسلط بمقولته: «الظلم مُؤْذنٌ بخراب العمران»، ونبَّه إلى أن كثرة العصبيات يُنذر بزوال الدولة: «إن الأوطان الكثيرة العصائب، قل أن تستحكم فيها دولة».

وبالرغم من أنَّ عصر ابن خلدون كان عصرًا معاديًا للفلسفة في المجتمع الإسلامي، وهو ما ينعكس في الفصل الذي عنوانه: «في إبطال الفلسفة وفساد منتحليها»، فقد حول ابن خلدون عمل العقل من

---

(١) «الرومانسية جميلة.. لكنها تجهل حقيقة التاريخ والعالم»-- جريدة الوطن.

الانشغال بالميتافيزيقيا «ما وراء الطبيعة» إلى إعماله في شؤون المجتمع والتاريخ والعلم، أي إنزاله من السماء فيما يتجاوزه من غيب إلى واقع الأرض وما فيها من ومشاهدة، ومن منطلق عقلانيته، انتقد السحر والطلسمات، وكتب في إبطال صناعة التنجيم وضعف مداركها، وفساد غايتها، وعرض لعلم المنطق بحياد موضوعي ولم يهاجمه، كما أنَّ نقده للفلسفة الميتافيزيقية لم يصل لديه إلى حَدِّ تحريمها، وإنما اكتفى بتنبيه من يريد الاطلاع عليها إلى الإلمام بعلوم «الملة» من فقه وشرعيات [١].

أن التصالح الذي أقامه ابن خلدون بين نظرته المادية ونظرته الإيمانية شمل الكثير من مظاهر الحياة الاجتماعية؛ فقد حاول بكل قواه إظهار التكامل بين ما هو رُوحي وما هو مادي، بين ما هو طبيعي وما هو اجتماعي، بين ما تقتضيه طبائع العمران، وبين ما تقرره المشيئة الإلهية.

ثناء العلماء عليه:

□ قال إيف لاكوست عن مؤلَّف ابن خلدون «المقدمة»: «التحليل والتأليف والبحوث التي حققها هذا المغربي العبقري في القرن الرابع عشر تُساعدنا اليوم على إجاده فهم القضية التي هي بلا ريب أوسع القضايا وأشدَّها مأساوية في عصرنا؛ ألا وهي التخلف» [٢].

□ وقال كارّا دو فو: «إنَّ نزعة الاهتمام بالبحث في تاريخ النشوء والتطور تضع ابن خلدون في مصافِّ أرقى العقليات في أوروبا

---

(١) «مراجعات في الفكر القومي» لمحمد جابر الأنصاري-كتاب العربي رقم (٥٧) بتاريخ ١٥/ ٧/ ٢٠٠٤م.

(٢)«العلامة ابن خلدون» لإيف لاكوست (ص٢٤٨).

الحالية»[١].

ووصف كثير من الكتاب الغربيين سرد ابن خلدون **للتاريخ بأنه** أول سرد علمي منهج للتاريخ[٢]، وهذا تقدير كبير عندهم.

دراسات عن ابن خلدون:

كُتب عن ابن خلدون وفكره ومنهجه ونظرياته العمرانية والاجتماعية وغيرها، مئات الكتب، منها:

العمران البشري في مقدمة ابن خلدون: سفتيلانا باتسييفا.

العلامة ابن خلدون: إيف لاكوست.

السياسة والدين عند ابن خلدون: جورج لابيكا.

فلسفه ابن خلدون الاجتماعية- تحليل ونقد: طه حسين.

النظرية الإسلامية لابن خلدون دراسة مقارنة: محمد محمود ربيع.

الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته: مصطفى الشكعة.

ابن خلدون إسلاميًّا: عماد الدين خليل.

---

(١) «ابن خلدون المقدمة» لعمر فاروق الطباع.

(٢) نقلا عن زهير ظاظا شبكة الوراق.

المؤسسات الخيريَّة في أيام الحضارة الإسلامية عنوان عُلُوِّ الهمَّة

«ليس أدل على رُقُيِّ الأمم وجدارتها بالحياة واستحقاقها لقيادة العالم، من سُمُّو النزعة الإنسانية في أفرادها، سُمُوًّا يفيض بالخير والبر والرحمة على طبقات المجتمع كافَّة، بل على كل من يعيش على الأرض من إنسان وحيوان، وبهذا المقياس تخلد حضارات الأمم، وبآثارها في هذا السبيل يُفاضل بين حضاراتها ومدنيّاتها.

وأمتنا بلغت في ذلك الذُّرْوَة التي لم يصل إليها شعبٌ من قبلها على الإطلاق، ولم تلحقها من بعدها أمة حتى الآن؛ أما في العصور الماضية، فلم تعرف الأمم والحضارات ميادين للبر إلَّا في نطاق ضيق لا يتعدى المعاهد والمدارس، وأما في العصور الحاضرة، فإن أمم الغرب وإن بلغت الذروة في استيفاء الحاجات الاجتماعية عن طريق المؤسسات الاجتماعية وعن طريق المؤسسات العامة، لكنها لم تبلغ ذروة السمو الإنساني الخالص لله ﷻ كما بلغته أمتنا في عصور قوتها ومجدها، أو عصور ضعفها وانحطاطها، إن لطلب الجاه أو الشهرة أو انتشار الصيت أو خلود الذكر، الأثر الأكبر في اندفاع الغربيين نحو المبرّات الإنسانية العامة، بينما كان الدافع الأول لأمتنا على أعمال الخير، ابتغاءَ وجه الله جل شأنه، سواء علم الناس بذلك أم لم يعلموا، وحسبنا دليلًا على هذا أن صلاح الدين الأيوبي أنفق أمواله كلها على جهات البر، وملأ البلاد الشامية والمصرية بالمؤسسات الخيرية، من مساجد ومدارس ورباطات وغيرها، دون أن

يسجل على واحدة منها اسمه، بل كان يسجل عليها أسماء قواده ووزرائه وأعوانه وأصدقائه، وهذا غاية ما يكون من التجرد عن حظوظ النفس في أعمال الخير.

وشيء آخر: أن الغربيين في مؤسساتهم الاجتماعية كثيرًا ما يقتصر الانتفاع بها على أبناء بلادهم، أو مقاطعاتهم، بينما كانت مؤسساتنا الاجتماعية تفتح أبوابها لكل إنسان على الإطلاق، بقطع النظر عن جنسه أو لغته أو بلده أو مذهبه.

وفارق ثالث: أننا أقمنا مؤسسات اجتماعية لوجوه من الخير والتكافل الاجتماعي لم يعرفها الغربيون حتى اليوم، وهي وجوه تبعث على العجب والدهشة، وتدل على أن النزعة الإنسانية في أمتنا كانت أشمل وأصفى وأوسع أفقًا من كل نزعة إنسانية لدى الأمم الأخرى.

□ولقد كان الوقف هو الذي يمد كل المؤسسات الاجتماعية بالموارد المالية التي تعينها على أداء رسالتها الإنسانية النبيلة. كان الوقف هو الحجر الأساسي الذي قامت عليه كل المؤسسات الخيرية في تاريخ حضارتنا.

وقد كان رسول الله ﷺ أول من ضرب المثل الأعلى لأمته في ذلك، فأوقف سبع بساتين كان أوصى بعض المحاربين حين مات أن يترك أمرها للرسول ﷺ يتصرف بها كيف يشاء، فأوقفها رسول الله ﷺ على الفقراء والمساكين والغزاة وذوي الحاجات، ثم تبعه بعد ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأوقف أرضه بخيبر، ثم تبعه الصحابة، فأوقف أبو بكر، وعثمان، وعلي، والزبير، ومعاذ، وغيرهم رضي الله عنهم حتى لم يبق صاحبي إلَّا أوقف من أمواله شيئًا.

وتجدد هذا العمل الإنساني مرة أخرى في خلافة عمر ﷺ، حين أوقف أرضًا في سبيل الله وهو في خلافته، ودعا نفرًا من المهاجرين والأنصار ﷺ فأحضرهم وأشهدهم على ذلك.

قال جابر بن عبد الله الأنصاري ﷺ: «فما أعلم أحدًا ذا مقدرة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار إلّا حبس مالًا من ماله صدقةً موقوفةً لا تُشترى ولا تورث ولا توهب».

ثم تتابع المسلمون بعد ذلك جيلًا بعد جيل، يوقفون الأراضي والبساتين والدور والغلات لأعمال البر، مما ملأ المجتمع الإسلامي بالمؤسسات التي بلغت حدًّا من الكثرة يصعب إحصاؤه والإحاطة به.

كانت هذه المؤسسات نوعين: نوعًا تنشئه الدولة، وتوقف عليه الأوقاف الواسعة.

ونوعًا ينشئه الأفراد من أمراء وقواد وأغنياء ونساء.

□ ولا نستطيع في مثل هذا الحديث أن نعدد أنواع المؤسسات الخيرية كلها، ولكن حسبنا أن نلمّ بأهمها:

فمن أول المؤسسات الخيرية: المساجد، وكان الناس يتسابقون إلى إقامتها؛ ابتغاء وجه الله، بل كان الملوك يتنافسون في عظمة المساجد التي يؤسسونها حسبنا أن نذكر هنا مبلغ ما أنفقه الوليد بن عبد الملك من أموال بالغة على بناء الجامع الأموي، مما لا يكاد يصدقه الإنسان؛ لكثرة ما أنفق من مال وما استخدم في إقامته من رجال.

ومن أهم المؤسسات الخيرية: المدارس والمستشفيات.

ومن المؤسسات الخيرية: بناء الخانات والفنادق للمسافرين المنقطعين

وغيرهم من ذوي الفقر، ومنها: التكايا والزوايا التي ينقطع فيها من شاء لعبادة الله ﷿. ومنها: بناء بيوت خاصة للفقراء يسكنها من لا يجد ما يشتري به أو يستأجر دارًا، ومنها السقايات، أي تسبيل الماء في الطرقات العامة للناس جميعًا، ومنها المطاعم الشعبية التي كان يفرق فيها الطعام من خبز ولحم وحساء «شوربة» وحلوى، ولا يزال عهدنا قريبًا بهذا النوع في كل من تكية السلطان سليم، وتكية الشيخ محيي الدين بدمشق، ومنها: بيوت للحجاج في مكة ينزلونها حين يفدون إلى بيت الله الحرام، وقد كثرت هذه البيوت حتى عمت أرض مكة كلها، وأفتى بعض الفقهاء ببطلان إجارة بيوت مكة في أيام الحج؛ لأنها كلها موقوفة على الحجاج، ومنها: حفر الآبار في الفلوات لسقي الماشية والزروع والمسافرين، فقد كانت كثيرة جدًّا بين بغداد ومكة وبين دمشق والمدينة، وبين عواصم المدن الإسلامية ومدنها وقراها، حتى قلّ أن يتعرَّض المسافرون – في تلك الأيام– لخطر العطش. ومنها: أمكنة المرابطة على الثغور لمواجهة خطر الغزو الأجنبي على البلاد، قد كانت هنالك مؤسسات خاصة بالمرابطين في سبيل الله، يجد فيها المجاهدون كل ما يحتاجون إليه من سلاح وذخيرة وطعام وشراب، وكان لها أثر كبير في صد غزوات الروم أيام العباسيين، وصد غزوات الغربيين في الحروب الصليبية عن بلاد الشام ومصر، ويتبع ذلك وقف الخيول والسيوف والنبال وأدوات الجهاد على المقاتلين في سبيل الله ﷿، وقد كان لذلك أثر كبير في رواج الصناعة الحربية وقيام مصانع كبيرة لها في بلادنا، حتى كان الغربيون في الحروب الصليبية، يفدون إلى بلادنا –أيام الهدنة– ليشتروا منا السلاح، وكان العلماء يفتون بتحريم بيعه للأعداء، فانظر كيف انقلب الأمر الآن فأصبحنا عالةً على

الغربيين في السلاح لا يسمحون لنا به إلَّا بشروط تقضي على كرامتنا واستقلالنا.

ويتبع ذلك أوقاف خاصة يُعطى ريعها لمن يريد الجهاد، وللجيش المحارب حين تعجز الدولة عن الإنفاق على كل أفراده، وبذلك كان سبيل الجهاد ميسرًا لكل مناضل يودُّ أن يبيع حياته في سبيل الله ليشتري بها جنةً عرضها السموات والأرض.. فانظر كيف عاد بنا الأمر إلى أن نقيم أسبوعًا للتسلح تُجمع فيه التبرعات لتقوية الجيش وتسليحه، ولو كان عندنا وعي اجتماعي وإيمان صادق لأقمنا من أموالنا كل يوم -لا أسبوعًا واحدًا في العام- مصانع لتزويد جيشنا بالسلاح والعتاد، حتى يكون من أقوى الجيوش وأكثرها استعدادًا لصد العدوان وحماية الديار.

ومن المؤسسات الاجتماعية ما كانت وقفًا لإصلاح الطرقات والقناطر والجسور، ومنها ما كانت للمقابر يتبرع الرجل بالأرض الواسعة لتكون مقبرة عامة.

ومنها: ما كان لشراء أكفان الموتى للفقراء وتجهيزهم ودفنهم.

أما المؤسسات الخيرية لإقامة التكافل الاجتماعي، فقد كانت عجبًا من العجب، فهناك مؤسسات للُّقطاء واليتامى ولختانهم ورعايتهم، ومؤسسات للمقعدين والعميان والعجزة؛ يعيشون فيها موفوري الكرامة لهم كل ما يحتاجون من سكن وغذاء ولباس وتعليم أيضًا.

وهناك مؤسسات لتحسين أحوال المساجين ورفع مستواهم وتغذيتهم بالغذاء الواجب لصيانة صحتهم، ومؤسسات لإمداد العميان والمقعدين بمن يقودهم ويخدمهم.

ومؤسسات لتزويج الشباب والفتيات العزَّاب ممن تضيق أيديهم أو أيدي أوليائهم عن نفقات الزواج وتقديم المهور.. فما أروع هذه العاطفة وما أحوجنا إليها اليوم!.

من مَبرَّات صلاح الدين الأيوبي:

ومنها مؤسسات لإمداد الأمهات بالحليب والسكر، وهي أسبق في الوجود من جمعية نقطة الحليب عندنا، مع تمحُّضها للخير الخالص لله عَزَّ وَجَلَّ، وقد كان من مبرات صلاح الدين أنه جعل في أحد أبواب القلعة – الباقية حتى الآن في دمشق – ميزابًا يسيل منه الحليب. وميزابًا آخر يسيل منه الماء المذاب فيه السكر، تأتي إليه الأُمهات يومين في كل أسبوع ليأخذن لأطفالهن وأولادهن ما يحتاجون إليه من الحليب والسكر.

ومن أطرف المؤسسات الخيرية وقف الزبادي للأولاد الذين يكسرون الزبادي وهم في طريقهم إلى البيت، فيأتون إلى هذه المؤسسة ليأخذوا علبة زبادي جديدة بدلًا من المكسورة ثم يرجعوا إلى أهليهم وكأنهم لم يصنعوا شيئًا.

وآخر ما نذكره من هذه المؤسسات، المؤسسات التي أقيمت لعلاج الحيوانات المريضة، أو لإطعامها، أو لرعايتها حين عجزها، كما هو شأن المرج الأخضر في دمشق الذي يقام عليه الملعب البلدي الآن، فقد كان وقفًا للخيول والحيوانات العاجزة المُسِنَّة ترعى منه حتى تلاقي حتفها.

أما بعد، فهذه ثلاثون نوعًا من أنواع المؤسسات الخيرية التي قامت في ظل حضارتنا، فهل تجد لها مثيلًا في أمة من الأمم السابقة؟ بل هل تجد لكثير منها مثيلًا في ظل الحضارة الراهنة؟.. اللهم إنه سبيل الخلود تفردنا

به وحدنا يوم كانت الدنيا كلها في غفلة وجهل وتأخر وتظالم.. اللهم إنه سبيل الخلود كشفنا به عن الإنسانية المُعَذَّبة أوصابَها وآلامها.. فما هو سبيلنا اليوم؟ أين هي تلك الأيدي التي تمسح عبرة اليتيم، وتأسو جراح الكليم، وتجعل من مجتمعنا مجتمعًا متراصًّا، ينعم فيه الناس جميعًا بالأمن والخير والكرامة والسلام؟»[1].

المدارس والمعاهد العِلْمِيَّة في حضارتنا:

قامت المدارس على الأوقاف الكثيرة التي تبرع بها الأغنياء من قادة وعلماء وتجار وملوك وأمراء، فقد بلغت من الكثرة حدًّا بالغًا، وحسبك أن تعلم أن لم تخل مدينة ولا قرية، في طول العالم الإسلامي وعرضه، من مدارس متعددة يعلِّم فيها عشرات من المعلمين والمدرسين.

كان المسجد هو النواة الأولى للمدرسة في حضارتنا، فلم يكن مكان عبادة فحسب بل كان مدرسة يتعلم فيها المسلمون القراءة والكتابة والقرآن والعلوم الشرعية واللغة وفروع العلوم المختلفة، ثم أقيم بجانب المسجد «الكُتَّاب»، وخصص لتعليم القراءة والكتابة والقرآن وشيء من علوم العربية والرياضة، وكان الكتَّاب يشبه المدرسة الإبتدائية في عصرنا الحاضر، وكان من الكثرة بحيث عدّ ابن حوقل ثلاثمئة كتَّاب في مدينة واحدة من مدن صقلية، وكان من الاتساع أحيانًا بحيث يضم الكتَّاب الواحد مئات وآلافًا من الطلاب.

ومما يذكر في تاريخ أبي القاسم البلخي أنه كان له كُتَّاب يتعلم به ثلاثة آلاف تلميذ، وكان كتَّابه فسيحًا جدًّا بحيث يحتاج إلى أن يركب حمارًا

(١) «من روائع حضارتنا» للدكتور مصطفى السباعي (ص٩٤- ٩٩) مُلَخَّصًا.

ليتردَّد بين طلابه وليشرف على شؤونهم.

ثم قامت المدرسة بجانب الكتَّاب والمسجد، وكانت الدراسة فيها تشبه الدراسة الثانوية والعالية في عصرنا الحاضر، كان التعليم فيها مجانيًّا ولمختلف الطبقات، فلم يدفع الطلاب في دراستهم الثانوية والعالية رسمًا ما من رسوم الدراسة التي يدفعها طلابنا اليوم، ولم يكن التعليم فيها محصورًا بفئة من أبناء الشعب دون فئة، بل كانت فرصة التعليم متوفرة لجميع أبناء الشعب، كان يجلس فيها ابن الفقير بجانب ابن الغني، وابن التاجر بجانب ابن الصانع والمزارع، وكانت الدراسة فيها قسمين: قسمًا داخليًّا للغرباء والذين لا تساعدهم أحوالهم المادية على أن يعيشوا على نفقات آبائهم، وقسمًا خارجيًّا لمن يريد أن يرجع في المساء إلى البيت أهله وذويه. أما القسم الداخلي فكان بالمجان أيضًا، يهيأ للطالب فيه الطعام والنوم والمطالعة والعبادة.. وبذلك كانت كل مدرسة تحتوي على مسجد، وقاعات للدراسة، وغرف لنوم الطلاب، ومكتبة، ومطبخ وحمام وكانت بعض المدارس تحتوي فوق كل ذلك على ملاعب للرياضة البدنية في الهواء الطلق. ولا تزال لدينا حتى الآن نماذج من هذه المدارس التي غمرت العالم الإسلامي كله، ففي دمشق لا تزال المدرسة النورية التي أنشأها البطل العظيم نور الدين الشهيد، وهي الواقعة الآن في سوق الخياطين، لا تزال قائمة تعطينا نموذجًا حيًّا لهندسة المدارس في عصور الحضارة الإسلامية، لقد زارها الرحالة ابن جبير في أوائل القرن السابع الهجري، فأُعجِب بها وكتب عنها: «من أحسن مدارس الدنيا مظهرًا مدرسة نور الدين رحمه الله، وهي قصر من القصور الأنيقة، ينصب فيه الماء في شاذوران وسط نهر عظيم، ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة إلى أن يقع في

صهريج كبير وسط الدار فتحار الأبصار في حسن ذلك المنظر».

الجامع الأزهر كمدرسة:

وأظهر مثال حي لهذه المدارس الجامع الأزهر، فهو مسجد تقام في أبهائه حلقات للدراسة، تحيط به من جهاته المتعددة غرف لسكن الطلاب تسمى بالأروقة، يسكنها طلاب كل بلد بجانب واحد، فرواق للشاميين، ورواق للمغاربة، ورواق للأتراك، ورواق للسوادنيين، وهكذا.. ولا يزال طلاب الأزهر حتى اليوم يأخذون راتبًا شهريًّا مع دراستهم المجانية من ريع الأوقاف التي أوقفت على طلاب العلم بالأزهر.

وجدير لنا ونحن نتحدث عن المدارس أن نتحدث عن المدرسين وأحوالهم ورواتبهم، لقد كان رؤساء المدارس من خيرة العلماء وأكثرهم شهرة، وإنا لنجد في تاريخ مشاهير العلماء المدارس التي درسوا فيها، فالإمام النووي وابن الصلاح وأبو شامة وتقي الدين السبكي وعماد الدين بن كثير وغيرهم ممن كانوا يدرسون في دار الحديث بدمشق، والغزالي والشيرازي وإمام الحرمين والشاشي والخطيب التبريزي والقزويني والفيروزآبادي وغيرهم ممن كانوا يدرسون في المدرسة النظامية ببغداد، وهكذا.. ولم يكن المدرسون في صدر الإسلام يأخذون أجرًا على تعليمهم حتى إذا امتد الزمن واتسعت الحضارة وبنيت المدارس وأُوقِفت لها الأوقاف جُعل للمدرسين فيها رواتب شهرية، ومن الطريف أن أصبحَ للمدرسين رواتب تختلف بين الكثرة والقِلَّة بحسب الأمصار والمدارس والأوقاف، ولكنها على كلِّ حال كانت كافية ليعيش المدرِّس عيشة هانئة.

ولم يكن يجلس للتدريس إلَّا من شهد له الشيوخ بكفاءة. وقد كان

الأمر في عصر الإسلام الأول أن يسمح الشيخ للتلميذ بالانفصال عن حلقته وإنشاء حلقة خاصة، أو أن يعهد برئاسة الحلقة إليه بعد وفاته، فإن فعل غير ذلك كان محل نقد وتعرض للأسئلة الشديدة المحرجة.. في تاريخ أبي يوسف قاضي القضاة في عصر هارون الرشيد، أنه مرض في حياة شيخه أبي حنيفة، فعاده شيخه وقال له: قد كنت أؤمِّلك بعدي للمسلمين، ثم برئ أبو يوسف من مرضه وقد أُعجِب بنفسه حين سمع شهادة شيخه له، فعقد مجلسًا خاصًّا منفردًا عن شيخه أبي حنيفة، فأرسل إليه أبو حنيفة من يسأله خمس مسائل دقيقة يحتاج الجواب فيها إلى تفصيل وإيضاح، فأخطأ أبو يوسف في الإجابة وأدرك خطأه في انفراده عن شيخه، فعاد إلى حلقته، فقال له أبو حنيفة: تزبَّبْتَ قبل أن تحصرم، من ظن أنه يستغني عن التعلم فليبك عن نفسه!.. هكذا كان الأمر. فلما أُنشِئت المدارس جُعل للمتخرجين فيها إجازات علمية يعطيها شيخ المدرسة، وهي تشبه الإجازات العلمية في عصرنا، ولم يكن يُسمَح للأطباء بممارسة الطب إلَّا بعد نوال هذه الشهادة من كبير أطباء المدرسة.

□ كانت المدارس على هذا، وخاصة المعاهد العليا، تملأ مدن العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، ويذكر التاريخ بكثير من الإكبار والإعجاب نفرًا من أمراء المسلمين كانت لهم اليد الطولى في إنشاء المدارس في مختلف الأمصار، منهم صلاح الدين الأيوبي، فقد أنشأ المدارس في جميع المدن التي كانت تحت سلطانه في مصر ودمشق والموصل وبيت المقدس، ومنهم نور الدين الشهيد الذي أنشأ في سورية وحدها أربعة عشر معهدًا، منها ستة في دمشق، وأربعة في حلب، واثنان في حماه، واثنان في حمص، وواحد في بعلبك، ومنهم نظام الملك الوزير السلجوقي

العظيم الذي ملأ بلاد العراق وخراسان بالمدارس حتى قيل فيه: إن له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة، وكان ينشئ المدارس حتى في الأماكن النائية، فقد أنشأ في جزيرة ابن عمرو مدرسة كبيرة حسنة، وكلما وجد في بلدة عالمًا قد تميز وتبحَّر في العلم بنى له مدرسة ووقف عليها وقفًا وجعل فيها دار كتب. وقد كانت نظامية بغداد أولى المدارس النظامية وأهمها، درس فيها مشاهير علماء المسلمين فيما بين القرن الخامس والتاسع الهجري، وقد بلغ عدد طلابها ستة آلاف تلميذ، فيهم ابن أعظم العظماء في المملكة وابن أفقر الصناع فيها، وكلهم يتعلمون بالمجان، وللطالب الفقير فوق كل ذلك شيء معلوم يتقاضاه من الريع المخصص لذلك.

□ وبجانب هؤلاء العظماء كان الأمراء والأغنياء والتجار يتسابقون في بناء المدارس والوقف عليها بما يضمن استمرارها وإقبال الطلاب عليها، وكثيرون جدًّا هم الذين جعلوا بيوتهم مدارس، وجعلوا ما فيها من كتب وما يتبعها من عقار وقفًا على طلاب العلم الدارسين فيها. وبذلك كثرت المدارس وخاصة في المشرق كثرة هائلة مدهشة، حتى أن ابن جبير الرحالة الأندلسي هاله ما رأى في المشرق من كثرة المدارس والغلات الوافرة التي تغله أوقافها، فدعا المغاربة أن يرحلوا للمشرق لتلقي العلم، وكان مما قاله: «وتكثر الأوقاف على طلاب العلم في البلاد المشرقية كلها وبخاصة دمشق، فمن شاء الفلاح من أبناء مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد، فيجد الأمور المعينة على طلب العلم كثيرة، وأولها فراغ البال من أمر المعيشة».

□ وشهادة ابن جبير لها قيمتها، فإنه رحالة تميز بالصدق والأمانة في حديثه، وقد خص ابن جبير دمشق بكثرة المدارس والأوقاف، وكانت

كذلك حقًّا أمدًا طويلًا من تاريخنا، كانت مدارس دمشق العامرة التي يؤمها الطلاب تزيد على أربعمئة مدرسة، حتى أن الطالب الغريب إذا قدم دمشق يستطيع أن يقيم سنة فيها لا ينام في كل مدرسة إلَّا ليلة واحدة.

□ وكانت المدارس متعددة الغايات، فمنها مدارس لتدريس القرآن الكريم وتفسيره وحفظه وقراءاته، ومنها مدارس للحديث خاصة، ومنها -وهي أكثرها- مدارس للفقه، لكل فقه مدارس خاصة به، ومنها مدارس للطب، ومنها مدارس للأيتام، وها هو النعيمي في كتابه الدارس في تاريخ المدارس- وهو من علماء القرن العاشر الهجري -يذكر لنا ثبتًا بأسماء مدارس دمشق وأوقافها، ومنه نعلم أنه كان في دمشق وحدها للقرآن الكريم سبع مدارس، وللحديث ست عشرة مدرسة، وللقرآن والحديث معًا ثلاث مدارس، وللفقه الشافعي ثلاث وستون مدرسة، وللفقه الحنفي اثنتان وخمسون مدرسة، وللفقه المالكي أربع مدارس، وللفقه الحنبلي إحدى عشرة مدرسة، هذا عدا مدارس الطب والرباطات والفنادق والزوايا والجوامع، وكلها كانت مدارس يتعلم فيها الناس.. وإذا ذكرنا مع هذا ما كان عليه الغربيُّون في تلك العصور نفسها من جهالة مطبقة ومن أميَّة متفشِّية حتى لم يكن للعلم مأوى إلَّا أديرة الرهبان، وهي مقصورة على رجال الكهنوت فقط، أدركنا أية عظمة بلغتها أمتنا في أوج مجدها، وكم كانت حضارتنا رائعة في تاريخ المؤسسات الاجتماعية والمعاهد العلمية، وكم كان للإسلام من يدٍ في نشر العلم، ورفع مستوى الثقافة العامة، وتيسير سبلها لسائر أبناء الشعب.

□ قال ابن كثير في «البداية والنهاية» في حوادث سنة إحدى وثلاثين

وستمئة: «فيها كمل بناء المدرسة المستنصرية ببغداد، ولم يُبن مدرسة قبلها مثلها، ووقفت على المذاهب الأربعة، من كل طائفة اثنان وستون فقيهًا، وأربعة معيدين، ومدرس لكل مذهب، وشيخ حديث، وقارئان وعشرة مستمعين، وشيخ طب، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطب، ومكتب للأيتام، وقدر للجميع من الخبز واللحم والحلوى والنفقة ما فيه كفاية وافرة لكل واحد..» إلى أن قال: «ووقفت خزائن كتب لم يسمع بمثلها في كثرتها وحسن نسخها وجودة الكتب الموقوفة بها»(١).

المستشفيات:

في عهد الوليد بن عبد الملك أنشئ أول مستشفى في الإسلام، وهو خاص بالمجذومين، وجعل فيه الأطباء، وأجرى لهم الأرزاق، وأمر بحبسهم لئلا يخرجوا، وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق، ثم تتابع إنشاء المشافي، وقد كانت تعرف باسم البيمارستانات أي دور المرضى.

وكانت المستشفيات نوعين: نوعًا متنقلًا، ونوعًا ثابتًا، أما المتنقل، فأول ما عرف في الإسلام في حياة النبي ﷺ، في غزوة الخندق، إذ ضرب خيمة للجرحى فلما أصيب سعد بن معاذ في أكحله «والأكحل عرق في الذراع يفصد» قال ﷺ: «**اجعلوه في خيمة رُفيدة، حتى أعوده من قريب**»، وهو أول مستشفى حربي متنقل في الإسلام، ثم توسع فيه الخلفاء والملوك من بعد، حتى أصبح المستشفى المتنقل مجهزًا بجميع ما يحتاجه المرضى، من علاج وأطعمة وأشربة وملابس وأطباء وصيادلة، وكان ينقل من قرية إلى قرية في الأماكن التي لم يكن فيها مستشفيات ثابتة. كتب الوزير عيسى

---

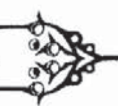
(١) «من روائع حضارتنا» (ص١٠٠-١٠٦) مُلَخَّصًا.

ابن علي الجراح إلى سنان بن ثابت، وكان يتولى النظر على مستشفيات بغداد وغيرها: «فكرت فيمن بالسواد -أي القرى- من أهله، وأنه لا يخلو من أن يكون فيه مرضى لا يشرف متطبب عليهم لخلو السواد من الأطباء، فتقدم بإيفاد متطببين -أي: أطباء- وخزانة من الأدوية والأشربة يطوفون السواد، ويقيمون في كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إلى مقامهم، ويعالجون من فيه، ثم ينتقلون إلى غيره»، وقد بلغ بعض المستشفيات المتنقلة في أيام السلطان محمود السلجوقي حدًّا من الضخامة بحيث كان يحمل على أربعين جملًا.

وأما المستشفيات الثابتة، فقد كانت كثيرة تفيض بها المدن والعواصم، ولم تخل بلدة صغيرة في العالم الإسلامي، يومئذٍ من مستشفى فأكثر، حتى أن قرطبة وحدها كان فيها خمسون مستشفى.

وتنوعت المستشفيات، فهناك مستشفيات للجيش يقوم عليها أطباء مخصوصون، عدا أطباء الخليفة والقواد والأمراء، وهناك مستشفيات للمساجين، يطوف عليهم الأطباء في كل يوم فيعالجون مرضاهم بالأدوية اللازمة، ومما كتب به الوزير علي بن عيسى بن الجراح إلى سنان بن ثابت رئيس أطباء بغداد: «فكرت في أمر من في الحبوس؛ وأنه لا يخلو مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم أن تنالهم الأمراض، فينبغي أن تفرد لهم أطباء يدخلون إليهم كل يوم، وتحمل إليهم الأدوية والأشربة، ويطوفون في سائر الحبوس، ويعالجون فيها المرضى».

وهناك محطات للإسعاف كانت تقام بالقرب من الجوامع والأماكن العامة التي يزدحم فيها الجمهور، ويحدثنا المقريزي أن ابن طولون حين



بنى جامعه الشهير في مصر عمل في مؤخره ميضأة وخزانة شراب -أي: صيدلية أدوية- وفيها جميع الشرابات والأدوية، وعليها خدم، وفيها طبيب جالس يوم الجمعة، لمعالجة من يصابون بالأمراض من المصلين.

وهناك المستشفيات العامة، التي كانت تفتح أبوابها لمعالجة الجمهور، وكانت تقسم إلى قسمين منفصلين بعضهما عن بعض: قسم للذكور، وقسم للإناث، وكل قسم فيه قاعات متعددة، كل واحدة منها لنوع من الأمراض، فمنها للأمراض الداخلية، ومنها للعيون، ومنها للجراحة، ومنها للكسور والتجبير، ومنها للأمراض العقلية وقسم الأمراض الداخلية كان مقسمًا إلى غرف أيضًا، فغرف منها للحُمِّيات، وغرف للإسهال، وغير ذلك، ولكل قسم أطباء عليهم رئيس، فرئيس للأمراض الباطنية ورئيس للجراحين والمجبرين، ورئيس للكحالين -أي: أطباء العيون-، ولكل الأقسام رئيس عام يُسمى (ساعور) وهو لقب لرئيس الأطباء في المستشفى وكان الأطباء يشتغلون بالنوبة، ولكل طبيب وقت معين يلازم فيه قاعاته التي يعالج فيها المرضى، وفي كل مستشفى عدد من الفراشين من الرجال والنساء والممرضين والمساعدين، ولهم رواتب معلومة وافرة، وفي كل مستشفى صيدلية كانت تسمى خزانة الشراب فيها أنواع الأشربة والمعاجين النفيسة، والمربيات الفاخرة، وأصناف الأدوية، والعطورات الفائقة التي لا توجد إلَّا فيها، وفيها من الآلات الجراحية والأواني الزجاجية والزبادي وغير ذلك، ما لا يوجد إلَّا في خزائن الملوك.

وكانت المستشفيات معاهد طبية أيضًا، ففي كل مستشفى إيوان كبير -قاعة كبيرة- للمحاضرات، يجلس فيه كبير الأطباء ومعه الأطباء والطلاب، وبجانبهم الآلات والكتب، فيقعد التلاميذ بين يدي معلمهم،

بعد أن يتفقدوا المرضى وينتهوا من علاجهم، ثم تجري المباحث الطبية والمناقشات بين الأستاذ وتلاميذه، والقراءة في الكتب الطبية، وكثيرًا ما كان الأستاذ يصطحب معه تلاميذه إلى داخل المستشفى ليقوم بإجراء الدروس العملية لطلابه على المرضى بحضورهم، كما يقع اليوم في المستشفيات الملحقة بكليات الطب، قال ابن أبي أصيبعة -وهو ممن درس الطب في البيمارستان النوري بدمشق-: «كنت بعدما يفرغ الحكيم مذهب الدين والحكيم عمران من معالجة المرضى المقيمين بالبيمارستان وأنا معهم، أجلس مع الشيخ رضي الدين الرحبي فأعاين كيفية استدلاله على الأمراض وجملة ما يصفه للمرضى وما يكتب لهم، وأبحث معه في كثير من الأمراض ومداواتها».

وكان لا يسمح للطبيب بالانفراد بالمعالجة حتى يؤدي امتحانًا أمام كبير أطباء الدولة، يتقدم إليه برسالة في الفن الذي يريد الحصول على الإجازة في معاناته، وهي من تأليفه أو تأليف أحد كبار علماء الطب، له عليها دراسات وشروح، فيمتحنه فيها ويسأله عن كل ما يتعلق بها فيها من الفن، فإذا أحسن الإجابة أجازه كبير الأطباء بما يسمح له بمزاولة مهنة الطب، وقد اتفق في عام ٣١٩هـ- ٩٣١م في أيام الخليفة المقتدر أن بعض الأطباء أخطأ في علاج رجل فمات، فأمر الخليفة أن يمتحن جميع أطباء بغداد من جديد، فامتحنهم سنان بن ثابت كبير أطباء بغداد، فبلغ عددهم في بغداد وحدها ثمانمئة طبيب ونيفًا وستين طبيبًا، هذا عدا عمَّن لم يمتحنوا من مشاهير الأطباء، وعدا أطباء الخليفة والوزراء والأمراء.

ولا يفوتنا أن نذكر أنه كان يلحق بكل مستشفى مكتبة عامرة بكتب الطب وغيرها مما يحتاجه الأطباء وتلاميذهم، حتى قالوا: إنه كان في



مستشفى ابن طولون بالقاهرة خزانة كتب تحتوي على ما يزيد على مئة ألف مجلد في سائر العلوم.

أما نظام الدخول إلى المستشفيات، فقد كان مجانًا للجميع، لا فرق بين غني وفقير وبعيد وقريب، ونابه وخامل، يُفحص المرضى أولًا بالقاعة الخارجية، فمن كان به مرض خفيف يكتب له العلاج، ويصرف من صيدلية المستشفى، ومن كانت حالته المرضية تستوجب دخوله المستشفى كان يقيد اسمه، ويدخل إلى الحمام، وتخلع عنه ثيابه فتوضع في مخزن خاص، ثم يعطى ثيابًا خاصة للمستشفى، ويدخل إلى القاعة المخصصة لأمثاله من المرضى، ويخصص له سرير مفروش بأثاث جيد، ثم يعطى الدواء الذي يعيِّنه الطبيب، والغذاء الموافق لصحته، بالمقدار المفروض له، وكان غذاء المرضى يحتوي على لحوم الأغنام والأبقار والطيور والدجاج، وعلامة الشفاء أن يأكل المريض رغيفًا كاملًا ودجاجة كاملة في الوقعة الواحدة، فإذا أصبح في دور النقاهة أدخل القاعة المخصصة للناقهين، حتى إذا تم شفاؤه أُعطي بدلة من الثياب جديدة، ومبلغًا من المال يكفيه إلى أن يصبح قادرًا على العمل. وكانت غرف المستشفى نظيفة تجري فيها المياه، وقاعاته مفروشة بأحسن الأثاث، ولكل مستشفى مفتشون على النظافة، ومراقبون للقيود المالية، وكثيرًا ما كان الخليفة أو الأمير يتفقد بنفسه المرضى ويشرف على حسن معاملتهم.

هذا هو النظام السائد في جميع المستشفيات التي كانت قائمة في العالم الإسلامي، سواء في المغرب أم في المشرق.. في مستشفيات بغداد ودمشق والقاهرة والقدس ومكة والمدينة والمغرب والأندلس.. وسنقتصر في حديثنا على أربع مستشفيات في أربع مدن من عواصم

الإسلام في تلك العصور.

الأول: المستشفى العضدي ببغداد: بناه عضد الدولة بن بويه عام ٣٧١هـ بعد أن اختار الرازي الطبيب المشهور مكانه بأن وضع أربع قطع لحم في أربعة أنحاء بغداد ليلًا، فلما أصبح وجد أحسنها رائحة في المكان الذي أقيم عليه المستشفى فيما بعد، فأقيم المستشفى وأنفق عليه مالًا عظيمًا، وجمع له من الأطباء أربعة وعشرين طبيبًا، وألحق به كل ما يحتاج إليه من مكتبة علمية وصيدلية ومطابخ ومخازن وفي عام ٤٤٩هـ جدد الخليفة القائم بأمر الله هذا المستشفى، وجمع فيه من الأشربة والأدوية والعقاقير التي يعز وجودها كثيرًا، وأقام الفرش واللحف للمرضى، والعطورات الطبية والأسرة والثلج والمستخدمين والأطباء والفراشين، وله بوابون وحراس، وفيه حمام، وبجانبه بستان قد حوى كل أنواع الثمار والبقول، والسفن على مئة تنقل الضعفاء والفقراء، والأطباء يتناوبونهم بكرة وعشية، ويبيتون عندهم بالنوبة.

الثاني: المستشفى النوري الكبير بدمشق: أنشأه السلطان الملك العادل نور الدين الشهيد سنة ٥٤٩هـ ـ ١١٥٤م من مال أخذه فدية من أحد ملوك الفرنج، وكان حين بنائه من أحسن ما بني من المستشفيات في البلاد كلها، شرط فيه أنه على الفقراء والمساكين، وإذا اضطر الأغنياء إلى الأدوية التي فيه يسمح لهم بها، وكان الشراب فيه والدواء مباحًا لكل مريض يقصده، وقد دخله ابن جبير الرحالة عام ٥٨٠هـ، فوصف عناية الأطباء بالمرضى وتفقدهم لشؤونهم، وإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية، وكان فيه قسم خاص بالأمراض العقلية، يوثق فيه المجانين بالسلاسل مع العناية بعلاجهم وغذائهم، ويذكر بعض المؤرخين أنه زار دمشق عام ٨٣١هـ

رجل أعجمي من أهل الفضل والذوق واللطافة، فلما دخل المستشفى النوري، ونظر إلى كثرة أطبائه، وحسن العناية بمرضاه، وما يحتويه من المآكل والتحف واللطائف التي لا تحصى، أراد أن يختبر معرفة أطبائه، فتمارض وأقام به ثلاثة أيام ورئيس الأطباء يتردد إليه ليختبر ضعفه، فلما جسَّ نبضه علم أنه غير مريض، وأنه إنما أراد اختبار أطبائه، فوصف له الأطعمة الحسنة والدجاج المسمنة والحلوى والأشربة والفواكه المتنوعة، ثم بعد ثلاثة أيام كتب له ورقة يقول فيها: إن الضيافة عندنا ثلاثة أيام.. فعرف الأعجمي أنهم فطنوا لقصده، وأنهم استضافوه في المستشفى هذه المدة كلها.

وقد استمر هذا المستشفى يقوم بعمله العظيم حتى سنة ١٣١٧هـ، حيث أنشئ مستشفى الغرباء، وهو المستشفى الذي تشرف عليه الآن كلية الطب في الجامعة السورية، فأقفل المستشفى النوري ثم استعمل مدرسة أهلية.

الثالث - المستشفى المنصوري الكبير: المعروف بمارستان قلاوون، كان دارًا لبعض الأمراء، فحولها الملك المنصور سيف الدين قلاوون إلى مستشفى عام ٦٨٣هـ ١٢٨٤م، وأوقف عليه ما يغل عليه ألف درهم في كل سنة، وألحق به مسجدًا ومدرسة ومكتبًا للأيتام. قالوا: وكان سبب بنائه أن الملك المنصور قلاوون، لما توجه وهو أمير إلى غزو الروم، في أيام الظاهر بيبرس عام ١٢٧٥م أصابه بدمشق مرض، فعالجه الأطباء بأدوية أخذت له من المستشفى النوري الكبير، فبرأ، وركب حتى شاهد المستشفى بنفسه، فأعجب به ونذر لله إن آتاه الله الملك أن يبني مثله، فلما صار سلطانًا اختار هذه الدار فاشتراها وحولها إلى مستشفى، وكان آية من

آيات الدنيا في التنظيم والترتيب، جعل الدخول إليه والانتفاع منه مباحًا لجميع الناس من ذكر وأنثى وحر وعبد وملك ورعية، وجعل لمن يخرج منه من المرضى عند برئه كسوة، ومن مات جُهز وكُفِّن ودُفن، وعين فيه الأطباء من مختلف فروع الطب، كما وظف له الفراشين والخدم لخدمة المرضى وإصلاح أماكنهم وتنظيفها وغسل ثيابهم وخدمتهم في الحمام، بحيث كان لكل مريض شخصان يقومان بخدمته، وجعل لكل مريض سريرًا وفرشًا كاملًا، وأفرد لكل طائفة من المرضى أماكن تختص بهم، ورتب فيه مكانًا يجلس فيه رئيس الأطباء لإلقاء دروس الطب على الطلبة، ومن أروع ما فيه أن الاستفادة منه ليست مقصورة على من يقيم فيه من المرضى، بل رتب لمن يطلب وهو في منزله ما يحتاج إليه من الأشربة والأغذية والأدوية، وأدى هذا المستشفى عمله الإنساني الجليل حتى أخبر بعض أطباء العيون الذين عملوا فيه أنه كان يعالج فيه كل يوم من المرضى الداخلين إليه والناقهين والخارجين أربعة آلاف نفس، ولا يخرج منه كل من يبرأ من مرض حتى يعطى كسوة للباسه ودراهم لنفقاته حتى لا يضطر للالتجاء إلى العمل الشاق فور خروجه.

ومن أروع ما فيه أيضًا، النص في وقفيته على أن يقدم طعام كل مريض بزبدية خاصة به من غير أن يستعملها مريض آخر، ووجوب تغطيتها وإيصالها إلى المريض بهذا الشكل.

□ ومن أروع ما فيه أن المُؤَرَّقين من المرضى كانوا يُعزَلون في قاعة منفردة. يُشنِّفون فيها آذانهم بسماع القصص يُلقيها عليهم القُصَّاص، وكان الناقهون منهم تُروى لهم الأشياء المضحِكة، أو تُنشَد لهم الأناشيد بأصوات ندِيَّة تخفيفًا لآلام المرضى الذين يضجرهم السهر وطول الوقت.

وهذا لعمر الله سُمُوٌّ إنساني عجيب، وفطنة طبيَّة لم ينتبِه إليها العالَم الحديث إلَّا في العصر الحاضر.

ويذكرني هذا بما كنت سمعته في مدينة طرابلس عن وقف غريب مخصص ريعه لتوظيف اثنين يمران بالمستشفيات يوميًا، فيتحدثان بجانب المرضى حديثًا خافتًا ليسمعه المريض بما يوحي له بتحسن حالته واحمرار وجهه وبريق عينيه.

ونرى من الفائدة أن نذكر نص الوقفية لهذا المستشفى العظيم، كما ذكرها مؤلف تاريخ البيمارستانات في الإسلام.

«فإن أحق ما انتهزت فرص أجره العزائم، وأحرزت مواهب بره الغنائم، وأجدر ما تنبه لاغتنام ثوابه كل نائم، وأولى ما توجه إليه كل متوجه وقام إليه كل قائم، ما عادت بالخيرات عوائده، وزادت في المسرات زوائده، واستمرت على الآباء فوائده، واستقرت على التقوى بتطاول الآمال قواعده، وهي الأوقاف العميم برها، المقيم أجرها، الجسيم وفرها، الكريم ذخرها، فهي الحسنات التي هي الجنان، والقربات التي فيها رضوان الرحمن، والصدقات التي هي مهور الحور الحسان، والنفقات التي هي بحور الأجور واللؤلؤ المرجان.. ولا يخفى ما فيها من إدخال السرور على المريض الفقير، وإيصال الحبور إلى قلبه الكسير، وإنائه بإيوائه ومداواته، الذي لا يعبر عن وفور أجرها بتعبير، فطوبى لمن عامل مولاه العزيز الغفار، وراقبه مراقبة العالم بسره ونجواه في الإيراد والإصدار، وأقرضه أحسن القروض، على حسب الإمكان والاقتدار، وانتهز الفرصة بالاستباق، وأحرز باغتنام أجرها قصب السباق، فساعد الفقير المسلم

على إزالة ألمه، ومداواة سقمه، مساعدة تنجيه غدًا من عذاب ربه الخلاق، ورجاء أن تكون له بها عند الله الرتبة العظمى، والقربة التي لا يخاف بأجرها ظلمًا ولا هضمًا، والحسنة التي لا تبقي لذنبه همًّا. ولما علم بذلك مولانا السيد الأجل، السلطان الملك المنصور العالم العادل.. فتقدم أمره الشريف بوقف البيمارستان المنصوري.. -وهنا تَذكر الوقفيةُ وصفَه ومكانه وأوقافه- لمداواة مرضى المسلمين الرجال والنساء من الأغنياء المثرين والفقراء المحتاجين، بالقاهرة ومصر وضواحيها، من المقيمين بها والواردين إليها من البلاد والأعمال على اختلاف أجناسهم وأوصافهم، وتباين أمراضهم وأوصابهم، من أمراض الأجسام، قلت أو كثرت، اتفقت أو اختلفت، وأمراض الحواس خفيت أو ظهرت، واختلال العقول التي حفظها أعظم المقاصد والأغراض، وأول ما يجب الإقبال عليه دون الانحراف عنه والإعراض، وغير ذلك مما تدعو حاجة الإنسان إلى صلاحه وإصلاحه، بالأدوية والعقاقير المتعارفة عند أهل صناعة الطب، والانشغال فيه بعلم الطب والاشتغال به، يدخلونه جموعًا ووحدانًا، وشيوخًا وشبابًا، وبلغاء وصبيانًا، وحرمًا وولدانًا، يقيم به المرضى الفقراء من الرجال والنساء لمداواتهم إلى حين برئهم وشفائهم، ويصرف ما هو معد فيه للمداواة، ويفرق للبعيد والقريب، والأهلي والغريب، والقوي والضعيف، والدني والشريف، والعلي والحقير، والغني والفقير، والمأمور والأمير، والأعمى والبصير، والمفضول والفاضل، والمشهور والخامل، والرفيع والوضيع، والمترف والصعلوك، والمليك والمملوك، من غير اشتراط لعوض من الأعواض، ولا تعريض بإنكار على ذلك ولا اعتراض، بل لمحض فضل الله وطَوْله الجسيم،

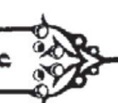
وأجره الكريم، وبره العميم، وأمره بإجراء النفقات على من يقوم بمصالح المرضى به من الأطباء والكحالين، والجرائحيين وطباخي الشراب والمزاور والطعوم، وصانعي المعاجين والأكحال والأدوية والمسهلات المفردة والمركبة، وعلى القومَة والفراشين والخزان والأمناء والمباشرين وغيرهم ممن جرت عادة أمثالهم بذلك، وعلى ما يقوم بمداواة المرضى من الأطعمة والأشربة، والأكحال والشيافات، والمعاجين والمراهم والأدهان والشربات، والأدوية المركبة والمفردة، والفرش والقدور والآلات المعدة للانتفاع بها في مثله، ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف ما تدعو حاجة المرضى إليه من مشموم في كل يوم، وزبادي فخار برسم أغذيتهم، وأقداح زجاج وغرار برسم أشربتهم، وكيزان وأباريق فخار، وقصاري فخار، وزيت للوقود عليهم، وبماء من بحر النيل المبارك باسم شربهم وأغذيتهم، .. ولأجل تغطية أغذيتهم عند صرفها عليهم، وفي ثمن مراوح خوص لأجل استعمالهم إياها في الحر، ويصرف الناظر ثمن ذلك من ريع هذا الوقف، في غير إسراف ولا إجحاف، ولا زيادة على ما يحتاج إليه، كل ذلك بحسب ما تدعو الحاجة لزيادة الأجر والثواب، ويصرف الناظر في هذا الوقف لرجلين مسلمين موصوفين بالديانة والأمانة، يكون أحدهما خازنًا لمخزن حاصل التفرقة، يتولى تفرقة الأشربة والأكحال والأعشاب والمعاجين والأدهان والشيافات، المأذون له في صرف ذلك من المباشرين، ويكون الآخر أمينًا يتسلم صبيحة كل يوم وعشيته أقداح الشراب المختصة بالمرضى والمختلين من الرجال والنساء المقيمين بهذا المارستان، ويفرق ذلك عليهم ويباشر شرب كل منهم لما وصف له من ذلك، ويباشر المطبخ بهذا المارستان وما يطبخ به

للمرضى من مزاور ودجاج وفراريج ولحم وغير ذلك، ويجعل لكل مريض ما طبخ له في كل يوم في زبدية منفردة له من غير مشاركة مع مريض آخر، ويغطيها ويوصلها إلى المريض إلى أن يتكامل إطعامهم ويستوفي كل منهم غذاءه وما وصف به بكرة وعشية، ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف لمن ينصبه بهذا المارستان من الأطباء المسلمين الطبائعيين والكحالين والجرائحيين بحسب ما يقتضيه الزمان وحاجة المرضى، وهو مخيَّر في العدة وتقرير الجامكيات ما لم يكن في ذلك حيف ولا شطط، يباشرون المرضى والمختلين الرجال والنساء بهذا المارستان، مجتمعين ومتناوبين باتفاقهم على التناوب، أو بإذن الناظر في التناوب، ويسألون عن أحوالهم وما يتجدد لكل منهم، من زيادة مرض أو نقص، ويكتبون بما يصلح لكل مريض من شراب وغذاء وغيره في دستور ورق ليصرف على حكمه، ويلتزمون المبيت في كل ليلة بالمارستان، مجتمعين أو متناوبين، ويجلس الأطباء الكحالون لمداواة أعين الرمداء بهذا المارستان، ولمداوة من يرد إليهم به من المسلمين بحيث لا يرد أحد من المسلمين الرمداء من مداواة عينيه بكرة كل يوم، ويباشرون المداواة ويتلطفون فيها، ويرفقون بالرمداء في ملاطفتهم، وإن كان بينهم من به قروح أو أمراض في عينه تقتضي مراجعة الكحال للطبيب الطبائعي، راجعه وأحضره معه، وباشر معه من غير انفراد عنه، ويراجعه في أحوال برئه وشفائه، ويصرف الناظر في هذا الوقف لمن ينصبه شيخًا للاشتغال عليه بعلم الطب على اختلافه، يجلس بالمسطبة الكبرى المعينة له في كتاب الوقف المشار إليه، للاشتغال بعلم الطب على اختلاف أوضاعه، في الأوقات التي يعينها له الناظر ما يرى صرفه إليه، وليكن جملة أطباء البيمارستان المبارك من غير زيادة عن

العدد، ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف للقَومَة والفراشين الرجال والنساء بهذا البيمارستان، ما يرى صرفه إلى كلٍّ بحسب عمله، على أن كلًّا منهم يقوم بخدمة المرضى والمختلين الرجال والنساء بهذا البيمارستان وبغسل ثيابهم وتنظيف أماكنهم، وإصلاح شؤونهم والقيام بمصالحهم على ما يراه من العدة والتقدير، بحيث لا يزيد في العدة ولا في المقادير على الحاجة إليه في ذلك بحسب الزمان والمكان، ويصرف الناظر ما تدعو الحاجة إليه في تكفين من يموت بهذا المارستان من المرضى والمختلين الرجال والنساء، فيصرف ما يحتاج إليه برسم غسله وثمن كفنه وحنوطه، وأجرة غاسله وحافر قبره ومواراته في قبره على السنة النبوية والحالة المرضية، ومن كان مريضًا في بيته وهو فقير كان للناظر أن يصرف إليه ما يحتاج إليه من حاصل هذا المارستان، من الأشربة والأدوية والمعاجين وغيرها، مع عدم التضييق في الصرف على من هو مقيم به، فإن مات بين أهله صرف إليه الناظر في موته بتجهيزه وتغسيله وتكفينه وحمله إلى مدفنه ومواراته في قبره ما يليق بين أهله، ومن حصل له الشفاء والعافية ممن هو مقيم بهذا البيمارستان المبارك صرف الناظر إليه من ريع هذا الوقف المذكور كسوة مثله على العادة، بحسب الحال من غير زيادة تقتضي لتضييق على المرضى والقيام بمصالحهم، كل ذلك على ما يراه الناظر ويؤدي إليه اجتهاده بحسب ما تدعو إليه الحاجة، وعلى الناظر في هذا الوقف أن يراعي تقوى الله سبحانه وتعالى سرًّا وجهرًا، ولا يقدم صاحب جاه على ضعيف، ولا قويًّا على من هو أضعف منه، ولا متأهلًا على غريب، بل يقدم في الصرف إليه زيادة الأجور والثواب والتقرب إلى رب الأرباب.

الرابع: مستشفى مراكش: وهو الذي أنشأه أمير المؤمنين المنصور أبو يوسف من ملوك الموحدين بالمغرب، تخَيَّر ساحة فسيحة في مراكش بأعدل موضع فيها، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه، وأمر أن يغرس فيه من جميع الأشجار والمشمومات والمأكولات، وأجرى فيه مياهًا كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على أربع برك في وسط إحداها رخام أبيض، ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره ما لا يوصف، وأقام فيه الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال، وأعد فيه للمريض ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء، فإذا نقه المريض، فإن كان فقيرًا أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يشتغل، وإن كان غنيًّا دفع إليه ماله، ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء، بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج حتى يشفى أو يموت، وكان في كل جمعة يزوره ويعود المرضى ويسأل عن أحوالهم وعن معاملة الأطباء والممرضين لهم.

□ وبعد، فهذه نماذج أربعة من مئات المستشفيات التي كانت منتشرة في شرق العالم الإسلامي وغربه، يوم كانت أوربة تتيه في ظلام الجهل ولا تعرف شيئًا من هذه المستشفيات ودقتها ونظافتها وسمو العاطفة الإنسانية فيها، وإليك ما قاله المستشرق الألماني «ماكس مايرهوف» عن حالة المستشفيات في أوربا في العصر الذي كانت فيه المستشفيات في حضارتنا كما وصفناها.. قال الدكتور «ماكس»: «إن المستشفيات العربية ونظم الصحة في البلاد الإسلامية الغابرة لتلقي علينا الآن درسًا قاسيًا مرًّا لا نقدره حق قدره إلَّا بعد القيام بمقارنة بسيطة مع مستشفيات أوربا في ذلك الزمن نفسه».



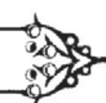
أكثر من ثلاثة قرون على أوربا، اعتبارًا من زمننا هذا قبل أن تعرف للمستشفيات العامة معنى، ولا نبالغ إذا قلنا بأنه حتى القرن الثامن عشر (١٧١٠م) والمرضى يعالجون في بيوتهم أو في دور خاصة كانت المستشفيات الأوربية قبلها عبارة عن دور عطف وإحسان، ومأوى لمن لا مأوى لديه، مرضى كانوا أم عاجزين، وأصدق مثال لذلك هو مستشفى «أوتيل ديو» بباريس، أكبر مستشفيات أوربا في ذلك العصر، وصفه كل من «ماكس توردو» و«تينون» بما يلي:

«يحتوي المستشفى على ١٢٠٠ سرير، منها ٤٨٦ خصصت لنفر واحد، أما الباقي ولم تكن سعة الواحد منها تتجاوز خمسة أقدام -فتجد فيها عادة ما يتراوح بين ثلاثة مرضى وستة، وكانت الردهات الكبرى عفنة كثيرة الرطوبة، لا منافذ تهوية فيها، مظلمة دومًا، ترى فيها في كل حين حوالي ثمانمئة مريض يفترشون الأرض وهم مكدسون بعضهم فوق بعض، على القاع أو على كوم من القش، في حالة يرثى لها.. إنك لتجد في السرير ذي الحجم المتوسط أربعة أو خمسة أو ستة مرضى متلاصقين، قدم أحدهم على رأس الثاني، تجد أطفالًا بجانب شيوخ، ونساء بجانب رجال، «قد لا تصدق لكنها الحقيقة» تجد امرأة في المخاض مع طفل في حالة تشنج مصاب بالتيفوس يحترق في بحران الحمى، وكلاهما إلى جنب مريض بداء جلدي يحك جلده المهترئ بأظفاره الدامية فيجري قيح البثور على الأغطية. وطعام المرضى من أخس ما يتصوره العقل، يوزع عليهم بكميات قليلة للغاية، وفي فترات متباعدة لا نظام فيها، واعتادت الراهبات أن يحابين المرضى الطائعين المنافقين على حساب الآخرين،

فيسقينهم الخمور، ويصلنهم بالحلوى والمآكل الدسمة مما يتفضل به المحسنون في الوقت الذي هم فيه أحوج إلى الحمية، فيموت الكثير منهم بالتخمة ويفطس غيرهم جوعًا، وكانت أبواب المستشفى مفتوحة في كل وقت وحين لكل رائح وغاد، وبهذا تنتشر العدوى بانتقالها، وبالفضلات وبالهواء النتن الملوث، وإن لم يتفضل المحسنون على المرضى ماتوا جوعًا، كما يموتون أحيانًا بالتخمة أو من فرط السكر، والفرش حافلة بالحشرات الدنيئة، وهواء الحجرات لا يطاق لفساده، حتى أن الخدم والممرضين لم يكونوا يجرؤون على الدخول إلَّا بعد وضع إسفنجة مبللة بالخل على أنوفهم، وتترك جثث الموتى ٢٤ ساعة على الأقل قبل رفعها من السرير المشاع، وكثيرًا ما تتفسخ الجثة وتتعفن وهي ملقاة بجانب مريض يكاد يطير صوابه».

هذه مقارنة بسيطة بين حالة المستشفيات عندنا في عهود حضارتنا، وحالتها عند الغربيين في تلك العصور، وهي تدل على مبلغ الانحطاط العلمي الذي كان عليه القوم من الجهل الفاضح بأصول المستشفيات، بل بقواعد الصحة العامة البديهية.

إن حضارتنا كانت أسبق من الغربيين إلى تنظيم المُستشفيات بتسعة قرون على الأقل.. وأن مستشفياتنا قامت على عاطفة إنسانية نبيلة لا مثيل لها في التاريخ ولا يعرفها الغربيون حتى اليوم.. وأننا بلغنا في تحقيق التكافل الاجتماعي حدًّا لم تبلغه الحضارة الغربية حتى اليوم حين نجعل الطب والعلاج والغذاء للمريض بالمجان، بل حين كُنَّا نُعطي الفقير الناقه من المال ما يُنفق على نفسه حتى يصبح قادرًا على العمل.. إن هذه نزعة



إنسانية بلغنا فيها الذروة يوم كنا نحمل لواء الحضارة، فأين نحن منها اليوم، وأين منها هؤلاء الغربيون؟[١].

المكتبات:

□ الحديث عن المكتبات في حضارتنا حديثٌ شيِّقٌ، فقد كانت مدارس للتعليم، ومؤسسات يُنفق عليها الأمراء والأثرياء والعلماء، لينتشر العلم بين الناس، وخصوصًا في ذلك الزمن الذي لم تكن فيه الطباعة موجودة، وكانت الكتب تنسخ على أيدي نسَّاخ متخصصين لهذا العمل، فكان يبلغ بذلك ثمن الكتاب حَدًّا قد يتعذَّر على طالب العلم أو العالم الفقير شراؤه، فكيف إذا أراد أن تكون له مجموعة من الكتب في الفن أو العلم الذي يتخصص فيه؟ ومن هنا كان قيام المكتبات في مجتمعنا الماضي منبعثًا عن عاطفة إنسانية وعن نزعة علمية في وقت واحد.

□ لعل الأدب العربي هو أغنى الآداب العالمية القديمة بالتغني بالكتاب والولع به والرغبة فيه والتحدث عنه، حتى لكأنه حبيب نأى مزاره وشطَّت داره، فالقلوب إليه منصرفة وبه مولعة، قال أحمد بن إسماعيل: «الكتاب هو المسامر الذي لا يبتدئك في حال شغلك، ولا يدعوك في وقت نشاطك، ولا يحوجك إلى التجمل له، والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك، والصديق الذي لا يغريك، والرفيق الذي لا يُمِلُّك، والناصح الذي لا يستزلُّك». ولقد كانوا يفضلون مطالعة الكتب على غشيان الناس في مجالسهم، ويرون الأنس بها أقرب إلى القلب من الأنس بالخليفة أو ذي سلطان..

---

(١) «من روائع حضارتنا» (ص١٠٧ – ١١٨) مُلَخَّصًا.

هُـمُ جلـساءُ مـا تمـل حـديثهم | أمينـون مـأمونون غيبًـا ومـشهدًا
إذا ما خلونا كـان خـير حـديثهم | معينًـا عـلى نفـي الهمـوم مؤيـدًا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى | وعقـلًا وتأديبًـا ورأيًـا وسـؤددًا
فلا ريبة تخشى ولا سـوء عـشرة | ولا نتقـي مـنهم لـسانًا ولا يـدا
فإن قلت أموات فلست بكـاذب | وإن قلـت أحيـاء فلـست مُفَنَّـدًا

□ وفَضَّلَ الصاحب بن عباد أن يبقى بجانب مكتبته على أن يتولى أعظم المناصب في بلاط نوح بن منصور الساماني، ذلك أنه مولع بمكتبته، فلا هو يستطيع الذهاب بدونها، ولا هو يستطيع حملها معه، فآثر أن يبقى بجانبها.

بهذه الروح العلمية شغف علماؤنا وأغنياؤنا وأمراؤنا بالكتب وجمعها، حتى أنهم كانوا يرون نكبتهم في أموالهم وبيوتهم أيسر عليهم من نكبتهم في كتبهم.

□ هجم الجنود مرة على دار ابن العميد بعد أن انتصروا على غلمانه وحراسه، ففر ابن العميد إلى دار الإمارة، فوجد أن خزائنه جميعها قد نهبت، حتى أنه لم يجد ما يجلس عليه، ولا وجد كوزًا يشرب فيه الماء واشتغل قلبه بدفاتره وكتبه، ولم يكن شيء أعز عليه منها، وكانت كثيرة تشمل جميع العلوم، وكل نوع من أنواع الحكم والأدب، تحمل على مئة بعير فأكثر، فلما رأى ابن العميد خازن مكتبته سأله عنها فأجابه: هي بحالها لم تمسها يد، فسرّي عن ابن العميد، وقال لخازنه: أشهد أنك ميمون النقيبة، أما سائر الخزائن فيوجد عنها عوض، وهذه الخزانة -أي مكتبته-



هي التي لا عوض لها.

□ وبهذه الروح العلمية كانوا يتنافسون في شراء المؤلفات العلمية من مؤلفيها غب الانتهاء من تأليفها. سمع الحكم أمير الأندلس بكتاب الأغاني المشهور الآن في عالم الأدب، فأرسل إلى مؤلفه أبي الفرج الأصفهاني ألف دينار من الذهب ثمن نسخة منه، فأرسل إليه أبو الفرج بنسخة من كتابه، فقرِئ كتابه في الأندلس قبل أن يقرأ في العراق موطن المؤلف.

وقد نشأ عن هذه الروح العلمية انتشار المكتبات في شتى أنحاء العالم الإسلامي، فقلَّما كانت مدرسة ليس بجانبها مكتبة، وقلَّ أن تجد قرية صغيرة ليس فيها مكتبة، أما العواصم والمدن فقد كانت تغصُّ بدور الكتب بشكل لا مثيل له في تاريخ العصور الوسطى.

□ كانت المكتبات نوعين رئيسين: عامة وخاصة.

أما العامة فقد كان ينشئها الخلفاء والأمراء والعلماء والأغنياء، كانت تشيَّد لها أبنية خاصة، وأحيانًا كانت تلحق بالمساجد والمدارس الكبرى.

أما الأبنية الخاصة، فقد كانت تشتمل على حجرات متعددة تربط بينها أروقة فسيحة، وكانت الكتب توضع على رفوف مثبتة بالجدران تخصص كل غرفة لفرع من فروع العلم، فلكتب الفقه غرفة، ولكتب الطب غرفة، ولكتب الأدب غرفة، وهكذا. وكان فيها أروقة خاصة للمطالعين، وغرف خاصة للنساخ الذين ينسخون الكتب، وفي بعضها غرف للموسيقى، يلجأ إليها المطالعون للترفيه وتجديد النشاط. وهذا مما تفردت به حضارتنا –وفيها غرف لحلقات الدراسة والنقاش العلمي بين رواد

تلك المكتبات، وكانت جميعها تؤثث تأثيثًا فخمًا ومريحًا، وكان في بعضها غرف لطعام روادها، ومنامة للغرباء منهم. كالذي قيل في مكتبة علي بن يحيى بن المنجم، فقد كان له قصر عظيم في قرية قريبة من بغداد «هي كركر من نواحي القفص»، وفيه مكتبة عظيمة كان يسميها خزانة الحكمة، يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم، والكتب مبذولة في ذلك لهم، والأرزاق مغدقة عليهم، وكل ذلك من مال علي بن يحيى نفسه، بل هنالك ما هو أطرف من ذلك مما لا نعلم له مثيلًا اليوم في أرقى عواصم الحضارة الغربية، فقد كان في الموصل دار أنشأها أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي، وسماها دار العلم، وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفًا على كل طالب علم لا يمنع أحد من دخولها، وإذا جاءها غريب يطلب الأدب وكان معسرًا أعطاه ورَقًا ووَرِقًا -أي: كتبًا ونقودًا-، وكانت تفتح في كل يوم.. فهل سمعتم حتى الآن بمكتبة في لندن أو واشنطن أو عاصمة من عواصم العالم الكبرى اليوم تمنح الأدب والأموال لطلبة العلم؟..

وكان للمكتبات العامة موظفون يرأسهم خازن المكتبة، وهو دائمًا من أشهر علماء عصره، ومناولون يناولون الكتب للمطالعين، ومترجمون ينقلون الكتب من غير العربية إلى العربية، ونساخ يكتبون الكتب بخطوطهم الجميلة، ومجلدون يجلدون الكتب لتحفظ من التمزق والضياع، هذا عدا عن الخدم وغيرهم ممن تقتضيهم حاجة المكتبات.

وكان لكل مكتبة صغيرة أو كبيرة فهارس يُرجع إليها لسهولة استعمال الكتب، وهي مبوبة بحسب أبواب العلم، وبجانب هذا كانت توضع قائمة على كل دولاب تحتوي على أسماء الكتب الموجودة في

الدولاب، وكان من المعروف في نظام المكتبات أن الاستعارة الخارجية مسموحة في أغلبها لقاء ضمان عن الكتاب من عامة الناس، أما العلماء وذوو الفضل فلم يؤخذ منهم ضمان.

أما الموارد المالية التي كانت تقوم بنفقات المكتبات، فمنها ما كان من الأوقاف التي تنشأ من أجلها خاصة، وهذه حال أكثر المكتبات العامة ومنها ما كان من عطايا الأمراء والأغنياء والعلماء الذين يؤسسون تلك المكتبات، فقد قالوا: إنه كان عطاء محمد بن عبد الملك الزيات للنقلة والنساخ في مكتبته الفي دينار كل شهر. وكان المأمون يُعطي حنين بن إسحاق من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية مثلًا بمثل.

والآن لنذكر بعض الأمثلة عن المكتبات العامة والخاصة التي كان لها ذكر في التاريخ من أشهر المكتبات:

□ **مكتبة الخلفاء الفاطميين في القاهرة:** كانت مكتبة عجيبة بما حوت من نفائس المصاحف والكتب، بلغ مجموع كتبها كما يروي كثير من المؤرخين مليوني كتاب، وإن كان المقريزي يميل إلى أنها مليون وستمئة ألف كتاب.

□ **ومنها مكتبة دار الحكمة بالقاهرة:** أنشأها الحاكم بأمر الله، وافتُتحت في ١٠ من جمادي الآخرة ٣٩٥هـ. بعد أن فُرشت وزُخرِفت، وعُلِّقت على جميع أبوابها وممراتها الستور، وأُقِيم بها القوَّامون والمناولون والفرَّاشون، وقد جُمِع فيها من الكتب ما لم يجتمع لأحد قط من الملوك، حتى كانت تضم أربعين خزانة، احتوت إحدى خزائنها على ١٨٠٠٠ كتاب من العلوم القديمة، وكان الدخول إليها مباحًا لجميع الناس،

فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنَّسَخ، ومنهم من يحضر للتعلم، وكان فيها كل ما يحتاج إليه الناس من الحبر والأقلام والورق والمحابر.

□ **ومنها بيت الحكمة في بغداد**: أنشأها هارون الرشيد، وبلغت ذروة مجدها في عصر المأمون. كانت أشبه بجامعة فيها كتب يجتمع فيها رجال يتفاوضون ويطالعون وينسخون، وكان فيها نُسَّاخ ومترجمون يترجمون ما كان يحصل عليه الرشيد والمأمون في فتوحاتهم بأنقرة وعمورية وقبرص، ويحدثنا ابن النديم أن المأمون كانت بينه وبين ملك الروم مراسلات، وقد انتصر عليه المأمون في بعض المعارك، فجعل من شروط الصلح أن يسمح ملك الروم بترجمة ما في خزائنه من كتب بواسطة العلماء الذين يرسلهم المأمون، ففعل، وهذا أعظم ما يُروَى في التاريخ عن حاكم منتصر لا يرى ثمنًا للنَّصْر أغلى من كُتُبِ العِلم ينقُلها إلى أبناء أمَّته وبلاده.

مكتبة الحكم بقرطبة بالأندلس أكبر مكتبات العالم:

بدأت النهضة العلمية في حياة الخليفة عبد الرحمن الناصر، وقد بلغ من عناية الناصر بالعلم والمعرفة أن بذل جُهْدًا خارقًا في جَمْع الكُتُب، كما وضع أساس المكتبة الأموية الكبرى [(١)] التي ازدهرت في عهد ابنه «المستنصر» ورفعت من شأن الأندلس كمنارة علميَّة كبرى يقصدها القاصي والداني.

□ ويُذكَر أنه اشتُهر عنه اهتمامه بالكتب وولعه الشديد باقتنائها، حتى بلغ ذلك أحد ملوك عصره، وهو الإمبراطور -أرمانوس- الذي أرسل له

(١) «المكتبات في الإسلام» لماهر حمادة (ص١٢٢).

هدية علميَّة يتودده ويأمل أن يحوز رضاه، فأرسل إليه كتابَيْن من تصانيف الأوائل، أحدهما في الطبِّ وهو كتاب «ديستوريدس»، والآخر في التاريخ: وهو كتاب «رهوشيش» وكان باللاتينية»[١].

□ ثم تولَّى من بعده ابنه «الحكم المستنصر» وكان عالمًا ثبتًا، وكان عصره عصر العلم والعلماء والرُّقيِّ والازدهار بالأندلس.

□ وفي أيامه كثر العلماء وأدلوا بما عندهم، وأُلِّفت التواليف، وصُنِّفت التصانيف»[٢].

□ واهتمّ رحمه الله بالكُتُب اهتمامًا بالغًا، وسار على نهج والده في ذلك، في الحرص على جمع كُلِّ المؤلفات في مكان واحد، فكانت «مكتبة قرطبة» التي تحوَّلت إلى ما يشبه الجامعة في عصرنا؛ لأنها كانت بحق «دار العلوم»، حيث كانت تستقبل أفواجًا من الكُتُب، التي كان المستنصر قد أوصى بها أعوانه المنتشرين في كل مكان من العالم الإسلامي يومئذٍ، وهكذا رسم المستنصر خطة لإنشاء مكتبة عامرة تكون عونًا لطُلَّاب العلم ومرجعًا أساسيًّا لكل من أراد الاستزادة، وأمد الحكم المكتبة بذخائر نفيسة من التآليف العلمية، حتى أصبحت في صورة فريدة لم يجمع مثلها أيُّ خليفة في الإسلام، وبلغ من ضخامة محتويات تلك المكتبة أن اشتهر أمرها في الأوساط العلمية في العالم الإسلامي حتى أصبحت مثلًا بارزًا على الازدهار العلمي والنشاط الفكري، وغدَت من أعظم خزائن الكتب

---

(١) «العلم وبناء الأمم» (ص٣٧٨).

(٢) «ريحان الألباب» للأشبيلي.

في الإسلام[(١)].

□ قال ابن الأبار في حديثه عن «الحكم» إنه «كان حسن السيرة فاضلًا عادلًا مشغوفًا بالعلوم، حريصًا على اقتناء دواوينها، يبعث فيها إلى الأقطار والبلدان، ويبذل في أعلافها ودفاترها أحسن الأثمان، ونفق ذلك لدَيْه، فحُمِلت من كل جهة إليه، والمُلْك سُوق، ما نفق فيها جُلِب إليها، حتى غَصَّتْ بها بيوته، وضاقت عنها خزائنه»[(٢)].

□ ولم يُسْمَع في الإسلام بخليفة بلغ مبلغ «الحكم» في اقتناء الكتب والدواوين وإيثارها والاهتمام بها.

□ وكان له ورّاقون بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف قال أبو محمد بن حزم في كتاب «جمرة الأنساب» عن «الحكم»: «اتصلت ولايته خمسة عشر عامًا في هدوء وعُلُوٍّ، وكان رفيقًا بالرَّعِيَّة، مُحِبًّا للعلم، ملأ الأندلس بجميع كتب العلم. وأخبرني تليد الفتى -وكان على خزانة العلوم بقصر بني مروان بالأندلس- أن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، في كل فهرسة خمسون ورقة، ليس فيها إلَّا ذكر أسماء الدواوين فقط»[(٣)].

فإذا كان هذا الحال مع الدواوين -تتجاوز الألفي ديوان- فما بالنا بمصنفات العلم وكتب العلم والمعرفة، وكان بها فهرسة موضوعية للكتب.

---

(١) «صبح الأعشى» للقلقشندي (١/ ٤٦٦).

(٢) «الحلة السيراء» لابن الأبار (١/ ٢٠١).

(٣) «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم (١/ ٤٤).

□ وذكر «المقَّري» عند حديثه عن مكتبة المستنصر: «أنه جمع من الكُتِب ما لا يُحَدّ ولا يوصف كثرة ونفاسة، حتى قيل: إنها كانت أربعمئة ألف مجلّد، وأنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها»(١).

بل إن المستشرقة الألمانية «زيغريد هونكه» أشارت إلى أن تلك المكتبة ضمَّت تصف مليون كتاب»(٢).

□ وما حقَّقه الأندلسيون في ميدان العلم جعلتهم يصفون قصر الحكم بأنه «مصنع لا يُرَى فيه إلَّا النَّساخون والمجلِّدون والمزخرفون يُحَلُّون الكتب بالمنمنمات والرسوم الجميلة»(٣).

ولأهمية النسخ في النشاط العلمي اهتم الخلفاء باستقدام أمهر الكُتَّاب، بل تذكر صاحبة كتاب «فن التجليد عند المسلمين» أن ذلك الاهتمام تعدى إلى المُجلِّدين(٤).

□ يُضاف إلى ذلك جهود الخليفة المستنصر في رفع شأن التعليم في بلاده وتيسيره لرعيّته، فيذكر ابن عذارى أنه: «أمر بإنشاء سبع وعشرين مكتبة يُلْحَق ثلاث منها بالمسجد الجامع بقرطبة، والباقي فرّقه على أنحاء قرطبة، وعيّن فيها العلماء والفقهاء للقيام بتدريس النشء في تلك المكتبات، وأجرى عليهم المرتَّبات، وأغدق عليهم الصِّلات، وبالغ في تعليم أطفال المسلمين»(٥).

---

(١) «نفح الطيب» للمقري (١/ ٣٩٥).
(٢) «شمس العرب تسطع على الغرب» (ص٣٥٣).
(٣) «تاريخ الفكر الأندلسي» لإنجل جونثالث ترجمة حسين مؤنس (ص١٥).
(٤) «فن التجليد عند المسلمين» لاعتماد القصيري (ص٣٠).
(٥) «البيان المغرب» لابن عذارى (٢/ ٢٤٠).

□ **ومنها مكتبة بني عمار في طرابلس:** كانت آية من الآيات في العظمة والضخامة، كان فيها مئة وثمانون ناسَخًا ينسخون فيها الكتب، ويتبادلون العمل ليلًا ونهارًا بحيث لا ينقطع النسخ، وكان بنو عمار يحرصون على أن يزودوها بكل نادر وكل جديد من الكتب، ووظفوا إخصائيين وتجارًا ليجوبوا البلاد ويحرزوا لهم الكتب المفيدة من البلدان النائية والأقطار الأجنبية، استفاد منهم المعري وذكرها في بعض كتبه، واختُلف في مقدار ما كان فيها وأعدل الأقوال أنها كانت تحوي مليون كتاب.

□ **ومنها مكتبة جمال الدين القفطي** -المتوفَّى عام ٦٤٦هـ-: جمع من الكتب ما لا يوصف، وقُصد بها من الآفاق طمعًا في سخائه وكرمه، وكان لا يحب من الدنيا سوى الكتب، فأوقف عليها نفْسَه، ورفض أن يتزوج حتى لا يشغله الأهل والأولاد عنها، وأوصى بمكتبته للناصر، وكانت تساوي خمسين ألف دينار.

وبعد، فلئن كانت النشوة تملأ نفوسنا حين نتحدث عن انتشار المكتبات في العالم الإسلامي في عصور حضارته الزاهرة، فإن الأسى ليملأ قلوبنا حين نتذكر مصائر هذه المكتبات، وما تعرضت له من بوار وحرائق لا يمكن أن تقدر خسارة العلم فيها أبدًا.

لقد أصيبت مكتباتنا بما قضى على ملايين الكتب منها بحيث فقدها العالم إلى الأبد، وهي من أثمن ما خلفه الفكر الإنساني في التاريخ.

فنكبة التتار حين افتتحوا بغداد، أصابت هذه المكتبات قبل أن تصيب أي شيء غيرها، وكلنا يعلم أن التتار الهمج قذفوا بما وجدوا في دور الكتب العامة في نهر دجلة حتى فاض النهر بالكتب الملقاة فيه، فكان يعبر

الفارس عليها من ضفة إلى ضفة، وظل ماء النهر أسود داكنًا أشهرًا طويلة من تغيره بمداد الكتب التي أغرقت فيه.

ونكبة الغزو الصليبي أفقدتنا أعزّ المكتبات التي كانت في طرابلس والمعرة والقدس وغزة وعسقلان وغيرها من المدن التي خربها الصليبيون، وحسبنا أن نعلم أن بعض المؤرخين قدر ما أتلفه الصليبيون في طرابلس وحدها بثلاثة ملايين مجلد.

ونكبة استيلاء الأسبان على الأندلس أفقدتنا تلك المكتبات العظيمة التي يتحدث عنها التاريخ بذهول، فقد احترقت كلها بفعل المتديِّنين المتعصبين، حتى أنه قد أحرق في يوم واحد في ميدان غرناطة ما قدره بعض المؤرخين بمليون كتاب.

ودعوا نكباتنا العامة إلى نكباتنا في الفتن الداخلية، فقد كانت نهاية مكتبة الخلفاء الفاطميين أن اعتدى عليها الغوغاء من المماليك الأتراك، فأشعلوا فيها النار، واقتسم العبيد جلود كتبِها فاتخذوها نعالًا يلبسونها، وأُلقي منها عدد كبير في النيل، وحُمِل بعضها إلى سائر الأقطار، وبقي منها ما سفت عليه الرياح، فصار تلالًا يعرف بتلال الكتب.

هذا حديث مكتباتنا في عصور حضارتنا، وهذه نهاية ما انتهت إليه، ولئن كان الاعتراف للأعداء بالجميل صعبًا على النفس، فإن من الواجب أن نعترف أن دور الكتب في أوربا حفظت لنا كثيرًا من البقية الباقية من هذا التراث، وأن فيها من ذخائر المؤلفات العربية ما لا يوجد مثله في العالم الإسلامي كله الآن [١].

---

(١) «من روائع حضارتنا».

العمران في حضارتنا:

المساجد والمدن.. مسجد قرطبة يدل على علو همة المسلمين:

صَفَحاتُ الجمال تُهدي نَفَحات الاجتهاد:

□ قال الأستاذ محمد أحمد الراشد في كتابه «صناعة الحياة»: «والمهندس المعماري من أهم صناع الحياة، فإن بعض عجيبة النحل يكمن في سداسيّاتها، ونصف جمال الحياة بين جناحي فراشة.

إنَّ حسَّ الجمال رزقٌ من الله وزعه على المخلوقات من بعض ما عنده من جمال وحب للجمال، كما وزع بعض الرحمة التي عنده.

فجمال الزهور الجميلة من مقدمات تلقيحها، وجمال الديك والطاووس إنما كان لأن عملية البيض والحضن صعبة تأباها الأنثى لولا جاذبية الجمال.

وقد سخَّر الله تعالى بإذنه بعض الناس أن يكونوا صُنَّاعًا للجمال، والمعماري منهم، فهو يبني النفوس والأذواق وجيِّد الطباع بمبادئ التناظر والتعادل والتناسق والتدرج والتناسب.

المدينة الجميلة جزء من الحياة، ولذلك حين يقول المعماريون المؤمنون بعد أن يساهموا في بنائها أنْ: أيها الناس آمنوا: سيؤمن منهم عدد، وألف ضعف ذلك العدد تكون نفسه قد تعادلت وأنكرت الشذوذ واقتربت من الإيمان، بإيحاءات الجمال التي صاغها المهندسون.

يؤذنون من على عروشهم المعمارية في آن واحد مع المؤذنين من على منابر المساجد.

إن جانبًا من محنة الناس يكمن في فساد الأذواق وانحراف الطباع،

ولا يقبل الكفر إلَّا صاحب نفس معكوسة منكوسة، وسَوِيُّ النفس أقرب إلى الإيمان، وبحقٍ رصد عباس محمود العقاد انتساب أصحاب الانحرافات إلى الشيوعية حتى وصفها بأنها مذهب ذوي العاهات.

إن المعماري قرين الواعظ في تسوية النفوس.

هي فلسفة في الحياة... لكن اسمها جدار ورواق.

وفلسفة من المعاني... لكن يلقبونها بابًا وباحة.

وحشد من المعاني... مترجم بأقواس وأعمدة وأخشاب نافرة.

وحاجة الدعوة إلى رهط من المعماريين يشاركون في تعليم الدعاة والمؤمنين موازين الجمال هي من جنس حاجتها إلى علماء يُعلِّمونهم موازين المُزني وشوافع الشافعي ومِلاك مصالح مالك، ولو فوّض الأمر إليَّ لدفعت ربع أذكياء شباب الدعوة إلى دراسة فنون العمارة، ولأدخلت ذلك في الخطة وجعلته حتمًا واجبًا، فإن تعادل العقلانية والعاطفية في الأداء الدعوي يلزمه الاقتران بالمعايير الجمالية، ليتم بهذه الثلاث استواء الصناعة الحيوية، ومن الخطأ أن نفهم أن الدَور المعماري يلزمه التعقيد والبذَخ والتعاظم والإسراف والتطاول والتبذير والتكلف ليؤدي وظيفته، وإنما يؤديه من خلال البساطة والتواضع ومجانسة البيئة والجري مع الفطرة واستعمال المواد الخام غير المصنعة، وبدأ الجيل الجديد من المعماريين يعود إلى هذه المعاني الأصيلة، ولعل أثر جماعة المعماريين المؤمنين في التربية الدعوية هو الجزء الناقص فيها المكمل لآثار الحَسَن البصري والجنيد.

إن مدينتنا الفاضلة كما تبنيها أبيات الشعراء وتضع قوانينها طوائف

الفقهاء، فإنها تتلألأ بلمسات فنون العمارة، لتكون وحدة واحدة متجانسة بمادتها ومعانيها.

وقد كانت إنجازات السلف أيام الازدهار الحضاري كذلك.

فاس المغربية وحدة واحدة كلها، وكلها مُصانة الآن محفوظة من الهدم والتغيير بإشراف الأمم المتحدة، وهي كتلة معمارية كلها، ومَعْلَم من مَعالم الإنسانية حين تنضج ويسمو ذوقها.

وقصر الحمراء ومقترباته وأركان غرناطة كتلة مندمجة.

ومدارس بغداد وخاناتها وبقايا سورها ومساجدها وأزقتها ومستنصريتها علاقات جمالية مؤداة على نسق، بعضها من بعض.

وصنعاء لوحة فنية واحدة، وكذا دمشق والقاهرة، والقيروان وتلمسان، وبخارى وسمرقند، وأصفهان واستانبول.

ولهذا فإن سواء أنفس أجيال المسلمين بالأمس هو من تأثير هذه المعطيات الحضارية الفنية كما هو تأثير الإيمان (١).

قرطبة ومسجدها في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي):

امتدادًا لحضارة إسلامية إنسانيَّة، طالت السماء وناطحتها؛ عِلْمًا وقِيمًا ومجدًا، بزغ نجم مدينة قرطبة كشاهد حيٍّ على ما وصلت إليه حضارة المسلمين وعزُّ الإسلام في ذلك الوقت من التاريخ وهو منتصف القرن الرابع الهجري يوم أن كانت أوروبا تغطُّ في جهل عميق.

□ قرطبة التي قال فيها عبد الرحمن الناصر:

---

(١) «صناعة الحياة» لمحمد أحمد الراشد (ص٣٤- ٣٦)- دار المنطلق- دبي- الإمارات.

هِمَمُ الملوك إذا أرادوا ذِكْرَهَا مِن بَعْدِهم فَبِألسُن البنيانِ

أَوَ ما ترى الهَرَمَيْن قد بقيا وكم مَلِكٌ محاهُ حوادث الأزمانِ

إِنَّ البناء إذا تعاظم شأنه أضحى يدلُّ على عظيم الشان

□ غَدَتْ تُنافس القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية في قَارتها، وبغداد في المشرق، والقيروان والقاهرة في إفريقيا، وحتى أطلق عليها الأوربيون «جوهرة العالم».

ومن معالم قرطبة الحضارية:

١- **قنطرة قرطبة:** من المعالم المهمة في قرطبة، «قنطرة قرطبة» والتي تقع على نهر الوادي الكبير، وقد عُرفت باسم «الجسر» وأيضًا «قنطرة الدهر»، وكان طولها سبعة وثلاثين مترًا تقريبًا، وأما عرضها فثمانون ذراعًا (الذراع يساوي ٦٤ سم)، وارتفاعها ستون ذراعًا!!

□ وقد وصفها ابن الوردي فقال: «وبمدينة قرطبة القنطرة العجيبة التي فاقت قناطر الدنيا حُسْنًا وإتقانًا، وعدد قسيها سبع عشرة قوسًا، كل قوْس منها خمسون شبرًا وبين كل قوسيْن خمسون شبرًا»[(١)].

□ ووصفها الإدريسي فقال: «ولقرطبة القنطرة التي عَلَت القناطر فخرًا في بنائها وإتقانها..»[(٢)].

٢- مسجد قرطبة:

بدأ بناؤه عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م ومن بعده ابنه

---

(١) «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» لابن الوردي (ص١٢).

(٢) «نزهة المشتاق» للإدريسي (٢/ ٥٧٩).

هشام الأول وكان كل خليفة جديد يضيف لهذا الجامع مع ما يزيد في سعته وتزيينه.. ليكون أجمل المساجد في مدينة قرطبة، ومن أكبر المساجد في وقت وجوده!!.

□ وفي وصف لهذا الجامع يقول صاحب «الرَّوْض المعطار»: «وبها بـ«قرطبة» الجامع المشهور أمره الرائع ذكره من أَجلِّ مساجد الدنيا كِبَرَ مساحة، وإحكامَ صنعة، وجمال هيئة، وإتقان بنية، تهمم به الخلفاء المروانيون فزادوا فيه زيادة بعد زيادة، وتتميمًا إثر تتميم، حتى بلغ الغاية في الإتقان، فصار يحار فيه الطرف، ويعجز عن حسنه الوصف، وليس في مساجد المسلمين مثله تنميقًا وطولًا وعرضًا!!».

طوله مئة باع وثمانون باعًا، ونصفه مسقف ونصفه صحن بلا سقف، وسواريه ألف سارية، وفيه مئة وثلاث عشرة ثريا للوقيد، أكبر واحدة منها تحمل ألف مصباح، وأقلَّها تحمل اثني عشر مصباحًا، وجميع خشبه من عيدان الصنوبر الطرطوشي وفي سقفه من ضروب الصنائع والنقوش ما لا يشبه بعضه بعضًا، قد أُحِكم ترتيبها وأُبدِع تلوينها بأنواع الحمرة والبياض والزرقة والخضرة والتكحيل، فهي تروق العيون وتستميل النفوس بإتقان ترسيمها ومختلفات ألوانها.

□ ولهذا الجامع قبلة يعجز الواصفون عن وصفها، وفيها اتقان يبهر العقول تنميقها، وفيها من الفسيفساء المذهب والبلور مما بعث به صاحب القسطنطينية إلى عبد الرحمن الناصر. وفيه المنبر الذي ليس معمور الأرض مثله صنعة، خشبه أبنوس وبقس وعود المجمر، يقال إنه صُنع في سبع سنين.

□ وللجامع في الجهة الشمالية «المئذنة» الغريبة الصنعة، الجليلة الأعمال، الرائقة الشكل والمثال [١]، وقد كانت مساحته تملأها أشجار البرتقال والرمَّان ليأكل منها الجائعون والقادمون إلى المدينة من شتى البقاع»[٢].

السنان اللامع.. أبو العمارة العثمانية.. وشيخ مهندسيها سنان باشا:

الفنَّان المُبدع، شيخ المهندسين في العصر العثماني: سنان باشا فقد كان رحمه الله من صُنَّاع الجَمال، وتمكَّن من طباعة التفاعل في نفوس المسلمين مع المعايير الجمالية.

«وأستحسِن أن نرافق مؤلف كتاب «فنون الترك وعمائرهم»[٣] في استعراضه لدور سنان، لنرى كيف «ظفر عهد السلطان العظيم سليمان القانوني -أزهى عصور الإمبراطورية العثمانية- بأحد قمم العالم وعباقرته، وهو المهندس سنان، الذي ولد عام ١٤٨٩م في قرية اغرناس قرب قيصرية.. وبعد انتهاء مدة تعليمه العسكري حارب كإنكشاري في حملة بلغراد ١٥٢١م، وساهم في حملات سليم الأول على بلاد فارس والشام والعراق ومصر، وزار البلقان والمجر وجنوب النمسا، وكان اختياره كبيرًا للمهندسين حين بلغ الخمسين.. وفي تلك اللحظة كان سنان قد شيد ٣٦٤ بناء على أراضي الإمبراطورية وفي وقت قصير.. وكان

---

(١) «الروض المعطار في خبر الأقطار» للحميري (١/ ٤٥٦، ٤٥٧) مُلَخَّصًا.

(٢) «خريدة العجائب» لابن الوردي.

(٣) تأليف: اوقطاي أصلان آبا، ترجمة: أحمد محمد عيسى، نشر: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية. استانبول/ الصفحات ٩٦ إلى ٢٠٣.

يفحص بعناية المنشآت في البلاد التي يزورها، ويمزج بين الملاحظات والأفكار المختلفة التي يلتقطها من هنا وهناك وبين التقاليد المعمارية التركية، وكان سنان أستاذًا كبيرًا في بناء القباب وفي تنسيق المساحات وعبقريًّا باقتدار ونجاح في تصميم القباب المركزية التي كانت الأصل والمثل الأعلى عند معماري عصر النهضة في إيطاليا».

«قام سنان في أول أعماله باستكشاف ما يمكن أن يعطيه الفراغ المتاح، آخذًا في الاعتبار استمرارية التقاليد المعمارية العثمانية التي ظهرت في أزنيق وبورسة وأدرنة. ففي عام ١٥٣٧م بنى مجمَّع الخسروية في حلب لخسرو باشا والي دمشق، وهنا بناء جدير بكل تقدير، باعتباره طليعة أعماله.. وقد سمح للمسجد أن يبرز بوضوح وأن يكون مع ما حوله وحدة متكاملة. والحقيقة أن هذا المجمع الصغير الحجم قد ساير بنجاح الموقع الذي أقيم عليه.

.. وتظهر أهم مراحل عبقرية سنان المعمارية من خلال ثلاثة آثار عظيمة هي: مسجد شهزاده، ومسجد السليمانية، باستانبول، والسليمية بأدرنة.

بدأ العمل بمسجد شهزاده عام ١٥٤٤م.. ونرى فيه المحاولة الأولى لسنان في معالجة مشكلة نصف القبة، وكيف تجاوز بمحاولته مشاكل قباب أيا صوفيا وبا يزيد عندما ابتكر النموذج المثالي للمبني ذي القبة المركزية وأنصاف القباب الأربعة الدائرة حولها، وسنان بهذا العمل يكون قد حقق أحلام مهندسي عصر النهضة.. وكان بناء هذا المسجد بأمر من سليمان القانوني تخليدًا لذكرى ولده الأكبر وأثيره شهزاده محمد».

«ومن التجديدات التي ظهرت عند وضع تصميم أنصاف القباب -أي: في مسجد شهزاده الذي أمام بلدية استانبول- أنها أقل قليلًا من نصف قبة كاملة، وأن الدعائم أكثر رقة بفضل التصبيعات والتضليعات التي عملت بها.. أما الشدروان وبوائك[1] الصحن المحيطة به وقبابها الست عشرة وأعمدة البوائك الاثنى عشر، فقد كونت توليفة لا تقل في تناسقها وانسجامها عن تناسق وانسجام المسجد، كما أنها تندمج معه عضويًا وتكون وحدة لها منظور معماري قوي التأثير. وتحويل الممرات هنا من داخل المسجد إلى خارجه أضفى على الداخل مزيدًا من الترابط والروحانية، ولطف من جمود الكتلة البنائية من الخارج..».

«وبدأ العمل في مسجد سليمان العظيم ومجمَّعه واستمر سبع سنوات انتهت بعام ١٥٥٧م، وكان سنان في هذه السنة قد تجاوز الستين من عمره، وفيها أيضًا يتحول سنان للمرة الأولى إلى فكرة تخطيط المسجد ذي نصفي القبة.. ويجتهد سنان في الوصول إلى أنجح النسب لإقامة المسجد الجديد من خلال دراسة متأنية ودقيقة لكل من كنيسة أيا صوفيا ومسجد بايزيد معًا، وقد اشتمل مجمَّع سليمان القانوني على أكبر وأول جامعة منذ زمن محمد الفاتح، كما اشتمل على ١٨ مبنى.. ونسق كل هذا بأسلوب جديد كل الجدة وبمفهوم واع لنظريات بناء المدن، جوهره الاستفادة المثلى من مدرجات الربوة التي تشرف على القرن الذهبي.. وجعل قطر القبة الرئيسية ٢٦.٥ مترًا وارتفاعها ٥٣ مترًا، وهي أكثر قباب استانبول

---

(١) في «المعجم الوسيط»: البائكة: النخلة الضخمة، وعلى ذلك فإنها استعارة لوصف الأعمدة المربعة الضخمة.

ارتفاعًا بعد أيا صوفيا.. وإذا كان الداخل إلى المسجد يمتلئ بطمأنينة روحية وإحساس باللانهائية فما ذلك إلَّا نتيجة لارتفاع القبة الشاهق..».

«وبعد كل التجارب العديدة في منشآت صغيرة نسبيًا: أبدع المهندس سنان وهو في الثمانين من عمره مسجد السليمية في أدرنة، واشتمل هذا المسجد على كل الابتكارات والتجديدات التي استحدثها سنان، بالإضافة إلى مستحدثات العمارة التركية جملة، وقد وصف مسجد السليمية بأدرنة بأنه يمثل رائعته المعمارية، وقد استغرق بناؤه خمس سنوات من ١٥٦٩م إلى ١٥٧٤م، ويمثل المسجد الرمز الحي لمدينة أدرنة ولإمبراطورية آل عثمان كلها، وكان إنشاؤه بأمر من السلطان سليم الثاني، ويظهر هذا الأثر متجليًا من بعيد بقبته الكبيرة ذات القطر البالغ ٣١.٥ مترًا، أي أكبر من قطر أيا صوفيا.. ويمكن اعتبارها قمة التطور في بناء القباب في العالم بأسره». «وتغطي المسجد كله قبة واحدة تحيط بها امتدادات من كل جانب، وهذه الرحابة الواضحة تملأ نفس الداخل إلى المسجد بإحساس مريح ويكاد يشعر بقوة سحرية تحمله إلى عالم بعيد.

وتستلفت النظر من بعيد مآذن المسجد الأربع التي تكون مع القبة وحدة واحدة يسودها الانسجام والتوافق، ويتدرج المبنى في ارتفاعه، أربع درجات واضحة، تستقر القبة في نهايتها في اطمئنان وتناسق، ويطغى على الواجهات نضج معماري وأناقة في النسب..».

توفي سنان سنة ٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م، رحمه الله.

أفما ترى معي أن المصلين عبر أربعمئة سنة في مسجد السليمية والسليمانية وشهزاده قد اتعظوا بمعاني التناسق والتدرج بمثل ما وعظهم

به كلام وعاظها؟»[1].

العمران في العواصم والمدن الكبرى:

كيف كانت المدن والعواصم كبغداد ودمشق وقرطبة وغرناطة وإشبيلية؛ لترى كيف كانت هذه المدن؟ وكيف كانت حضارتنا؟.

لنزر مدن الأندلس، ولنبدأ بقرطبة، ولنحاول أن نلم بملامحها الظاهرة، لا بكل شيء فيها، فكيف نجدها؟

□ كانت قرطبة في عهد عبد الرحمن الثالث الأموي عاصمة الأندلس المسلمة، تنار المصابيح ليلًا ويستضيء الماشي بسُرُجها عشرة أميال لا ينقطع عنه الضوء -أي: ستة عشر كيلو مترًا-، أزقتها مبلطة، وقُمامتها مرفوعة من الشوارع، محاطة بالحدائق الغناء حتى كان القادم إليها يتنزه ساعات في الرياض والبساتين قبل أن يصل إليها، كان سكانها أكثر من مليون نسمة «في ذلك العصر الذي لم تكن فيه أكبر مدينة في أوروبا تزيد عن خمسة وعشرين ألفًا» وكانت حماماتها تسعمئة حمام وبيوتها ٢٨٣,٠٠٠ بيت، وقصورها ثمانون ألف قصر، ومساجدها ستمئة مسجد، وكانت استدارتها ثمانية فراسخ -أي: ثلاثين ألف ذراع-، كان كل ما فيها متعلمًا، وكان في ربضها الشرقي مئة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي، هذا في ناحية واحدة من نواحيها، وكان فيها ٨٠ مدرسة يتعلم فيها الفقراء مجانًا وخمسون مستشفى. وأما مسجدها فكان ولا تزال آثاره حتى اليوم آية خالدة في الفن والإبداع، كان ارتفاع مئذنته أربعين ذراعًا تقوم قبته الهيفاء على روافد من الخشب المحفور، وتستند إلى ١٠٩٣ من

---

(١) «صناعة الحياة» لمحمد أحمد الراشد (ص٧١- ٧٥).

الأعمدة المصنوعة من مختلف الرخام على شكل رقعة شطرنج فيتألف منها تسعة عشر صحنًا طولًا وثمانية وثلاثون صحنًا عرضًا، وكان يضاء في الليل بأربعة آلاف وسبعمئة مصباح تستنفد في كل سنة ٢٤ ألف رطل من الزيت، وترى في وجهه الجنوبي تسعة عشر بابًا مصفحًا بصفائح برونزية عجيبة الصنع خلا الباب الوسط الذي كان مصفحًا بألواح من الذهب، وترى في كل من وجهه الشرقي والغربي تسعة أبواب مشابهة لتلك الأبواب، أما محرابه فحسبك أن يقول فيه مؤرخو الفرنج: «إنه أجمل ما تقع عليه عين بشر، وإنه لا يرى أحسن من زخرفه وسنائه في أي أثر قديم أو حديث».

□ وقد ألحق بقرطبة بناء الزهراء الخالد في التاريخ بفنه وروعته حتى قال فيه المورخ التركي ضيا باشا: «إنه كان أعجوبة الدهر التي لم يخطر مثل خيالها في ذهن بنَّاء منذ برأ الله الكون، ولا تمثل رسم كرسمها في عقل مهندس منذ وُجدت العقول». كانت قبابه تقوم على ٤٣١٦ عمود من أنواع الرخام المنقوش نقشًا متساويًا، وكانت أرضه مبلطة بقطع من الرخام ذي الألوان المختلفة على شكل جميل، وكانت جدره مصفحة بألواح لازوردية ذهبية، وفي ردهاته عيون ماء عذب ينصب ويغيب في أحواض من الرخام الأبيض مختلفة الأشكال إلى أن ينتهي إلى بركة في ردهة الخليفة، وكانت ترى في وسط البركة إوزَّة من ذهب معلقة في رأسها لؤلؤة وفي مياهها من صنوف الأسماك والحيتان الألوف الكثيرة حتى كان عدد ما يرمى لها من الخبز كل يوم اثني عشر ألف رغيف.

وفي الزهراء المجلس المسمى «قصر الخلافة» وكان سقفه وحيطانه من الذهب والرخام الغليظ الصافي لونه المتلون أجناسه، وفي وسطه حوض

عظيم مملوء بالزئبق، وفي كل جانب من جوانب المجلس ثمانية أبواب على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجوهر قامت على سواري من الرخام الملون والبلور الصافي، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها على صدر المجلس وحيطانه، فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار، وكان الناصر إذا أراد أن يفزع أحدًا من أهل مجلسه أومأ إلى أحد مواليه فيحرك ذلك الزئبق، فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور،ويأخذ بمجامع القلوب، حتى يخيل لكل من في المجلس أن المحل قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرك، وكانت تحيط بالقصر حدائق غناء وميادين واسعة الأرجاء، ومن وراء ذلك سور عظيم بهذا البناء العجيب فيه ثلاثمئة برج حربي، وكانت الزهراء تحتوي على دور الخليفة والأمراء والحريم، وقاعات كبرى لجلوس الملك في مكان خاص أُطلق عليه السطح الممرد، كانت له قبة قراميدها من ذهب وفضة، ولكن القاضي منذر بن سعيد أنكر على الخليفة فعله هذا في حشد هائل بجامع قرطبة فنقضها وأعاد بناءها من لبن، وكان فيها دور الصناعة والآلات: كدار صناعة آلات السلاح للحرب، ودار صناعة الحلي للزينة، ودار صناعة النحت الزخارف والتماثيل. وغير ذلك من المهن والصناعات، استغرق بناء الزهراء أربع سنوات، كان معدل ما ينحت فيها كل يوم من الصخر ٦٠٠٠ صخرة عدا عن الصخر المنصرف في التبليط، وعدد العمال الذين يشتغلون فيها كل يوم عشرة آلاف رجل، ويخدم فيها كل يوم ١٤٠٠ بغل، ويردها في كل ثلاثة أيام ١١٠٠ حمل الجير والجص.

أما جامع الزهراء فقد كان يعمل فيه كل يوم من حذاق الصناع ألف رجل منهم ٣٠٠ بناء و٢٠٠ نجار و٥٠٠ من الأجراء وسائر الصناع،

وقد استتم بناؤه في ثمانية وأربعين يومًا فقط وهي سرعة لا يكاد يكون لها نظير.

وفي هذا القصر العظيم استقبل الخليفة المستنصر عام ٣٥١ ملك أسبانيا المسيحية أردون بن أذفونش، وقد أصابه الذهول حينما دخل الزهراء ورأى أبهتها وعظمتها وخدمها وجندها وسلاحها، ثم زاد ذهوله حين وصل إلى مجلس الخليفة المستنصر وفي جانبه عظماء المملكة وأشرافها وفحول العلماء والخطباء وأكابر القواد، فلما قارب ملك الأسبان الدنو من الخليفة المستنصر كشف رأسه وخلع برنسه وبقي حاسرًا حتى أذن له الخليفة بالاقتراب منه، فلما قابل الخليفة خرَّ ساجدًا سويعة، ثم استوى قائمًا ثم تقدم خطوات وعاد إلى السجود.. فعل ذلك مرارًا إلى أن قدم بين يدي الخليفة فأهوى إلى يده ليقبلها فناوله إياها وعاد راجعًا مقهقرًا على عقبه دون أو يولي الخليفة ظهره. ثم جلس على سرير أعدَّ له، فقال الخليفة مرحبًا به: «ليسرَّك إقبالك، ويُغبطك تأميلك فلدينا لك من حسن راينا ورحب قبولنا فوق ما قد طلبته».

فلما ترجم له كلام الخليفة انبسط وجهه وانحط على رتبته وقبَّل البساط ثم قال: «أنا عبد أمير المؤمنين مولاي، المتورك على فضله، القاصد إلى مجده، المحكم في نفسه ورجاله، فحيث وضعني من فضله، وعوضني من خدمته رجوت أن أتقدم فيه بنية صادقة ونصيحة خالصة».

فقال له الخليفة: «أنت عندنا بمحل من يستحق حسن رأينا، وسينالك من تقديمنا لك، وتفضيلنا إياك على أهل ملتك ما يُغبطك وتتعرف به من فضل جنوحك إلينا، واستظلالك بظل سلطاننا».

أسمعتم كلمات القوة والعظمة كيف تنطلق من فم الخليفة المستنصر فيسمعها ملك الأسبان فلا يكاد يفهمها حتى يخر ساجدًا مرة أخرى ثم يبتهل بالدعاء لما شمله الخليفة من عطفه وحمايته؟

وإذا انتقلنا من ذلك إلى غرناطة تجلت لنا عظمة البناء والعمارة في قصر الحمراء، وقد كان آية عجبًا يدهش له الناظرون، ولا يزال رغم عوادي الزمن محط أنظار السائحين من بلاد العالم كلها، أُقيم هذا القصر على منحدر جبل يشرف على مدينة غرناطة وحقول البقعة الواسعة الخصيبة المحيطة بها، فبدا من أجمل أمكنة العالم، وكانت فيه قاعات متعددة منها قاعة الأسود، وغرفة الأختين، وقاعة العدل، وقاعة السفراء، ولا يمكننا في هذا الحديث القصير أن نلم بوصف الحمراء وحسبنا أن يتغنى فيها الشاعر الفرنسي «فيكور هوجر» بقوله: «أيتها الحمراء! أيتها الحمراء! أيها القصر الذي زينتك الملائكة كما شاء الخيال وجعلتك آية الانسجام، أيتها القلعة ذات الشرف المزخرفة بنقوش كالزهور والأغصان المائلة إلى الانهدام! حينما تنعكس أشعة القمر الفضية على جدرك من خلال قناطرك العربية يسمع لك في الليل صوت يسحر الألباب».

وأما الحديث عن المدن الأندلسية الأخرى وما كانت عليه من رقي وعظمة فذلك حديث يطول، وحسبنا أن نذكر هنا أن أشبيلة كان فيها ستة آلاف نول للحرير وحده، وكانت محاطة من كل أطرافها بأشجار الزيتون ومن ثم كان فيها مئة ألف معصرة للزيت.

وعلى العموم فقد كانت مدن أسبانيا عامرة، وكانت كل مدينة مشهورة بأنواع الصناعة تقبل عليها أوربا بشغف لا مثيل له، حتى إنها

كانت مشهورة بمصانع الدروع والخوذ وسقي الفولاذ، فيقبل الأوربيون على شرائها من كل مكان، ويقول «رينو» في كتابه الغارة على فرنسا: «إن العرب لما أغاروا من الأندلس على جنوبي فرنسا وافتتحوا بقيادة السمح الخولاني وعنبسة الكلبي والحر الثقفي مدائن أربونة وفرتشونه وأفنيون وليون كانوا مجهزين بأسلحة لم يكن للإفرنج مثلها».

ولنتحول بعد ذلك إلى العالم الإسلامي الشرقي لنرى نموذجًا من مدنه الكبرى وحضاراته الرائعة، وسأقتصر هنا على بغداد وكيف كانت حين بنيت من عجائب الدنيا التي لا مثيل لها في القديم.

كانت بغداد قبل أن يبنيها المنصور الخليفة العباسي الشهير ضيعة صغيرة يجتمع فيها على رأس كل سنة التجار من الأماكن القريبة منها، فلما عزم المنصور على بنائها أحضر المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمة الأرضين، ثم وضع بيده أول آجُرة في بنائها وقال: بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. ثم قال: ابنوا على بركة الله، بلغ مجموع ما أنفق على بنائها أربعة ملايين وثمانمئة ألف درهم وبلغ عدد العمال المشتغلين فيها مئة ألف، وكان لها ثلاثة أسوار يلي الواحد منها الآخر. بلغ عدد سكانها مليوني نسمة، وبلغت عدد دروبها وسككها ستة آلاف بالجانب الشرقي وأربعة آلاف بالجانب الغربي، وكان فيها عدا دجلة والفرات أحد عشر نهرًا فرعيًا تدخل مياهها إلى جميع بيوت بغداد وقصورها وكان في نهر دجلة وحده من المعديات «المعبرانيات» ثلاثين ألفًا، أما حماماتها فقد بلغت ستين ألف حمام، وفي أواخر عهد العباسيين بها تناقص هذا العدد إلى بضعة عشر ألف حمام، وأما مساجدها فقد بلغت ثلاثمئة ألف مسجد،

وأما سكانها وكثرة العلماء والأدباء والفلاسفة فذلك فيها ما لا يحيط به حصر، ولننقل هنا ما قاله أبو بكر الخطيب في وصفها: «هذا إلى تركنا ذكر أشياء كثيرة من مناقبها التي أفردها الله بها دون سائر الدنيا شرقًا وغربًا، وبين ذلك من الأخلاق الكريمة والسجايا المرضية، والمياه العذبة الغدقة، والفواكه الكثيرة الدمثة، والأحوال الجميلة، والحذق في كل صنعة والجمع لكل حاجة، والأمن من ظهور البدع، والاغتباط بكثرة العلماء والمتعلمين، والفقهاء والمتفقهين، ورؤساء المتكلمين، وسادة الحساب والنحوية، ومجيدي الشعراء، ورواة الأخبار والأنساب وفنون الآداب وحضور كل طرفة، واجتماع ثمار الأزمنة في زمن واحد، لا يوجد ذلك في بلد من مدن الدنيا إلَّا بها، سيما زمن الخريف، ثم إن ضاق مسكن بساكن وجد خيرًا منه، وإن لاح له مكان أحب إليه من مكانه لم يتعذر عليه النقلة إليه من أي جانب من جانبيه أراده ومن أي طرف من أطرافه خف عليه، ومتى هرب أحد من خصمه وجد من يستره في قرب أو بعد، وإن آثر أن يستبدل دارًا بدار أو سكة بسكة أو شارعًا بشارع أو زقاقًا بزقاق أو غير ذلك من التبديل اتسع له الإمكان في ذلك حسب الحالة والوقت،، ثم عيون التجار المجهزين، والسلاطين المعظمين، وأهل البيوتات المبجلين، في ناحية ناحية، تنبعث الخيرات بهم إلى الذين هم في الحال دونهم غير منقطع ذلك، ولا مفقود؛ فهي من خزائن الله العظام التي لا يقف على حقيقتها إلَّا هو وحده».

وقال: «لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها، وفخامة أمرها، وكثرة علمائها وأعلامها وتميز خواصها وعوامها، وعظم أقطارها وسعة

أطرارها [١] وكثرة دورها ومنازلها، ودروبها وشعوبها، ومحالها وأسواقها، وسككها وأزقتها، ومساجدها وحماماتها، وطرزها وخاناتها، وطيب هوائها، وعذوبة مائها، وبرد ظلالها، وأفيائها، واعتدال صيفها وشتائها، وصحة ربيعها وخريفها، وزيادة ما حصر من عدة سكانها، وأكثر ما كانت عمارة وأهلًا في أيام الرشيد، إذ الدنيا قارّة المضاجع، دارة المراضع، خصيبة المراتع، موروودة المشارع. ثم حدثت بها الفتن، وتتابعت على أهلها المحن، فخرب عمرانها، وانتقل قطانها، إلَّا أنها كانت قبل وقتنا والسابق لعصرنا على ما بها من الاختلال والتناقض في جميع الأحوال، مباينة لجميع الأمصار، ومخالفة لسائر الديار.

□ ونختم حديثنا هذا بوصف عظمتها في عهد المقتدر بالله ومبلغ ما وصلت إليه أبهة الخلافة في عصره حين زارها رسول ملك الروم، كانت دار الخلافة في اتساعها تفوق مدينة كبيرة من مدن سوريا اليوم، كان فيها من الخدم الخصي أحد عشر ألف خادم ومن غيرهم آلاف لا تحصى، وكان عدد كل نوبة من نوب الفراشين أربعة آلاف فرَّاش، فلما وردها رسول ملك الروم أنزل في دار للضيافة ثم صف العسكر من دار الضيافة إلى دار الخليفة، فبلغ عددهم مئة وستين ألف فارس وراجل فسار بينهم إلى أن بلغ الدار، ثم سلم على الخليفة وأمر أن يطاف به دار الخلافة وقد أفرغت ولم يبق فيها إلَّا سبعة آلاف خادم وسبعمئة حاجب وأربعة آلاف غلام أسود، وفتحت الخزائن وآلات السلاح والحرب فيها مرتبة كما ترتب أجهزة العرائس، ولما دخل رسول ملك الروم دار الشجرة ذهل إذ رآها،

---

(١) جمع طر بالضم: شفير النهر والوادي وطرف كل شيء وحرفه.

وكانت شجرة من الفضة وزنها خمسمئة ألف درهم، لها ثمانية عشر غصنًا لكل غصن منها أغصان صغيرة وقفت عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة، وأكثر قضبان الشجرة فضة وبعضها مذهب، وهي تتمايل في أوقات ولها ورق مختلف الألوان يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجر، وكل من هذه الطيور الفضية والذهبية يصفر ويهدر، وفي جانب دار الشجرة تماثيل خمسة عشر فارسًا على خمسة عشر فرسًا قد ألبسوا الديباج وفي أيديهم مطارد على رماح يورون على خط واحد كأن كل واحد منهم يقصد صاحبه، ثم أدخل إلى القصر المعروف بالفردوس فكان فيه من آلات السلاح ما لا يحصى ثم أخرج من قصر إلى قصر -في دار الخلافة نفسها- حتى بلغ ما طافه ثلاثة وعشرين قصرًا إلى أن عادوا إلى مجلس المقتدر بالله مرة أخرى بعد أن استراحوا سبع مرات، ويذكر المؤرخون أن عدد الفرس التي بسطت في دار الخلافة لزيارة رسول ملك الروم اثنين وعشرين ألف بساط عدا ما في المقاصير والمجالس من البسط والأنماط، وعلق في قصور دار الخلافة من الستور الديباج المذهبة ثمانية وثلاثون ألف ستر، ومما زاره رسول ملك الروم في دار الخلافة دار الوحوش، وفيها مختلف أنواع الحيوان المستأنسة والمتوحشة، ودار الفيلة وفيها أربعة فيلة على كل فيل ثمانية نفر من الهنود، ودار السباع وفيها مئة سبع، خمسون يمينًا وخمسون يسارًا، كل سبع منها في يد سبَّاع وفي رؤوسها وأعناقها السلاسل والحديد. ولا ريب في أن رسول ملك الروم قد بلغت الدهشة في نفسه مبلغها حين رأى عظمة دار الخلافة، فما في

الدنيا يومئذٍ دار كهذه الدار التي رآها، وحسبنا هذا الذي ذكرناه لندرك روع حضارتنا في إبان عظمتها وقوتها»[١].

وسلسلة الخطاطين صنعت الحياة والحضارة:

ثُلُثٌ.. لكنه تام.. ومُعَلَّق.. لكنه مسيطر:

وهي من أيام ابن البواب وابن مقلة، مرورًا بياقوت المستعصمي، وانتهاء بتلامذة هاشم في بغداد، عبد الغني وصلاح شيرزاد ونزار الدوري وغيرهم، وتلامذة تحسين الخطوط بالقاهرة، وعُصبة نشأت مؤخرًا باستانبول. تربِّي الذوق والحسن الجمالي، لقَّنوا الناس معايير الجمال وغرسوا في القلوب موازين التناسب، كل منهم هو أخو المتبتِّل في محرابه إذا لقَّنهم آداب الإخبات.

إن الحاسَّة الجمالية في جمهور الناس تحتاج إشباعًا، والخطَّاط المسلم رائد في التربية الجمالية للناس يُمتِّع أنظارهم باستدارة العين، واستقامة الألف، وتداخل الهاء، وامتداد السين، وركوع الكاف، وسجود الراء، وانفتاح الدال، وينقلهم من ثُلُث إلى ديواني، ومن تعليقات فارس إلى أعمدة الكوفة، والزخرفة من قبل ذلك وبعده تتفجر بين يديه وتمتد إلى حيث اللانهاية، فكل تلميذ له هو للإيمان وليّ، وكل جائز لرُقعة من فنه على جدار بيته هو للإحسان صَفِيٌّ، وتجليته للنفوس أكبر، وتسكينه للقلق أعظم، وتسليته للحزين أبلغ، فإن شغله هو الحرص على تكييف أعماق الذات من خلال حركات الظاهر، فهو مسلم وَلَعُه إنطاق حروف آيات الإسلام ودُرر قول نبي الإسلام ﷺ، ووجهته تربية ذوق رجال الإسلام،

(١) «من روائع حضارتنا» (ص١٣٥- ١٣٩).

وغايته جلاء جمال الإسلام، ومصبّ أحباره وألوانه في وادي الإسلام، فهو للإسلام ومن الإسلام وبالإسلام.

ياقوت الأماسي المستعصمي رائد من رُوَّاد الخط العربي:

□ كان ياقوت الأماسي -من أماسية- خطاطًا تركيًا يعمل كاتبًا لدى المستعصم -٤٢ إلى ١٢٥٨م- آخر خلفاء بني العباس. وقد استفاد هذا الخطاط من استخدام قلم مقطوطة بمَيْل في كتابه النسخ والثلث والجلي، وبهذا يكون قد تحرك خطوة في طريق جديد، ولقي خط النسخ على يد ياقوت: الروح التي جعلت منه حقيقة نمطًا كلاسيكيًّا، وحدث الشيء ذاته لخط الثلث، الذي ظل يكتب بطريقته وأُسلوبه دون تغيير يذكر لمئات من السنين، وقد تحوَّل هذا النمط على يد ياقوت إلى نوع من التحليل التشريحي، وأعطاه، من خلال تفاصيله الدقيقة: أنسَب الأشكال وأكثرها ظَفَرًا بالقبول، ويعتبر ياقوت هو الذي أرسى القواعد الصلبة لفن الخط عند الأتراك، بترسيخه كل الأصول والصفات المميزة لستة من أنماط الخط العربي المختلفة، وهي التي عرفت فيما بعد باسم: الأقلام الستة.

□ وفي القرن الخامس عشر: مارسَ الشيخ حمد الله، وهو من أماسية أيضًا، كتابة الأنماط الستة السابقة، ووضع لها قواعد على أسس محددة تتصل بنِسَب جسم الإنسان وقواعد تشريحه، وأصبح حمد الله بهذا أستاذًا لكل الخطاطين في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وأطلق عليه لقب: قبلة الخطاطين.

وقد مات الشيخ حمد الله عام ١٥١٩م.. وكتب الشيخ عددًا من المصاحف ومئات من المخطوطات، وأعطى فن الخط العثماني عمومًا

شكله الكلاسيكي، وقدرته على التأثير، واحتفاظه بالحيوية، تلك الصفات التي لازمته عدة قرون وحتى يومنا هذا.

□ ثم طوَّر أحمد القره حصاري خط الجَلي في القرن ذاته.. ومع أن جانبًا من أسلوب القره حصاري مشتق أساسًا من ياقوت الأماسي أو ياقوت المستعصمي، إلَّا أنه يمكن القول فيه أن خطه كان أجمل من خط ياقوت.. وفي عام ١٥٥٦م توفي القره حصاري، وكان قد بلغ التسعين.

□ وفي القرن السابع عشر يبلغ فن الخط العربي آفاقًا جديدة في مجال إضافاته الفنية، من خلال أعمال حافظ عثمان المولود في استانبول ١٦٤٢م.. وطور حافظ خط النسخ وبسَّطه وأحسن تنسيقه ليكسبه وضوحًا أكثر في القراءة، وكان نضجه سريعًا في هذا المجال، وكان متدفقًا، حتى لقد سُمي أسلوبه في الكتابة -وفي النسخ خاصة- بالأخاذ، كأنه شرارة تخطف الأبصار. ومن خلال الخطوات الزاحفة لكل من ياقوت والشيخ حمد الله وحافظ عثمان: تتمثل الفترة الرئيسية لرسوخ خط النسخ والثُلُث.

□ وأدخل حافظ عثمان نوعًا من الحرية على فن الخط لم يكن معروفًا من قبل.. ومات حافظ عام ١٦٩٨م وهو في السادسة والخمسين.. ولحافظ ٢٥ نسخة من القرآن الكريم.. ونقلت المصاحف التي طبعت وكانت بخطه شهرته إلى سائر أنحاء العالم الإسلامي وحتى بلاد الهند وأندونيسيا.

□ وقد أضفت الابتكارات التي أشاعها مصطفى راقم في خط الجلي كثيرًا من الحيوية، فنجد فيه تكوينات مختلفة للحروف، غيرت باستمرار من أوضاعها وملامحها، وبلغ أسلوبه في هذا النمط غاية الكمال بأقل ما

يمكن من الشكل والاعجام والزخرفة، وبهذا يكون قد حرَّر الحرف من جموده النمطي الذي استمر عليه في المرحلة الكلاسيكية، وإننا لنلمح في كل عمل من أعماله ابتكارًا رصينًا للحروف، وكان راقم بالإضافة إلى هذا عبقريًا في عملية الترتيب والتجميع، وهي التكوين المنسجم الذي يضفيه على هيئة الحروف والكلمات والأسطر معًا، وباختياره لمثل تلك التشكيلات ذات التوليفة المتناسقة المنسجمة يكون راقم قد نشر حول الخط نسمة من الجمال والكمال.

إن تشكيل نص من النصوص ليظهر في مساحة معمارية ليس أمرًا سهلًا، وإنما هو من الأمور الصعبة التي تحتاج إلى قدرة وموهبة وإحساس فني رفيع.

ولما كان راقم خير من يمثل الإدراك العالي للحركة الجمالية فقد أصبح في نظر الخطاطين أول مَن يَسعون إلى تقليده، وهذا سبب تزايد عدد الفنانين الذين آمنوا بقيادته.

□ ثم هناك محمود جلال الدين، الذي يختلف عن راقم، والمتوفى عام ١٨٢٩م. وهناك زوجته وتلميذته أسماء عِبرت، التي كانت على درجة من المهارة كزوجها تمامًا.

ابتكر محمود جلال الدين أسلوبًا مستحدثًا هو الآخر.. وكان لأسلوبه من الحيوية والرسوخ مثلما كان لحافظ عثمان، وإذا كانت كتابات راقم تمثل القوة والحيوية، فإن كتابات محمود جلال الدين توحي بالسكينة والجمال.

□ ومن مشهوري القرن الثامن عشر أيضًا: محمد أسعد يساري، أحد

أساتذة التعليق، الذي كانت له إضافات فنية واضحة، والذي أنتج أعمالًا مبتكرة لا نظير لها، ونرى كتابات هذا الخطاط في كل ركن من أركان استانبول، ومن ذلك لوحاته العديدة في معظم بيوت أهلها، وترسَّم الابن والتلميذ يساري زاده عزت مصطفى خطوات الأب، فارتفع بخط التعليق إلى أعلى مراتبه، واكتفى مَن جاء بعد ذلك من الخطاطين بهذا الأسلوب، وقنعوا منه بالتقليد، وأصبح خط التعليق هو الأسلوب المختار بين أهل العلم في استانبول، وكتبت به الأعمال الأدبية وأشعار البلاط وسائر المنظومات»[(١)].

□ ومن شهيرات النساء المبدعات ببغداد أواخر القرن الماضي: الخطاطة صالحة النِقَشْلي رحمها الله، ولها مصحف بخط الثلث يعتبر من روائع الفن، وهو محفوظ بمكتبة مسجد الشيخ عبد القادر الكيلاني»[(٢)].

لقد سلَّم الأمانة العصبة الكرام، وكانوا عمالقة وكلهم ساهم في صناعة الحياة.

ومن الحضارة: الفن الحربي والآلات الحربية ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾:

علو همة محمد الفاتح وسليمان القانوني:

تذكر كتب التاريخ والسير أن محمد الفاتح حظي بتربية علمية خاصة، منذ طفولته، فقد اهتم والده السلطان «مراد الثاني» بتنشئته تنشئة علمية وجسدية جادة، فمرَّنه على ركوب الخيل والرمي والمبارزة، وجعله يتتلمذ

(١) نقول من كتاب «فنون الترك وعمائرهم» (ص٣١٠- ٣١١).

(٢) «صناعة الحياة» (ص٧٦- ٧٠).

على يد خيرة أساتذة عصره، ومنهم «أحمد بن إسماعيل الكوراني»[١] الذي ذكر السيوطي أنه كان أول معلمي الفاتح، وقال عنه: إنه «كان عالمًا فقيهًا، شهد له علماء عصره بالتفوق والإتقان، بل إنهم كانوا يسمونه: «أبا حنيفة زمانه»، وتشير الروايات التاريخية إلى أن الكوراني حبَّب الفاتح في العلم، وجعله يقبل عليه بهمَّة ونشاط، فما مضى وقت حتى كان محمد الفاتح قد حفظ القرآن، ودرس التاريخ الإسلامي، وكان على اطِّلاع بالمحاولات الإسلامية السابقة لفتح القسطنطينية، وأسهمت تربيته في تنشئته على حُبِّ الإسلام، والعمل بالقرآن، وحب العلم، وتقدير العلماء، وقد تأثَّر الفاتح كذلك بالشيخ «آق شمس الدين سنقر»[٢] الذي كان أول من زرع حُلْمَ «فتح القسطنطينية» في ذهنه منذ الصغر، وكبر الفتى وهو يصبو إلى تحقيق ذلك الحلم.. وقد درَّس الشيخ «آق شمس الدين» لمحمد الفاتح العلوم الأساسية «من قرآنٍ وحديث وسُنَّة نبوية وفقه»، وكذلك اللغات «العربية والفارسية والتركية»، كما درَّس له بعضَ علوم الحياة كالرياضيات والفلك والتاريخ.

وكان الشيخ آق شمس الدين صارمًا مع محمد الفاتح، حتى إنه بعد

---

(١) العالم الجليل، تولى قضاء العسكر، ثم منصب الفتوى، توفي بالقسطنطينية (٨١٣-٨٩٣) من مؤلفاته: «شرح صحيح البخاري»، «كشف الأسرار عن قراءة الأئمة الأخيار»، «شرح جمع الجوامع في أصول الفقه»، و«غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني»، و«قصيدة في علم العروض». عمر كحالة «معجم المؤلفين» (١/ ١٦٦).

(٢) هو محمد بن حمزة الدمشقي الرومي (٧٩٢- ٨٦٣) ارتحل مع والده إلى الروم، وطلب فنون العلم وتبحر فيها، وأصبح علمًا من أعلام المسلمين في العصر العثماني، تولى تربية الفاتح.. انظر: عمر كحالة «معجم المؤلفين» (٩/ ٢٧١).

أن تولَّى السلطنة، يقول لأحد وزرائه: «إنَّ احترامي لهذا الشيخ يأخذ بمجامع نفسي وأنا ماثل في حضرته مضطربًا ويداي ترتعشان!»[١]. وقد أثَّرت هذه المجموعة من العلماء، وهذه التنشئة العلمية في تشكيل الأمير الصغير، وتربيته سياسيًّا وعسكريًّا.

وما إن تولَّى «محمد الثاني» مهام السلطنة خلفًا لوالده «مراد الثاني»، حتى وضع فتح القسطنطينية هدفًا نصب عينه، واتخذ من أجل ذلك عددًا من الخطوات العملية العلمية:

في البداية بذل الفاتح جهودًا مختلفة للتخطيط والترتيب لفتح القسطنطينية، فاعتني بتقوية الجيش العثماني ماديًا ومعنويًا، فحرص على نشر العلماء بينهم، حتى يغرسوا فيهم روح الجهاد، ويذكِّروهم بحديث رسول الله ﷺ في الثناء على جيش الفتح؛ حتى يجتهدوا في فتح القسطنطينية؛ عسى أن يكونوا هم الجيش المقصود، كما كان لانتشار العلماء بين الجنود أثر كبير في تقوية عزائم الجنود، وربطهم بالجهاد في سبيل الله.

□ وفي ذات الوقت أخذ بزمام الاستعداد المادي والأَخْذ بالأسباب؛ فأخذ يستعين بأهل الخبرة والعلم وسألهم: لم لا نستطيع أن نفتح القسطنطينية؟ فحددوا له ثلاثة أسباب:

١- عدم وجود حصون للمسلمين عند بداية الحصار.. مما يجعل المسلمين في العَرَاء أثناء الشتاء القارص.. وأعلموه أنَّ بناء الحصن يستغرق سنة كاملة.

---

(١) «البدر الطالع» (٢/ ١٦٦) للشوكاني.

٢- عدم وجود مدفع يستطيع أن يخترق سمك الأسوار أو يجوز ارتفاعها.

٣- امتداد سلسلة بعرض الخليج، تمنع سفن المسلمين من دخول الخليج، وتهديد الأسوار الضعيفة [1].

من هنا انطلق الفاتح، وبعقلية العالم الواعية، وبنفس يملؤها الطموح، وروح تملؤها الحيوية، في استقدام عدد من العلماء المختصين، وتكوين مجلس للبحث في كيفية التغلب على هذه العقبات، وبذل من أجل ذلك المال الكثير، وحثَّ الكثير من ذوي الدراية والخبرة في فنون الحرب على تقديم مقترحاتهم، وأفكارهم، حتى تكون محل مناقشة، مما أسفر بعد ذلك عن وضع حلول عاجلة، ساعدت في تكوين الخطة الأولى للفتح.

خطة فتح القسطنطينية:

لقد وضع محمد الفاتح خطة عبقرية، تحدث عنها المستشرقون بانبهار شديد، وقالوا: إن هذا الرجل سبق الإسكندر الأكبر ونابليون؛ فقد قام محمد الفاتح بعد تحديد أسباب امتناع الفتح.. بحلِّها واحدًا تلو الآخر؛ فللتغلُّب على العائق الأول، وهو عدم وجود حصن للمسلمين أمام سور القسطنطينية؛ قرَّر بناء حصنٍ في مدة زمنية لا تتعدى الأشهر الثلاثة.. فجمع العمال، واختار منهم المتقنين المهرة، وحفَّزهم بقوله: «أتحبون أن تكونوا من أتباع رسول الله ﷺ يوم القيامة.. وتكونوا من الذين قال فيهم: «ولنعم الجيش ذلك الجيش؟» فتحفز العمال، وأنجزوا العمل في

(١) «فتح القسطنطينية» (ص٥٧) لمحمد صفوت.

وقت قياسي، وتم بناء قلعة عظيمة يستغرق بناؤها سنة كاملة في ثلاثة أشهر فقط.

أمَّا العائق الثاني، وهو عدم وجود المِدفع الصالح لاختراق أسوار المدينة؛ فقد ضرب الفاتح المثل في تفعيل قاعدة «**الحكمة ضالَّة المؤمن؛ أنَّى وجدها؛ فهو أحقُّ الناس بها**»[1]؛ فقد استقدم الفاتحُ العالِمَ المجري المهندس «أوربان»، والذي كان قد علم أنه أعدَّ مدافعَ ذات قوة خاصة، بإمكانها أن تدكَّ أسوار القسطنطينية، وكان «أوربان» قد عرض خدماته على إمبراطورية القسطنطينية، فلم يمنحه ما كان يريده من مكافأة، فجاء للفاتح، فاستقبله استقبالًا حسنًا، وأغدق عليه الأموال، وعرف كيف يستفيد منه أكبر استفادة، بل ويسَّر له كل الوسائل التي تمكِّنه من إتمام اختراعه، ووضع تحت تصرفه ما طلبه من آلات وفنيين، وشرع «أوربان» في صنع المدافع، بمعاونة عدد من المهندسين العثمانيين الآخرين، وكان الفاتح يشرف عليهم بنفسه، ولم تمضِ ثلاثة أشهر حتى كان «أوربان» قد صنع ثلاثة مدافع، بينها مدفع ضخم عملاق، كان يزن سبعمئة طن، وتزن القذيفة الواحدة فيه ألف وخمسمئة كيلو جرام!!، يصل مداها إلى ميل، يجرُّه ٦٠ ثورًا بمعاونة ٤٠٠ من الرجال الأشداء كل ٢٠٠ على جانب[2].

---

(١) الترمذي: باب العلم: كتاب فضل العلم على العبادة (٢٦٨٧)، وابن ماجه من حديث أبي هريرة (٤١٦٩)، وابن أبي شيبة (٧/ ٢٤٠)، والقضاعي في «الشهاب» (ص١٤٦).

(٢) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص٢٤٠) لمحمد حرب.

وعندما أرادوا أن يجربوه لأول مرة في «أدرنة» أنذر السلطان سكان المنطقة، ثم أطلقوه فسُمِع دَوِيُّه على بُعْدِ ثلاثة عشر ميلًا، وسقطت قذيفته على بُعد ميل، وتركت أثرًا بعمق ستة أقدام في الأرض، وقد قطع هذا المدفع -الذي أسماه العثمانيون بالمدفع السلطاني- الطريق من أدرنة إلى موضعه أمام أسوار القسطنطينية في شهرين اثنين، وسُرَّ السلطان محمد الفاتح بنجاح التجربة، وتفاءل بالفتح، وأجزل العطاء لهذا المهندس المجري، ولكل المهندسين الذين عاونوه[١].

أمَّا عن السلسلة الموجودة بعرض الخليج؛ فقد كانت هذه السلسلة تعوق دخول أسطول المسلمين إلى داخل الخليج حتى تصل إلى الأسوار.. ولهذا قرَّر أن يقوم بعمل فريد من نوعه.. فقام بعمل ممر تسير فيه السفن خلال الجبل حتى تصل مباشرة إلى داخل الخليج بدون المرور عبر السلسلة وهذه المسافة تقدر بثلاثة أميال.. واستعمل في ذلك قضبانًا خشبية دهنها بالزيت لتسهل من حركة السفن، وكان عددها سبعين سفينة.. واستعمل في جرِّها مئات الثيران ومئات الرجال.. واستغرق نقل السفن من بعد غروب الشمس حتى ما قبل الفجر.. حتى يفاجئ الروم.. وقد استمرَّ الحصار ثلاثةً وخمسين يومًا حتَّى قيض الله الفتح للجيش[٢].

وهكذا كان العلم سبيلًا للتخطيط، وعاملًا مهمًا من عوامل فتح القسطنطينية، وتحقيق ذلك الحلم للمسلمين.

بيد أن دور العلم لم يقتصر على التمهيد للفتح، أو استخدامه للحرب،

---

(١) **«محمد الفاتح»** (ص٨٢) لعبد السلام فهمي.

(٢) **«محمد الفاتح»** (ص٨٢) لعبد السلام فهمي.

بل ظل ملازمًا للنهضة العثمانية في عهد «محمد الفاتح».

«كان الترك وعلى رأسهم آل عثمان موضعًا للثقة في قيادة الأمم الإسلامية وفي استرداد قوة المسلمين ومكانتهم في العالم، وكان فتحهم للقسطنطينية التي استعصت على المسلمين ثمانية قرون (١) دليلًا على كفاءتهم وقوتهم، وبلوغهم درجة الاجتهاد في صناعة الحرب، وحسن قيادتهم العسكرية وتفوقهم على الأمم المعاصرة في آلات الحرب واستخدامهم لمهمتهم قوة العلم والعمل. وكل ذلك ما لا غنى للأمة عنه.

تفوق محمد الفاتح في فن الحرب:

□ وكان محمد الفاتح -كما يقول درابر-: يعرف العلوم الرياضية ويحسن تطبيقها على الفن الحربي، وكان قد أعد لهذا الفتح عدته، واستفاد كل ما في عصره من معدات حربية.

لقى زائر بندقي وهو (Giacome De Languschi) أو لنغاستو (LANGASTO)، السلطان محمد الفاتح حوالي الوقت الذي فتحت فيه قسطنطينية ووصفه هكذا.

□ «شاب في ٢٦ سنة من العمر (٢) «وبعد ما ذكر حليته وأخلاقه اللائقة بالنوابغ وثقافته الواسعة» يبحث بكل دقة عن المعلومات عن

---

(١) غزا الأسطول العربي القسطنطينية بقيادة يسر بن أرطاة سنة ٤٤ للهجرة وفق سنة ٦٦٤ للمسيح، وحاصر يزيد بن معاوية القسطنطينية سنة ٥٢ هجرية وفق سنة ٦٧٢ مسيحية، وحاصرها العرب أربع مرات على الأقل بعد ذلك، ولم يفتحوها لمنعتها.

(٢) الحقيقة أن عمره حينذاك لم يكن يتجاوز ٢٤ سنة «المترجم».

أوضاع ايطاليا وكرسي «عاصمة» البابا، والإمبراطور، وكم ممالك هنا في أوربا، وعنده خريطة لها، وتظهر عليها دولها وأقاليمها، لا يعجب ولا يبتهج بأي شيء كإعجابه وابتهاجه بدراسة أوضاع العالم وعلم الحرب، باحث فطن للأمور، يلتهب رغبة في الحكم، هذا هو الرجل الذي علينا معشر المسيحيين أن نواجهه، إنه شديد المراقبة والحذر، قادر على تحمل المشقة والبرد، والحرارة والعطش والجوع.. ويقول: إن الزمن تغير الآن، إذ يسير من الشرق إلى الغرب كما سار الغربيون -فيما سلف- إلى الشرق، ويقول: إن إمبراطورية العالم يجب أن تكون واحدة، دين واحد ودولة واحدة، ولتحقيق هذه الوحدة ليس هناك في العالم مكان أليق من القسطنطينية»[(١)].

□ قال البارون «كارادفو» (Baron Carra de vaux) في كتابه «مفكرو الإسلام» في الجزء الأول منه عند ترجمة محمد الفاتح: «إن هذ الفتح لم يقيض لمحمد الفاتح اتفاقًا، ولا تيسر لمجرد ضعف دولة بيزنطة، بل كان هذا السلطان يدبر التدابير اللازمة له من قبل، ويستخدم له كل ما كان في عصره من قوة العلم، فقد كانت المدافع حينئذٍ حديثة العهد بالإيجاد، فأعمل فِكَرَه في تركيب أضخم المدافع التي يمكن تركيبها يومئذٍ وانتدب مهندسًا مجريًا ركب مدفعًا كان وزن الكرة التي يرمى بها ٣٠٠ كيلو جرام، وكان مدى مرماه أكثر من ميل، وقيل: إنه كان يلزم لهذا المدفع ٧٠٠ رجل ليتمكنوا من سحبه، وكان يلزم له نحو ساعتين من الزمن لحشوه، ولما

---

(١) العبارة مقتبسة من كتاب «استنبول وحضارة الإمبراطورية العثمانية» (ص٣٦-٣٧)، تأليف الأستاذ «برنارد لوئيس» وتعريب الأستاذ رضوان على الندوي.

زحف محمد الفاتح لفتح القسطنطينية كان تحت قيادته ثلاثمئة ألف مقاتل، ومعه مدفعية هائلة، وكان أسطوله المحاصر للبلدة من البحر (١٢٠) سفينة حربية، وهو الذي -من قريحته- تصور سحب جانب من الأسطول من البر إلى الخليج وأزلق على الأخشاب المطلية بالشحم (٧٠) سفينة أنزلها في البحر من جهة قاسم باشا»[١].

مزايا الشعب التركي:

وقد تفرد الشعب التركي المسلم تحت قيادة آل عثمان بمزايا اختص بها من بين الشعوب الإسلامية يومئذٍ، واستحق بها زعامة المسلمين.

أولًا: أنه كان شعبًا ناهضًا متحمسًا طموحًا، فيه روح الجهاد، وكان سليمًا -بحكم نشأته وقرب عهده بالفطرة والبساطة في الحياة- من الأدواء الخلقية والاجتماعية التي أصابت الأمم الإسلامية في الشرق في مقتلها.

ثانيًا: أنه كان متوافرًا لديه القوة الحربية التي يقدر بها على بسط سيطرته الإسلامية المادية والروحية، ويرد بها غاشية الأمم المناوئة وعاديتها، ويتبوأ بها قيادة العالم، فقد بادر العثمانيون في صدر دولتهم لاستعمال المعدات الحربية وخصوصًا النارية منها واهتموا بالمدافع، وأخذوا بالحديث الأحدث من آلات الحرب، عنوا بفن الحرب وتنظيم الجيوش وتعبئتها حتى صاروا في صناعة الحرب أئمة بغير نزاع، والمثل الكامل والقدوة لأوروبا.

---

(١) من حواشي الأمير شكيب أرسلان على «حاضر العالم الإسلامي» (١/ ٢٢٠) الطبعة الثانية.

وكانوا يحكمون في ثلاث قارات: أوروبا، وآسيا، وإفريقية، ملكوا الشرق الإسلامي من فارس حتى مراكش، ودوخوا آسيا الصغرى وتوغلوا في أوروبا، حتى بلغوا أسوار «فيينا» وكانوا سادة البحر المتوسط من غير نزاع.. قد جعلوه بحيرة عثمانية لا أثر للأجنبي حوله، وقد كتب معتمد القيصر بطرس الأكبر لدى الباب العالي، أن السلطان يعتبر البحر الأسود كداره الخاصة فلا يباح دخوله لأجنبي، وأنشأوا أسطولًا عظيمًا لا قبل لأوروبا به حتى اجتمعت لسحقه كل من عمارات البابا والبندقية وأسبانيا والبرتغال ومالطة عام ٩٤٥هـ- ١٤٥٧م ولكن لم تغن عنهم كثرتهم شيئًا[١].

النهضة العلمية بعد الفتح:

اهتمامه بالمدارس والمعاهد:

□ كان السلطان محمد الفاتح محبًا للعلم والعلماء؛ ولذلك اهتم ببناء المدارس والمعاهد في جميع أرجاء دولته، وقد كان السلطان أورخان (٧٢٦هـ- ٧٦١هـ) أول من أنشأ مدرسة نموذجية في الدولة العثمانية، وسار بعده سلاطين الدولة على نهجه، وانتشرت المدارس والمعاهد في بورصة وأدرنة وغيرهما من المدن[٢].

□ ولقد فاق محمد الفاتح أجداده في هذا المضمار، وبذل جهودًا في نشر العلم، وإنشاء المدارس والمعاهد، وأدخل بعض الإصلاحات في التعليم، وأشرف على تهذيب المناهج وتطويرها، وحرص على نشر المدارس

---

(١) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» (ص١٥٩- ١٦٢) لأبي الحسن الندوي.

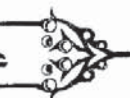
(٢) «محمد الفاتح» (ص٣٨٤) وما بعدها للرشيدي.

والمعاهد في جميع المدن الكبيرة والصغيرة، وكذلك القرى، وأوقف عليها الأوقاف العظيمة، ونظَّم هذه المدارس، ورتَّبها على درجاتٍ ومراحل، وحدَّد العلوم والمواد التي تدرس في كل مرحلة، ووضع لها نظام الامتحانات فلا ينتقل طالب من مرحلة إلى أخرى إلَّا بعد إتقانه لعلوم المرحلة السابقة، وخضوعه لامتحان دقيق، وكان السلطان الفاتح يتابع هذه الأمور ويشرف عليها، وأحيانًا يحضر امتحانات الطلبة، ويزور المدارس بين الحين والحين، ولا يأنف من استماع الدروس التي يلقيها الأساتذة، وكان يوصي الطلبة بالجد والاجتهاد، ولا يبخل بالعطاء على النابغين من الأساتذة والطلبة، وجعل التعليم في كل مدارس الدولة بالمجان، وكانت المواد التي تُدَرَّس في تلك المدارس هي: التفسير، والحديث، والفقه، والأدب، وعلوم اللغة، والهندسة، والرياضة، وعلوم الفلك.. إلخ [1].

□ كما أنشأ بجانب مسجده الذي بناه بالقسطنطينية ثماني مدارس على كل جانب من جوانب المسجد، وأربعة مساجد يتوسطها صحن فسيح، وفيها يقضي الطالب المرحلة الأخيرة من دراسته، وكانت مدارس المرحلة الأولى تدرس: مبادئ العلوم الدينية، والرياضيات والطبيعة، علاوة على حفظ أجزاء من القرآن، وتسمى في مجموعها «دروس الخارج»، والمرحلة الثانية كانت تدرس مقاصد هذه العلوم، ولا سيما الفقه، ويضاف إليها مواد التاريخ الإسلامي واللغة العربية، وهي في مجموعها عموميات

---

(١) انظر: «أبو الفتح السلطان محمد الثاني وحياته العدلية» علي همت بركي -تعريب: محمد إحسان- (ص٨٤- ٩٣).



ومدخل للتخصيص، ويمكن لخريج المرحلة الثانية تولي الوظائف البسيطة، أما الطالب الذي كان يريد إكمال التعليم، فإنه يلتحق بالمرحلة العلمية الثالثة، وهي بمثابة «إعداد» للمرحلة الأخيرة، حيث يدرس على يد علماء متخصصين في العلوم العالية المقررة فيها، حتى إذا أتم الدراسة بنجاح تمكن من دخول المرحلة الرابعة «الصحن».

ومدارس الصحن هي بمثابة جامعة علمية كبرى، تتكون من المدارس الثماني المبنية حول جامع الفاتح، وبجوارها المدارس الموصلة للصحن، وهي ثماني مدارس أخرى.

وأُلحِقَت بهذه المدارس مساكنُ للطلبة ينامون فيها، ويأكلون فيها طعامهم، وخُصِّصَت لهم منحة مالية شهرية، وكان الموسم الدراسي طول السنة في هذه المدارس، وأنشأ بجانبها مكتبة خاصةً، وكان يشترط في الرجل الذي يتولى أمانة هذه المكتبة أن يكون من أهل العلم والتقوى متبحرًا في أسماء الكتب والمؤلفين، وكان المشرف على المكتبة يعير الطلبة والمدرسين ما يطلبونه من الكتب بطريقة منظمة ودقيقة، ويسجل أسماء الكتب المستعارة في دفتر خاص، وهذا الأمين مسؤول عن الكتب التي في عهدته، ومسؤول عن سلامة أوراقها، وتخضع هذه المكتبة للتفتيش كل ثلاثة أشهر على الأقل(١).

وكانت مناهج هذه المدارس تتضمن نظام التخصيص، فكان للعلوم النقلية والنظرية قسم خاص، وللعلوم التطبيقية قسم خاص أيضًا، وكان الوزراء والعلماء من أصحاب الثروات يتنافسون في إنشاء المعاهد

---

(١) «السلطان محمد الفاتح» (ص١٥٨) الرشيدي.

والمدارس والمساجد والأوقاف الخيرية [١].

اهتمام السلطان محمد الفاتح بالعلماء:

لقد كان للعلماء والأدباء مكانة خاصة لدى محمد الفاتح، فقرَّب إليه العلماء ورفع قدرهم، وشجَّعهم على العمل والإنتاج وبذل لهم الأموال، ووسَّع لهم في العطايا والمنح والهدايا؛ ليتفرغوا للعلم والتعليم ويكرمهم غاية الإكرام ولو كانوا من خصومه؛ فبعد أن ضم إمارة القرمان إلى الدولة أمر بنقل العمال والصناع إلى القسطنطينية غير أن وزيره روم محمد باشا ظلم الناس، ومن بينهم بعض العلماء وأهل الفضل، ومن بينهم العالم أحمد جلبي ابن السلطان أمير علي، فلما علم السلطان محمد الفاتح بأمره اعتذر إليه، وأعاده إلى وطنه مع رفاقه معززًا مكرمًا [٢].

وكان السلطان محمد الفاتح لا يسمع عن عالم في مكانه أصابه عوز وإملاق إلَّا بادر إلى مساعدته وبَذَلَ له ما يستعين به على أمور دنياه.

وكان من عادة الفاتح في شهر رمضان أن يأتي إلى قصره بعد صلاة الظهر بجماعة من العلماء المتبحرين في تفسير القرآن فيقوم في كل مرة واحدٌ منهم بتفسير آيات من القرآن الكريم وتقريرها، ويناقشه في ذلك سائر العلماء ويجادلونه، وكان الفاتح يشارك في هذه المناقشات ويشجع هؤلاء بالعطايا والهدايا والمكافآت المالية الجزيلة.

---

(١) «البدر الطالع» (١/ ٤١) الشوكاني.

(٢) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص٢٤٧) لمحمد حرب، «محمد الفاتح» (ص٣٩٦) لعبد السلام فهمي.

اهتمامه بالترجمة:

كان السلطان محمد الفاتح متقنًا للغة الرومية، ومن أجل أن يبعث نهضة فكرية في شعبه أمر بنقل كثير من الآثار المكتوبة باليونانية واللاتينية والعربية والفارسية إلى اللغة التركية، من ذلك كتاب «مشاهير الرجال» لبلوتارك، ونقل إلى التركية كتاب «التصريف في الطب» لأبي القاسم الزهراوي الطبيب الأندلسي مع زيادات في صور آلات الجراحة، وأوضاع المرضى أثناء إجراء العمليات الجراحية.

وعندما وجد كتاب بطليموس في الجغرافيا وخريطة له قام بمطالعته ودراسته مع العالم الرومي «جورج أميروتزوس»، ثم طلب إليه الفاتح وإلى ابنه «ابن العالم الرومي» -الذي كان يجيد اللغتين: الرومية والعربية- ترجمة الكتاب إلى العربية، وإعادة رسم الخرائط، مع التحقيق في أسماء البلدان وكتابتها باللغتين: العربية والرومية، وكافأهما على هذا العمل بعطايا واسعة جمَّة، وكان العلامة علي القوشجي وهو من أكبر علماء عصره في الرياضيات والفلك كلّما ألَّفَ كتابًا بالفارسية نقله إلى العربية وأهداه إلى الفاتح [١].

ودعم الفاتح حركة الترجمة والتأليف لنشر المعارف بين رعاياه بالإكثار من نشر المكاتب العامة، وقد كون الفاتح مكتبة خاصة في قصره غنية بنوادر الكتب، وروائع الآثار، فيها ١٢ ألف مجلد من مختلف اللغات «العربية والتركية والفارسية واليونانية..»، بالإضافة إلى المكتبات الأخرى الملحقة بمدارس الصحن، ومدرسة أيا صوفيا، وسار على هذا النهج

---

(١) «محمد الفاتح» للرشيدي (ص٤١٣).

وزراؤه، ثم السلاطين الآخرون من بعده، حتى أصبحت استانبول من أغنى العواصم الإسلامية بروائع الكتب والآثار الإسلامية، لحرص السلاطين والوزراء على اقتناء الكتب القيمة من أطراف العالم الإسلامي، وتكوين مكتباتهم الخاصة بالجوامع الكبرى، ولا تزال هذه المكتبات تحتفظ بأكبر قدر من روائع المخطوطات العربية [١].

اهتمامه بالعمران والبناء والمستشفيات:

كان السلطان «محمد الفاتح» مغرمًا ببناء المساجد والمعاهد والقصور والمستشفيات، والخانات والحمامات، والأسواق الكبيرة، والحدائق العامة، وقد أدخل المياه إلى القسطنطينية بواسطة قناطر خاصة، وقد حرص على تشجيع الوزراء وكبار رجال الدولة والأغنياء والأعيان على تشييد المباني وإنشاء الدكاكين والحمامات، وغيرها من المباني التي تعطي المدن بهاءً ورونقًا.

وقد اهتمَّ الفاتح بالعاصمة القسطنطينية -التي غيَّر اسمها إلى إسلام بول «استانبول الآن»- اهتمامًا خاصًا من أجل أن يجعلها أجمل عواصم العالم، وحاضرة العلوم والفنون.

وفي عهده كَثُرَ العمران وانتشر، فاهتمَّ بدُورِ الشفاء، ووضع لها نظامًا مثاليًّا في غاية الروعة والدقة والجمال، فقد كان يعهد بكل دار من هذه الدور إلى طبيب -ثم زيد إلى اثنين من حُذَّاق الأطباء من أي جنس- كان يعاونهما كحّال -أي: طبيب عيون- وجراح وصيدلي وجماعة من الخدم والبوابين، ويشترط في جميع المشتغلين بالمستشفى أن يكونوا من ذوي

(١) «السلطان محمد الفاتح بطل الفتح الإسلامي» (ص٨٣) لسيد رضوان.

القناعة والشفقة والإنسانية، ويجب على الأطباء أن يعودوا المرضى مرتين في اليوم، وأن لا تُصرَف الأدوية للمرضى إلَّا بعد التدقيق من إعدادها، وكان يشترط في طباخ المستشفى أن يكون عارفًا بطهي الأطعمة والأصناف التي توافق المرضى منها، وكان العلاج، والأدوية في هذه المستشفى بالمجان ويغشاها جميع الناس بدون تمييز بين أجناسهم وأديانهم[1].

وهكذا، لم يكن للنهضة أن تتم، ولا للفتح أن يكتمل إلَّا بتضافر تلك الجهود، مع الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، والأخذ بالعلم والنهضة بأبناء الأمة نهضة علمية حقيقية، لا تقتصر على جانب علوم الشرع فحسب، بل تأخذ علوم الحياة -من طب وهندسة وغيرها- سبيلًا إلى رقيها وتقدمها..»[2].

سليمان القانوني لله دره:

«قد جمعت الإمبراطورية العثمانية في عهد سليمان القانوني الكبير بين السيادتين البرية والبحرية، وبين السلطتين السياسية والروحية.

بلغت حدود الدولة العثمانية على ملك سليمان الطونة والصاوة «النهرية» في الشمال ونبع النيل والمحيط الهندي في الجنوب وسلسلة جبال القفقاس في الشرق وجبال أطلس في الغرب وهي مساحة تزيد على ٤٠٠ ألف ميل مربع.

وكان الأسطول العثماني مؤلفًا مما يزيد على ٢٠٠٠ مركب حربي، وكان القسم الشرقي من بحر سفيد وبحر الأدرياتيك ومرمرة وأزاق

---

(١) «السلطان محمد الفاتح» (ص١٥٤).

(٢) «العلم وبناء الأمم» (ص٤٢١ - ٤٢٧).

والأسود والأحمر وفارس في حوزته وتحت سيطرته.

□ يقول الأستاذ «برناد لوئيس» المؤرخ المختص في تاريخ تركيا في كتابه «استانبول»: «ويعتبر، بحق حكم سليمان (١٥٢٠- ١٥٦٦م) المعروف عند الاتراك بـ «القانوني» -«الذروة في قوة العثمانيين ومجدهم».

«وامتدت رقعة الإمبراطورية في أوروبا بعد انتصارات جديدة، كما تأسست القوة البحرية العثمانية في شرقي البحر الأبيض المتوسط بعد الاستيلاء على جزيرة رودس (Rhodes) في ١٥٢٢م وفتح واخضاع بلغراد في ١٥٢١م والانتصار العظيم في معركة (موهاكس Mohacs) الطريق لفتح المجر، والصراع المرير المتواصل مع (آل هبسبرج Hapsburgs) للسيادة على أوروبا الوسطى»[1].

□ «وفي سنة ١٥٢٩م حاصر جيش عثماني مدينة فيينا، وفي سنة ١٥٣٧م حاولت قوة عثمانية صغيرة طرد البرتغاليين عن مجر الهند، وفي سنة ١٥٥٣م قاد السلطان سليمان جيشًا إلى إيران وفي ١٥٥٥م حاول أسطول عثماني الاستيلاء على مالطة، ولم يدرك أحد لزمن طويل أن كل هذه الانجازات كانت أعلى مد للتيار العثماني»[2].

□ «ورافق توسع الإمبراطورية وقوتها العسكرية اقتصاد متين وإدارة دقيقة وثقافة غنية رفيعة»[3].

□ «وظلت الإمبراطورية العثمانية بعد وفاة سليمان بأكثر من قرن قوة

(١) كتاب «استانبول» (ص٤١- ٤٢).
(٢) المصدر السابق (ص٤٣- ٤٤).
(٣) نفس المصدر.

جبارة، وكانت قادرة في سنة ١٦٨٣م أن تقوم بالحملة الثانية العظيمة على فيينا»(١).

□ «وفي رسالة قدمها (كوجوبيك Kochubey) إلى السلطان مراد الرابع في ١٦٣٠م يدعى الكاتب أنه منذ عهود خلفاء الإسلام الأوائل لم تكن هناك أية سلالة من الحكام أكثر ولاء وإخلاصًا للإسلام من السلاطين العثمانيين، ولا أبدت أية منها احترام مبادئ الشريعة الإسلامية وعلمائها ما أبدى هؤلاء السلاطين، وليست في هذه الدعوى أية مبالغة، فالاعتبار الديني العميق -لمبادئ الشريعة وعلمائها- عند السلاسلات التركية والمشاهد عند السلاجقة العظام فيما قبل، قد استمر وازداد في حكم العثمانيين، وسبق السلاطين العثمانيون جميع أسلافهم في جعل الشريعة القانون الفعلي للبلاد، ويبدي سلوك أحسنهم شعورًا عميقًا بالواجب نحو أمانة دينية مقدسة»(٢).

ودخل كل مدينة شهيرة في العالم القديم ما عدا رومة في ضمن حدود الدولة العثمانية (٣)، وكانت أوروبا كلها ترتعد منهم فرقًا، ويدخل ملوكها الكبار في ذمة ملوكهم، ويمسك أهل الديار عن قرع أجراس كنائسهم احترامًا للترك إذا نزلوا بها -وأمر البابا أن يحتفل بعيد، وأن تقام صلوات الشكر مدة ثلاثة أيام لما أتاه نعي محمد الفاتح.

ثالثًا: كانوا في أحسن مركز للقيادة العالمية، كانوا في شبه جزيرة

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر (ص ٥٠- ٥١).

(٣) فلسفة التاريخ العثماني» لمحمد جميل بينهم (ص ٢٨٠- ٢٨١).

البلقان بحيث يشرفون منها على آسيا وأوروبا، وكانت عاصمتهم واقعة بين البحرين الأسود والأبيض، وواصلة بين البرين بين آسيا وأوروبا، فكانت خير عاصمة لأكبر دولة تحكم على آسيا وأوروبا وأفريقية، حتى قال نابليون: «لو كانت الدنيا دولة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها».

وكانت أوروبا لها الخطر الكبير والشأن العظيم في المستقبل القريب، تزخر فيها القوى الحيوية وتجيش في صدورها عوامل الرقي، فكان في استطاعة الترك -لو وفق الله- أن يتقدموا في ميدان العلم والعقل ويسبقوا أمم أوروبا النصرانية ويصبحوا أئمة العالم يقودونه إلى الحق والهدى قبل أن تملك أوروبا زمام العالم وتقوده إلى النار والدمار.

انحطاط الأتراك في الأخلاق وجهودهم في العلم وصناعة الحرب:

ولكن من سوء حظ المسلمين – فضلًا عن سوء حظ الأتراك- أخذ الترك في الانحطاط والتدلي، ودب إليهم داء الأمم من قبلهم: الحسد والبغضاء واستبداد الملوك وجورهم وسوء تربيتهم وفساد أخلاقهم وخيانة الأمراء وغشهم للأمة وإخلاد الشعب إلى الدعة والراحة، إلى غير ذلك من أخلاق الأمم المنحطة مما هو مبين في كتب التاريخ التركي، وليس هذا موضع تفصيله، وكان شر ما أصيبوا به الجمود في العلم والجمود في صناعة الحرب وتنظيم الجيوش، وقد نسوا قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ [الأنفال: ٦٠]. إلخ.

• وقول النبي ﷺ: «**الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق**

بها»[١]، وكان خليقًا بهم -لحرج مركزهم السياسي والجغرافي، وقد أحاطت بهم الدولة الأوربية إحاطة السوار بالمعصم- أن يجعلوا وصية القائد الإسلامي الكبير عمرو بن العاص رضي الله عنه للمسلمين في مصر نصب أعينهم: «واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم وتشوف قلوبهم إليكم وإلى داركم»، ولكن الترك وقفوا وتقدم الزمان، وتخلفوا وسبقت الأمم الأوربية»[٢].

---

(١) لا يصح عن النبي ﷺ.

(٢) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» (ص١٦٢ - ١٦٥).

«ولكن الإسلام لا بواكي له» : وا إسلاماه.. وا إسلاماه :

وما تزالُ بعيني ألف مُبكِيَةٍ :

ارتبطت الحضارة الإسلامية في أوج ازدهارها وسُمُوِّ قمَّتها بتمسك المسلمين بدينهم، وشدة اتباعهم لنبيهم ﷺ، والسير على منهاج سلف الأمة من القرون الخيرية من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، فارتبطت هذه الحضارة بتمسك المسلمين بدينهم.. ثم حدث بعد ذلك ما يُدْمي العيون ويُبْكي القلوب، وغفل المسلمون عن دينهم، وتركوا وراءهم ظهريًّا القرآن والسُّنَّة فكان تخلفهم وانحطاطهم.. فصاروا أحط الناس في الأخذ بأسباب الحياة وعلومها.

الإسلام المُفترى عليه :

ومن عجب أن يتكلم بعض العلمانيين السفهاء عن عمدٍ وتزوير بَيِّنٍ، فيقول نابحهم فُضَّ فوه أن الإسلام هو البليَّة، وأن تخلُّف المسلمين راجع إلى دينهم وتمسكهم بالثوابت من أمور دينهم وهذا يفتري الكذب، ويزوِّر الحقائق ويقلب الموازين..

يـا نـاطح الجبـل العـالي لتُكْلِمَـه ... أشفقْ على الرأس لا تشفق على الجبل

□ أو كما قال القائل:

مـا يـضرُّ البحـرَ أمـسى زاخـرًا ... أنْ رَمَـى فيـه غـلامٌ بحجَـر

□ أو القائل:

قد تُنكِر العينُ ضوءَ الشمس من رَمَدٍ ... ويُنكِر الفمُ طعم الماء من سَقَمِ

◻ هذا لَيٌّ لحقائق التاريخ، وكُره واضح للإسلام الجميل..

خفافيش أعـشاها النهـار بـضوئه ولاءمهـا قِطْـعٌ مـن الليـل باديـا

وأي منصف قارئ للتاريخ سابر لأغواره يقول: «إن مجد المسلمين وعلو شأنهم في حياتهم ارتبط بتمسكهم بدينهم، ولما بعدوا عنه صاروا في آخر ركب الأمم المتحضرة، وأن الإسلام عنوان فلاحهم وأنهم ما أرادوا الرُّقِيّ عليهم أن يعودوا إلى دينهم ويتمسكوا بأهدابه.

◻ إن الذي جهل شموليَّة الإسلام وقدرته على رقي أمتهُ أَسَفَّ وولَّى وجهه قبل البيت الأبيض أو الكرملين.. وسماؤه أقدام الغرب الكارهة الكريهة عليه أن يُقوِّم من جديدٍ درجه انتمائه إلى الإسلام العزيز الرَّفيع..

إذا أنـت غُمَّـت عليـك الـسماءُ وضَـلَّت حواسُّـك عـن صُـبْحها

فَعِـــش دودةً في ظـــلام القبـــورِ تغـــوصُ وتـــسبَحُ في قَيْحِهـــا

فساد البدايات دالٌّ على فساد النهايات.. وجَهْل بَيِّن بشمول الإسلام وواقع المسلمين المُر:

إنَّ نظرة متأنيّة إلى واقع المسلمين اليوم تبعث على الأسى «فمع ازدهار الصحوة الإسلامية، وشيوع الالتزام بين صفوف المسلمين، وبالذات طائفة الشباب، ترسَّخ في أذهان الكثيرين حب العلم وطلبه، والبحث عنه وبذل الوقت له. وكل هذا ولا شك أمر محمود، ونتيجة طبيعية لعودة المسلمين إلى ربهم وإلى دينهم.

لكن بقيت نقطة أشعر أنها ما أخذت المساحة الكافية من تفكير شباب الصحوة، وما فُرِّغت لها الأوقات كما فُرِّغَت لغيرها، مع أن هذه النقطة

من أهم النقاط التي تنفع في بناء الأمم، وتفيد في تشييد الحضارات..

وهذه النقطة هي الاهتمام بعلوم الحياة، والتفوق والإبداع فيها..

وعلوم الحياة -كما أشرنا قبل ذلك- هي العلوم التي تُصلح حياة البشر على الأرض، والتي تهتدي إليها الناس بعقولهم وتجاربهم ومشاهداتهم، ويستطيعون من خلالها عمران الأرض وإصلاحها وتسخير إمكانياتها، وهي مثل علوم الطب والهندسة والفلك والكيمياء والنباتات والحيوان، وغير ذلكم من العلوم التي تشمل الماديات المبثوثة في الكون، والتي يحتاج إليها البشر في إصلاح «حياتهم» على هذا الكوكب..

وتلك العلوم هي التي يقصدها الغرب، وهي التي يعنونها دائمًا حين يكون الحديث عن مطلق العلم..

ولو قامت الأمة الإسلامية بدورها في هذا المجال «الاهتمام بالتوازن بين العلوم، والربط بين العلم الشرعي والعلم الحياتي» حكومة وشعبًا جماعات وأفرادًا، ما افتقرت أبدًا إلى غيرها ولقامت معتمدة على سواعد أبنائها، وهذا -ولا شك- يرفع من قيمتها ويعز شأنها.

وقد تعددت الشواهد والملاحظات المهمة التي تبين سوء الوضع العلمي الذي تعيشه الأمة الإسلامية، ومدى ما وصل إليه حالها فيه، وهي كلها ناتجة عن عامل واحد، هو إهمال المسلمين لعلوم الحياة.

ولعل في الملاحظات التالية دليلًا على القصور غير المقبول الذي وصل إليه المسلمون الآن.

الملاحظة الأولى:

بدراسة أحوال العاملين في حقل الدعوة في الجامعات الإسلامية في

أكثر من بلد إسلامي، يُلاحَظ أن نسبة المتفوقين دراسيًّا في أوساط الدعوة نسبة قليلة بصورة لافتة للنظر، وأن الطالب الملتزم بدعوته وبرسالته الإسلامية يرتب أموره بصورة تضع التحصيل الدراسي والتفوق العلمي في أخريات أولوياته، وهذا لشعوره واعتقاده الدائم بأنه يجب عليه أن يُضحِّي بعلومه الدراسية ومناهجه البحثية من أجل الدين، فيُعطي -مثلًا- حلقةَ تحفيظ القرآن أولويةً عن محاضرة علمية، ويعطي موعظة تُقال في مدرّج أولويةً عن موضوع علمي يلقيه في فصل دراسي أو في مجموعة علمية، ويعطي قراءةً في كتاب تفسيرٍ أو فقهٍ أو حديثٍ أولويةً عن قراءةٍ في كتاب كيمياء أو فيزياء أو رياضيات، ويهتم بحضور دروس العلم للمشايخ والقراء، ولا يهتم بحضور الدوريات أو الندوات العلمية، أو المؤتمرات المتخصصة في مجاله مثلًا!!

وهذه ليست ملاحظة عابرة، أو حالات فردية، أو مشكلة محلية، إنما تكاد تكون هي الأصل بين أوساط الشباب العاملين في حقل الدعوة في الجامعات الإسلامية، وهذا أمر يحتاج -ولا شك- إلى وقفات ووقفات.

ومثل هذا الحديث ليس من قبيل الإحباط أو اليأس، وإنما هو محاولة لتشخيص الأمراض برصد الظاهر والحقائق، ثم وصف العلاج بعد ذلك، والأمر يحتاج إلى مصارحة، ووقوف على مواطن الداء.

ومما زاد من أهمية هذه الملاحظة وإبراز دورها بين أهم المشاهدات التي تبين إهمال المسلمين لهذا الجانب الحياتي من العلوم، وأنهم لم يعطوه حقه بالصورة الكافية، أنه ترتب عليها خشـية كثير من الطلاب المتفوقين -الذين ليست لهم وجهة إسلامية- من الالتزام أصلًا؛ وذلك لئلا

يُصبِحوا مثل كثير من الأمثلة الدعوية، الذين هم مُتردُّون دراسيًّا، ومتعثِّرون علميًّا.

وقد تحدثت كثيرًا مع بعض الشباب المتفوق دراسيًّا، ولكنه بعيد عن آداب الإسلام وسلوكه، فكان يقبل كلامي عن الإسلام، وعلاقته بالعلم، وحضِّه عليه، وتزكيته لأهله، ولكن كان هذا القبول منه مجرد قبول نظري غير واقعي، وقد رصدته وهو يقول لي بلسان الحال، أو بلسان المقال: إن هذه قواعد غير قابلة للتطبيق؛ لأن ما أراه حقيقة هو خلاف ما تتحدث عنه!! وإلَّا فكيف تفسر حصول الطلاب الإسلاميين على تقديرات متدنية، بينما يتصدر قائمة المتفوقين شبابٌ لا يضعون الإسلام منهجًا واضحًا لحياتهم، بل قد يكونون من غير المسلمين أصلًا؟! إنها معضلة تحتاج حقًّا إلى وقفات!!»[1].

الملاحظة الثانية:

هناك خللٌ في فهم احتياجات الأمة الإسلامية، وطرق الإنفاق على وجوه الخير المختلفة، فتجد أن كثيرًا من أصحاب رؤوس الأموال قد يُنفقون على الفقراء والمساكين، ولكن لا ينفقون على طلبة العلم، وخاصة المغتربين منهم، والذين يعانون معاناة شديدة، ويحتاجون إلى تفرغ لجمع وتحصيل العلم.

ونجد أن بعض الأثرياء -مثلًا- يتبعون العمرة بعمرات عديدة، ومنهم من يوالون الحج عامًا بعد عام، ثم هم لا يفكرون في إنفاق المال في حضور مؤتمر علمي متخصص في مجال كالطب أو الهندسة أو الفلك أو

(١) «العلم وبناء الأمم» (ص٢٣- ٢٥).

غيره، مما هو في مجال تخصصه وصميم عمله.

وقد تجد بعضهم يفكر في إنشاء معهدٍ ديني أو دار تحفيظ للقرآن، ولكنه لا يفكر في إنشاء مركزٍ لتعليم الكمبيوتر، أو مكتبة علمية حديثة، أو شبكة معلومات، أو جامعةٍ علميّةٍ متخصصة.

بل إني رأيت كثيرًا من المسلمين في بلاد الغرب يحرصون على بناء مسجدٍ في بلدةٍ قد يكون فيه عشرة مساجد أو يزيد، ولكنهم لا يحرصون علي بناء مدرسةٍ في نفس البلد، رغم افتقارها إلى مدرسةٍ واحدةٍ متخصصة!!

وهذا الخلل -لا شك- مردُّه عدم فقهٍ لمفهوم العمل الخيري في الإسلام؛ فالعمل الخيري عندهم مرتبط بالشعائر والعلوم الشرعية فقط، أما أمور إعمار الأرض وعلوم الحياة فهو مما يقع في مرتبة متأخرة جدًّا في الأولويَّات، أو لعله لا يقع في الأولويات أصلًا!!

الملاحظة الثالثة:

تفشِّي الأمية بصورة كبيرة في بلدان العالم الإسلامي.. وهو ما يعني غياب قضية العلم أصلًا، أو أنها ليست مطروحة بالمرة.

ففي مصر -على سبيل المثال- وصلت نسبة الأمية في الفئة فوق سن الخامسة عشرة ٢٩,٦٪ وهذا يعني أن من بين كل عشرة مصريين ثلاثةً تقريبًا لا يعرفون القراءة ولا الكتابة!! [(١)].

ويعني أيضًا أن ما يقرب من ثلث المجتمع المصري الذي يقع عليه

---

(١) «تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٦م، والمنشور على موقع المنظمة على شبكة الإنترنت» صفحة مصر.

واجب الإنتاج لا يقرأ ولا يكتب، وخاصة ونحن نواكب عصر الفضاء والأقمار الصناعية والتكنولوجيا متناهية التعقيد..!!

كما يعني ذلك أيضًا -فيما يعني- أن هذه النسبة الخطيرة لا تقرأ الجرائد ولا تعرف المجلات، بل لم تمسّ المصحف الشريف أصلًا..!!

أمَّا الغريب، فحين نعلم أن هذه النسبة ليست بمعزل عنَّا، وإنما تعيش بيننا وفي محيطنا، ومع ذلك فلا تجد أهل الخير حريصين على تعليمهم أو الإنفاق على تعليمهم، وكأن القضية مهمشة تمامًا في حياتنا!!

وحتى نعي خطورة وفداحة هذا الرقم، فيكفي أن نعلم أن نسبة الأمية في إسرائيل تبلغ ٢,٩٪ فيما فوق ١٥ سنة!! [(١)].

وفي الفئة العمرية من سن ١٥ إلى ٢٤سنة ، وهي فئة الشباب، والتي هي أمل الأمة عليها بناؤها، فتبلغ نسبة الأمية بينها في مصر ١٥,١٪ في مقابل ٠,٢٪ لإسرائيل في هذه الفئة نفسها..!!.

ومثل هذا لا ينطبق على مصر فقط، بل وعلى معظم البلدان الإسلامية الأخرى؛ إذ أنَّ نسبة الأمية فيها قريبة جدًّا من النسبة في مصر، بل وأحيانًا كثيرة تكون أعلى منها، وذلك كما في المغرب -مثلًا- حيث تبلغ نسبة الأمية فيها في فئة الشباب ٣٠٪ أي ضعف التي في مصر، وفي فئة الكبار تبلغ ٤٨٪ وهذه كارثة بكل المقاييس!! [(٢)].

وإذا جئنا إلى موقف الإناث في مصر أيضًا -كمثال للبلدان

---

(١) «تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٦م والمنشور على موقع المنظمة على شبكة الانترنت» صفحة إسرائيل.

(٢) المصدر السابق.

الإسلامية- وجدنا أن نسبة الأمية بينهن وصلت إلى ٤١٪ في مقابل ٤٪ فقط لمثيلاتهن في إسرائيل!![1].

ومثل هذه الإحصائيات تُعطي انطباعًا عما يكون عليه المستقبل في مصر مثلًا، وكذلك البلدان الإسلامية الأخرى، مع العلم بأن هذه النسبة من الشباب الذين لا يقرؤون ولا يكتبون قلما تجدهم يعرفون قيمة العلم، ومن ثم لا يحرصون على تعلمه، وفي الأغلب الأعم لن يدفعوا أولادهم مستقبلًا إليه، وسيزداد الوضع بالنسبة لهم سوءًا على سوء.

إن تعليم مثل هؤلاء القراءة والكتابة لهو من أبلغ وأهم مجالات الدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وهو بابٌ يحتاج لمزيدٍ من الفكر والجهد، كما ينتظر من أهل الخير أن ينفقوا عليه بسخاء، وذلك عن طريق كفالة المعلمين الذين يقومون على تعليم هؤلاء الأميين، وإنها -والله- لنقلة نوعية للأمة، يوم يتقن جميع أبنائها القراءة والكتابة، بل علوم الدنيا والدين.

وقد يبدو لنا أن تعليم القراءة والكتابة أمر صعب قد يطول وقته، وتتعدد جلساته، ولكن هذا ليس صحيحًا بالمرة؛ وقد حكى لي أحد من أعرفهم أنه جلس مع اثنين من حرَّاس العمارات في المنطقة التي يقطنها، وفي خلال شهر واحد، بثمانية لقاءات تقريبًا لمدة تتراوح بين الساعة والساعتين، أصبحوا يتقنون اللغة العربية قراءة وكتابة..!![2].

الملاحظة الرابعة:

من الملاحظات المزعجة حقًّا والمحزنة جدًّا، ظاهرة هجرة العقول

---

(١) المصدر السابق.

(٢) «العلم وبناء الأمم» (ص٢٦- ٢٩).

الإسلامية إلى الغرب، فيما يُعرَف بظاهرة «استنزاف العقول»، فالدول الغربية بصفة عامة -وأمريكا بصفة خاصة- تحرص على استقطاب العقول المفكرة والمبدعة علميًّا من شتي بقاع الأرض، ومنها - بالطبع- بلاد المسلمين[(١)].

وبنظرة متفحصة في ظاهرة هجرة العقول العربية الإسلامية إلى الغرب، تجد - على سبيل المثال- أن ٥٠٪ من الأطباء العرب المسلمين يهاجرون إلى أمريكا وأوروبا هجرة نهائية، ليصبحوا بذلك ركنًا أساسيًا في نهضة المشروع الأمريكي الأوروبي الطبي، بينما ينزوي المشروع الإسلامي مع مرور الوقت، وليس هذا في مجال الطب فقط؛ فالإحصائيات تقول: إن ٢٣٪ من المهندسين و١٥٪ من العلماء من مجموع الكفاءات العربية المتخرجة يهاجرون متوجهين إلى أوروبا والولايات المتحدة، وكندا بوجه خاص، بل إن في بريطانيا وحدها تبلغ نسبة الأطباء من أصول عربية ٣٤٪ من مجموع الأطباء هناك!![(٢)].

وقد أثبتت دراسة أجريت على الطلاب العرب الذين يسافرون لتحصيل العلم من أوروبا وأمريكا أن ٥٤٪ منهم لا يعودون إلى بلادهم!! وبهذا وصل عدد العرب الذين يستقرون في أوروبا وأمريكا من حملة الشهادات المؤهلة العليا حتى سنة ٢٠٠٠ إلى ٤٥٠ ألف عربي!![(٣)].

---

(١) موقع البلاغ على الانترنت مقال بعنوان «العقول المهاجرة بين الاستنزاف والاستثمار».

(٢) «مجلة البرلمان العربي»- السنة الثانية والعشرون- العدد الثاني والثمانون- ديسمبر ٢٠٠١م.

(٣) مجلة البرمان العربي- المصدر السابق.

مع ملاحظة أن كل الإحصائيات السابقة على العرب وليست على عموم المسلمين، مع أن العرب لا يمثلون أكثر من خمس العالم الإسلامي، فإذا أضفت المسلمين غير العرب، فإن الإحصائيات ستصل -بلا شك- إلى أرقام مفزعة، وبالأخص إذا كان هناك دول إسلامية غير عربية اشتهر أبناؤها بالهجرة إلى أوروبا وأمريكا بصورة لافتة، وذلك مثل باكستان والهند وإندونيسيا وتركيا ونيجيريا وغيرها.

ويكفي للدلالة على ذلك أن نيجيريا -على سبيل المثال- صدَّرت بمفردها إلى الآن إلى أمريكا فقط أكثر من ٢١ ألف طبيب نيجيري، وذلك على مدار السنوات السابقة!![١].

وهذه الإحصائيات كلها في الظروف الطبيعية العادية، أمَّا في حال الكوارث أو الحروب أو الفتنة أو غيرها، فإن الأرقام تكون أبشع من ذلك.

فالعراق مثلًا تنزف من عقولها وعلمائها ما لا يُتخيل، وهناك في بريطانيا أكثر من ٢٠٠٠ طبيب عراقي!! ويتضح حجم الخسارة إذا علمنا أن الطبيب العراقي كان يكلف دولته في السبعينات أكثر من ٤٥ ألف دولار، فخسارة أكثر من ٢٠٠٠ طبيب عراقي إذن - وبحساب السبعينات- تعني خسارة ١٠٠ مليون دولار!! وهذا بالإضافة إلى الخسارة العلمية الناتجة عن فقد هؤلاء العلماء، وبالإضافة إلى الخسارة الصحية الناجمة عن فقد من يعالج مرضى الدولة[٢].

---

(١) موقع القنطرة: مقال بعنوان: «هجرة العقول سلبيات وايجابيات ظاهرة الهجرة».

(٢) موقع البلاغ، مقال بعنوان: «العقول المهاجرة بين الاستنزاف والاستثمار».

الملاحظة الخامسة:

مع كل المعوقات التي تواجهها أمتنا للخروج من مأزق التخلف العلمي، إلَّا أن الأعذار لاستمرار هذا التخلف غير مقبولة؛ وذلك لأننا نرى دولًا أخرى غير إسلامية مرت بظروف أمتنا نفسها أو أشد، ثم هي تخرج من كبوتها وأزمتها، وترتفع إلى مصافِّ الدول المتقدمة والمؤثرة في العالم.

والأمثلة على ذلك كثيرة ومتكررة، فهناك -على سبيل المثال- اليابان التي بدأت بعد الحرب العالمية الثانية في الخروج من الأزمة الرهيبة التي عصفت بها، وهناك ألمانيا التي أبيدت أيضًا في الحرب العالمية الثانية، وهناك كوريا الجنوبية التي لم تظهر على الساحة العالمية إلَّا منذ سنوات معدودات، وهناك كوريا الشمالية التي استطاعت أن تصنع السلاح النووي مع كل المعوقات التي تمر بها، بل هناك الهند، مع كل ما تعانيه من فقرٍ وتكدُّسٍ سكاني رهيب، فإنها قد استطاعت أن تُصنِّع السلاح النووي، واستطاعت كذلك أن تنبغ وتبرز في مجال الكمبيوتر، بل وتصبح من الدولة الأولى المرموقة في هذا المجال في العالم، ويكفي في التدليل على ذلك ملاحظة المعدلات المتنامية لصادراتها في مجال برامج الكمبيوتر؛ فقد بلغت صادرتها نحو ٢٣,٧١ مليار دولار في ٢٠٠٥- ٢٠٠٦م مقارنة بـ١٧,٢١ مليار دولار في ٢٠٠٤- ٢٠٠٥م، وتسجِّل صادرات الهند في قطاع تكنولوجيا المعلومات سنويًا نموًا هائلًا، ففي الفترة ما بين عامي ٢٠٠٥- ٢٠٠٦م سجل حجم الصادرات الهندية في هذا القطاع نموًا بنسبة

٣٧,٧٧٪ مقارنة بالفترة ما بين ٢٠٠٤ - ٢٠٠٥م[1].

□ مبدأ التخلف العلمي؛ فإنه إذا أرادت دولة إسلامية أن تصل إلى مستوى علمي لائق فإنها حتمًا ستصل، والأسباب متاحة للجميع، وليس أدل على ذلك من المثال الماليزي.. فدولة ماليزيا الإسلامية تتقدم اليوم بخطوات ثابتة رصينة في طريق العلم، وترتقي يومًا بعد يوم مع كل المعوقات التي تمر بها.

وهذه التجربة الماليزية تحتاج إلى دراسة متأنية؛ لأنها بالفعل تفتح أبواب الأمل أمام عموم المسلمين.

الملاحظة السادسة:

من الملاحظات السلبية والخطيرة كذلك -والتي تدل على إهمال المسلمين لعلوم الحياة- قضية «الإنفاق على العلم والبحوث العلمية».

فقد أورد تقرير التنمية البشرية الصادر عن منظمة الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٦م، بندًا يقيس مدى اهتمام دول العالم المختلفة بقضايا العلم، ويحدد ذلك بنسبة ما تنفقه الدولة على البحث العلمي من جملة ناتجها القومي كل عام.

وفي هذا التقرير لن نقارن الدولة الإسلامية بالدول الصناعية الكبرى، مثل أمريكا واليابان والصين وفرنسا وألمانيا وإنجلترا وغيرها وإن كان يجب أن نقارن أنفسنا بهؤلاء لنصل إلى ما وصلوا إليه، بل لنسبقهم إن شاء الله، ولكننا سنقارن بدولة لقيطة ليس لها جذور حقيقية،

---

(١) مجلة البيان (العدد ٢٤٢ ٩٨) السنة السابعة والعشرون.

ولا تملك من القيم ما يدفعها للصدارة، كما أنها قامت على أرض مضطربة مليئة بكثير من المشكلات والصعوبات والمعوقات، وتلك الدولة هي إسرائيل!!

فإسرائيل تنفق ٤,٩٪ من ناتجها القومي على العلم والإنجازات التقنية، وتُعَدُّ هذه أعلى نسبة إنفاق في العالم على العلم، ويفوق في ذات الوقت ما تخصصه كل الدولة العربية مجتمعة بنحو ثلاث مرات ونصف!![1] وهي بهذا الكم من الإنفاق تستطيع أن تصل إلى مستوى الدول المصنِّعة والمبتكرة، بل وتفوقها، وبالفعل فقد أصبح لها رصيد محترم من الاختراعات والإضافات، وفي أكثر من مجال، سواء في العلوم العسكرية، أو علوم الفضاء، أو علوم الذرة، أو العلوم الطبية، وكذلك باقي مجالات التصنيع المختلفة.

فالعلم يقع في بؤرة اهتمامها، ولذلك وصلت إلى مستوى متميز، وإلى مكانة مرموقة أما إذا نظرت إلى الدول الإسلامية، فإنك -وللأسف الشديد- تفاجأ بأن قضايا الإنجاز العلمي والتقني والابتكارات لا تقع في بؤرة الاهتمام، ولا ينفق عليها من الناتج القومي إلَّا النزر اليسير، مع أنه إذا زاد الاهتمام بالعلم فإن ذلك سيساعد على تقدم الصناعة والزراعة والاقتصاد والتصدير، وكل المجالات الأخرى، وهذا -من وجهة نظر مادية بحتة- سيقدم الأمة للأمام خطوات وخطوات، وسيصب في قوتها، ليس علميًّا واقتصاديًّا فحسب، وإنما أيضًا سياسيًّا وعسكريًّا.

ولكن - على ما يبدو- فإن القضية لا تشغل أذهان المسؤولين عن

---

(١) «تقرير التنمية البشرية الصادر عن الأمم المتحدة لسنة ٢٠٠٦م» صفحة إسرائيل.

هذه الأمة الضخمة!!

فيذكر تقرير الأمم المتحدة أن مصر – مثلًا- تنفق ٠,٢٪ من ناتجها القومي على العلم والإنجاز التقني، أي أن نسبة إنفاق إسرائيل على العلم ضعف نسبة إنفاق مصر ما يقرب من ٢٥ مرة!![(١)].

* وعليه فلا يشك أحد أن التميز اليهودي في مجال العلوم سيكون ضعف التميز المصري ٢٥ مرة، وهذه سنة ماضية فالذي يبذل في الدنيا لا بُدَّ أن يصل إلى ما يريده من غايات، كما لا بد لتحقيق نتائج معينة أن تُبذل أسباب بذاتها، حتى لو كان هذا الذي يبذل كافر ملحد.. يقول تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ [هود].

وعن بقية البلدان العربية، فإن حالها لا يختلف كثيرًا عن أحوال مصر في مجال الإنفاق على العلوم والتقنية، وهي تحوم حول النسبة نفسها تقريبًا.

فهذه الأردن ينفق ٠,٣٪ من الدخل القومي على العلم، وتونس كذلك، وسوريا تقل لتصل إلى ٠,٢٪ من جملة دخلها القومي، وتعد الإمارات أعلى الدول العربية من حيث الإنفاق على العلم؛ إذ يصل نسبة إنفاقها ٠,٦٪ من دخلها القومي[(٢)]، ومع أنها أعلى الدول العربية إلَّا أن المسافة بينها وبين إسرائيل ما زالت شاسعة.

وفي غير قضايا الإنفاق على الأبحاث العلمية، وبما يعبر عن المدى

---

(١) المصدر السابق – صفحة مصر.

(٢) المصدر السابق – صفحة كل البلدان.

الذي وصل إليه المستوى العلمي في الدول الإسلامية مقارنة بإسرائيل، فقد كشف تقريرٌ صادرٌ عن هيئة الأمم المتحدة عن حقيقة الفجوة التكنولوجية والعلمية بين العرب وإسرائيل، والتي تجسد تفوقًا علميًّا وتكنولوجيًّا إسرائيليًّا ساحقًا.

ففي حين يذكر التقرير أن لكل ١٠٠٠ مواطن إسرائيلي ٢١٧ جهاز كمبيوتر، يذكر أن في الأردن ٥٢ جهازًا لكل ألف أردني، وفي لبنان ٣٩ جهازًا لكل ألف لبناني، وفي مصر ٩ أجهزة لكل ألف مواطن مصري!![١].

وبالنسبة لعدد الباحثين العلميين في العالم العربي مجتمعًا، فإن التقرير يُشير أيضًا إلى أن لكل مليون مواطن عربي ١٣٦ باحثًا في حين أن في إسرائيل ١٦١٣ باحثًا لكل مليون يهودي يعيش في إسرائيل!![٢].

وإذا أردنا التوسع في ذكر أمثلة أخرى، فإن في أمريكا ٤٣٧٤ باحثًا لكل مليون مواطن أمريكي؛ وفي اليابان ٥٠٠٠ باحث لكل مليون مواطن ياباني[٣].

أما بالنسبة إلى نصيب المواطن في الدولة من الإنفاق على التعليم، فهو -حسب إحصائيات التقرير نفسه- في إسرائيل ٩٢٢ دولارًا سنويًّا، والمواطن الأمريكي يصرف عليه ١٠٠٥ دولارات سنويًّا، أما المواطن المصري فنصيبه ٦ دولارات سنويًّا!!

ولا تُعذَر البلاد العربية والإسلامية بفقرٍ أو بضيق في ذات اليد،

---

(١) تقرير التنمية البشرية الصادر عن الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٦م.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

ويكفي في ذلك أن نعرف أن واحدة من هذه الدول التي تشكو معاناة الفقر والتكدس السكاني، تُنفق الملايين والملايين على أمور ليست من الأولويات في شيء، وقد رأينا مؤسسة علمية ضخمة في مصر تنفق ١٥ مليون جنيه مصري على تجميل السور المحيط بها، بينما يصعب جدًّا إنفاق ألف أو ألفي جنيه مصري على مشروع بحثي مفيد!! ورأينا أيضًا من يكلف تأسيس مكتب مدير مؤسسة علمية مئات الآلاف من الجنيهات، بينما يتردد هذا المدير في الموافقة على مكافأة بسيطة لعالم كادح!!(١).

إن الإمكانيات مُتاحة والأموال موجودة، لكن المشكلة تكمن في ترتيب الأولويَّات، وفي فقه الواقع، وفي الضمير، وفي تقديم المصالح الخاصة على المصالح العامة، وفي ضعف الاعتقاد في أهمية العلم.

وخلاصة هذه الملاحظة أن قضية العلم لم تقع بعدُ في بؤرة الاهتمام في العالم العربي والإسلامي، وكان هذا -ولا شك- أحد أهم الأسباب المباشرة لحالة التخلف والتردي التي تمر بها الأمة، والأمر يحتاج إلى وقفات.

الملاحظة السابعة:

إن الأمم المتحدة -كما جاء في تقرير التنمية البشرية لسنة ٢٠٠١م- تُقسِّم العالم بحسب الإنجاز التقني إلى خمس فئات، وأُولى هذه الفئات هي مجموعة القادة، ثم القادة المحتَمَلين، ثم النشطين، ثم المُهْتَمِّين، وأخيرًا: الآخرين.

فالفئة الأولى وهي مجموعة القادة ضمت ١٨ دولة، ليس من بينهم

---

(١) «العلم وبناء الأمم» (ص٣٤- ٣٧).

دولة إسلامية واحدة، بينما تقع إسرائيل ضمن هذه الفئة الأولى!!.

أما الفئة الثانية وهي القادة المحتَملون، فقد ضمَّت -فيما ضمَّته- دولة إسلامية واحدة هي ماليزيا، بينما تقع مصر وإندونيسيا وتونس وسوريا والجزائر وإيران في فئة النشطين، أما بقية الدول العربية والإسلامية فتقع في طائفة المهمَّشين والآخرين، والذين لم يضعوا قضية العلم في حساباتهم مطلقًا.

والجدير بالذكر أن بعض هذه الدول الإسلامية تتميز بمستوى مرتفع في المعيشة، بل وارتفاع في معدلات التنمية، لكن -وللأسف- ليس لها اهتمام يُذكَر بالإنجازات التقنية.

وعند النظر إلى الدول القادة أو تلك التي يحتمل أن تصبح قادة، تدرك ولأول وهلة إلى أي مدى وضعت هذه الدول البحث العلمي في أولى حساباتها، وكيف كرَّست جهودًا مضنية للوصول إلى هذه المكانة المرموقة التي تبوأتها.

فعلى سبيل المثال فإن رجال الصناعة في مجالات الاتصالات والمعلومات، وفي مجالات تصنيع الأخشاب في دولة مثل فنلندا -وهي دولة تتفوق في هذه المجالات- يخصصون ٢٠٪ من أوقاتهم لتوريث الخبرة إلى طلاب الجامعات الفنلندية، وبذلك تستمر الدولة في طريقها نحو التفوق، ويبدأ فيها الطلاب من حيث انتهى العلماء، وتستطيع الدولة أن تحافظ على مكانتها العلمية، بل تتقدم وتسبق.

وفي دولة مثل الصين تجد أن الجامعات الحكومية تدعم مجالات البحث العلمي، ليس فقط في المشروعات الحكومية، وإنما تدعمه أيضًا

لصالح المؤسسات الصناعية في القطاع الخاص، وذلك مثل تحديث الصناعات البتروكيماوية، وتحسين الأنشطة التقليدية في مجال الزراعة، وغيرها»[١].

الملاحظة الثامنة:

وضع وترتيب الجامعات الإسلامية على مستوى العالم. فالطبيعي أن تَقَدُّم دول العالم يُقاس اليوم بقدر إسهامها في بناء الحضارة الإنسانية، وتقدم العلوم وهو دورٌ لا تقوم به إلَّا الجامعات العلمية في تلك الدول.

وعلى هذا الأساس فقد نشر معهد التعليم العالي في جامعة جياو تونج في شنغهاي بالصين تقريرًا تقييميًّا مفصّلًا حول ترتيب ومكانة أفضل خمسمئة جامعة في العالم في سنة ٢٠٠٤م، وتلاه تقرير سنة ٢٠٠٥م، ثم تقرير سنة ٢٠٠٦م [٢] وهو لا يُحابي أحدًا حتى دولته الصين.

وهذه التقارير تبرز بوضوح تلك الفجوة الهائلة في مجالات البحث العلمي والاهتمام بالإنجازات التقنية بين دول العالم الإسلامي ودول العالم الأخرى.

□ ونقف وقفة مع تقارير السنوات الثلاث السابقة نستقرئُ منها الملاحظات المهمة التالية:

- في تقرير سنة ٢٠٠٤م خَلَت الجامعات الخمسمئة من جامعة إسلامية، وفي تقرير سنة ٢٠٠٥م دخلت دولة إسلامية واحدة بجامعتين برقم ٤٠٩ و٤٦٨ على العالم، وهي تركيا..!!

---

(١) «العلم وبناء الأمم» (ص٤٠، ٤١).

(٢) نشر ترتيب الجامعات على موقع الكتروني يتبع جامعة شنغهاي.

وهذا فأل حسن، والوصول إلى القمة لن يحدث قفزة واحدة، وتركيا استحقت بالفعل أن تدخل هذا الترتيب، وتحتاج تجربتها إلى دراسة متأنية.

وبينما أصابتنا حالة من الحزن لخروج تركيا من تصنيف الجامعات الأولى في تقرير سنة ٢٠٠٦م، عوَّضتنا مصر عن ذلك بدخولها في التصنيف بجامعة القاهرة، وذلك بترتيب ٤٠٤ من أفضل ٥٠٠ جامعة على مستوى العالم[١].

- وأمريكا هي الدولة الأولى في العالم حيث عدد جامعاتها في تقرير سنة ٢٠٠٥م؛ إذ شملت القائمة ١٦٨ جامعة أمريكية، من بين العشرين الأولى فيها ١٧ جامعة أمريكية، ومن بين المئة الأولى ٥٣ جامعة أمريكية.

وتتصدر جامعة هارفارد الأمريكية الجامعات الخمسمئة، ثم جامعة ستانفورد في المركز الثالث.

- تأتي إسرائيل لتحتل المركز الثاني عشر في التقرير، متفوقة بذلك على دول كبرى مثل روسيا والصين، وذلك بسبع جامعات إسرائيلية، على رأسها الجامعة العبرية في القدس، وجاءت في المركز ٧٨، وكانت في تقرير ٢٠٠٤م في المركز التسعين، بما يعني أنها في صعود وتقدم مستمر!!

(وا إسلاماه، وا إسلاماه، وا إسلاماه).

ومثل هذه النتائج تقريبًا جاءت في تقارير معهد التعليم العالي في جامعة جياو الصينية، وتقرير مجموعة «لابوراتور يودي إنترنت» المتخصِّصة ومقرها مدريد بنتائج ترتيب أفضل ثلاثة آلاف جامعة في العالم وتكون أمريكا هي الدولة الأولى في تلك القائمة أيضًا، وقد شملت

(١) المصدر السابق.

الألف جامعة الأولى ٤٥٥ جامعة أمريكية على رأسها جميعًا جامعة كاليفورنيا.

الملاحظة التاسعة:

«وهذه الملاحظة تعم بلدان العالم الإسلامي، وهي مؤسفة جدًّا، وتكمن في عدم الاهتمام مطلقًا بالهيئة التعليمية، تلك التي تحمل مسؤولية قيادة البلاد علميًّا وتقنيًّا، وذلك بدءً من العلماء وأساتذة الجامعات، ومرورًا بكل مراحل التعليم، وانتهاء بمدرسي المدارس الابتدائية والحضانات.

والأمر – بلا شك- يعكس قيمة العلم في منظور هذه الدول.

فإذا نظرنا إلى المرتبات والأجور التي يتقاضاها العلماء والأساتذة – كواحدة من الصور التي تعكس قيمة العلم ومكانته في هذه الدول –تجد أنها لا تكفي بحال من الأحوال لسد أقل متطلبات الحياة اليومية!!.

وعليه فإن هذا العالم وذاك الأستاذ من الصعب –إن لم يكن من المستحيل- أن يبرع ويبتكر في مجاله في مثل هذه الظروف، فهو أولًا سيبحث عن عمل خارجي إضافي كي يتكسَّب منه، ويحصِّل من ورائه جزءً من المال يتقوى به على متطلبات الحياة، وكثيرًا ما يكون هذا العمل الإضافي في خارج مجاله تمامًا.

ثم هو ثانيًا لن يهتم كثيرًا بعمله في الجامعة أو المؤسسة العلمية؛ لكونه يشعر بالغبن في الأجر، ويعدم التقدير للمجهود، ومن ثَم يعطي من مجهوده ما يتناسب في تقديره والأجر الذي يتقاضاه.

ثم هو ثالثًا يشعر بالسخط وعدم الانتماء لهذه الدولة التي لم تقدِّر

جهده وسعيه وعلمه، وهذا الشعور المقيت يقتل كل نوايا الإبداع والابتكار.

وفي النهاية تراه وقد قرر الهجرة وترك الديار إلى بيئة تُقدِّره علميًّا أو ماديًّا، فإما أن يهاجر إلى أمريكا أو إلى أوروبا ليرتقي بعلمه وينبغ فيه، ويدخل بذلك ضمن المنظومة العلمية الغربية، وإما أن يبحث عن عقد عمل مجزٍ، ولو كان على حساب مجاله ولو كان في بيئة لا تهتم أصلًا بالعلم ولا تحفل به!!

ولعله من البدايات المهمة والتي يجب أن تكون نقطة انطلاق في تلك البلاد التي تريد أن يكون لها مكانة بين الدول الكبرى، أن تهتم بأجور علمائها وأساتذتها ومربِّيها، ويكفي في الإشارة إلى ذلك أن تعلم أن مرتب أستاذ الجامعة في بلد مثل مصر هو أقل من مرتب أستاذ الجامعة في أمريكا أو أوروبا الغربية بأكثر من خمسين مرة على الأقل، وأحيانًا أكثر من مئة مرة، مع أن الأسعار بصفة عامة أرخص هناك عن الأسعار في بلادنا!!

وهذا يعطي انطباعًا وخلفية عن الحالة النفسية والمادية التي يعيشها العالم هناك، مما يعني فرصًا أكبر للإبداع والتفوق والابتكار»[1].

□ ويرحم الله الشافعي القائل: «لو كُلِّفت شراء بصلة من السُّوق ما استطعت أن أعي مسألة من مسائل الفقه».

□ ورحم الله من قال: «لا تُحدِّث من ليس في بيته دقيق، فإنه مُوَلَّه العقل».

ولا مجال هنا للاعتذار والتعلل بضعف الوضع الاقتصادي في بلادنا،

---

(١) «العلم وبناء الأمم» (ص٤٩ - ٥٠).

والتحديات التي تواجهنا؛ فإن مرتب الوزير في بلادنا ومن كان في وضعه السياسي يفوق مرتب مثيله في تلك البلاد الغربية المتقدمة مرات عديدة!!

فالقضية إذن ليست قضية نقص مال، وإنما هي قضية نقص علمٍ ونقص فقهٍ وسوء تصرف، وأحيانًا كثيرة تكون نقص ضمير!!

ليسمع من له أذنان، ومن كانت عنده همَّة عالية إذا لم يتفوق المسلمون في هذه المجالات، فما البديل؟!!

إذا لم يتفوق المسلمون في هذه المجالات، فما البديل؟!!

لن يخالفني أحد إذا قلت بأن البديل في ذلك هو أن يعتمد المسلمون في هذه المجالات التي أهملوها وتخلفوا فيها على غيرهم، أو قل: على عدوهم؛ إذ هو البديل الوحيد أحيانًا!!

فهل يستقيم هذا الأمر شرعًا؟!

هل تقوم أمة على أكتاف غيرها؟! بل هل تقوم أمة على أكتاف أعدائها..؟!

أليس أمرًا يدعو إلى الدهشة والغرابة حين يضطر المسلم لكي يبدع في مهنة ما أن يسافر إلى بلاد أعدائه ليتعلم منهم، وينقل عنهم؟!

وكيف يقوم مصنع في بلد مسلم على ماكينات وقطع غيار مستوردة من بلاد عدوه؟!

وماذا يحدث لو دارت رحى الحرب بين الأمة الإسلامية وبين أعدائها هؤلاء أو حتى حدثت بينهما مقاطعات؟ هل سنوقف حياتنا انتظارًا لتحسن العلاقات مع الأعداء؟!

وأوضح من ذلك: كيف سنحارب أعداءنا إذا كنا نعتمد عليهم

اعتمادًا كليًّا في السلاح، وهم الذين يعلمون بالضبط ما قد يكون مهمًا ومؤثرًا ومتقدمًا فيمنعونه إيّانَا، وما قد يكون قليل الأهمية ضعيف التأثير والجدوى فيبيعوننا إياه؟!

إن هذا وأيم الله لهو العجب فعلًا!!

وحتى لا نكون مبالغين ولا مهوِّلين، فهذه إحدى إحصائيات سوق السلاح الدولية تشير الإحصائية إلى أن صادرات أمريكا من السلاح ما بين عام ٢٠٠٠-٢٠٠٤م بلغت ٢٥,٣٩٠ مليار دولار، وهي بذلك تعد الدولة الثانية في العالم في تصدير السلاح بعد روسيا والتي بلغت قيمة صادراتها ٢٦,٩ مليار دولار في الفترة نفسها. وأن ٥,٠٧٩ مليار دولار من إجمالي الصادرات الأمريكية من السلاح هي دول الشرق الأوسط وأفريقيا، أي من العالم العربي والإسلامي!![١].

وجوهر القضية ليس فقط في دخول هذه الأموال الطائلة الخزانة الأمريكية أو غيرها، لكن القضية الحقيقية والكارثة الملمة هي في اعتماد هذه الدول اعتمادًا أساسيًّا وكليًّا على السلاح الخارجي فقط!!

وإضافة إلى أمريكا فإن بريطانيا وحدها -كما تشير الإحصائيات أيضًا- صدرت سلاحًا بما يبلغ قمته ٤,٤٥٠ مليار دولار في الفترة نفسها، وأن ١,٠٠٤ مليار دولار تأتي من دول الشرق الأوسط وأفريقيا، أي من العالم العربي والإسلامي!!

وتشير الإحصائيات أيضًا إلى أن ٤٠٪ من صادرات فرنسا من

---

(١) «تقرير الاتجاهات الاقتصادية الإستراتيجية الصادر عام ٢٠٠٦م (ص١١٣- ١١٨) عن مركز الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية.

السلاح يتجه إلى العالم العربي!! وأن ١٨٪ من صادرات الصين من السلاح أيضًا يتجه إلى المنطقة نفسها!! وأن ١٥٪ من صادرات روسيا من السلاح يتجه كذلك إلى العالم العربي!! [١].

أما الغريب والعجيب فهو أن تكون إسرائيل هي الدولة الرابعة في العالم في تصدير السلاح، وذلك بعد أمريكا وروسيا وبريطانيا، متخطية في ذلك دولًا مثل فرنسا والصين وصربيا والتشيك وأوكرانيا!! [٢].

وتمثل صادرات السلاح في إسرائيل ٤٠٪ من إجمالي صادراتها، وهي أعلى نسبة على مستوى العالم!! [٣].

أما الدولة التي حازت نصيب الأسد من صادرات السلاح الإسرائيلي فهي الهند، العدو التقليدي لباكستان المسلمة!!

فهل مثل هذه الإحصائيات لا تمثل غضاضة أو قلقًا أو حزنًا لدى الشباب المسلم الملتزم، وكل من عنده أدنى حمية لأمته؟!

ولا يتحجج البعض بأن القضية في ذلك هي مجرد قرار سياسي؛ إذ أنه لو حدث ذات يوم وتم اتخاذ مثل هذا القرار السياسي -أعني القرار بتصنيع السلاح والاكتفاء الذاتي منه مع ما يتطلبه ذلك من مسايرة أحدث تكنولوجيا التسليح في ذلك العصر- فإننا يجب أن يكون لدينا قبل هذا

---

(١) المصدر السابق.

(٢) موقع مجلة دار الحياة تقرير بعنوان: إسرائيل الدولة الرابعة في العالم في تصدير السلاح.

(٣) موقع فلسطين المسلمة تقرير ملف الصناعة الحربية الإسرائيلية إعداد: لواء أركان حرب متقاعد حسام سويلم.

القرار العلماء الأكفاء في علوم الهندسة والذرة والكيمياء والفيزياء والطاقة وغيرها، ممن يستطيعون تصنيع السلاح الأمثل، وإلَّا أصبح قرار تصنيع السلاح هذا قرارًا لا معنى له.

ولتأكيد هذا المعنى وتوضيحه بصورة أكبر كان هناك تقريرات أخرى.

فقد أشار التقرير الاقتصادي العربي الموحد لعام ٢٠٠٦م، إلى مواصلة ارتفاع حصة الواردات العربية من الولايات المتحدة وآسيا، ومنها الصين بوجه خاص، وكانت نسبة الواردات العربية الإجمالية قد وصلت قيمتها في عام ٢٠٠٥م إلى ٣١٤,١ مليار دولار..!!

والجانب الأعظم من الواردات العربية يعتبر من الولايات المتحدة، وأهم ما يُستورَد منها: العدد والآلات ووسائل النقل المختلفة، حيث تستحوذ على ٦٠٪ من إجمالي هذه الواردات، ويليها في الأهمية السلع الغذائية مثل القمح واللحوم، وتمثل حوالي ١٥٪، ويأتي في المرتبة الأخيرة المشروبات الغازية والتبغ ومنتجاته، وتبلغ فاتورة الواردات العربية في الأغذية وحدها ٢٠ مليار دولار سنويًّا.

وتُعد واردات مصر – كمثال من تلك الدول- من السلع الغذائية ١٦,٨٪ من إجمالي الواردات المصرية، وتستهلك من القمح أكثر من ١٢,٢ مليون طن سنويًّا، تستورد منها ٦ ملايين طن[١].

كل هذه الأرقام وغيرها تعكس ضعف نسب الاكتفاء الذاتي العربي

---

(١) تقرير أوضاع الأمن الغذائي العربي ٢٠٠٢م، الصادر عن المنظمة العربية للتنمية الزراعية التابعة لجامعة الدول العربية، وهو منشور على موقع المنظمة على شبكة الإنترنت.

من السلع الأساسية، ويعني أيضًا إمكانية استخدام هذا الضعف كسلاح ضد الدول العربية.

أما الغريب حقًّا فهو أن تكون الواردات العربية من المواد الخام هي ٥٪ فقط، إذ أن ذلك يعني أننا نمتلك الكثير من الثروات الطبيعية التي حبا الله ﷻ بها بلادنا، وهو يعني في ذات الوقت عجزنا الكبير عن تحقيق أدنى نسبة تحقيق اكتفاء ذاتي، ثم هو يعني ثالثًا أننا نصدر المواد الخام ليُعاد تصنيعها، ثم نستوردها مرة أخرى، ولكن بأضعاف مضاعفة!!

□ أما عن السلع الاستفزازية، فإن الأرقام تشير إلى أن مصر وحدها استوردت من أنواع الجبن المختلفة التي تم حصرها في ٣٢ نوعًا، ما قيمته نحو ١٢١ مليون جنيه في عام واحد، هذه الحقيقة تأتي على الرغم من أن مصر تعتبر من الدول المنتجة للألبان، وتأتي أيضًا -وللأسف- رغم أن بمصر العديد من شركات تصنيع الأجبان، سواء من الشركات الحكومية أو من شركات القطاع الخاص!!.

وكم ذا بمصر من المُبكيات:

□ وتبلغ فاتورة أغذية القطط والكلاب المصرية من الخارج في خلال ستة شهور فقط حوالي مليوني جنيه!![1].

والظاهرة الأغرب تلك الأرقام التي تصل إلى نحو ٥ ملايين دولار لاستيراد الآيس كريم من الخارج!!.

ألا يدعو ذلك إلى الدهشة والاستغراب..؟!

---

(١) موقع ديوان العرب لأشرف شهاب بعنوان مصر تستورد طعام الكلاب والقطط.

ولا تـزال بعينـي ألـف مُبْكيـةٍ   من رهبة البَوْح تستحي وتضطربُ

مبكية أخرى:

براءات الاختراع:

من كانت له عينان فلينظر.. واحذر أخي أن يُؤتى الإسلام من قِبَلِك، فكلنا على ثغر من ثغور الإسلام.

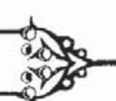
في سنة ٢٠٠١م قدمت مصر - كواحدة من الدول الإسلامية- اختراعًا واحدًا، وفي سنة ٢٠٠٢م كان نصيبها في براءات الاختراع أيضًا اختراعًا واحدًا، وفي سنة ٢٠٠٣م زاد هذا العدد -بفضل الله- ليصل إلى ١٢ اختراعًا، وكانت سنة ٢٠٠٤م قمة لإنجاز بوصول عدد براءات الاختراع إلى ٧٨ اختراعًا، وهو تطور طيب يدعو إلى التفاؤل.

وتعتبر مصر بذلك ثاني دولة إسلامية في تسجيل براءات الاختراع، أما الدولة الإسلامية الأولى في ذلك فهي تركيا، وحصيلتها من عدد براءات الاختراع في سنة ٢٠٠٤م هو ١٠٤ اختراعات [(١)].

لكن الحقيقة أن هذه النسبة -سواء التي في مصر أو التي في تركيا- هي قليلة جدًّا إذا ما قورنت بغيرها من الدول الأخرى، وخاصة حين نعلم أن إسرائيل وحدها بلغ نصيبها في تسجيل براءات الاختراع في العام نفسه ١٢٢٢ اختراعًا، محتلة بذلك المركز رقم ١٥ بين دول العالم في عدد براءات الاختراع المسجلة سنويًّا!!.

أما المركز الأول فكان -بالطبع- من نصيب أمريكا، والذي وصل

(١) «تقرير التنمية البشرية ٢٠٠٦م».



نصيبها فيه من براءات الاختراع في نفس العام أيضًا ٤١٨٧٠ اختراعًا!! وتلتها في ذلك اليابان بنحو ١٩٩٨٢ اختراعًا، ومن بعدها فرنسا، ثم إنجلترا [(١)].

وحتى تتضح الصورة بعض الشيء، فليس معنى تسجيل براءة اختراع الاقتصار فقط على اختراع شيء لم يكن موجودًا أصلًا، مثل التليفزيون أو الكمبيوتر أو ما شابه، وإنما تمنح براءة الاختراع عن كل إضافة علمية جديدة ناشئة عن فكرة جديدة وجهد في الابتكار، وتكون قابلة للاستغلال الصناعي بما فيها الفلاحة. ويدخل في ذلك تطوير اختراع قائم، أو تحسينه بإدخال بعض التعديلات عليه، مما من شأنه أن يرفع من كفاءته، أو يقلل من مضاعفاته الجانبية، أو يساعد على تخفيض سعره، أو غيره.

أي أن أيّ إضافةٍ على هذا الشيء ولو صغيرة يُعد اختراعًا، يستطيع صاحبه أن يُسجله باسمه في براءات الاختراع، ويكون بذلك قد أضاف للإنسانية شيئًا جديدًا.

وإنه لما كانت هناك دول قليلة السكان ودول أخرى كثيرة السكان، فإن العلماء استحدثوا طريقة أخرى أدق لحساب براءات الاختراع للدول، وذلك بحساب عدد براءات الاختراع فيها بالنسبة إلى عدد السكان، وكان من نتيجة ذلك أن احتلت إسرائيل المركز الثامن بين دول العالم في تسجيل براءات الاختراع، وسبقت في ذلك أمريكا واليابان وفرنسا وإنجلترا ودولًا أخرى كثيرة؛ لأن عدد السكان بها قليل..!!

---

(١) المصدر السابق.

وتوضيح ذلك أن بمثل هذه الطريقة يكون هناك اختراع لكل ٥٠٠٠ إسرائيلي، في حين أن ذلك الاختراع في أمريكا هو لكل ٦٧٠٠ أمريكي، وفي اليابان لكل ٦٣٠٠! وعلى هذا القياس أيضًا فإن النسبة في مصر هي اختراع واحد لكل ٩٠٠.٠٠٠ مصري!![1].

وغير تصنيف الدول، فإن للشركات على مستوى العالم تصنيفًا أيضًا في تسجيل براءات اختراع خاصة بها، وكانت الشركة الأولى في تقديم أكبر عدد من البراءات هي شركة «فيلبس» الهولندية، محتفظة بهذه الصدارة للسنة الثانية على التوالي، ومن بعدها تأتي شركة «ماستوشيتا» التي منها «باناسونيك»، ثم «سيمنز» الألمانية، ثم «نوكيا» الفنلندية، ثم شركة «بوش» الألمانية، ثم «إنتل» الأمريكية، ثم «بُسّ» الألمانية، ثم «ثري إم» الأمريكية، ثم «موتورولا» الأمريكية، ثم «سوني» اليابانية.

شركات كثيرة –وللأسف– ليس بينها واحدة إسلامية.. فكل براءات الاختراع لدينا إنما هي من نصيب الأفراد، وهذا يعني في أهم ما يعنيه – غياب العمل الجماعي أو العمل المؤسسي وعمل الفريق الواحد الذي يعتمد عليه الإبداع كُلِّيَّة في القرن الحادي والعشرين!!.

وأخلد المسلمون إلى الأرض:

لما تنفَّست الجاهلية في بلاد المسلمين ورفعت رأسها، وأخلد المسلمون إلى الترف والنعيم وإلى الملاهي والملاعب، وانغمروا في الملذَّات والشهوات واستهتروا استهتارًا بهذه الأخلاق المُنحطَّة، ومع هذا الانهماك في الملاهي لا تستطيع أمة أن تؤدي رسالة الإسلام، وأن تقوم في الدنيا

(١) «العلم وبناء الأمم» (ص٦٦ – ٦٨).

مقام خلفاء الأنبياء، وأن تكون قدوة وأسوة للناس، ولما فصلوا بين الدين والدولة وزادوا الطين بلَّة، وعزلوا الإسلام عن قيادة حياتهم، فقدت رسالة الإسلام تأثيرها وقوتها في قلوب غير المسلمين وضعفت ثقتهم به.

وفي لفظ مؤرخ أوربي: بدأ الإسلام بالانحطاط؛ لأن البشرية بدأت تشك في صدق القائمين بتمثيل الديانة الجديدة.

قلة احتفال المسلمين بالعلوم العملية المفيدة ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾:

□ قال الشيخ أبو الحسن الندوي عن «انحطاط المسلمين»: «إن العلماء المفكِّرين منهم لم يعتنوا بالعلوم الطبيعية التجريبية وبالعلوم العملية المثمرة المفيدة اعتناءهم بعلوم ما بعد الطبيعة والفلسفة الإلهية التي تلقَّوْها من اليونان، وما هي إلَّا وثنيتهم القومية التي ترجموها في لغتهم الفلسفية وأضْفَوْا عليها لباسًا من الفنِّ، وما هي إلَّا ظنون وتخمينات وطلاسم لفظية لا حقيقة لها ولا معنى، وقد أغنى الله المسلمين عنها وكفاهم هذا البحث والتنقيب وعملية تجزئة وتحليل في مسائل ذات الله وصفاته وما يتعلَّق بها أشبه بالتحليل الكيمياوي، بما أنزل إليهم بينات من الهدى والفرقان وجعلهم على نور من ربهم، ولكن المسلمين لم يشكروا هذه النعمة العظيمة، وظلوا قرونًا طويلة يجاهدون من هذه العلوم والمباحث في غير جهاد، ويضيِّعون ذكاءهم في مباحث فلسفية وكلامية لا تُجدي نفْعًا ولا تأتي بنتيجة، وليس لها دعوة في الدنيا والآخرة، وتشاغلوا بها عن علوم واختبارات تسخر لهم قوى الطبيعة ويُسخِّرونها لمصلحة الإسلام، ويُبسِطُون بها سيطرة الإسلام المادية والروحية على العالم كله.

وكذلك اشتغلوا بمباحث الروح وفلسفة الإشراق ومسائل وحدة الوجود، وبذلوا فيها قسطًا كبيرًا من أوقاتهم وجهودهم وذكائهم»[1].

ولما كان الذي خبُث لا يخرج إلَّا نكدًا، ولما فارق المسلمون هدي نبيهم على درب سلفهم الصالح صاروا في ذيل ركب الأمم، وفاقتهم أراذل الشعوب في الإنتاج كمًّا وكيفًا وفي الإتقان، والعلم، والإبداع، والتدقيق العلمي، فليصححوا المسار بالإسلام حتى تعود إليهم حضارتهم..

وأنذرتهم أمـري بمنعـرج اللـوى فلم يستبينوا النُّصح إلَّا ضُحَى الغدِ

هكذا كانوا يومَ كُنَّا

□ قال الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني في كتابه القيِّم «الحضارة الإسلامية - أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم»[2]:-

واقع حال أوروبة والغرب كلّه إبان ازدهار حضارة المسلمين:

أخذ المسلمون منذ تكوَّنت لهم دولةٌ ذات كيان مستقلٍّ، يَبنون حضارتهم بهَدْي من تعليمات الإسلام، في القرآن الكريم، هو بيانات الرسول العظيم القوليَّة والعمليَّة، وتوجَّهت أنظارهم لإصلاح شعوب الأرض، ودَعْوَتِها للسيْر على صراط الإسلام المستقيم، فانطلقوا شرقًا وغربًا فاتحين مُهَذِّبين ملتزمين فضائل الأخلاق ومحاسِنَ الشِّيم، وعاملين

---

(١) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» للندوي (ص١٤٩- ١٥٠).

(٢) «الحضارة الإسلامية» (ص٦٥٩- ٦٦٨).

بتعليمات الإسلام، إلَّا من شَذَّ منهم عن العمل بتعليمات دينه اتِّباعًا للهوى، أو أَخْطَأَ في فهم نصوص الإسلام.

□ وفي انطلاقهم شرقًا وغربًا أخَذُوا يُعَلِّمون النَّاس ما هداهم إليه الإسلام من حضارة فكريةٍ اعْتِقادية، وحضارةٍ سلوكيَّة فرديَّة واجتماعيَّة، وما دعاهم إليه الإسلام من بناء حضارة ماديَّة تَنْشُد الخير، وتُقَاومُ الشَّرَّ والضرَّ والفساد، مؤمنين بأنَّ الله جلَّ جلاله مكَّنَ الناسَ عن طريق البحث والتَّنْقِيب واستعمال الفكر، والتأمُّل العميق، والقيام بالتجارب العملية، والملاحظات المتأنيات للتجارب، من التوصُّل إلى مفاتيح كنوز الكون، وطاقاته الخفيات، والتعرُّفِ على مسالكها، ومؤمنين بأنَّ الله ﷻ حثَّهم على أن يُتَابعوا البحث والتنقيب والتجارب والملاحظات المتَأنيَّات، بكلِّ ما لديهم من وُسْع مُتجدِّد، وقُدْراتٍ على متابعة حلقات سلاسل المعارف المحجوبة عن أنظارهم القصيرة، وحثَّهم عَلى أَنْ يَحْفِروا أنفاق البحث، لاستخراجها حلقةً فحلقَةً، بلا نهاية منظورة، وأن يكونوا دوامًا في ارتقاء حضاري، وأن يكونوا السابقين إلى كلِّ فضيلة ومكْرُمة وعِلْم، وإلى امتلاك كُلِّ قُوَّةٍ يُمْكِنُ أن يمتلكها الناس بتسخير الله ما في الكون لهم.

□ وحين انطلق المسلمون يَبْنُون حضارتهم في البلدان التي مَلكُوا نَواصِيَ السُّلطَان فيها شرقًا وغربًا، كانت شُعُوبُ أوروبة، والشعوب الغَرْبية كافَّةً، في جهل مُطْبِقٍ، وأُمِّيَّة منتشرة في كل طَبقاتهم، وتخلُّفٍ حضاريٍّ بعيد، في الفكر، وفي السلوك الفردي والاجتماعي، وفي مختَلِف مجالات العلوم.

□ وبينما كان كثير من علماء الدين الإسلامي يتوجهون باهتمام بالغ لدراسة العلوم الرياضية والعقليَّة والطبيعيَّة، ويبْحثون في الظواهر الكونية عن العِلَلِ والأسباب، ويُنَقِّبُون في كلِّ موقع ماديٍّ أو معنوي يصْلُح للتنقيب فيه، بغية اكتشاف سنن الله وقوانينه في كونه، واستخراج الكنوز التي أودعها في خباياه، كان قادةُ الكنيسة ورجالها في أرجاء الأرض يُعَادُون ويُحاربون كلَّ مَنْ يأتي بنظرية أو حقيقة علميَّة تخالف تعليماتهم التقليدية، ولو كانت خرافية، وربما كان جزاؤه الحرْقَ بالنار لهرطقته ومخالفته في أفكاره التي جاء بها تعليماتهم.

مع أنَّ تعليماتهم هي من أوضاعهم أو من الأساطير التي نقلوها عن أهل القرون الأولى، وليست من دين الله الذي أنزله الله على عيسى أو موسى أو إبراهيم أو أي رسول أو نبي يؤمن به اليهود أو النصارى من الصادقين.

□ ولما كان المسلمون يتوضؤون لصلواتهم، ويغتسلون اغتسالات واجبات، واغتسالات مندوبات، ويستنجون أو يستجمرون، ويتحرزون من النجاسات والقذارات، ويُسْرعون إلى إزالتها عن أجسادهم وثيابهم وأماكنهم وأدواتهم إذا وقعت عليها أو لامستها، كانت الشعوب الأوروبية، والشعوب الغربية عامة، لا تعرف شيئًا عن الطهارة وإزالة النجاسات من الأبدان والثياب والأمكنة والأدوات، ولا تعرف الاستنجاء بالماء حتى رأوا المسلمين يفعلون ذلك، واستمرُّوا في الغالب على عاداتهم السابقات حتى اكتشف علماؤهم الجراثيم والميكروبات، ورأوا أنَّ النجاسات والقّذارات هي أعظم البُؤَر الحاملة لها، وأنها تُسَبب الأمراض والأوجاع والأوبئة الخطيرة.

وليس بخافٍ على أي فكْرٍ ونظر أن الطهارة والعناية بها من أجلى مظاهر الحضارة البشرية»[١].

□ يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: «ظل تعذيب الجسم مثلًا كاملًا في الدين والأخلاق إلى قرنين، وروى المؤرخون من ذلك عجائب، فحدثوا عن الراهب ماكاريوس أنه نام ستة أشهر في مستنقع ليقرص جسمه العاري ذباب سام، وكان يحمل دائمًا نحو قنطار من حديد، وكان صاحبه الراهب يوسيبيس يحمل نحو قنطارين من حديد، وقد أقام ثلاثة أعوام في بئر نزح، وقد عبد الراهب يوحنا ثلاث سنين قائمًا على رجل واحدة ولم ينم ولم يقعد طول هذه المدة، فإذا تعب جدًّا أسند ظهره إلى صخرة، وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائمًا، وإنما يتسترون بشعرهم الطويل ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام، وكان أكثرهم يسكنون في مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر، ويأكل كثيرًا من الكلأ والحشيش، وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ويتأثمون عن غسل الأعضاء، وأزهد الناس عندهم وأتقاهم أبعدهم عن الطهارة وأوغلهم في النجاسات والدنس، يقول الراهب اتهيتس: أن الراهب أنتوني لم يقترف إثم غسل الرجلين طول عمره. وكان الراهب إبراهام لم يمس وجهه ولا رجله الماء خمسين سنة، وقد قال الراهب الاسكندري بعد زمن متلهفًا: وا أسفاه! لقد كنا في زمن نعد غسل الوجه حرامًا، فإذا بنا الآن ندخل الحمامات.

---

(١) «الحضارة الإسلامية.. أسسها ووسائلها.. وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم» (ص٦٦٠ - ٦٦١).

وكان الرهبان يتجولون في البلاد ويختطفون الأطفال ويهربونهم إلى الصحراء والأديار وينتزعون الصبيان من حجور أمهاتهم ويربونهم تربية رهبانية، والحكومة لا تملك من الأمر شيئًا، والجمهور والدهماء يؤيدونهم ويحبذون الذين يهجرون آباءهم وأمهاتهم ويختارون الرهبانية ويهتفون باسمهم، وعرف كبار الرهبان ومشاهير التاريخ النصراني بالمهارة في التهريب، حتى روى أن الأمهات كن يسترن أولادهن في البيوت إذا رأين الراهب أمبروز وأصبح الآباء والأولياء لا يملكون من أولادهم شيئًا، وانتقل نفوذهم وولايتهم إلى الرهبان والقسوس [1].

تأثير الرهبانية في أخلاق الأوربيين:

«كان نتيجة هذه الرهبانية أن خلال الفُتُوّة والمروءة التي كانت تعد فضائل عادت فاستحالت عيوبًا ورذائل، وزهد الناس في البشاشة وخفة الروح والصراحة والسماحة والشجاعة والجرأة وهجروها، وكان من أهم نتائجها أن تزلزلت دعائم الحياة المنزلية، وعم الكنود والقسوة على الأقارب فكان الرهبان الذين تفيض قلوبهم حنانًا ورحمة، وعيونهم من الدمع، تقسو قلوبهم وتجمد عيونهم على الآباء والأمهات والأولاد، فيخلفون الأمهات ثكالى والأزواج أيامى والأولاد يتامى، عالة يتكفّفُون الناس، ويتوجهون قاصدين الصحراء، همهم الوحيد أن ينقذوا أنفسهم في الآخرة لا يبالون ماتوا أو عاشوا. وحكى «ليكي» من ذلكم حكايات تدمع العين وتحزن القلب.

(١) اقرأ «تاريخ أوروبا» لليكي، وانظر: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» للندوي (ص١٨٦- ١٨٧).

وكانوا يفرون من ظل النساء ويتأثمون من قربهن والاجتماع بهن، وكانوا يعتقدون أن مصادفتهن في الطريق والتحدث إليهن ولو كن أمهات وأزواجًا أو شقيقات تحبط أعمالهم وجهودهم الروحية. وروى «ليكي» من هذه المضحكات المبكيات شيئًا كثيرًا.

عجز الرهبانية عن تعديل المادية الجانحة:

ولا يتوهم أحد أن هذه الرهبانية الغالية قد عدلت من شرة المادية الرومية، وكبحت من جماحها وغلوائها في البهيمية والشهوات، فإن هذا لم يكن ولا يكون في الغالب، وتأباه الفطرية الإنسانية ويكذبه التاريخ، فإن الذي يوجد الاعتدال ويخفض من المادية الجامحة ويجعل منها حياة معتدلة هو النظام الروحي الديني الخلقي الحكيم الذي يوافق الفطرة الإنسانية الصحيحة، والذي لا يتصدى لأن يزيل الفطرة الإنسانية، بل يوجهها توجيها نافعًا، فإنها لا تزول ولكن تميل من شر إلى خير، وهكذا فعل الإنسان، وهكذا فعل سيدنا محمد ﷺ.

أما النصرانية الرومية فقد حاولت عبثًا تغيير الفطرة وإزالتها وجاءت بنظام لا تطيقه الفطرة الإنسانية ولا تسيغه، وحملت النفوس ما لا طاقة لها به فرغبت فيه كرد فعل ضد المادية الطاغية واحتملته كارهة، ثم تخلصت منه وثارت عليه ولم تقدر النصرانية -بإسرافها في الرهبانية والزهد ومكابرتها للفطرة والواقع- أن تصلح ما فسد من أخلاق الناس وعوائدهم، وتمسك بضبع المدينة الساقطة إلى الهاوية وتمنعها من التردي، فكانت حركة الفجور والإباحة وحركة الغلو في الزهد والرهبانية تسيران في البلاد النصرانية جنبًا إلى جنب، بل الأصح أن الرهبانية كانت معتزلة

في الصحارى والخلوات لا سلطان لها على الحياة، وحركة الخلاعة والإباحة كانت زاخرة طامة في المدن والحواضر.

بين الرهبانية العاتية، والمادية الجامحة:

□ يصور «ليكي» ما كان عليه العالم النصراني في ذلك العصر من التأرجح بين الرهبانية والفجور فيقول: «إن التبذل والإسفاف قد بلغا غايتهما في أخلاق الناس واجتماعهم، وكانت الدعارة والفجور والإخلاد إلى الترف والتساقط على الشهوات والتملق والزينة في حدتها وشدتها، كانت الدنيا في الحين تتأرجح بين الرهبانية القصوى والفجور، وإن المدن التي ظهر فيها أكثر الزهاد كانت أسبق المدن في الخلاعة والفجور، وقد اجتمع في هذا العصر الفجور والوهم اللذان هما عَدُوَّان لشرف الإنسان وكرامته. وقد ضعف رأى الجمهور حتى أصبح الناس لا يحفلون بسوء الأحدوثة والفضيحة بين الناس، وكان الضمير الإنساني ربما يخاف الدين ووعيده ولكنه أمن واطمأن، لاعتقاده أن الأدعية وغيرها تكفر عن جميع أعمال الإنسان، لقد نفقت سوق المكر والخديعة والكذب حتى فاق هذا العصر في ذلك عصر القياصرة، ولكن قل الظلم والاعتداء والقسوة والخلاعة، مع انحطاط في حرية الفكر، والحماسة القومية»[(١)].

الفساد في المراكز الدينية:

ولم تكن الرهبانية والنظام الديني السلبي إلَّا مصادمة للفطرة، فبقيت مقهورة بعوامل الديانة الجديدة وسلطانها الروحي، وساعدتها عوامل أخرى، ثم قهرت الطبيعة وتسرب الضعف والانحراف في المراكز الدينية

(١) History of European Merals Vol. II pp. ١٦٢-٣.

حتى صارت تزاحم المراكز الدنيوية، وربما تسبقها في فساد الأخلاق والدعارة والفجور، لذلك أوقفت الحكومة المآدب الدينية التي كانت ترمى إلى عقد الألفة والأخوة بين المسيحيين وأعياد الشهداء والأولياء وذكرياتهم التي وجدت فيها الخلاعة والفجور حمى ومرتعًا، واتهم القسوس بكبائر ومنكرات.

□ ويقول الراهب (جروم Jarum): «إن عيش القسوس ونعيمهم كان يزري بترف الأمراء والأغنياء المترفين، وقد انحطت أخلاق البابوات انحطاطًا عظيمًا واستحوذ عليهم الجشع وحب المال وعدوا طورهم، حتى كانوا يبيعون المناصب والوظائف كالسلع، وقد تباع بالمزاد العلني، ويؤجرون أرض الجنة بالوثائق والصكوك وتذاكر الغفران، ويأذنون بنقض القانون، ويمنحون شهادات النجاة وإجازات حل المحرمات والمحظورات كأوراق النقد وطوابع البريد، ويرتشون ويرابون، وقد بذروا المال تبذيرًا حتى اضطر البابا أنوسنت الثامن أن يرهن تاج البابوية. ويُذكَرُ عن البابا ليو العاشر أنه أنفق ما ترك البابا السابق من ثروة وأموال، وأنفق نصيبه ودخله، وأخذ إيراد خليفته المترقب سلفًا وأنفقه، ويروي أن مجموع دخل مملكة فرنسا لم يكن يكفي البابوات لنفقاتهم وإرضاء شهواتهم»[١].

تنافس البابوية والإمبراطورية:

وبدأ النزاع والمنافسة بين البابوية والإمبراطورية في القرن الحادي عشر، فاشتدت بعنف وحمى وطيسها: وانتصرت فيها البابوية أوَّلًا حتى

---

(١) Conflict of Raligion and Science. P. ٢٣٠.

إن هنري الرابع ممثل الإمبراطورية اضطر سنة ١٠٧٧م أن يتقدم بخضوع نحو البلاط البابوي في قلعة كانوسا ولم يسمح له البابا بالدخول إلَّا بعد أن شفع له الرجال، فسمح له بالمثول بين يديه، فدخل الإمبراطور صاغرًا حافيًا لابسًا الصوف وتاب على يديه فغفر له البابا زلته، وكانت الحرب بين البابوية والإمبراطورية بعد ذلك سجالًا حتى ضعفت البابوية، وبقي الناس هذه المدة الطويلة يتنازعهم عاملان ديني ودنيوي، وبقوا يرزحون تحت نيرين إمبراطوري وبابوي.

وكان البابوات يتمتعون في هذه العصور الوسطى بنفوذ واسع وسلطان عظيم لم يكن الملوك والأباطرة، وكان يمكن لهم أن يتقدموا بأوربا تقدمًا صحيحًا في العلم والمدنية تحت ظل الدين؛ لأن نوابهم وممثليهم كانوا يتجولون في البلدان الأوربية وينزلون من أهلها في جناب مريع وظل ظليل، ويتفاهمون معهم بلغة واحدة ويتدخلون في أمور سياسية مهمة، ووجدوا في كل بقعة أنصارًا لهم من ذو الرأي والسياسة يتكلمون بلغة واحدة ويساعدونهم في مهمات الدولة.

شقاء أوروبا برجال الدين:

ولكن رجال الدين من سوء حظ النصرانية ومن سوء حظ الأمم التي دانت بها أساءوا استعمال هذا السلطان الهائل فاستغلوه لأنفسهم ونفوذهم وجاههم، وبقيت أوروبا تتسكع في دياجير الجهل والخرافة والانحطاط، وأصيبت المدنية بحكمهم ورهبانيتهم في صميمها، فلم يتضاعف عدد سكان القارة الأوربية في ألف سنة، ولم يتضاعف عدد سكان إنكلترا في خمسمئة سنة، ولا شك أن من أسبابها حياة العزوبة التي

كان القسوس والرهبان يزينونها للناس ويرغِّبُون فيها، ولم يشأ الكهان والأساقفة أن يساهم الأطباء في مرافقهم وغلاتهم فانتشرت الأوبئة والأمراض في طول القارة وعرضها، ونعرف من رحلة أنبيس سلوئيس الذي اشتهر بعد بلقب (Pus the Second) التي قام بها للجزائر البريطانية حوالي سنة ١٤٣٠م ما كانت عليه هذه الجزائر من بؤس وانحطاط في المدنية وفقر مدقع.

جناية رجال الدين على الكتب الدينية:

ولكن من أعظم أخطاء رجال الدين في أوروبا ومن أكبر جناياتهم على أنفسهم وعلى الدين الذي كانوا يُمَثِّلُونه أنهم دسُّوا في كتبهم الدينية المقدسة معلومات بشرية ومسلمات عصرية عن التاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية ربما كانت أقصى ما وصلوا إليه من العلم في ذلك العصر، وكانت حقائق راهنة لا يشك فيها رجال ذلك العصر، ولكنها ليست أقصى ما وصل إليه العلم الإنساني، وإذا كان ذلك في عصر من العصور غاية ما وصل إليه علم البشر فإنه لا يؤمن عليه التحول والتعارض؛ فإن العلم الإنساني متدرج مترق، فمن بنى عليه دينه فقد بنى قصرًا على كثيب مهيل من الرمل. ولعلهم فعلوا ذلك بِنِيَّةٍ حسنة ولكنه كان أكبر جناية على أنفسهم وعلى الدين، فإن ذلك، كان سببًا للكفاح المشئوم بين الدين والعلم الذي انهزم فيه ذلك الدين المختلط بعلم البشر - الذي فيه الحق والباطل، الخالص والزائف- هزيمة منكرة، وسقط رجال الدين سقوطًا لم ينهضوا بعده، وشر من ذلك كله وأشأم أن أوروبا أصبحت لا دينيَّة.

ولم يكتف رجال الدين بما أدخلوه في كتبهم المقدسة، بل قدسوا كل ما تناقلته الألسن واشتهر به الناس وذكره بعض شراح التوراة والإنجيل ومفسريها من معلومات جغرافية وتاريخية وطبيعية، وصبغوها صبغة دينية وعدوها من تعاليم الدين وأصوله التي يجب الاعتقاد بها ونبذ كل ما يعارضها وألفوا في ذلك كتبًا وتأليف، وسموا هذه الجغرافية التي ما أنزل الله بها من سلطان الجغرافية المسيحية (Ghristian Topography) وعَضُّوا عليها بالنواجذ وكفَّروا كل من لم يدن بها.

اضطهاد الكنيسة للعلم:

وكان ذلك في عصر انفجر فيه بركان العقلية في أوروبا، وحطَّم علماء الطبيعة والعلوم سلاسل التقليد الديني فزيَّفُوا هذه النظريَّات الجغرافية التي اشتملت عليها هذه الكتب وانتقدوها في صرامة وصراحة، واعتذروا عن عدم اعتقادها والإيمان بها بالغيب، وأعلنوا اكتشافاتهم العلمية واختباراتهم فقامت قيامة الكنيسة، وقام رجالها المتصرفون بزمام الأمور في أوروبا وكفَّرُوهم واستحلوا دماءهم وأموالهم في سبيل الدين المسيحي، وأنشأوا محاكم التفتيش التي تعاقب -كما يقول البابا- أولئك الملحدين والزنادقة الذين هم منتشرون في المدن وفي البيوت والأسراب والغابات والمغارات والحقول فجدَّت واجتهدت وسهرت على عملها، واجتهدت أن لا تدع في العالم النصراني نابضًا ضد الكنيسة، وانبثت عيونها في طول البلاد وعرضها، وأحصت على الناس الأنفاس، وناقشت عليهم الخواطر حتى يقول عالم نصراني: «لا يمكن لرجل أن يكون مسيحيًّا ويموت حتف أنفه»، ويقدر أن من عاقبت هذه المحاكم يبلغ



عددهم ثلثمئة ألف، أُحْرِق منهم اثنان وثلاثون ألفًا أحياء كان منهم العالم لطبيعي المعروف برونو، نقمت منه الكنيسة آراء من أشدها قوله: بتعدد العوالم، وحكمت عليه بالقتل، واقترحت بأن لا تراق قطرة من دمه، وكان ذلك يعني أن يحرق حيًا، وكذلك كان.

وهكذا عوقب العالم الطبيعي الشهير غليلو (Galilio) بالقتل لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس»[١] اهـ.

وهاهو البابا غريغوروس الكبير ينفى من روما جميع المشتغلين بالدراسات العلمية ويحرق مكتبة لاتين [٢].

«وهذا غيض من فيض.. والأمثلة على ذلك جد كثيرة، ولم تتوقَّف فقط على محاكمات كوبر نيكس وجاليليو، حتى إنهم توسَّعوا في تشكيل محاكم التفتيش ضد العلماء، وقد حكمت تلك المحاكم على تسعين ألفًا وثلاثة وعشرين عالمًا بأحكام مختلفة في الفترة ما بين سنة ١٤٨١م إلى سنة ١٤٩٩م، أي في غضون ١٨ سنة [٣]، كما أصدرت قرارات تُحرِّم قراءة كتب جيوردا نويرنو، ونيوتن لقوله بقانون الجاذبية، وتأمر بحرق كتبهم، وقد أحرق بالفعل الكاردينال إكيمنيس في غرناطة ٨٠٠٠ كتاب مخطوط لمخالفتها آراء الكنيسة..!!»[٤].

---

(١) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» (ص١٨٨- ١٩٤).

(٢) «مع الله أو الدمار» (ص٤٠).

(٣) «مقاومة النصرانية للعلم في التاريخ» نقلًا عن كتاب «البابا والإسلام» للدكتور يوسف القرضاوي.

(٤) «سقوط غرناطة» لشوقي أبو خليل (ص٩٨) بتصرف، و«الموسوعة الميسَّرة في الأديان والمذاهب المعاصرة».

وهذا الواقع الرهيب والمظلم عاشته أوروبا قرونًا طويلة، سُمِّيت بالعصور المظلمة، وتُسمَّى أيضًا بالقرون الوسطى، حيث استغرقت نحو ألف عام من الزمان»(١).

□ «والقصص والروايات التي تصف ظلم الكنيسة الأوروبية الكاثوليكية لا تكاد تنتهي، ولا يخفى على أحد محاكمات كوبرنيكس ومحاكمات جاليليو وما حدث لأينشتاين وماكس بلانك وغيرها الكثير.

لقد اكتشف كوبرنيكس عام ١٥٤٣م أن الأرض تدور حول نفسها مرة كل ٢٤ ساعة، فيحدث تبادل الليل والنهار، وتدور حول الشمس مرة كل عام، فيحدث تغيُّر الفصول الأربعة، وأن الشمس هي مركز الكون وليس الأرض كما كان معتقدًا قبل ذلك.. إلَّا أن هذا الكشف كان كارثة في أوروبا في القرن السادس عشر الميلادي، وقد تعجبت الكنيسة لهذا الكشف حين حاكمته بميزان الحقائق الإنجيلية إذ وجدته يتناقض مع معتقداتهم، ومع الإحساس الظاهري للبشر في نظر النصوص المقدسة..!!»(٢).

ولهذا قرَّرت الكنيسة محاربة كوبر نيكس، واضطهدوه واتهموه بالكفر وطلبوه للقتل، بل وأحرقوا كتبه وأبحاثه ومنعوا تدريسها.. ولم يكتشفوا صحَّة ما وصل إليه إلَّا بعد وفاته بسنوات وسنوات.

أما جاليليو والذي أثبت أن كوبر نيكس كان على حق، وأن الشمس هي مركز الكون، واكتشف أيضًا أن القمر ليس جسمًا مستويًّا.. فقد أمر البابا بإحضاره بالقوة رغم شيخوخته وسوء صحته للتحقيق معه لتأييده

(١) «العلم وبناء الأمم» (ص٨٣).

(٢) انظر: «قصة الحضارة» لول ديورانت، ترجمة الدكتور محمد علي أبو درة (٣٠/ ٢٧٣).

فكرة تحرك الأرض، وحكمت عليه الكنيسة بالسجن في بيته -قيد الإقامة الجبرية- إلى أن يموت [(١)].

وكذلك أعدمت الكنيسة أيضًا برونو حرقًا في ميدان عام لدفاعه عن تحرّك الأرض، وتوقُّعه وجود أراضين أخرى»[(٢)].

«وفي عام ١٢٠٦ نبَّه مجمع رؤساء الكنائس المنعقد في باريس رجال الدين بشدة إلى عدم قراءة كتب العلوم الطبيعيَّة، واعتبر ذلك خطيئة لا تغتفر [(٣)].

◻ وقال الفيلسوف البريطاني برتر اندرسل في مقال له: «كيف أعاقت الكنائس التقدم»: «لقد عارضت الكنيسة جاليليو. وفي الأيام التي بلغت فيها أعظم سلطانها، فإنها ذهبت إلى أبعد مدى في معارضة حياة العقل والتفكير، فلقد كتب البابا جريجوري الكبير (٥٩٠-٦٠٤م) إلى أحد أساقفته رسالة يقول فيها: «لقد وصلنا تقرير لا نستطيع تذكره دون حمرة الوجه خجلًا: ذلك أنك تشرح قواعد اللغة «اللاتينية» إلى بعض الأصدقاء».

لقد اضطر هذا الأسقف، تحت سلطان صاحب القداسة، أن يكف عن ذلك العمل الشرير! ولهذا لم تنهض اللاتينية من عقالها إلَّا في عصر النهضة.

وكما يعلم كل الناس، فإن الكنائس قد عارضت بقدر الإمكان القضاء على العبودية، كما أنه خلافًا لبعض الاستثناءات، فإنها تعارض اليوم أي حركة تجاه العدالة الاقتصادية ويجب أن نذكر أنه في جميع

---

(١) «قصة الحضارة» (٣٠/ ٢٦٩- ٢٧٩).

(٢) المصدر السابق (٣٠/ ٣٠٠).

(٣) «الحضارة الإسلامية وجهتها الله» للواء أحمد عبد الوهاب (ص١٧).

العصور، بدءًا من عصر قسطنطين (القرن الرابع) حتى نهاية القرن السابع عشر، فإن المسيحيين قد تعرضوا لاضطهادات رهيبة على يد مسيحيين مثلهم آخرين، أكثر بكثير مما تعرضوا على أيدي الأباطرة الرومان!.

حقيقة أن المسيحي المعاصر قد أصبح أقل غلظة، لكن الفضل في ذلك لا يرجع إلى المسيحية، وإنما يرجع إلى أجيال من أحرار الفكر، الذين جعلوا المسيحيين -يخجلون- منذ عصر النهضة إلى الآن -من كثير من معتقداتهم التقليدية»[١].

□ وفي عام ١٦٠٠، أحرقت الكنيسة القس جوردانو برونو، في ميدان الأزهار «كامبو دي فيوري» بروما.

وكان من بين التهم الموجهة إليه: الزندقة والردة. والدعوة لنظرية «كوبر نيك» في الفلك القائلة بأن الأرض ليست مركز الكون، وأن الكواكب تدور حول محورها وحول الشمس، وهو ما يتنافى مع الجغرافيا والفلك كما استخلصتها الكنيسة من الكتاب المقدس ومن أعمال أرسطو وبطليموس الجغرافي، وكان من التهم أيضًا، الاشتغال بالسحر، ويدخل في هذا الباب الدعوة إلى العلم للسيطرة على الطبيعة.

□ وفي عام ١٦٤٢ مات الفلكي «جاليليو» في عزلته كمدًا، بعد أن أصيب بالعمى، فقد حاكمته الكنيسة، وحكمت عليه بتحديد إقامته بعد أن أعلن تبرأه من مفاهيمه العلمية حول الأرض وحركتها، والشمس والكون. فقال في اعترافه أمام المجمع المقدس عام ١٦٣٣: «أستنكر هذه الأخطاء والزندقات المذكورة، وبوجه عام كل الأخطاء والزندقات

---

(١) Bertrand Russel: Why I am not a Christian ; pp. ١٥- ٢٨.

والمعتقدات المتعارضة مع الكنيسة المقدسة»[(١)].

□ ولو أردنا دليلًا آخر على مدى الهوة العميقة التي كانت تفصل الشرق عن الغرب، لكفانا أن نعرف أن نسبة ٩٥٪ على الأقل من سكان الغرب في القرون: التاسع، والعاشر، والحادي عشر، والثاني عشر، كانوا لا يستطيعون القراءة والكتابة.

وبينما كان «شارل الأكبر» يجهد نفسه في شيخوخته لتعلم القراءة والكتابة، وبينما أمراء الغرب يعترفون بعجزهم عن الكتابة أو القراءة، وفي الأديرة يندر بين الكهنة من يستطيع مسك القلم، لدرجة أنه عام ١٢٩١م لم يكن في دير جالينوس من الكهنة والرهبان من يستطيع حلّ الخط - بينما كان هذا كله يحدث في الغرب - كانت آلاف مؤلفة من المدارس في القرى والمدن تستقبل ملايين البنين والبنات، يجلسون على سجادهم الصغير يكتبون بحبر يميل إلى السواد فوق ألواحهم الخشبية، ويقرؤون مقاطع من القرآن حتى يجيدوها، ويُجوِّدون ذلك معًا بلحن جميل عن ظهر قلب، ثم يتقدمون خطوة تلو الأخرى في المبادئ لقواعد اللغة.

وكان الدافع إلى كل هذا هو رغبتهم الصادقة في أن يكونوا مسلمين حقًا كما يجب أن يكون المسلم. فلم يجبرهم أحد على ذلك، بل اندفعوا إليه عن رغبة وإيمان؛ لأن من واجب كل مسلم أن يقرأ القرآن.

فالكتاب المقدس لا يجد الناس إليه سبيلًا؛ إذا استثنينا الكهنة ورجال الدين، فهم وحدهم يستطيعون قراءته وفهم لغته. ومنذ عام ٨٠٠ ميلادية لم يعد الشعب يفهم المواعظ الملقاة باللاتينية، حتى أن مجلس

---

(١) المصدر السابق (ص٧٢ - ٧٣).

رؤساء الكنائس المنعقد في مدينة تور أوصى بوعظ الناس باللغة التي يتكلمون بها. ولم تكن هناك حاجة تدعو الشعب في تلك العصور إلى تعلم اللاتينية، بل لم تكن هناك أية رغبة في تعليم الشعب أو تثقيفه [١].

□ «وثار المجددون المتنورون من أهل الغرب، وعيل صبرهم، وأصبحوا حربًا لرجل الدين وممثلي الكنيسة والمحافظين على القديم، ومقتوا كل ما يتصل بهم ويعزي إليهم من عقيدة وثقافة وعلم وأخلاق وآداب، وعادوا الدين المسيحي أولًا والدين المطلق ثانيًا، واستحالت الحروب بين زعماء العلم والعقلية، وزعماء الدين المسيحي -وبلفظ أصح، الديانة والبوليسية- حربًا بين العلم والدين مطلقًا، وقرر الثائرون أن العلم والدين ضرتان لا تتصالحان، وأن العقل والنظام الديني ضدان لا يجتمعان، فمن استقبل أحدهما استدبر الآخر، ومن آمن بالأول كفر بالثاني، وإذا ذكروا تلك الدماء الزكية التي أريقت في سبيل العلم والتحقيق، وتلك النفوس البريئة التي ذهبت ضحية لقسوة القساوسة ووساوسهم، تمثل لأعينهم وجوه كالحة عابسة، وجباه مقطبة، وعيون ترمي بالشرر، وصدور ضيقة حرجة، وعقول سخيفة بليدة، فاشمأزت قلوبهم وآلوا على أنفسهم كراهة هؤلاء وكل ما يمثلونه، وتواصلوا به وجعلوه كلمة باقية في أعقابهم.

تقصير الثائرين وعدم تثبتهم:

ولم يكن عند هؤلاء الثائرين من الصبر والمثابرة على الدراسة والتفكير، ومن الوداعة والهدوء، ومن العقل والاجتهاد ما يميزون به بين

---

(١) المصدر السابق (ص١٩- ٢٠).

الدين ورجاله المحتكرين لزعامته، ويفرقون بين ما يرجع إلى الدين عن عهدة ومسؤولية، وما يرجع إلى رجال الكنيسة من جمود وجهل واستبداد وسوء تمثيل، فلا ينبذوا الدين نبذ النواة، ولكن الحفيظة وشنآن رجال الدين والاستعجال لم يسمح بالنظر في أمر الدين والتريث في شأنه كغالب الثوار في أكثر الأعصار والأمصار.

* ولم يكن عندهم من صدق الطلب والنصيحة لأنفسهم وأُمَّتِهم وسعة الصدر ما يحملهم على النظر في الدين الإسلامي الذي كانت تدين به أمم معاصرة لهم، الدين الذي يخلصهم من هذه الأزمة و﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ولكن حمية الجاهلية والسدود التي أقامتها الحرب الصليبية بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي ودعاية الكهنة ورجال الكنيسة ضد الإسلام وصاحب رسالته عليه الصلاة والسلام، وعدم تجشم التعب والمطالعة، وقلة الحرص على النجاة الأخروية والاهتمام بما بعد الموت، زد على ذلك تفريط المسلمين في التبشير الإسلامي، ونشر الإسلام في أوروبا، كل ذلك منعهم من الرجوع إلى الدين الإسلامي والأخذ به في ساعة كانوا يحتاجون إليه حاجة السليم إلى راق والمسموم إلى ترياق»[(١)].

واتجه الغرب إلى المادية ودعا السياسيون أمثال ميكافيلي الفلارنساوي (١٤٦٦ - ١٢٥٧م) إلى فصل الدين عن الدولة وكان لهم ما أرادوا.

---

(١) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» (ص١٩٤ - ١٩٦).

مؤكدات لهذه الحقائق من بيانات غربية منصفة[(١)] :

جاء في كتاب «شمس العرب تسطع على الغرب» للمستشرقة الألمانية «زيغريد هونكه» ما يلي:

□ لقد قصَّ «فيلهلم» على رفاق سفره الدهشين ما يلي: «كان عندنا في بلادنا فارِسٌ كبير القَدْر، فمرض وأشرف على الموت، فجئنا إلى قسَّ كبير من قساوستنا، وقلنا: تجيء مَعَنا حتَّى تُبْصر الفارس فلانا؟.

قال: نعم، ومشى معنا، ونحْنُ نتحقَّق أنَّه إذا حطَّ يَدَهُ عليه عوفي.

فلمَّا رآه قال: أعطوني شمعًا، فأحْضَرْنا له قليل شمْعٍ، فلَيَنَهُ بيده وعَمِلَه مثل عُقَدِ الإصبع، ووضع واحدة في جانب أنفه الأيمن، ووضع أخرى في جانب أنفه الأيسر، فمات الفارس.

فقلنا له: قد مات.

قال: نعم، كان يتعذَّبُ، سدَدْتُ أنْفَه حتى يموت ويستريح».

وعلقت «زيغريد» على هذه القصة بقولها: «أيدٍ تُوضع، وشيطانٌ يُطْرد، وصلاةٌ تُقامُ..

تلك كانت الوسائل المفضلة في المعالجة التي حاول أطباء أوروبة -عن طريق مُسوح الكهنوت والرهبان- إنقاذ الإنسانية المريضة، وتخليصها من براثن الداء والألم»[(٢)].

□ وجاء فيه قولها: «ولعلَّ من أهَمَّ عوامل انتصارات العرب -أي:

---

(١) انظر: «الحضارة» لحبنكة (ص٦٦١- ٦٦٨).

(٢) «شمس العرب» (ص٢١٨).

المسلمين- هو ما فوجئت به الشعوب من سماحتهم، حتى إنَّ الملك الفارس «كيروس» نفسه قال: «إنَّ هؤلاء المنتصرين لا يأتون كمخربين» فما يدَّعيه بعضهم من اتهامهم بالتعصُّب والوحشية، إن هو إلَّا مجرد أسطورة من نسج الخيال تكذبها آلافٌ من الأدلة القاطعة عن تسامحهم وإنسانيتهم في معاملاتهم مع الشعوب المغلوبة» اهـ.

▫ أقول: أليس هذا من مظاهر الارتقاء الحضاري لدى المسلمين، مع أنهم هم المنتصرون الفاتحون، وأصحاب السيادة والسلطان؟!.

▫ وتُتْبعُ المستشرقة «زيغريد» بيانها هذا بقولها: «والتاريخ لا يقدم لنا في صفحاته الطوال إلَّا عددًا ضئيلًا من الشعوب التي عامَلَتْ خُصومَها والمخالفين لها في العقيدة بمثل ما فعل العرب -أي: المسلمون-».

وكان لَمَسْلَكِهم هذا أطْيَبُ الأثر، مما أتاح لحضارتهم أن تتغلغل بين تلك الشعوب بنجاح لم تحْظَ به الحضارة الإغريقيَّة ببريقها الزائف، ولا الحضارة الرومانية بعنفها في فرض إرادتها بالقوة»[1]اهـ.

▫ وجاء فيه عقب بيانها الموسع عن اتجاه الإمبراطورية الرومانية لمحاربة البحث العلمي في الظواهر الطبيعية لاكتشاف قوانين الكون وسننه، وأنَّ من الضلال البحث عن الحقيقة في غير الكتاب المقدس، والتفكير والتمحيص في أمور دنيوية، قولها: «وكان أكبر دليل مؤلم على هذا التفكير الغريب أعمدة الدخان، وألسنة اللهب التي اندلَعَتْ فوق الإسكندرية، كنز المعرفة الإغريقية على مرِّ العصور، والتي أصبحت حينذاك مركزًا للكنيسة المسيحية إلى جانب رومة.

---

(١) المصدر السابق (ص٣٥٧- ٣٥٨).

احمرَّت بنيرانها فوق دَلْتَا النيل، وأحْرِقت نفائس ثمينة لا تُعَوَّض، من الشعر، والأدب، والفلسفة، والتاريخ، والعلم، والثقافة الإغريقية.

أحرقتها وأبادتها جُموع من المسيحيِّين المتعصِّبين.

لقد ذهبَ جزء هام من المكتبة قبل ذلك، عام (٤٨ق.م) طعمةً للنيران أثناء حصار «يوليوس قيصر» ولكن «كليوباطرة» عوَّضت هذه الخسائر من مكتبة «برجامون Pergamon» وفي القرن الثالث الميلادي بدأت تَبْرُز التخريباتُ المبيتة ضدَّها، فأغلق أحد البطاركة المسيحيين مدرسة متحف الإسكندرية، وطَرَدَ طُلابها.

وفي أيَّام حكم القيصر «فالنس ٣٣٦م valens» حُوِّل المتحف إلى كنيسة، وسُلِبَتْ مكتبته، وطُوردَ فلاسفته بتهمة السحر والشعوذة.

وفي عام (٣٨١م) استصدر البطريرك «تيوفيلس Theophilos» من القيصر «تيودوسيوس Theodosius» إذنًا بتخريب السرابيون، أكبر ما تبقَّى من الأكاديميَّات وآخرها، وإشعال النيران في مكتبته الثمينة.

وبهذه الطريقة فقدت البشرية جزءً هامًّا من ثقافتها لا يُمْكِنُ تعويضه».

وقالت أيضًا: «وهكذا اختفت مراكز الحضارة الإغريقية واحدًا إثْر واحد.. وأُقفلت آخر مدرسة للفلسفة في آثينة عام (٥٢٩م) وأحرقت في رومة عام (٦٠٠م) مكتبة البلاتين، وهدم ما تبقى من آثار أبنية القدماء.

وعندما دخل العرب –أي: المسلمون– الإسكندرية عام (٦٤٢م) لم يكن هناك منذ زمن طويل مكتبات عامة كبيرة.

وأمَّا ما اتُّهم به قائدهم –عمرو بن العاص– من إحراقه لمكتبة

الإسكندرية، والذي يُعبَّرُ به حتى اليوم عن صُورةٍ مُفْزِعة للبرْبَرية والوحشية، فقد ثبت في أكثر من مناسبة، وبعد أبحاث مستفيضة أنَّه مجرد اختلاقٍ لا أساس له من الصحة.

إنَّ «عمرو بن العاص» فاتح الإسكندرية، هو نفسه «عمرو» الذي ضرب المثَلَ بتسامحه طَوال فتوحاته، وحرم النَّهْبَ والسَّلْب والتخريب على جنوده، وعَمِل ما كان غريبًا عن فَهْمِ الشرقيين القدماء والمسيحيين على السواء.

لقد ضمِنَ صراحةً للمغلوبين حُرِّيَّةَ ممارسة شعائرهم الدينية المتوارثة»[1] اهـ.

□ وجاء فيه في معرض مقارنتها بين حث الإسلام على العلم، واكتساب المعرفة الدنيوية بالإضافة إلى المعرفة الدينية، وتخوف المسيحيين من المعارف الدنيوية قولها: «مفهومان مختلفان، بل عالمان منفصلان تمامًا، حدَّدًا بهذا طريقين متناقضين للعلم والفكر، في الشرق والغرب.

وبهذا اتسعت الهُوَّةُ بين الحضارة العربية -أي: الإسلامية- الشامخة، والمعرفة السطحيـة المعاصرة في أوروبا حيث لا قيمة لمعرفة الدنيا كلها». -أي: إبَّان ازدهار حضارة المسلمين-.

□ وقولها بشأن رفض معلمي الكنيسة يومئذٍ فكرة كروية الأرض: «أمَّا ما يدعيه بعضهم من أن الأرض كروية فهو كفْرٌ وضلال، فمعلم الكنيسة «لاكتانتوس» Lactanius يتساءل مستنكرًا: «هل هذا من المعقول؟ أيُعْقلُ أن يُجنَّ الناس إلى هذا الحد، فيدخل في عقولهم أنَّ البلدان

---

(١) «شمس العرب» (ص٣٦٢- ٣٦٣).

والأشجار تتدلَّى من الجانب الآخر من الأرض، وأنَّ أقدام الناس تعلو رؤوسهم؟».

لقد كانت الأرض بالنسبة إلى بعض الناس تلَّا تدور الشمس حوله ما بين الشروق والغروب، وبالنسبة إلى الآخرين مسطحًا تحيط به المحيطات.

لقد قُضِيَ بهذا التفكير الساذج على تطور العقل البشري في العصور السابقة، وعاد عَصْرُ الملاحظَةِ البدائية والتفكير المشعوذ إلى الحياة من جديد.

ملعونٌ من يقتنع أو يقبل في ذلك العصر تفسيرًا علميًّا لحوادث الطبيعة. خارجٌ عن طاعة الرب من يشرح أسبابًا طبيعية لبزوغ كوكب، أو فيضان نهر، بل من يعلل علميًّا شفاءَ قَدَم مكسورة، أو إجهاض امرأة، فتلك كلها عقوبات من الله، أو من الشيطان، أو هي معجزات أكبر من أن نُدْرِكَ كُنْهَها!!.

وإذا كانت القوى الدينية -أي: المسيحية- قد كرَّسَت جهدها للهدف الديني، فإنها قد هبطت بالمعرفة الدنيوية، فابتعدت تمامًا عن الثقافية، والفكر الإغريقي، وانغمست في الخرافات والتُّرَّهات التي لن نستطيع اليوم أن نتَصَور مدَى انتشارها، وسيْطَرَتها على العقول الساذجة.

ولم تشمل هذه الحركة الرجعية العامة من الناس فحسب، بل إنَّ المتعلمين أيضًا لم يكن لهم من زاد عقلي سوى بعض الأساطير المليئة بالخرافات المقتبسة أسوأ اقتباس عن اللاتينية البربرية، أو عن قصص الإغريق وأساطير الشرق القديمة.

وما وصلت إليه الكنيسة وكَهَنَتُها في المجال الديني لم يكن عامِلَ إنقاذ

للحضارة بل كان عائقًا لها.

وظَلَّ الفِكْر الإغريقي بالنسبة إليهم غريبًا، فحوالي عام (٣٠٠م) عَلَّل أسقف قيصرية «أوزيبوس Eusebius» ذلك المسلك لعلماء الطبيعة من «الإسكندرية» و«برجامون» قائلًا: إنَّ موقفنا هذا ليس جهلًا بالأشياء التي تُعطونها أنتم كُلَّ هذه القيمة، وإنَّما لاحتقارنا لهذه الأعمال التي لا فائدة منها، لهذا فإننا نشغل أنفسنا بالتفكير فيما هو أجدى وأنفع.

ولقد كان الفكر الإغريقي يُمثِّل للمسيحيين شبحًا ملعونًا، فلم يقتربوا منه، بل حطَّموا جزءًا كبيرًا من تُراثه، وحرَموا منه البشرية.

حتى إنَّ الغرب اضطَّر بعد صحوته أن يبدأ من جديد، على الرغم من أن الحضارات القديمة، والهيلينيَّة [1] على الخصوص، كانت قد وصلَتْ في سالف أيامها إلى درجة كبيرة من الرقيّ.

وعلى الرغم من هذا فقد بدأ للسَّادةِ المهيمنينَ على الأمور ضرورةُ تحريم الكتب، التي تهتَمُّ بالأمور الحقيرة الدنيوية على المتعلمين ورجال الدين المسيحي.

ففي عام (١٢٠٦م) نبَّه مجمع رؤساء الكنائس المنعقد في باريس رجال الدين بشدَّة على عدم قراءة العلوم الطبيعية، واعتبر ذلك خطيئة لا تغتفر.

وقضى هذا التفكير الضيِّقُ على كل موهبة، وعاقَ كلَّ بحثٍ علمي، وأجْبَرَ كلَّ المفكرين الذين لا تتفق أعمالهم ومعتقدات الكنيسة هذه، على إنْكار ما قالوه من النظريات العلمية، وإلَّا كان مصيرهم الحَرْقَ العلني بالنار، لكفرهم وخروجهم على المعتقدات الإلهية -بحسب زعمهم

(١) الهيلينية: أي: اليونانية.

الفاسد-.

ومن هنا فقط يتَّضِحُ لنا تمامًا لماذا احتاجت الحضارة في الغرب ألفًا من السنين، قبل أن تبدأ بالازدهار تدريجيًّا، مع أنَّها قد كانت لدَيْها فرصةٌ مناسبة لتبدأ قبل الحضارة العربية -أي: حضارة المسلمين- بقرنين أو ثلاثة.

وما قاله «هيجل Hegel» عن بوم «منيرڤا» الذي لا يبدأ طيرانه إلَّا عند الغَسَق، ينطبق على التراث اليوناني السائر إلى الوراء حينذاك، بل ينطبق انطباقًا أكثر على العلوم في الغرب التي ظلَّت في دور الحضانة ألفًا من السنين.

وهو لا ينْطَبِقُ على التطور العربي -أي: تطور المسلمين- ذلك لأن العلوم عندهم لم تكن قطُّ ثمرَةً متأخِّرةً لشجرة الحضارة.

فما أن انقضى قَرْنٌ واحدٌ من الزمان على الفتوحات الإسلامية حتى ازدَهَرَتْ حضارةُ العرب -أي: المسلمين- وآتت أُكُلَها مُكْتملةً ناضجة»[1]اهـ.

□ وجاء فيه أيضًا قولها: «لقد أحاط العرب -أي: المسلمون- الكتبَ بقلوبهم، حتى المؤلفات الفنيَّة الدقيقة في الهندسة والميكانيكا والطبَّ والفلك والفلسفة.

وكما تطْلُبُ الدولةُ المنتصرة من الدولة المنهزمة تسليم أسلحتها وسُفُنها الحربية، شرْطًا أساسيًّا لعَقْدِ الصُّلح، هكذا طلب «هارون الرشيد» بعد احتلاله لعمُّوريَّة وأنقرة تسليم المخطوطات الإغريقية

---

(١) «شمس العرب» (ص٣٧٠- ٣٧٢).

القديمة.

وكما يَسْتولي المنتصرون اليوم على المناجم، والصناعات الحربية الهامَّة، والأسلحة المدمِّرة مع مخترعيها، نرى «المأمون» بعد انتصاره على «ميخائيل الثالث» قيصر بيزنطية، يُطالبُ بتسليم أعمال الفلاسفة القدماء، التي لم تَتِمَّ ترجمتُها بعد العربية، ويعتبر ذلك بديلًا عن تعويضات الحرب.

إنَّها أسلحة تُسَاهِمُ في بناء المجد.

وما دام الأمراء العرب قد شُغِفُوا بأوراق البرْدي والبرجامون نصف الممزقة، فإنَّه لم يكن هناك من طريق لكسب صداقتِهم أنجح من إهدائهم بعض لفائف، الكُتب التي تراكم الترابُ فوقها.

هذا ما فكر به قاطنو البوسفور، فأرسلوا إلى «عبد الرحمن الثالث» أمير الأندلس، حقيبةً كبيرة -بغية توطيد الصداقة معه- وهذه الحقيبة ملأَى بالمخطوطات القديمة، ومن بينها تعاليم الطب والعلاج لـ «ديسقوريدس Diosktrides» وكان ثمن بيع هذا الفكر القديم باهظًا، ولكن العرب -أي: المسلمين- كانوا على استعداد لدفع الثمن مهما كان.

وأُرْسلت البعثاتُ الخاصة من بغداد، للبحث عن كنوز العلم، حاملةً أكياسًا من النقود، إلى بيزنطية والهند، إذ قام المتعلِّمُون من مختلف البلدان بدور السماسرة.

وأصبح اقتناء المخطوطات التي لم تُتَرْجم حتى ذلك الحين هوايةَ الأمراء، والوزراء، وسَراةِ القوم. فضَحَّوْا بمبالغ طائلةٍ في بلاد الإغريق وآسية الصغرى، وفي كل مكانٍ وطِئَتْهُ أقدامُ الإغريق يومًا ما، عن طريق بعثات العلماء، أو عن طريق عملائهم الخاصين.

أجل لقد دفعوا ثمنًا باهظًا وجدوه باقيًا من الآثار العلمية، وكان قد نجا من أعمال التخريب الفظيعة الشائنة.

واستطاع العرب -أي: المسلمون- كذلك أن يكشفوا كثيرًا من الكنوز، ففي قَبْو مظلم تسْكُنه الفئران والعناكب في الإسكندرية، عثَرَ القومُ بين حجريْن هائلَين على كتابٍ في فُنونِ الحرْبِ، وعثَرُوا على كتاب آخر في قدْرٍ مغْلَقةٍ تحت جُدْران دَيرٍ سوري.

وفي آسية الصغرى، وعلى مسير ثلاثة أيام بيزنطية، عثر «محمد بن إسحاق» على مكتبة ضخمة في مَعْبَدٍ قديم كبير، له بابٌ لم يَرَ من قبل بابًا حديديًّا في ضخامته.

لقد أنشأ الإغريق هذا المعبد يوم كانوا يعبدون النجوم والأوثان، وقدَّموا فيه القرابين لآلهتهم.

□ ويتحدَّث «محمد بن إسحاق» عن مجهوده في هذا السبيل، باعتباره مندُوبًا عربيًا في البلاط البيزنطي، فيقول: «لقد رجَوتُ الحاكم أنْ يفتح لي هذا المعبد، ولكنه ماطلَ في ذلك؛ لأن أبواب هذا المعبد لم تُفْتَحْ منذ انتحلوا المسيحية، ولكنَّني لم أكُفَّ عن إغرائه، فعاودتُه في مناسبات عدة، وطلبت إليه ذلك كتابةً ومشافهةً في جلسة من جلسات بلاطه التي اشتركت فيها.

وأخيرًا وافق على فتحه، فرأيت في هذا المبنى المشيد بأحجار المرمر الفاخرة، رأيتُ على حوائطه من الكتابات والرسوم ما لم أرَ أفخم ولا أَجمل منه، ومن المخطوطات القديمة شاهدتُ هناك ما يُحمِّلُ جمالًا، إنَّها تقارب الألف كتاب، وكان جزءٌ منها ممزقًا، وكان الجزء الآخر نصيبًا

للديدان».

إنَّ ما قام به العرب -أي: المسلمون- لهُوَ عَمَلٌ إنقاذيٌّ له مغزاه في تاريخ العالم.

إنَّها حضارةٌ قد هَوَتْ وتحطَّمَتْ، وكانت على وشك الفناء أمام أعيُن صانعيها الذين صار لهم هدفٌ آخر يَسْعَون إليه، وهذا الهدف لا يمُتُّ لهذا العالم بصلة.

فما بقي من هذه الحضارة يَجبُ أنْ تشكُرَ عليه البشريَّة اليوم العربَ -أي: المسلمين- وحُبَّهُم للعلم، ولا يَعُودُ لبيزنطية فيه إلَّا فضل قليل»[١]اهـ.

وشهد شاهدٌ من أهلها:

□ يقول «جوزيف رينو» في كتابه «الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا» كوسيلة من وسائل نقل الحضارة: «عندما استقر المسلمون في القرن التاسع الميلادي في بروفانس وفي دوفيني وسافواي، وفي سويسرا، كانوا قد قطعوا أشواطًا في العلوم والفنون، ويتقدمون بطريقة عجيبة. ومما لا جدال فيه أن مسلمي الأندلس وصقلية، ومسلمي أفريقيا الشمالية، كانوا أكثر تقدمًا من سكان فرنسا والبلدان المجاورة، حيث كانت هذه البلدان كلها تعاني من الفوضى ومن كل أنواع البؤس التي تلازمها.

فمن ذا الذي لم يسمع بعظمة مسجد قرطبة، ومن ذا الذي يجهل ما شيده المسلمون من الجسور، وما شقوه من الأنهار والقنوات لري

---

(١) «شمس العرب» (ص٣٧٥- ٣٧٧).

الأرض، وما شيدوه من الآثار العظيمة في الأندلس ابتداء من النصف الثاني للقرن الثامن الهجري؟!

وعظمة المسلمين وتفوقهم لا تتجلى في الفنون وحدها، حيث أن عبقريتهم قد برزت في العلوم أيضًا -العلوم التي لا يمكن أن تقوم دعائم حضارة بدونها، فقد كان العرب يملكون ذخائر علوم الأولين وكنوزهم، وكانوا قد ترجموا إلى العربية كتب أرسطو وأبقراط وجالينوس ودسقوريدس وبطليموس وغيرهم، وأضافوا مساهمات ثمينة إلى ما اكتشفه الأولون.

وهكذا، فقد كان تفوق العرب حقيقة لا مراء فيها، ويعترف بها المسيحيون أنفسهم.

وقد حفظ لنا التاريخ قصة «شانجة Sanche» ملك ليون الذي طلب إذنًا من عبد الرحمن الثالث، عندما أصيب بمرض عضال في سنة ٩٦٠م، ليقصد قرطبة ملتمسًا الاستشفاء على يد الأطباء المسلمين، ويضيف المؤرخون أن شانجة قد وجد عند هؤلاء العناية، وفي علمهم المساعدة التي كان ينشدها، وقد ظل طوال حياته يذكر الحفاوة التي قوبل بها والاهتمام الذي أحيط به.

وفي غضون تلك الفترة نفسها، كان قسيس اسمه «جيربر Gerbert» قدر له أن يصبح البابا «سيلڤستر الثاني Sylvester» قد قصد إلى الأندلس ليطلب العلوم الطبيعية والرياضية. وقد حصل من تلك العلوم وغيرها حظًا عظيمًا، بحيث اعتبرته عامة الناس في فرنسا ساحرًا.

على أن عددًا صغيرًا من الفرنسيين استطاع الاغتراف من معين الثقافة

والعلوم العربية في الأندلس، في الوقت الذي ظلت فيه الجماهير غارقة في ظلمات الجهالة في فرنسا.

إن نشر النفوذ الحضاري العربي الحقيقي في فرنسا والبلاد المجاورة لها، قد بدأ بعد ذلك، أي ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي، ولا سيما في أعقاب الحروب الصليبية، وبعد الاحتكاك الذي وقع بين الإسلام والمسيحية، والشعوب الشرقية والشعوب الغربية التي من بينها الشعوب الفرنسية والإنجليزية والألمانية -تلك الشعوب التي بدأت تخرج من سباتها العميق، وشرعت في أبداء رغبتها في الاستفادة مما حققته الحضارة العربية من التقدم.

كانت العلوم اليونانية في ذلك الوقت قد انمحت من أوروبا، ولكنها كانت مترجمة ومحفوظة عند العرب. وكذلك اتجه المسيحيون من فرنسا والبلدان المجاورة لها إلى أسبانيا ليتعلموا تلك العلوم العربية، لينقلوها إلى اللغة اللاتينية التي كانت يومئذٍ لغة العلم في أوروبا. وهذه الكتب المترجمة هي التي ستدرس في الجامعات الأوروبية حتى القرن الخامس عشر.

سوف لا نتوقف لدرس مختلف الأشياء المحفوظة بعناية في فرنسا والتي يرجع تاريخها إلى العهد العربي، وهذه الآثار تتكون، خصوصًا، من أقمشة الحرير، وصناديق العاج أو الفضة، وكؤوس البللور وأسلحة.. إلخ، وجزء كبير من هذه التحف لا يزال محفوظًا في الكنائس ولدى الهواة لجمع التحف الأثرية.

لقد ظل الناس في فرنسا والبلدان المجاورة لها، أجيالًا طويلة، وهم لا يفكرون إلَّا في عظمة الفكر الإسلامي، وفي قوة المسلمين واتساع آفاق

فتوحاتهم.

وكذلك كان الرأي العام يعزو إلى العرب كل ما هو عظيم وضخم من المنجزات العمرانية.

◻ لقد جاء المسلمون إلى فرنسا قبل النورمانديين والهنغاريين، وقد استمر وجودهم فيها، بعد غارات هؤلاء وأولئك. والفتوحات الإسلامية كانت تكتسي طابعًا من الجلال والعظمة بحيث لا يمكن أن يقرأ إنسان أخبارها أو يسمع رواياتها دون أن تهتز نفسه لها، فعلى عكس النورمانديين والنهغاريين، كان المسلمون، أجيالًا طويلة، في طليعة قافلة الحضارة في العالم»[1].

◻ لقد ذكر «جوزيف رينو» ما ذكره الناس في فرنسا عن البابا «سلفستر الثاني»، الذي درس العلوم الطبيعية والرياضية على يد المسلمين في الأندلس، إذا اعتبروه ساحرًا، وخاصة عندما كان يدهشهم بتجاربه في الكيمياء والفيزياء.

◻ أمَّا «لويس يونج»، فإنه يعطي تفصيلًا عن الفكر الأوروبي في ذلك الوقت، والذي استمر حتى القرن السابع عشر، لا يملك إلَّا أن يعزو كل ما كان يجهله إلى الشيطان وألاعيبه، وما جنون ظاهرة تعقب النساء المتشيطنات ببعيد.

◻ يقول «بونج»: «لقد أغنى الرياضيون العرب العالم بالمعرفة في جميع المجالات، وبخاصة الأفكار والملاحظات الرياضية.

وأحد أوائل الأوربيين الذي أخذوا بالأرقام العربية كان «جربرت»،

(١) «الفتوحات الإسلامية في فرنسا» (ص٢٥١- ٢٥٦، ٢٦٤- ٢٦٥) لجوزيف رينو.

الذي أصبح فيما بعد (في عام ٩٩٩م) البابا «سيلفستر الثاني» (ولد ٩٤٥- وتوفي ١٠٠٣م). سافر جربرت هذا بين عامي (٩٦٧- ٩٧٠م) إلى أسبانيا، حيث درس العلوم، وألف بعد ذلك كتابًا يشرح فيه كيفية استخدام الأرقام العربية.

إلَّا أن أوروبا لم تلق بالًا إلى هذا النظام الجديد، بل كان ينظر إلى «جربرت» بعين الشك؛ لأنك درس على يد العرب في أسبانيا، وعلى المستوى الشعبي كان يشك في أنه يمارس السحر.

ولقد رويت عنه كثير من الروايات الخارقة، فقيل: أنه كان يغادر الدير ليلًا، ويطير في الهواء إلى أسبانيا حيث يدرس الفلك والفنون السحرية، ثم يعود إلى حجرته قبل بزوغ الفجر.

كما كان يظن بأنه تعلم إحضار الأرواح من جهنم، وأنه يحتفظ بكتاب سحر حصل عليه بالمكر والخديعة من ساحر عجوز، وأنه رهن روحه للشيطان لكي يحميه من انتقام هذا الساحر العجوز.

وبعد فترة طويلة من الزمن تبنت أوروبا الأرقام العربية، نتيجة أعمال «ليوناردو فيبوناتشي» من بيزا، الذي توفي عام ١٢٤٠م، وكان فيبوناتشي رياضيًا، درس الرياضيات على يد معلم عربي، في شمال أفريقيا، وأصدر كتابًا يشرح فيه نظام الأرقام العربية عام ١٢٠٢م، وكان ذلك بداية تبني أوروبا للأرقام العربية، وبداية لعلم الرياضيات الأوروبي»[(١)].

□ وبقيت كلمة نقولها: أن رجال الكنيسة أرادوا من العلماء الطاعة العمياء لهم، وقد أدخلوا في دينهم ما ليس منه، واعتبروا أي مخالفة لذلك

(١) «العرب وأوروبا» (ص١٢٥).

إنما هي هرطقة وكفر جزاؤهما الإحراق في الدنيا رحمة بالمذنبين، بدلًا من الإحراق الأبدي في الآخرة.

ويعبر عن هذا المنطق الرهيب «تور كويمادا» (١٤٢٠- ١٤٩٨م)، رئيس محاكم التفتيش في أسبانيا، الذي كان «يبرر إحراق مئات الزنادقة والسحرة على الخازوق، وتعريف الزنادقة والسحرة وكل منشق على الكنيسة الكاثوليكية أو رافض لها في العقيدة أو السلوك أو المصالح، بقوله: نحن نحرقك في الدنيا رحمة بك حتى ننقذك من النار الأبدية في الآخرة!».

ولقد كان من نتيجة تطبيق هذا الفكر الكنسي الرهيب أن تعرض الكثير للتعذيب أو الإحراق أو كليهما معًا، ونكتفي أخيرًا بذكر هذا المثال:

□ في عام ١٤١٥م أحرقت الكنيسة «جون هس» أعظم واعظ بالإنجيل في بوهيميا، وقد كان رئيسًا لجامعة براغ التي كانت آنذاك أعظم جامعات أوروبا بعد باريس وأوكسفورد. ولقد أدين أمام مجمع كونستانس (١٤١٤- ١٤١٨م) بتهمة الهرطقة وعومل في السجن بوحشية ثم أحرق حيًّا!.

الطب عندهم من المُضحِكات المُبكِيات:

□ قال الدكتور «ماكس مايرهوف» المستشرق الألماني عن حالة المستشفيات في أوروبا في العصر الذي كانت فيه المستشفيات في حضارتنا كما وصفناها.. قال الدكتور «ماكس»: «إن المستشفيات العربية ونظم الصحة في البلاد الإسلامية الغابرة لتلقي علينا الآن درسًا قاسيًا مرًّا لا نقدره حق قدره إلَّا بعد القيام بمقارنة بسيطة مع مستشفيات أوروبا في

ذلك الزمن نفسه». مرَّ أكثر من ثلاثة قرون على أوروبا، اعتبارًا من زمننا هذا، قبل أن تعرف للمستشفيات العامة معنى، ولا نبالغ إذا قلنا: بأنه حتى القرن الثامن عشر (١٧١٠م) والمرضى يعالجون في بيوتهم أو في دور خاصة كانت المستشفيات الأوربية قبلها عبارة عن دور عطف وإحسان، ومأوى لمن لا مأوى لديه، مرضى كانوا أم عاجزين، وأصدق مثال لذلك هو مستشفى «أوتيل ديو» بباريس، أكبر مستشفيات أوروبا في ذلك العصر، وصفه كل من «ماكس» توردو وتينون بما يلي: «يحتوي المستشفي على ١٢٠٠ سرير، منها ٤٨٦ خصصت لنفر واحد، أما الباقي -ولم تكن سعة الواحد منها تتجاوز خمسة أقدام- فتجد فيها عادة ما يتراوح بين ثلاثة مرضى وستة، وكانت الردهات الكبرى عفنة كثيرة الرطوبة، لا منافذ تهوية فيها، مظلمة دومًا، ترى فيها في كل حين حوالي ثمانمئة مريض يفترشون الأرض وهم مكدسون بعضهم فوق بعض، على القاع أو على كوم من القش، في حالة يرثى لها.. إنك لتجد في السرير ذي الحجم المتوسط أربعة أو خمسة أو ستة مرضى متلاصقين، قدم أحدهم على رأس الثاني، تجد أطفالًا بجانب شيوخ، ونساءً بجانب رجال، «قد لا تصدق لكنها الحقيقة» تجد امرأة في المخاض مع طفل في حالة تشنج مصاب بالتيفوس يحترق في بحران الحمى، وكلاهما إلى جنب مريض بداء جلدي يحك جلده المهترئ بأظفاره الدامية فيجري قيح البثور على الأغطية. وطعام المرضى من أخس ما يتصوره العقل، يوزع عليهم بكميات قليلة للغاية، وفي فترات متباعدة لا نظام فيها. واعتادت الراهبات أن يحابين المرضى الطائعين المنافقين على حساب الآخرين، فيسقينهم الخمور، ويصلنهم بالحلوى والمآكل الدسمة مما يتفضل به المحسنون في الوقت

الذي هم فيه أحوج إلى الحمية، فيموت الكثير منهم بالتخمة ويفطس غيرهم جوعًا. وكانت أبواب المستشفى مفتوحة في كل وقت وحين لِكُلِّ رائحٍ وغادٍ وبهذا تنتشر العدوى بانتقالها، وبالفضلات وبالهواء النتن الملوث. وإن لم يتفضل المحسنون على المرضى ماتوا جوعًا، كما يموتون أحيانًا بالتخمة أو من فرط السكر، والفرش حافلة بالحشرات الدنيئة وهواء الحجرات لا يطاق لفساده، حتى أن الخدم والممرضين لم يكونوا يجرؤون على الدخول إلَّا بعد وضع إسفنجة مبللة بالخَلِّ على أنوفهم. وتترك جثث الموتى ٢٤ ساعة على الأقل قبل رفعها من السرير المشاع، وكثيرًا ما تتفسخ الجثة وتتعفن وهي ملقاة بجانب مريض يكاد يطير صوابه».

هذه مقارنة بسيطة بين حالة المستشفيات عندنا في عهود حضارتنا، وحالتها عند الغربيين في تلك العصور، وهي تدل على مبلغ الانحطاط العلمي الذي كان عليه القوم، والجهل الفاضح بأصول المستشفيات، بل بقواعد الصحة العامة البديهية. وإنا لنرى فيما يرويه العربي أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار، مبلغ جهل الغربيين الصليبيين بالطب، ومبلغ على أطبائهم بشكل مضحك، من الحادثتيْن التاليتين:

□ ومن عجيب طبهم «الفرنج» أن صاحب المنيطرة كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه. فأرسل إليه طبيبًا نصرانيًّا يقال له: ثابت، فما غاب عشرة أيام حتى عاد، فقلنا له: ما أسرع ما داويت المرضى، قال: أحضروا عندي فارسًا قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف، فعملت للفارس لبخة ففتحت الدملة وصلحت، وحميت المرأة ورطبت مزاجها، فجاءهم طبيب إفرنجي، فقال لهم: «هذا

ما يعرف شيء يداويهم»، وقال للفارس: أيما أحب إليك، تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ قال: أعيش برجل واحدة. قال: أحضروا لي فارسًا قويًّا وفأسًا قاطعًا، فحضر الفارس والفأس، وأنا حاضر، فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس: اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة واقطعها. فضربه وأنا أراه ضربة واحدة ما انقطعت. ضربه ضربة ثانية.. سال مخ الساق ومات من ساعته، ثم ينطلق ليروي كيف أن هذا الطبيب الصليبي أمر بتغطيس المرأة بماء مغلي فماتت لساعتها».

□ ونختم هذا الحديث بالنتائج التي نحب أن نلفت الأنظار إليها بعد هذه المقارنات، أننا في حضارتنا كنا أسبق من الغربيين إلى تنظيم المستشفيات بتسعة قرون على الأقل، وأن مستشفياتنا قامت على عاطفة إنسانية نبيلة لا مثيل لها في التاريخ ولا يعرفها الغربيون حتى اليوم، وأننا كنا أسبق الأمم إلى معرفة ما للأدب المضحك والإيحاء الذاتي من أثر بالغ في شفاء المرضى، وأننا بلغنا في تحقيق التكافل الاجتماعي حدًّا لم تبلغه الحضارة الغربية حتى اليوم حين نجعل الطب والعلاج والغذاء للمرضى بالمجان، بل حين كنا نعطي الفقير الناقه من المال ما ينفق على نفسه حتى يصبح قادرًا على العمل، إن هذه نزعة إنسانية بلغنا فيها الذروة يوم كنا نحمل لواء الحضارة، فأين نحن منها اليوم، وأين منها هؤلاء الغربيون؟[1].

إنجلترا وباريس في القرن العاشر الميلادي «الرابع الهجري»:

□ جاء في التاريخ العام لـ«لأفيس» و«رامبو» ما يلي: كانت إنجلترا

(١) «من روائع حضارتنا» (ص١١٦ - ١١٨).

الإنجلوسكسونية في القرن السابع الميلادي إلى ما بعد العاشر فقيرة في أرضها منقطعة الصلات بغير بلادها، سمجة وحشية، تبني البيوت بحجر غير منحوت، وتشيدها من تراب مدقوق، وتجعلها في وطاء من الأرض، مساكن ضيقة المنافذ، غير محكمة الإغلاق، واصطبلات وحظائر لا نوافذ لها، تقرض الأمراض والأوبئة المتكررة المواشي والسائمة وهي المورد الوحيد في البلاد، ولم يكن الناس أحسن مسكنًا وأمنًا من الحيوانات، يعيش رئيس القبيل في كوخه مع أسرته وخدمه ومن اتصل به، يجتمعون في قاعة كبرى في وسطها كانون ينبعث دخانه من ثقب فتح في السقف فتحًا غليظًا، ويأكلون كلهم على خوان واحد، يجلس السيد وقرينته في أحد أطراف المائدة، ولم تكن الشوكات معروفة، وللأقداح حروف من أسفلها، فكان على كل مدعو أن يمسك بيده قدحه، أو يفرغه في فيه دفعة واحدة وينتقل السيد إلى غرفته في المساء بعد أن يتناولوا الطعام ويعربدوا على الشراب، ثم ترفع المنضدة والصقالات وينام جميع المجتمعين في تلك القاعة على الأرض أو على دِكَك، واضعًا كل فرد سلاحه فوق رأسه؛ لأن اللصوص كانوا من الجرأة بحيث يقتضي على الناس أن يقفوا لهم بالمرصاد كل حين لئلا يؤخذوا على غرة.

وكانت أوروبا في ذلك العهد غاصة بالغابات الكثيفة،متأخرة في زراعتها، وتنبعث من المستنقعات الكثيرة في أرباض المدن روائح قتالة، تجتاح الناس وتحصدهم. وكانت البيوت في باريس ولندن تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب «كبيوت القرى عندنا منذ نصف قرن» ولم يكن فيها منافذ ولا غرف مدففة، وكانت البسط مجهولة عندهم، لا بساط لهم غير القش ينشرونه على الأرض، ولم يكونوا يعرفون

النظافة، ويلقون بأحشاء الحيوانات وأقذار المطابخ أمام بيوتهم فتتصاعد منها روائح مزعجة، وكانت الأسرة الواحدة تنام في حجرة واحدة تضم الرجال والنساء والأطفال، وكثيرًا ما كانوا يؤوون معهم الحيوانات الداجنة، وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القش فوقه كيس من الصوف، يجعل مخدة أو وسادة، ولم يكن للشوارع مجار ولا بلاط ولا مصابيح، ولم تكن أكبر مدينة في أوروبا تضم أكثر من خمسة وعشرين ألفًا.

هكذا كان الغرب في القرون الوسطى حتى القرن الحادي عشر فما بعده، باعتراف مؤرخيهم أنفسهم»[1].

---

(١) «من روائع حضارتنا» (ص١٣٢ - ١٣٣).

وما تزال خَلِيَّة الإسلام تَعْسِل

لا تزال دوحة الإسلام وارفة الظلال، وما تزال خَليَّة الإسلام تعسل، سَنُطِبُّ المريض بدوائنا، صُمَّت أُذُنُ الدنيا إنْ لم تسمع لنا، ما عَقِمت أُمُّ الفتيان، ولله أوسٌ آخرون وخزرجُ، وفجر الإسلام وحضارته آت نوقن به أكثر من يقيننا بوجودنا.. والإسلام معطاء ولود.. كل يوم -حتى في وسط الظلمات- تهل تباشير الصباح.. وهناك أناس وأبناء له يبعثون الأمل على قدرة الإسلام وأبنائه على تبوُّء أعلى القمم في ميادين الحياة، وهذه أمثلة ناصعة البياض.. عطرة.. تبرهن أعظم البراهين على ما نقول:

الدكتور علي مصطفى مشرَّفة عالم الذَّرَّة الفريد يحفظ القرآن الكريم والصحيحين:

□ لما سمع أينشتين بخبر موته لم يصدق، ثم قال: «كلا.. كلا، لا تقولوا: إنَّ مشرَّفة مات.. إنها خسارة جسيمة»!! ووصفه بواحد من أعظم علماء الفيزياء [(١)]. ونعته الإذاعة في أمريكا على أنه «واحد من سبعة علماء في العالم يعرفون أسرار الذرة!!»[(٢)].

إنه العالم المصري المسلم الدكتور علي مصطفى عطية أحمد مشرفة، من روَّاد علوم الرياضيات والفيزياء.

نشأته ورحلته العلمية:

وُلِدَ مشرفة سنة ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م في حي المظلوم بمدينة دمياط.

---

(١) «١٠٠ عالم غيَّروا وجه العالم» (ص١٧٩).

(٢) «مشرَّفة بين الذَّرة والذُّروة» لمحمد الجوادي (ص٥٦)-مكتبة مدبولي.

وكان والده من ذوي اليسر والجاه، وهو ما جعل مشرفة يقضي سنواته الأولى في رغد من العيش وهناءة البال، غير أن تلك الحياة الرغدة لم تدم طويلًا.. ففي سنة ١٩٠٩م توفي والده بعد تعرضه لأزمة مالية أودت بكل ما تملك الأسرة، وكان ذلك قبل امتحان الشهادة الابتدائية لمشرفة بثلاثة أشهر، ولكنه تغلب على الصدمة ونال الابتدائية بتفوق وكان ترتيبه الأول على القُطْر المصري!!

انتقلت الأسرة بعد ذلك إلى القاهرة، وقبل امتحان البكالوريا بشهرين تُوفيت والدته، ولكنه بنفس العزيمة حصل على شهادة البكالوريا بتفوق، وكان ترتيبه الثاني على القطر المصري، وذلك سنة ١٩١٤م!![1].

آثر مشرفة أن يلتحق بمدرسة المعلِّمين العليا؛ فحصل على دبلومها سنة ١٩١٧م، وكان ترتيبُه الثاني على الدبلوم. وقد أهَّله هذا التفوق ليُختار ضمن بعثة علمية إلى إنجلترا، فالتحق بكلية «نوتنجهام» بجامعة لندن، فحصل منها على درجة البكالوريوس في الرياضة مع مرتبة الشرف، وكان الحصول على هذه الشهادة يحتاج أربع سنوات من الدراسة، إلَّا أن مشرفة اختصرها في ثلاث سنوات فقط، فحصل عليها سنة ١٩٢٠م!![2].

وفي فبراير سنة ١٩٢٣م حصل مشرفة على درجة الدكتوراه في فلسفة العلوم (ph.D) البريطانية، من جامعة لندن في أقصر مدة تسمح بها قوانين

---

(١) «١٠٠ عالم» (ص١٧٩)، «مشرفة بين الذرة والذروة» (ص٥٢، ٢٦).
(٢) «مشرفة بين الذرة والذروة» (ص٢٧)، «١٠٠ عالم» (ص١٧٩).

الجامعة، وأصبح عضوًا في الجمعية الملكية البريطانية وأخذ يحاصر العلماء من أعضاء الجمعية ولم يتجاوز بعدُ الخامسة والعشرين من عمره!! (١).

على أن آمال مشرفة في الحصول على درجة «الدكتوراه في العلوم (D.Sc) ظلت تُلِحُّ عليه، فواصل ليله بنهاره في صيف سنة ١٩٢٣م حتى انتهى من إعداد أطروحة دكتوراه العلوم في شهر سبتمبر، فعرضها على أستاذه السير «ريتشاردسون» «أكبر علماء الطبيعة في عصره»، ولم تكن جامعة لندن تسمح بدخول امتحان هذه الدرجة إلَّا بعد مرور عامين – على الأقل- من حصول الطالب على درجة دكتوراه الفلسفة في العلوم، وتقدم مشرَّفة – بناء على نصيحة أساتذته- يلتمس إذنًا خاصًا من مجلس إدارة الجامعة يمكِّنه من دخول الامتحان في أقرب فرصة؛ نظرًا لأنه نشر أبحاثًا عملية جليلة القدر، وفي الحادي والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٢٣م وافق مجلس إدارة جامعة لندن للدكتور مشرفة على أن يؤدي هذا الامتحان بصفة استثنائية في الرابع والعشرين من يناير سنة ١٩٢٤م، وأدَّى مشرفة الامتحان في الموعد المحدد، وأُعلِنَت نتيجةُ الامتحان في مارس سنة ١٩٢٤م بحصول الدكتور مشرفة على الدكتوراه في العلوم؛ وبذلك أصبح مشرفة العالِم الحادي عشر في العالَم الذي يحصل على هذه الدرجة، وأول عالم مصري يحصل على هذه المكانة الرفيعة!! (٢).

رجع مشرفة إلى مصر؛ وعُيِّن مدرِّسًا للرياضيات التطبيقية بكلية العلوم بجامعة القاهرة، ثم مُنِح درجة «أستاذ» في عام ١٩٢٦م رغم

---

(١) «مشرفة بين الذرة والذروة» (ص٢٨).

(٢) «مشرفة بين الذرة والذروة» (ص٢٨).

اعتراض قانون الجامعة على منح اللقب لمن هو أدنى من الثلاثين!! وكان بذلك أول أستاذ مصري في كلية العلوم، ولَمَّا يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره!! وقد اعتُمِدَ عميدًا للكلية في عام ١٩٣٦م، وانتُخِبَ للعمادة أربع مراتٍ متتاليات، كما انتُخِبَ وكيلًا للجامعة سنة ١٩٤٥م [(١)].

وقد تمتعت كلية العلوم في عصره بشهرة عالمية واسعة؛ حيث عني عناية تامة بالبحث العلمي وإمكاناته، فوفَّر كل الفرص المتاحة للباحثين الشباب لإتمام بحوثهم، ووصل به الاهتمام إلى مراسلة أعضاء البعثات الخارجية، وسمح لأول مرة بدخول الطلبة العرب الكلية، وكان من أهم أعماله أيضًا أنه أنشأ قسمًا للترجمة العلمية بالكلية؛ لأن الدراسة كانت باللغة الإنجليزية، وكان يهدف من وراء ذلك إلى ترجمة المراجع العلمية إلى اللغة العربية، حتى يمكن تمصير الكلية والمعاهد العليا بوجه عام، وحتى تكون اللغة العربية هي لغة التعليم بدلًا من الإنجليزية. كما حوَّل مشرفة الدراسة في قسم الرياضيات التطبيقية الذي يرأسه والرياضيات البحتة باللغة العربية!! [(٢)].

سمْتُه وثقافته:

أبرز ما كان يميز مشرفة ما كان من تمسكه بدينه منذ صغره، وبعد سفره، وقد تجسَّد ذلك في حفظه القرآن الكريم والصحيحين، واستشهاده بذلكم في سائر كلامه، كما عُرِف عنه مواظبته على أداء فروض الدين، وكان يحتفظ في جيبه بمصحف صغير على الدوام، وكان يؤتي الزكاة

---

(١) المصدر السابق (ص٣٠)، «مسلمون علَّموا العالم» لمحمد عثمان علي (ص٧٠).

(٢) «مسلمون علموا العالم» (ص٧٠)، و«مشرفة بين الذرة والذروة» (ص١٣٦).

مضاعفةً ما استطاع، وفي الخفاء، ولما مات جاءت مجموعة من الطلبة الصوماليين يواسون أسرته، وهم يبكون على مشرَّفة وعلى مستقبلهم الذي ظنوه سيضيع بوفاة عائلهم الذي تكفَّل بنفقات تعليمهم من دون أن يعلم أحدٌ عن ذلك شيئًا، ولم يكن هذا التدين غريبًا عن مشرفة وهو العالم الذي تعمق في العلوم، ووقف على أسرار الكون وخلق الله [1].

وكانت ثقافة مشرَّفة الدينية مثلًا فريدًا، ليس عند العلماء الذين تستهويهم الثقافات الدينية، ولكن عند علماء الدين أنفسهم، فقد حفظ مشرفة القرآن، والتوراة والإنجيل -المحرَّفَيْن-، واستطاع أن يدرس الإسلام واليهودية والنصرانية دراسة مقارنة، وكان عقله جاهزًا في كل حين لاستحضار الصورة الكاملة للمفاهيم الدينية المختلفة في أية قضية من القضايا، ولم يكن مشرفة يبهر علماء الأديان بثقافته تلك فحسب، وإنما كان يناظرهم ويقارعهم الحجَّة وينتصر عليهم في كثير من الأحيان!!

والذين يتتبعون مشرفة في حياته كلها يجدون في نفوسهم إحساسًا قويًّا بأن مشرفة عمل ودرس، وسعى وجاهد، وقرأ وبحث، وكشف وكتب وحاضر ابتغاءَ مرضاةِ الله [2]، على أن الأمر في مثل هذه النية لا يقف عند الإحساس الذي يجده المتتبعون، وإنما حفظ لنا الدهر عبارةً في خطابٍ كتبه مشرَّفة إلى صديقٍ لوالده يقول فيه: «أَمَا وقد تطوَّرت في طَوْر جديد من أطوار حياتي أسأل الله أن يجعله سبيلًا إلى تقواه، ومعينًا على طاعته،

---

(١) «مشرفة بين الذرة والذروة» (ص٤٥).

(٢) نحسبه كذلك ولا نزكِّي على الله أحدًا من عباده.

ومقرِّبًا من جنة رضوانه!!»[١].

وقد أجاد الدكتور مشرفة اللغة الإنجليزية، لا إلى الحد الذي يعبر عنه الناس فيقولون: «أتقنها كواحد من أهلها» فحسب، ولكن إلى الحدِّ الذي شجع الإنجليز أنفسهم على اختياره رئيسًا لجمعية المناقشات في الكلية الملكية، وكان مشرفة بالطبع أول أجنبي يُختار لهذا المنصب، وقد عُرِفَ مشرفة في هذه الجمعية بقلب Pat وهو اختصار للاسم الأيرلندي patrick وقد اختار له الإنجليز هذا الاسم تقديرًا لقدراته وملكاته الجدلية[٢].

دور العلم في حياته:

آمن مشرفة إيمانًا عميقًا بالعلم، وبأهمية تطبيقه في الحياة، وكانت هذه هي الفكرة الغالبة على أعماله ومؤلَّفاته، وكان مشرَّفة يستنهض الهمم في كل حين إلى العناية بأمر العلم والبحوث العلمية والتطبيقية واستغلال ثرواتنا البحرية والصحراوية، وتنظيم استغلال ثرواتنا الزراعية والتجارية، وكان الساسة يظنُّون مشرفة مغاليًا في دعوته، وما كان مشرفة مغاليًا، وإنما كان مقدرًا للأمر قدره الغالي[٣].

وكان مشرفة يعمل ما لا يقل عن ثلاثة أرباع اليوم، وكثيرًا ما كان يكتفي من النوم بثلاث ساعات: ساعة في العصر بين الرابعة والخامسة، ويقوم بعدها فيتناول الشاي مع أسرته، وساعتين بعد الفجر من الخامسة إلى السابعة أو من السادسة إلى الثامنة صباحًا، وكان المحيطون به يشفقون

---

(١) المصدر السابق (ص٤٦).

(٢) «مشرفة بين الذرة والذروة» (ص٤٨).

(٣) المصدر السابق (ص٣٩).

عليه من هذا الكفاح الذي لا يستريح معه، ولكنه كان معتقدًا أنه إن استراح فقد تقاعس، والتقاعس لا يليق بسيرة العلماء الذين كان يرى أن عليهم واجبًا نحو الإنسانية، ورسالة لا ينبغي أن يتخلَّوا عنها طلبًا للراحة(١).

ولم يكن مشرفة من العلماء الذين يحول اشتغالهم بالعلم بينهم وبين الجمهور، ولعل في هذا سرًّا لدعوته الملحة إلى الاتصال بين معاهد العلم وجماهير الشعب، وهي الدعوة التي صدرت عن تقديره لمدى الفوائد الإيجابية التي تعود نتيجة لهذا الاتصال، وعن تقديره لمدى السلبيات التي تنتج عن غياب هذا الاتصال، والتي تتمثل على حد تعبيره في أن يتحول العلم إلى ضرب من ضروب السحر، ويتحول العلماء إلى نوع من الكهنة الذين يُقرَأ عنهم في تاريخ مصر القديمة(٢).

□ وقد ترجم الدكتور مشرفة أفكاره في هذه الناحية إلى واقع عملي، فكان من السبّاقين إلى نشر الثقافة العلمية المبسطة عن طريق الإذاعة، ولم يسلك مشرفة في عمله هذا مسلكًا فرديًّا بغيةَ مجدٍ شخصي، وإنما استطاع أن ينظم سلسلة من الأحاديث الدورية أطلق عليها اسم: «أحاديث كلية العلوم» يلقيها على الناس في الراديو أساتذة كلية العلوم، وكان مشرَّفة يعتقد أن قيام كلية العلوم بهذا العمل إنما هو جزء من رسالتها في إتاحة الفرصة أمام الجمهور المثقَّف للوقوف على أحدث الآراء العلمية، والإلمام بما كشف عنه الباحثون من خفايا الكون وأسرار الطبيعة، وكان يعتقد

---

(١) المصدر السابق (ص٤٤).

(٢) المصدر السابق (ص٤٦).

كذلك أن هذه الأحاديث فرصة عظيمة لطائفة العلماء ليتحدثوا عن دراساتهم، ويعبروا عن وجهات نظرهم، ويتبسَّطوا في هذه الأحاديث بلغة سهلة، خالية على قدر ما يتيسر من المصطلحات الغريبة، والرموز المريبة.

غير أن الهدف الأسمى الذي سعى مشرفة إليه من وراء هذه الأحاديث لم يكن إلَّا إشاعة العقلية العلمية في رُوح الشعب؛ حتى تصبح هذه العقلية عادة في تفكيرنا القومي، فإذا ما عنَّت للناس مشكلة من المشكلات استطاعوا التغلب عليها بالأسلوب العلمي، غير متأثرين بهوى نفسٍ أو غرض في التفكير.

وقد حرص الدكتور مشرفة في الوقت نفسه على أن يبين للناس في الأحاديث التي قام هو بإلقائها كثيرًا من الأمور الأساسية في العلوم، والاكتشافات الحديثة في دنيا الاختراع، والعناصر الرئيسية في التفكير العلمي، والعلامات البارزة في تاريخ البحث والصناعة، وقد اتسعت دائرة العلوم التي تناولتها هذه الأحاديث، كما تزايد عدد الأساتذة الذين شاركوا في هذا البرنامج الإذاعي حديثًا بعد حديث[١].

وعلى الجانب الآخر كان مشرفة يتمنَّى للوظائف العامة أن يتولاها أساتذة الجامعات، ولم يكن من أنصار الرأي القائل بأنه على أساتذة الجامعات أن يترفَّعوا عن مثل هذه الوظائف، وكان يقول في الرد على ذلك: كيف يلام أساتذة الجامعة وهم صفوة المتعلمين في الأمة إذا طلبوا ذلك الجاه لكي يُسمَع صوتهم فلا يظلوا بعيدين عن تيارات الحياة في

---

(١) «مشرفة بين الذرة والذروة» (ص٤٧).

الأمة؟![١]

آثاره ومؤلفاته:

لعلي مصطفى مشرفة أبحاثٌ متعددة في نظرية الكم، وتفسير كثير من الظواهر الفيزيائية، وكذلك في المادة والإشعاع، وكان من أول القائلين بأنه يمكن اعتبارهما صورتين لشيء واحد، تتحول إحداهما للأخرى، وقد اقترن اسمه بهذه النظرية.

كما أن له نظرية في مجال الذرة سهلت فيها بعدُ اقتحام مجال العلوم الذرية، والدخول إلى أعماقها!![٢].

والحقيقة أن أبحاث الدكتور مشرفة بدأت تأخذ مكانها في الدوريات العلمية وعمره لم يتجاوز الخامسة والعشرين عامًا؛ ففي الجامعة الملكية بلندن (kings College) نُشِرَ له أول خمسة أبحاث حول النظرية الكمية التي نال من أجلها درجتي (ph.D دكتوراه الفلسفة وD.sc دكتوراة العلوم)، كما أنَّ له ٢٦ بحثًا مبتكرًا في الطبيعة.

□ وقد كان من مؤلَّفاته العديدة التي خلَّفها ما يلي:

١- كتاب الميكانيكا العلمية والنظرية، وقد ظهر هذا الكتاب سنة ١٩٣٧م.

٢- كتاب الهندسة الوصفية، وقد ظهر سنة ١٩٣٧م.

٣- كتاب الهندسة المستوية والفراغية، وظهر سنة ١٩٤٤م.

---

(١) المصدر السابق (ص٥٠).

(٢) «١٠٠ عالم غيَّروا وجه العالم» (ص١٧٩).

٤- كتاب حساب المثلثات المستوية، وظهر سنة ١٩٤٤م.

٥- كتاب الذرة والقنابل الذرية، وظهر سنة ١٩٤٥م.

٦- كتاب العلم والحياة، وظهر سنة ١٩٤٦م.

٧- كتاب الهندسة وحساب المثلثات، وظهر سنة ١٩٤٧م.

وعلى أن مشرفة كان له إسهاماته الخاصة في مجال إحياء التراث الإسلامي أيضًا، وكان من أشهر تحقيقاته: كتاب «الجبر والمقابلة» «للخوارزمي»، وهو الكتاب الذي ظل عمدة ومرجعًا لعلماء الشرق والغرب طيلة قرون عديدة، وقد قدم مشرفة لهذا الكتاب بمقدمتين: الأولى عن الجبر قبل الخورازمي، والثانية: عن «الخوارزمي» وكتابه «الجبر والمقابلة»، ثم عرض كتاب الخوارزمي؛ فشرح الجزء الخاص بالجبر، وعلَّق عليه، وحلَّل مسائله، وعبر عن المعاني العلمية والفنية بعبارات الاصطلاح الحديث، أما المسائل التي لا ترتبط بصُلب العلم فقد اكتفى فيها بالنقل دون التعليق، وهكذا أخرج لنا مشرفة من كنوز العرب دُرَّة فجلَّاها خير تجلية (١).

وفاته:

وبعد أن أضاء جنبات الحياة العلمية وأثراها في عصره، تُوُفي الدكتور علي مصطفى مشرفة سنة ١٩٥٠م؛ فرحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء»(٢) اهـ.

---

(١) «مشرفة بين الذرة والذروة» (ص١٨٦)، و«مسلمون علموا العالم» (ص١٨٠).

(٢) «العلم وبناء الأمم» (ص٥٩٨- ٦٠٤).

جمال حِمْدَان.. عالم الجغرافيا السابق لِعَصْره:

«سبق عصره بعطائه العلمي، واستطاع أن يترك بصماته الفريدة على الدراسات الجغرافية في العصر الحديث، والتي ربط فيها التاريخ بحقائق الأرض والجغرافيا.

تفوق منذ النشأة:

وُلِدَ «جمال محمود صالح حمدان» في قرية «ناي» بمحافظة القليوبية بمصر في (١٢ شعبان ١٣٤٦هـ/ ٤فبراير سنة ١٩٢٨م)، ونشأ في أسرة كريمة تنحدر من قبيلة «بني حمدان» العربية التي نزحت إلى مصر في أثناء الفتح الإسلامي [(١)].

كان والده أزهريًّا ومدرّسًا للغة العربية، وقد اهتم بتحفيظ أبنائه السبعة القرآن الكريم، وتجويده وتلاوته على يديه؛ مما كان له أثر بالغ على شخصية «جمال حمدان»، وعلى امتلاكه نواصي اللغة العربية؛ مما غلَّب على كتاباته الأسلوبَ الأدبيَّ المبدع.

حصل «جمال حمدان» على الثانوية العامة عام (١٣٦٣هـ- ١٩٤٤م)، وكان ترتيبه السادس على القطر المصري، ثم التحق بقسم الجغرافيا بكلية الآداب، وكان طالبًا متفوقًا ومتميزًا خلال مرحلة الدراسة الجامعية؛ حيث كان منكبًّا على البحث والدراسة، متفرغًا للعلم والتحصيل.

وبعد تخرجه عام (١٣٦٧هـ- ١٩٤٨م) تم تعيينه معيدًا بالكلية، ثم أوفدته الجامعة في بعثة إلى بريطانيا سنة (١٣٦٨هـ-١٩٤٩م)، حصل

---

(١) «جمال حمدان وتراثه الفكري» (ص٨) لعبد الحميد صالح حمدان.

خلالها على الدكتوراة في «فلسفة الجغرافيا» من جامعة «ريدنج» عام (١٣٧٢هـ- ١٩٥٣م)، وكان موضوع رسالته: «سكان وسط الدلتا قديمًا وحديثًا»، ولم تترجم رسالته تلك حتى وفاته.

بعد عودته من بعثته العلمية انضم إلى هيئة التدريس بقسم الجغرافيا في كلية الآداب جامعة القاهرة، ثم رُقِّي أستاذًا مساعدًا، وأصدر في فترة تواجده بالجامعة كتبه الثلاثة الأولى: «جغرافيا المدن»، و«المظاهر الجغرافية لمجموعة مدينة الخرطوم»، و«دراسات عن العالم العربي»، وقد حصل بهذه الكتب على جائزة الدولة التشجيعية سنة (١٣٧٩هـ- ١٩٥٩م)، وقد لفتت كتبه أنظار الحركة الثقافية عامة، كما أنها صوبت إليها سهام الغيرة من قِبَل بعض زملائه وأساتذته داخل الجامعة، حتى اضطر في عام (١٣٨٣هـ- ١٩٦٣م) إلى التقدُّم باستقالته من الجامعة؛ احتجاجًا على ظلم إداري تعرَّض له [(١)].

وباستقالة «جمال حمدان» من الجامعة تبدأ مرحلة طويلة من التبتل في طلب العلم، والانقطاع للتأليف، أثمرت نتاجًا علميًّا غزيرًا، يأتي في القمة منه موسوعته الفريدة «شخصية مصر.. دراسة في عبقرية المكان»[(٢)].

ومن الإنصاف أن نؤكد -كما أشار عدد من الباحثين- أن «جمال حمدان» لم ينعزل تلك الفترة الطويلة ذلك النوع السلبي من العزلة.. وإنما عَزَلَ ضجيج الحياة وصغائر همومها وتهافت صراعاتها عن فكره الراقي وعقله الثاقب؛ ليطلق لهما العنان في آفاق العلم الرحبة وغير المحدودة.

---

(١) «موقع إسلام أون لاين مشاهير العرب».

(٢) «جمال حمدان وتراثه الفكري» (ص٨).

نظرة «جمال حمدان» إلى الجغرافيا:

□ لا يرى «جمال حمدان» في علم الجغرافيا ذلك العلم الذي يقف على حدود الموقع والتضاريس، وإنما هو علم تنصهر في بوتقته علوم مختلفة؛ فالجغرافيا هي: «تلك التي إذا عرفتها عرفت كل شيء عن نمط الحياة في هذا المكان أو ذاك، جغرافيا الحياة التي إن بدأت من أعلى آفاق الفكر الجغرافي في التاريخ والسياسة، فإنها لا تستنكف عن أن تنفذ أو تنزل إلى أدق دقائق حياة الناس العادية في الإقليم»(١).

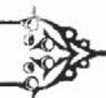
□ وإذا كانت الجغرافيا -كما يقول في تقديمه لكتاب «شخصية مصر»-: هي علم «التباين الأرضي»، أي التعرف على الاختلافات الرئيسية بين أجزاء الأرض على مختلف المستويات؛ فمن الطبيعي أن تكون قمة الجغرافيا هي التعرف على «شخصيات الأقاليم»، والشخصية الإقليمية شيء أكبر من مجرد المحصلة الرياضية لخصائص وتوزيعات الإقليم، إنها تتساءل أساسًا عما يعطي منطقة ما تفرَّدها وتميُّزها بين سائر المناطق، كما تريد أن تنفذ إلى روح المكان لتستشف عبقريته الذاتية التي تحدد شخصيته الكامنة» (٢).

□ ولئن بدا أن هذا يجعل للجغرافيا نهجًا فلسفيًّا متنافرًا، يتأرجح بين علمٍ وفنٍّ وفلسفةٍ؛ فيمكن أن نضيف للتوضيح: إنها كذلك؛ فهي علمٌ بمادتها، وفنٌّ بمعالجتها، وفلسفةٌ بنظراتها، والواقع أن هذا المنهج المثلث يعني ببساطة أن ينتقل بالجغرافيا من مرحلة المعرفة إلى مرحلة التفكير، من

---

(١) «موقع إسلام أون لاين».

(٢) «شخصية مصر» - المقدمة لجمال حمدان.



جغرافيا الحقائق المرصوصة إلى جغرافيا الأفكار الرفيعة[١].

□ وكانت رؤية جمال حمدان للعلاقة بين الإنسان والطبيعة في المكان والزمان متوازنة؛ فلا ينحاز إلى طرف على حساب الآخر، يظهر ذلك واضحًا في كتابه العظيم «شخصية مصر»، والذي تبرز فيه نظرته الجغرافية المتوازنة للعلاقة بين الإنسان المصري والطبيعية بصفة عامة، و«النيل»- كمكوِّن أساسي للطبيعة المصرية- بصفة خاصة، وكيف أفضت هذه العلاقة إلى صياغة الحضارة المصرية على الوجهين: المادي والروحي[٢].

آثاره وإنجازاته:

□ كان لعبقرية جمال حمدان ونظرته العميقة الفضل -بعد توفيق الله تعالى- في الوصول إلى كثير من التحليلات والآراء التي استُغرِبَت وقت إفصاحه عنها، إلَّا أن الأيام أكدتها بعد ذلك؛ فقد أدرك بنظره الثاقب كيف أن تفكك الكتلة الشرقية واقع لا محالة، وكان ذلك عام (١٣٨٨هـ-١٩٦٨م)، فإذا الذي تنبأ به يتحقق بعد إحدى وعشرين سنة، عام (١٤٠٩هـ-١٩٨٩م)، حيث حدث الزلزال الذي هز أركان أوروبا الشرقية، وانتهى الأمر بانهيار أحجار الكتلة الشرقية، وتباعد دولها الأوروبية عن الاتحاد السوفيتي، ثم تفكك وانهيار الاتحاد السوفيتي نفسه عام (١٤١١هـ-١٩٩١م)[٣].

---

(١) «**شخصية مصر**» (ص٩) كتاب الهلال.

(٢) «**جمال حمدان وتراثه الفكري**» (ص١٣، ١٤).

(٣) «**استراتيجية الاستعمار والتحرير**» لجمال حمدان (ص١٩٨، ١٩٩)- دار الشروق- القاهرة.

□ وفي عام (١٣٨٧هـ-١٩٦٧م) أصدر «جمال حمدان» كتابه المهم «اليهود أنثروبولوجيًّا» والذي أثبت فيه أن اليهود المعاصرين الذين يدَّعون أنهم ينتمون إلى فلسطين ليسوا هم أحفاد اليهود الذين خرجوا من فلسطين قبل الميلاد، وإنما ينتمي هؤلاء إلى إمبراطورية «الخزر التترية» التي قامت بين «بحر قزوين» و«البحر الأسود»، واعتنقت اليهودية في القرن الثامن الميلادي، وهذا ما أكده بعد ذلك «آرثر بونيسلر» مؤلف كتاب «القبيلة الثالثة عشرة» الذي صدر عام (١٣٩٦هـ- ١٩٧٦م)[(١)].

□ وقد ترك «جمال حمدان» تسعةً وعشرين كتابًا وتسعةً وسبعين بحثًا ومقالةً، يأتي في مقدمتها كتاب «شخصية مصر.. دراسة في عبقرية المكان»، الذي أصدر الصياغة الأولى له سنة (١٣٨٧هـ-١٩٦٧م) في نحو ٣٠٠ صفحة من القطع الصغير.. ثم تفرغ لإنجاز صياغته النهائية لمدة عشر سنوات، حتى صدر مكتملًا في أربعة مجلدات خلال السنوات بين (١٤٠١هـ- ١٩٨١م/ ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م)[(٢)].

الجوائز والوفاة:

حظي «جمال حمدان» بالتكريم داخل مصر وخارجها:

□ فقد حصل عام (١٣٧٩هـ- ١٩٥٩م) على جائزة الدولة التشجيعية في العلوم الاجتماعية.

□ ومُنح جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية سنة (١٤٠٦هـ-

---

(١) مقال جمال حمدان: صاحب مقولة: «الصراع الحتمي بين أمريكا وأوروبا» عام ١٩٩١- موقع وكالة نبأ الإخبارية.

(٢) «جمال حمدان وتراثه الفكري» (ص٩، ١٠).

١٩٨٦م).

◻ وحصل كذلك على وسام العلوم من الطبقة الأولى عن كتابه «شخصية مصر» عام (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).

◻ كما منحته الكويت جائزة التقدم العلمي سنة (١٤١٣هـ-١٩٩٢م) قبيل وفاته [١].. لقد كان بمقدور «جمال حمدان» أن يحيا حياة منعمة، وأن يتقلب في صنوف الجاه والرفاهية؛ فقد عُرِضت عليه كثيرٌ من المناصب التي يلهث وراءها كثير ممن يبتغون المغنم من وراء العلم، وكان يقابل هذه العروض بالاعتذار؛ فقد كان للانقطاع إلى العلم لذة ونعيم لا يُحسن تذوقهما إلَّا أمثال «جمال حمدان».. فقد تم ترشيحه -على سبيل المثال- عام (١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م) لتمثيل مصر في إحدى اللجان المهمة بالأمم المتحدة، ولكنه اعتذر عن ذلك، رغم المحاولات المتكررة لإثنائه عن الاعتذار، كما اعتذر بأدب ورقة عن عضوية مجمع اللغة العربية، وكذلك عن رئاسة جامعة الكويت.. وغير ذلك الكثير.

وفي الخامس والعشرين من شوال ١٤١٣هـ- السابع عشر من إبريل ١٩٩٣م، انتقل العالم الجليل الدكتور «جمال حمدان» إلى جوار ربه، إثر تسربٍ غامض للغاز في منزله [٢].. وكما شيَّد تراثه العلمي الخالد في هدوء فقد شاء الله له أن يرحل في هدوء.. ويبقى على الأجيال اللاحقة أن تُحسن الالتفات إلى النماذج العلمية الشامخة التي يمتلئ بها تاريخ أمتنا القديم والحديث على حدٍّ سواء.

---

(١) «جمال حمدان وتراثه الفكري» (ص١٠).

(٢) المصدر السابق (ص١٠).

أبو القنبلة الباكستانية عبد القدير خان:

ميلاده ونشأته:

هو «عبد القدير بن عبد الغفور خان». وُلِدَ في ولاية بهوبال الهندية سنة ١٩٣٥م، لأسرة متواضعة، هاجرت إلى كراتشي في جنوب باكستان، كان أبوه عبد الغفور خان مدرسًا تقاعد عام ١٩٣٥م، وتفرَّغ لتربية ولده ورعايته، وكانت أمه «زليخة بيجوم» امرأة تقيَّة مؤمنة تتقن اللغة الأُرْدِية والفارسية [١]؛ وبعد سنوات تخرَّج عبد القدير خان في مدرسة الحامدية الثانوية ببوبال، ثمَّ توفي والده سنة ١٩٥٧م [٢].

تخرج عبد القدير في كلية العلوم بجامعة كراتشي سنة ١٩٦٠م، وتقدم لوظيفة مفتش للأوزان والقياسات «وظيفة حكومية من الدرجة الثانية»، وكان عبد القدير أحد اثنين قُبِلُوا بهذه الوظيفة من بين مئتي متقدِّم، وكان راتبه مائتي روبية في الشهر، ولكنَّه استقال منها رفضًا لما يتقاضاه مديره من رشاوى [٣]، ولما لم يجد وظيفة قرَّر السفر إلى الخارج لاستكمال دراسته، وتقدم لعدة جامعات أوروبية؛ وانتهى به الأمر في جامعة برلين التقنية؛ فأتم دورة تدريبية لمدة عامين في علوم المعادن، ثم نال الماجستير سنة ١٩٦٧م من جامعة «دلفت» التقنية بهولندا، ثم درجة الدكتوراه من جامعة «لوفين» البلجيكية سنة ١٩٧٢م [٤]، وشَغل بعدها وظيفة كبير خبراء المعادن بشركة FDO الهندسية الهولندية، والتي كانت يومها على

(١) «عبد القدير خان.. أبو القنبلة الباكستانية» لنادية العوضي إسلام أون لاين.

(٢) السابق نفسه.

(٣) السابق نفسه.

(٤) السابق نفسه.

صلة وثيقة بمنظمة «اليورنكو» المهتمة بتخصيب اليورانيوم (١).

وحين فجرت الهند القنبلة النووية عام ١٩٧٤م كتب الدكتور عبد القدير خان رسالة إلى رئيس وزراء الباكستان في حينها «ذو الفقار علي بوتو» قال فيها: «إنه حتى يتسنَّى للباكستان البقاء كدولة مستقلة، فإن عليها إنشاء برنامج نووي». ولم يستغرق الرد على هذه الرسالة سوى عشرة أيام، والذي تضمَّن دعوة للدكتور عبد القدير خان لزيارة رئيس الوزراء بالباكستان، والتي تمت بالفعل في ديسمبر عام ١٩٧٤م، قام رئيس الوزراء بعدها بالتأكد من أوراق اعتماده عن طريق السفارة الباكستانية بهولندا، وفي لقائهما الثاني عام ١٩٧٥م طلب منه رئيس الوزراء عدم الرجوع إلى هولندا؛ وذلك حتى يرأس برنامج الباكستان النووي (٢).

عاد خان إلى إسلام أباد سنة ١٩٧٦م؛ حيث كلَّفه ذو الفقار علي بوتو بتأسيس «البرنامج النووي المدني»، وفي ١٩٨١م أُطلِقَ على المختبر الرئيسي للأبحاث الذرية الباكستانية «مختبرات أبحاث الهندسة» في «كاهوتا» قُرب إسلام أباد اسم «مختبرات خان للأبحاث» تقديرًا له.

وفي عام ١٩٩٨م أصبح خان «أبو القنبلة النووية الباكستانية» بطلًا قوميًّا عندما أعلنت جمهورية باكستان الإسلامية رسميًّا نفسها قوة نووية بعد أسابيع من جارتها الهند عقب امتلاك السلاح النووي (٣).

---

(١) موقع الأخبار الإسلامية.

(٢) «عبد القادر خان.. أبو القنبلة الباكستانية» لنادية العوضي.

(٣) «موقع الأخبار الإسلامية».

أهمُّ أعماله:

بدأ أعماله العظيمة؛ عندما عُهِد إليه بتأسيس المفاعل النووي الباكستاني؛ فأحدث ثورة إدارية على الأسلوب المتبع عادةً من فكرة، ثم قرار، ثم دراسة جدوى، ثم بحوث أساسية، ثم بحوث تطبيقية، ثم عمل نموذجًا مصغرًا، ثم إنشاء المفاعل الأَوَّلي، والذي يليه هندسة المفاعل الحقيقي، وبناؤه وافتتاحه.. حيث قام فريق الدكتور خان بعمل كل هذه الخطوات دفعة واحدة، وتمكنت معامل كاهوتا من ابتكار تقنية تستهلك عُشْر الطاقة المستخدمة في الأساليب القديمة!!.

ثم قام الفريق الباكستاني بقيادة عبد القدير خان بتصميم النابذات، وتنظيم خطوط الأنابيب الرئيسية، وحساب الضغوط، وتصميم البرامج والأجهزة اللازمة للتشغيل، حتى حين اشتد الهجوم على البرنامج النووي، وطُبِّقَ الحظر والعقوبات الاقتصادية، بحيث لم يتمكن الفريق من شراء ما يلزمه من مواد.. بدأ المشروع في إنتاج جميع حاجياته بحيث أصبح مستقلًّا تمامًا عن العالم الخارجي في صناعة جميع ما يلزم المفاعل النووي.

وقد تَوَّج الدكتور عبد القدير خان حياته العلمية وخدماته الجليلة لوطنه بالرد على تفجير الهند النووي في مايو سنة ١٩٩٨م، بتفجير نووي مماثل، بعد أسبوعين فقط من التفجير الهندي، لتنضم باكستان إلى النادي النووي.

ولعلَّ أعظم إنجاز لعبد القدير خان يتمثل في تمكُّنه من إنشاء مفاعل «كاهوتا النووي» في ستة أعوام فقط؛ بينما يستغرق إنشاؤه عادةً عَقدين من الزمان – في أكثر دول العالم تقدمًا في مجال الصناعة النووية–، كما أنَّ

المختبرات التي أشرف عليها خان أنتجت أفضل يورانيوم مخصَّب في العالم!!.

وامتدت أنشطة معامل خان البحثية لتشمل بعد ذلك برامج دفاعية مختلفة؛ حيث تصنع صواريخ وأجهزة عسكرية أخرى كثيرة وأنشطة صناعية وبرامج وبحوث تنمية، وأنشأت معهدًا للعلوم الهندسية والتكنولوجية ومصنعًا للحديد والصلب، كما تدعم المؤسسات العلمية والتعليمية (١).

جوائز:

نال عبد القدير خان ثلاث عشرة ميدالية ذهبية من معاهد ومؤسسات قومية مختلفة، كما نال أعلى وسام مدني تمنحه دولة الباكستان «وسام هلال الامتياز» سنة ١٩٨٩م، ووسامًا آخر عام ١٩٩٦م تقديرًا لإسهاماته المهمة في العلوم والهندسة.

من مؤلَّفاته:

نشر عبد القدير خان سنة ١٩٨١م كتاب «القنبلة الإسلامية» بالإنجليزية، وهو الكتاب الذي أحدث ثورة كبرى في الغرب، كما نشر حوالي ١٥٠ بحثًا علميًّا في مجلات علمية عالمية (٢).

منهجه العلمي والفكري:

□ سخَّر عبد القدير خان علمه وفكره في سبيل قضية الإسلام

---

(١) نادية العوضي «موقع الأخبار الإسلامية».

(٢) عبد القدير خان.. أبو القنبلة الباكستانية من إسلام أون لاين.

الأساسية، والخروج بالمسلمين من مهاوي الذلة إلى مراقي العزة بين الأمم، ولعبد القدير خان منهجه العلمي والفكري الخاص؛ الذي ينبني على مجموعة من الأسس، أهمها السيادة الإسلامية الخالصة على أراضي الإسلام، وإخراج المحتل من أراضي المسلمين.

□ ويرى خان أنه لا مكان لليأس في نفس المسلم أيًّا كانت الظروف المحيطة، وأن العرب هم قادة الركب ورأس الحربة والصف الأمامي، فيقول: «إن رسالتي إلى الأمة في هذا الوقت هي أن تتحد في مواجهة عدوها، ومسؤولية النهوض تقع أولًا على عاتق الناس الذين يواجهون العدو، وهم العرب والمسلمون، فهم يطلقون النار على العرب أنفسهم، إنهم لا يقتلون أناسًا من عرق آخر أو جنس أو دين آخر، فعلى العرب أن يتحرَّكوا أولًا».

وما زال العالم الكبير د. عبد القدير خان يقدم لوطنه وأمته كل ما يستطيع، ويخدم الإسلام بعلمه، وهذا سمت العالم المسلم دائمًا [(١)].

الدكتور أحمد زويل.. رائد كيمياء الفيمتو:

□ لأول مرة يمكننا أن نلاحظ بالتصوير البطيء ما يحدث خلال أي تفاعل كيميائي، وبذلك نستطيع أن نشرح العديد من المعادلات والصيغ الكيميائية الصعبة التي لم نفهمها من قبل، ونستطيع تفسير أسباب حدوث بعض التفاعلات الكيميائية وأسباب عدم حدوث بعضها، كما يمكننا تفسير سبب تأثر تلك التفاعلات من حيث سرعتها، ونتائجها بالحرارة.

---

(١) «العلم وبناء الأمم».

□ إنه ميلاد علم كيمياء الفيمتو «Femto Chemistry» وفيه تستخدم كاميرات خاصة، فائقة السرعة، لرصد حركة الجزئيات عند نشوئها، وعند التحام بعضها ببعض، وملاحظة التفاعلات الكيميائية بسرعة «ثانية الفيمتو» وهي أقل وحدة زمنية في الثانية الواحدة!!

□ ويستخدم العلماء حول العالم الآن «ثانية الفيمتو» في دراسة وتحليل العديد من المواد الكيميائية بمختلف أشكالها، السائلة والصلبة والغازية، وتفاعلاتها مع بعضها البعض، وتغطي تطبيقاتها العديد من المجالات، بَدءًا من دراسة العوامل المساعدة في التفاعلات الكيميائية، وكيف يتم تصميم المكونات الإلكترونية للجزئيات، ووصولًا إلى أدق العمليات المتعلقة بالحياة، مثل الطب وكيفية تطويره في المستقبل [١].

بقي أن نعرف أن ميلاد «كيمياء الفيمتو» الذي أذهل العالم، وأحدث انقلابًا مدويًا في كل الأوساط العلمية، وخاصة في الكيمياء، إضافة إلى العلوم التي تتعلق بها؛ كان على يد العالم المصري المسلم الدكتور أحمد زويل!!

□ ولد زويل في ٢٦ فبراير سنة ١٩٤٦م في مدينة دمنهور بمصر، وتلقى فيها تعلمه الأوَّلي، ثم حصل على بكالوريوس العلوم قسم الكيمياء من كلية العلوم بجامعة الإسكندرية، نال بعدها درجة الماجستير من نفس الجامعة في علم الأطياف سنة ١٩٦٩م [٢].

□ وفي الولايات المتحدة الأمريكية أكمل دراساته العليا؛ فحصل على

(١) «زويل أمير الكيمياء» لهشام الحديدي -الدار المصرية اللبنانية (ص١٦٨).

(٢) المصدر السابق (ص٣٤)، و«عصر العلم» لأحمد زويل (ص٢٩)-دار الشروق.

درجة الدكتوراه من جامعة بنسلفانيا سنة ١٩٧٤م، وهي عن «أطياف الرنين الضوئي والمغناطيسي للأكسيتونات والحالات الموضعية في البلورات الجزيئية»، والأكستيون -كما يعبر زويل- هو الاسم الذي أعطي ليعني حركة جسيم يمكن حفره بالضوء[(١)].

□ انتقل زويل بعدها إلى جامعة بيركلي بكاليفورنيا سنة ١٩٧٤م، وعن أثر تلك الجامعة فيه يقول: «أما جامعة بيركلي فقد فتحت الطريق أمامي للولوج في علم جديد حاسم، والذي قاد بدوره إلى اكتشافات علمية وتكنولوجية حاسمة أيضًا»؛ ذلك أن تلك الجامعة كانت تضم مجموعات بحثية مميزة، أكسبتها مكانة مرموقة، وكان يطلق على كثير من تلك المجموعات اسم: «المجموعات فائقة القوة»[(٢)].

□ وبعد بيركلي عمل زويل أستاذًا مساعدًا للطبيعة الكيميائية بمعهد كاليفورنيا التقني «كالتك» من سنة ١٩٧٦م حتى عام ١٩٧٨م، ثم أستاذًا في الفيزياء الكيميائية بنفس المعهد من سنة ١٩٨٢م وحتى الآن، ومنه خرجت أعظم إنجازاته[(٣)].

زويل وكاميرا الفيمتو:

□ كانت أهم إنجازات أحمد زويل قاطبة ذلك الفتح العلمي العظيم في مجال الكيمياء «الفيمتو ثانية»؛ فقد استطاع لأول مرة في تاريخ العلم تصوير عملية التفاعل الكيميائي التي لا تستغرق سوى لحظة من مليون

---

(١) «عصر العلم» لزويل (ص٨٢).

(٢) المصدر السابق (ص٩١).

(٣) «زويل أمير الكيمياء» (ص٣٤)، و«عصر العلم» (ص١٠١، ١١٦).

بليون جزء من الثانية؛ فغير بذلك علم الكيمياء الحديثة!! فلم يكن العالم يعرف بالضبط ماذا يحدث أثناء تلك اللحظة، ولا الوقت الذي تستغرقه، وسلم العلماء طيلة السنوات الخمسين الماضية بالصورة التقريبية التي وضعها «ماكس بورن»، و«روبرت أوبنهايم» بما يسمى باللحظة الانتقالية التي تنفك خلالها الروابط الكيميائية للجزئيات، وتقرن بجزئيات مادة أخرى، ويولد عنها جزءٌ جديد لمادة جديدة، وهذا الاكتشاف من شأنه أن يستخدم بكثرة في العديد من المجالات، مثل الطب والإليكترونيات وعلوم الفضاء والكيمياء والفيزياء وغيرها.

□ صمم زويل كاميرا جزئية لرصد الذرات وهي في حالة حركة، وتصوير عملية التفاعل التي تحدث في وقت مثل ثانية واحدة في فيلم يستغرق عرضه ٢٣ مليون سنة [١]، وقام بنشر تجاربه في ذلك مع فريقه في مجلة العلوم الأمريكية، والتي نشرتها تحت عنوان: «ميلاد الجزئيات»، وقد نوهت لجنة جائزة نوبل إلى هذا البحث بقولها: «والآن فإنه بإمكاننا أن نرى حركة الذرات المنفردة كما نتصورها، ومن ثم لم تعد تلك الجسيمات أشياء غير مرئية..»[٢].

□ وعن نتيجة ميلاد هذا العلم الحديد يقول د. «زويل»: «وترتب على ذلك ميلاد علوم جديدة، مثل «الفمتوكيمياء» و«الفمتوبيولوجيا»، وفي ذلك الوقت تولدت قناعة بأن عالم «الفمتوثانية» (جزء من مليون بليون جزء من الثانية، أو واحد على واحد أمامه ١٥ صفرًا من الثانية) سوف

---

(١) «زويل أمير الكيمياء» (ص٣٥).

(٢) «عصر العلم» (ص١٢٨، ١٢٩).

يؤدي إلى اكتشافات وتطورات علمية وتكنولوجية تساهم في ترويض المادة وقياس الزمن»[(١)].

□ كما يعلِّق أيضًا على اكتشافه بالقول: «هذا الاكتشاف أسهم في تطوير دراسات الهندسة الوراثية والعلوم الطبية.. ولا زال المركز القومي لعلوم الليزر والجزيء بالولايات المتحدة الأمريكية يقوم بتجارب في النظام العصبي والبروتين والعيون وأساسيات الخلية التي يطلق عليها (DNA) لتطبيق هذا الفتح العلمي.. ونتيجة لذلك رصدت اليابان لعلم «الفيمتو» ما يقدر بـ ٢٥٠ مليون دولار؛ لأنهم يفكرون في تحديث التجارب الإلكترونية، وتصنيع مواد خام جديدة، تحقق الفائدة في الاتصال المرئي»[(٢)].

□ ولعل السر في وصول «زويل» إلى ما وصل إليه هو ما ظهر في قوله: «إن نشوة العلم، والفرصة المتاحة لكشف أشياء جديدة، جعلتني مستغرقًا استغراقًا تامًّا في البحث العلمي، وكنت أواصل العمل ليل نهار، طوال الأربع والعشرين ساعة، باستثناء فترات قصيرة آخذ فيها بعض النوم»[(٣)].

□ واتضح أكثر حين قال: «حب العلم، والافتتان بالمعرفة، وعشق تلك الجزئية من العلم التي هي بين يديك، والاستغراق فيها بكل جوارحك، كفيلٌ بأن يحملك إلى شطآن معرفية لم تحلم يومًا أن تطأها

---

(١) المصدر السابق (ص١٢٩).

(٢) «زويل أمير الكيمياء» (ص١٧٧).

(٣) «عصر العلم» (ص١١٣).

قدماك»[1].

زويل.. والتفوق عالميًّا:

نال زويل جائزة بنيامين فرانكلين لإنجازاته وإسهاماته العلمية لخدمة العلم والعلوم عن اكتشافه العلمي المذهل هذا، وكان ذلك في سنة ١٩٩٨م[2]. وفي عام ١٩٩٠م تم تكريمه بالحصول على منصب الأستاذ الأول للكيمياء في معهد لينوس بولينج.

ثم تُوِّج أخيرًا بمنحة جائزة نوبل للكيمياء سنة ١٩٩٩م؛ وفي هذه المناسبة قال البروفيسور بنجت نوردن رئيس لجنة جائزة نوبل للكيمياء بالأكاديمية السويدية للعلوم: «إن استخدام زويل لتقنية الليزر فائقة السرعة «فمتوسكوب» يمكن وضعه في سياقه التاريخي جنبًا إلى جنب مع استخدام جاليليو للتلسكوب، والذي صوبه شطر كل شيء مضى في القبة السماوية الزرقاء، أما زويل فقد صوب ليزر الفيمتو ثانية على كل شيء يتحرك في عالم الجزئيات. لقد انتقل زويل بتلسكوبه هذا إلى آفاق العلم»[3].

وإنها لحقيقة؛ قد وصل «زويل» بعلم الكيمياء إلى ما كان يبدو مستحيلًا قبل ظهوره، وحين يشير علم الكيمياء إلى رجلين كان لهما الإسهام الأكبر في بنائه واستعلائه طيلة القرن العشرين، فليس غير لاينوس بولينج «الحائز على جائزة نوبل»، وأحمد زويل.

---

(١) «زويل أمير الكيمياء» (ص٥٢).

(٢) «عصر العلم» (ص١٥٠).

(٣) المصدر السابق (ص٢٢).

□ وهو الرأي الذي يجمله السير «جون ميرج توماس» (المدير السابق للمؤسسة الملكية لبريطانيا العظمى، ورئيس ماستر بيتر هاوس بجامعة كمبردج) بقوله: «إن زويل هو خليفة الكيميائي الأعظم في القرن العشرين لاينوس بولينج؛ فقد منح جائزة نوبل في الكيمياء منفردًا من أجل إنجاز علمي كبير -ابتدعه لعلم الفمتو كيمياء الجديد، والذي من المحتم أن يغير من علوم القرن الحادي والعشرين»[1].

وغير جائزة «بنيامين فرانكلين» وجائزة نوبل وقبلهما فقد حصل «زويل» على جائزة بحوث الكيمياء المتميزة (N.R.C) ببلجيكا سنة ١٩٨٢م، واختارته الجمعية الأمريكية للطبيعة زميلًا لها سنة ١٩٨٢م[2].

ومُنح «زويل» جائزة الكسندر فون هومبولت من ألمانيا الغربية، وهي أكبر جائزة علمية هناك، وذلك في سنة ١٩٨٣م[3]، ثم جائزة الملك فيصل في العلوم والفيزياء سنة ١٩٨٩م، وهو بذلك يُعد أول عربي يحصل على هذه الجائزة في العلوم أو الطب[4].

كما منح «زويل» أيضًا جائزة «وولف»، والتي حصل عليها في بداية سنة ١٩٩٣م، وقد جاء في الحيثيات الرسمية لمنحة الجائزة ما يلي: «من أجل التطوير الرائد لفمتو كيمياء الليزر، وباستخدام الليزرات والأحزمة أو الباقات الجزيئية، فإن الفمتوكيمياء جعلت بالإمكان رصد تطور

---

(١) «عصر العلم» (ص٢١).

(٢) «زويل أمير الكيمياء» (ص٣٥).

(٣) «عصر العلم» (ص١١٦).

(٤) المصدر السابق (ص١٤٢).

التفاعلات الكيميائية كما تحدث بالفعل في زمن حقيقي»[١].

□ مُنح «زويل» أيضًا جائزة ويلش، والتي تخصصت في تقدير الإنجازات التي يتوصل إليها العالِم طوال حياته، وتمنح لأجل الإضافات العلمية البارزة في الكيمياء، والهادفة لرفاهية وإسعاد الجنس البشري[٢].

□ وفي سنة ١٩٩٣م منحته الجامعة الأمريكية في مصر أول دكتوراه فخرية، وفي سنة ١٩٩٥م منحته الدولة المصرية وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى، وبعد تسلمه جائزة نوبل منحته مصر قلادة النيل العظمى -أعلى وسام مصري-[٣].

□ في نهاية ذلك كله، وبعد ما كان من إنجازات وتتويجات، ترى «زويل» يقف صادقًا مع نفسه معبرًا عن حقيقة أكيدة، وقاعدة أصيلة قائلًا: «كل ما أعرفه: هو أنني عاشقٌ لعلمي، ولا يوجد عندي رغبة في التوقف والاستمتاع بالمجد»[٤] »اهـ[٥].

الدكتور زغلول النجار رائد الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسُّنَّة النبويَّة في القرن العشرين:

□ الدكتور زغلول النجَّار أستاذ علوم الأرض بعدد من الجامعات العربية والأجنبية، ورئيس لجنة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

(١) المصدر السابق (ص١٤٨).

(٢) المصدر السابق (ص١٤٨).

(٣) المصدر السابق (ص١٥٠، ١٥١، ١٦٠).

(٤) المصدر السابق (ص٨٧).

(٥) «العلم وبناء الأمم».

بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر، وزميل الأكاديمية الإسلامية للعلوم وعضو مجلس إدارتها.

□ ولد الدكتور زغلول النجَّار في قرية مشال، مركز بسيون بمحافظة الغربية في ١٧ نوفمبر عام ١٩٣٣م.

المؤهلات العلمية:

□ تعلم القرآن الكريم وحفظه منذ الصِّغَر في كُتَّاب القرية ثمَّ على يد والده رحمه الله تعالى.

□ تخرَّج من جامعة القاهرة عام ١٩٥٥م حاصلًا على درجة بكالوريوس العلوم بمرتبة الشرف، وكان أوَّلَ دُفْعتِه فمنحته الجامعة جائزة بركة للجيولوجيا وكان أول الحاصلين عليها.

□ حصل على درجة الدكتوراه في علوم الأرض من جامعة ويلز ببريطانيا عام ١٩٦٣م ومنحته الجامعة درجة زمالتها فيما بعد الدكتوراه، كما حصل على منحة روبرتسون للأبحاث المتقدِّمة فيما بعد درجة الدكتوراه، وتدرَّج في وظائف هيئة التدريس حتى حصل على درجة الأستاذيَّة سنة ١٩٧٢م. عمل مديرًا لمعهد «ماركفليد» للدراسات العليا ببريطانيا، وعمل أستاذًا زائرًا بجامعة كاليفورنيا بلوس أنجيليس بأمريكا.

الجوائز العلمية:

□ مُنِح جائزة دبي الدوليَّة للقرآن الكريم، وتم اختياره الشخصية الإسلامية الأولى على مستوى العالم لعام ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

□ مُنِح جائزة رئيس جمهورية السودان التقديرية، ووسام العلوم والآداب والفنون الذهبي عن سنة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

□ حصل على جائزة أفضل البحوث الْمُقدَّمة لمؤتمر البترول العربي عام ١٩٧٠م، وعام ١٩٧٢م.

□ حصل على جائزة أفضل البحوث الْمُقدَّمة لمؤتمر الأحافير الدقيقة الكافية بكُلٍّ من جنيف «سويسرا» عام ١٩٦٧م، وروما «إيطاليا» سنة ١٩٧٠م.

□ حصل على درجة زمالة جامعة ويلز فيما بعد الدكتوراه ببريطانيا سنة ١٩٦٣م.

□ حَصَل على منحة «روبرتسون» للأبحاث فيما بعد الدكتوراه بجامعة ويلز بيريطانيا سنة ١٩٦٣م.

□ حصل على جائزة مصطفى بركة لعلوم الأرض جامعة القاهرة سنة ١٩٥٥م، وكان أوَّلَ الحاصلين عليها.

الإنتاج العلمي:

□ له أكثر من ١٥٠ بحثًا علميًّا منشورًا وأكثر من خمسة وأربعين كتابًا. منها سلسلة من آيات الإعجاز العلمي وتشمل:

١- السماء في القرآن الكريم.

٢- الأرض في القرآن الكريم.

٣- النبات في القرآن الكريم.

٤- الجبال في القرآن الكريم.

٥- الحيوان في القرآن الكريم.

٦- الإنسان من الميلاد إلى البعث في القرآن الكريم.

٧- خَلْق الإنسان في القرآن الكريم.

□ أشرف على أكثر من أربعين رسالة علمية للحصول على درجتيْ الماجستير والدكتوراه في عدد من الجامعات العربية والأجنبية، كما كان عضوًا في لجان تحكيم العديد من الرسائل للحصول على هاتيْن الدرجتيْن العلميَّتين.

الأنشطة العلمية والثقافية:

□ الدكتور زغلول النجار عضو في العديد من الجمعيات العلمية المحلية والعالمية، وعضو هيئة تحرير عدد من الدوريات العلمية المتخصِّصة.

□ وهو زميل الأكاديمية الإسلامية للعلوم وعضو مجلس إدارتها.

□ شارك في العديد من المؤتمرات العربية والإسلامية والدولية.

□ وهو عضو سابق في هيئة تحكيم جائزة اليابان الدولية للعلوم.

□ وهو مستشار في شؤون التعليم العالي بالمعهد العربي للتنمية.

□ وهو عضو مؤسس للهيئة الخيرية الإسلامية العالمية وعضو مجلس إدارتها.

□ وهو عضو مؤسس للهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية المطهرة برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرَّمة وعضو مجلس إدارتها.

□ وهو عضو مجلس أمناء الهيئة الإسلامية للإعلام بلندن «بريطانيا».

□ وعمل مستشارًا علميًّا لكل من مؤسسة روبرستون للأبحاث العلمية (ويلز- بريطانيا)، ومستشارو النفط العرب «الكويت»، وشركة

الزيت العربية «الخفجي بالسعودية».

□ له مقال أسبوعي بجريدة الأهرام المصرية عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة صدر منه حتى الآن أكثر من مائتين وخمسين مقالًا» [(١)].

وقد أسلم بسبب أقواله الطيبة في الإعجاز العلمي العشرات، وهو خير من تكلم في الإعجاز العلمي لا فُضَّ فوه، وهو بحق رائد الإعجاز العلمي.

الأستاذ الدكتور السيد كامل علي عقل جرَّاح القلب رائد جراحة زراعة صمامات القلب البشرية، وأول من زرعها في مصر:

□ هو الأستاذ الدكتور «السيد كامل علي عَقل» وُلِد في طنطا في ٩/ ٧/ ١٩٥٣م من أسرة يعمل عائلها بالتعليم، وأم متفرِّغة لتربية الأولاد، وأتمَّ دراسة الثانوية في فصل المتفوِّقين بمدرسة الأورمان الثانوية النموذجيَّة بالجيزة عام ١٩٧١م بمجموع مرتفع جعله من أوائل المتقدمين إلى كلية الطب جامعة القاهرة.

□ أتمَّ دراسة الطب بالقصر العيني عام ١٩٧٧م، وكان من أوائل الدفعة بترتيب يسَّر له أن يختار بين تخصصات الأقسام الجراحية، وكان مشغوفًا بالتطوّر والطَّفرة التي حدثت في مجال جراحة القلب والصدر، واختاره تخصُّصًا له بعد أن استخار الله تعالى في هذا الاختيار.

وبدأ طبيبًا مقيمًا بعد قضاء عام الامتياز في قسم جراحة القلب

---

(١) انظر: «مقدمة كتبه في «من آيات الإعجاز العلمي» ومنها «الإنسان من الميلاد إلى البعث في القرآن الكريم» (ص٥ - ٧)- دار المعرفة بيروت- لبينان.

والصدر بالقصر العيني حتى حصل على الماجستير ١٩٨١م وتمَّ تعيينه مُعيدًا، ثم مدرِّسًا مساعدًا في نفس القسم، وخلال السنوات التالية تتلمذ على يد أساتذة في جراحة القلب والصدر وعلى رأسهم «الأب الروحي» لهذا التخصُّص في مصر الأستاذ الدكتور «صلاح الملَّاح»، ثم تقدَّم لامتحان الدكتوراه، ونجح من أوَّل مَرَّة منفردًا، وكان أحد أربعة تقدموا للامتحان، وكان أصغرهم سنًّا، ولم ينجح أحدٌ سواه، وذلك في مايو سنة ١٩٨٧م، وبعد الحصول على الدكتوراه، بدأ يُعدُّ نفسه لامتحان المعادلة للسفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية لاستكمال التدريب المتقدِّم في هذا الفرع الدقيق، وآنئذ قام الأستاذ الدكتور مجدي يعقوب جرَّاح القلب الأشهر في العالم بزيارة القصر العيني وإجراء عمليَّات دقيقة في عام ١٩٨٨م، وخلال هذه الزيارة توسَّم في هذا الشاب استعدادًا طيِّبًا للتعلُّم والإتقان، فأرسل توصية للمركز البريطاني بالقاهرة؛ لتوفير منحةً له للسَّفر والتدريب تحت إشرافه في إنجلترا بمستشفى «هيرفيلد» بضواحي لندن، وهي من أكبر مراكز جراحة وزراعة القلب في العالم.

□ وقبل أن يبدأ رحلته للتدريب مع الدكتور مجدي يعقوب قام بزيارة الشيخ محمد الغزالي رحمه الله الذي أوصاه بأن أكبر خدمة يُقدِّمها للإسلام هي أن يُتقن لأقصى درجات الإتقان تفاصيل هذا التخصُّص، ويتعلَّم من الدكتور مجدي يعقوب أقصى ما يُمكن من خبرته.

□ وفي أواخر عام ١٩٨٨م بدأ رحلته إلى لندن مع الدكتور مجدي يعقوب بمنحة مُقَدَّمة من المركز البريطاني بالقاهرة، ورغم حصوله على درجة الدكتوراه بتفوّق في مصر إلَّا أنه بدأ سُلَم التدريب من أول درجة مرة أخرى بمستشفى «هيرفيلد» البريطانية وقَبِل أن يبدأ العمل بدرجة

طبيب امتياز في هذا المستشفى الشهير.

واستمرَّ يتقدَّم في تدريبه ومساعدته للدكتور مجدي يعقوب على مدى ثلاثة أعوام في مجالات جراحة القلب المختلفة، وهو المصري الوحيد الذي أمضى مثل هذه الفترة في هذا المركز التميِّز. وكان الاهتمام بزراعة الصمامات البشرية؛ لأنها تمثِّل بديلًا هامًّا ومثاليًّا لنسبة كبيرة من مرض صمامات الأورطي في مصر بالذَّات مع صغار السِّن، والإناث خلال فترة الحمل والولادة.

كما اهتم بشدَّة بعمليَّات زراعة القلب، وازداد اقتناعًا وشعورًا بالمسؤولية أن هذه العمليات الغير موجودة في مصر لا بُدَّ وأن تُجرَى في بلده؛ لإنقاذ آلاف المرضى المحتاجين الذين يعانون أشدَّ المعاناة للسفر للخارج لإجراء هذه العمليات.

وانتهت مهمة التدريب في أواخر ١٩٩١م، وعاد إلى مصر ليقوم بإجراء العمليات التي تدرَّب عليها في لندن.

وبعد عودته مباشرة للقصر العيني بدأ التجهيز للبدء في مشروع الصمامات البشرية، وحصل على موافقة مُفتي الديار المصرية، وشيخ الأزهر، والمسؤولين في كلية الطب جامعة القاهرة على بدء هذه العمليات، ولم تمضي سوى ستة أسابيع حتى أجرى أول عملية لزراعة صمام بشرى بأيدي مصريَّة لمريض مصري من مُتوفًّى مصري في ٣٠/ ١١/ ١٩٩١م.

ثُمَّ حصل على درجة أستاذ مساعد بنفس القسم عام ١٩٩٢م واستمرَّ لعدة سنوات يُجرى الجراحات المُعَقَّدَة لشريان الأورطي وزراعة الصمامات البشرية لعشرات المرضى من مختلف الأعمار في مصر، وقام

بالتجهيز التام لإجراء أول عملية زرع قلب في مصر بالتنسيق مع جرَّاح الكبد المعروف الأستاذ الدكتور مدحت خفاجي، ولكن بعد إجراء ثاني عملية لزراعة الكبد تفجَّرت قضية زراعة الأعضاء في مصر.

واستمرَّ الدكتور السيد عقل بالتنسيق مع الأستاذ الدكتور حمدي السيد نقيب الأطباء خلال الخمسة عشر سنة الماضية في الدفاع عن قضية زراعة الأعضاء في مصر اقتناعًا منه بأنها حق من حقوق المرضى المصريين، والمُتاحُ لأمثالهم من المواطنين في دول الجوار، ومن ضمنها دول إسلاميَّة، ونظرًا لحرمانهم من هذا العلاج بمصر يضطر القادرون منهم للسفر للخارج بما يحمِّلهم معاناة رهيبة خارج أوطانهم، وتكلفة باهظة، وتعرضهم للمهانة؛ لأنهم يُعاملون في هذه البلاد كأشخاص من الدرجة الثالثة، وما زال حتى الآن يقاوم تيَّار المعارضين لهذه المسألة الهامة[1].

---

(١) اختلف الفقهاء والعلماء المعاصرون في حكم نقل الأعضاء من إنسان حي وزرعها في إنسان حي مثله على أربعة مذاهب.

المذهب الأول: الجواز بشروط، والثاني: المنع مطلقًا. والثالث: الجواز إلَّا أن يترتَّب ضرر بالغ بتفويت أصل الانتفاع أو جلِّه، والرابع: بالمنع إلَّا أن يكون النقل من كافر إلى مسلم.

والذي يظهر ويترجَّح -بعد الدراسة والتأمل في الأدلة وما أُورِد عليها- أنه يجوز نقل الأعضاء من إنسان حي وزرعها في إنسان حي مثله، بيد أن القول بالجواز لا بد أن يُقيَّد بشروط.

وقد صدرت الفتوى بذلك في عدد من المؤتمرات والمجامع والهيئات واللجان العلمية، منها: المؤتمر الإسلامي الدولي المنعقد بماليزيا، ومجمع الفقه الإسلامي (مجلة المجمع الفقهي- السنة الخامسة، العدد السابع ١٤١٤هـ (ص٢٠٣)، وهيئة كبار العلماء بالسعودية (قرار رقم ٩٩ بتاريخ ٦/ ١١/ ١٤٠٢هـ، وانظر مجلة المجمع =

الفقهي (١/ ١/ ١٩٨٧ ص٣٧). ولجنة الفتاوى في الأردن، والكويت، ومصر، والجزائر
وتُمَثِّل فتوى المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي القرار رقم (١) –الدورة الثامنة المنعقد بمكة المكرمة (٢٨/ ٤ إلى ٧/ ٥/ ١٤٠٥هـ الموافق ١٩ – ٢٨ يناير ١٩٨٥م) خلاصة جيدة لهذا الموضوع، وانتهى المجلس إلى القرار التالي:
أولًا: إنْ أُخِذَ عضوٌ من جسم إنسان حيٍّ وزرعه في جسم آخر مضطر إليه لإنقاذ حياته أو لاستعادة وظيفة من وظائف أعضائه الأساسية هو عمل جائز لا يتنافى مع الكرامة الإنسانية بالنسبة للمأخوذ منه، كما أنه فيه مصلحة كبيرة وإعانة خيِّرة للمزروع فيه، وهو عمل مشروع وحميد إذا توافرت فيه الشروط التالية:
١- أن لا يضرّ أخذ العضو من المتبرِّع به ضررًا يخلُّ بحياته العادية؛ لأن القاعدة الشرعية أن الضَّرر لا يُزال بضرر مثله ولا بأشدَّ منه؛ ولأن التبرع حينئذٍ يكون من قبيل الإلقاء بالنفس إلى التهلكة وهو أمر غير جائز شرعًا.
٢- أن يكون إعطاء العضو طوعًا من المتبرِّع دون إكراه الممكنة لعلاج المضطر.
٣- أن يكون زرع العضو هو الوسيلة الطبية الوحيدة.
٤- أن يكون نجاح كل من عمليتيْ النزع والزرع محقَّقًا في العادة أو غالبًا يضاف إلى ذلك أنه يحرم اقتضاء مقابل للعضو المنقول أو جزئه؛ لأن بيع الآدمي الحر باطل شرعًا لكرامته بنص القرآن الكريم. انظر: «الجناية العمد» للطبيب على الأعضاء البشرية في الفقه الإسلامي» للدكتور محمد يسري (ص٢١٦)، (ص٢٤٥- ٢٤٦).
أما حكم نقل الأعضاء من الميت
فاختلف العلماء على ثلاثة مذاهب: والراجح.
جواز نقل الأعضاء من الميت إلى الحيّ بشروط:
وبه صدر قرار المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي (وهو القرار الأول من قراراه الدورة الثامنة (ص١٤٧)، وقرار مجمع الفقه الإسلامي لمنظمة المؤتمر الإسلامي (القرار رقم ١) د (٤/ ٨/ ٨٨) من قرارات الدورة الرابعة – مجلة مجمع الفقه الإسلامي (ع٣ ج٢/ ١٩٨٨) (ص٥١٠)، وقرار هيئة كبار العلماء بالسعودية (القرار ٦٢ تاريخ ٢٥/ ١٠/ ١٣٩٨هـ، وقرار رقم ٩٩ بتاريخ (٦/ ١١/ ١٤٠٢هـ)
=

=مجلة المجمع الفقهي (١/ ١/ ١٩٨٧) (ص٣٥، ٣٧).

وشروط جواز النقل من الميت:

١- تحقق الضرورة بأن يكون الاقتطاع لإنقاذ الغير بحيث لا يغني عن سواه من أعضاء حيوان، أو أي عضو صناعي.

٢- أن تتم عملية أخذ العضو ونقله بكل رفق حفاظًا على كرامة الميت ثم يُعاد رتْق المكان الذي أُخِذَ منه، بحيث لا يترتب على ذلك تمثيل بالميت.

٣- موافقة الإنسان قبل موته وتبرعه بأعضاء جسمه أو موافقة ولي الأمر على جراحة قطع العضو من الجثّة.

٤- عدم بيع الأعضاء، أو أخذ بدل مادي مِن قِبَل الميت قبل وفاته أو ورثته بعد مماته.

٥- التحقق من الموت، وتظهر أهمية ذلك بالنسبة للأعضاء الضرورية للحياة كالقلب مثلًا، والتي لا يجوز استقطاعها أثناء الحياة وإلَّا أدى استقطاعها إلى الموت.

٦- مصلحة المريض المتلقي وضرورته، وأن يكون مسلمًا مكلَّفًا.

٧- أن تؤمن الفتنة في أخذه ممن أخذ منه.

٨- أن تكون العملية بواسطة طبيب ماهر، وأن يغلب الظن بنجاح العملية.

٩- يجب أن يتم استقطاع الأعضاء وزرعها في جسم المريض في مؤسسات رسمية تُوكَل إليها هذه المهمة من قبل الدوائر الصحية، مع الاهتمام بأجهزة الرقابة للتأكيد من موت الإنسان، وعدم حصول المعاوضة.. انظر «الجناية العمد للطيب على الأعضاء البشرية» (ص٢٦٥- ٢٦٦، ٢٦٧- ٢٦٩).

زد على هذه الشروط وقبلها: تقديم النّقل من الميت الكافر الحربي مطلقًا، ويحرم النقل من المسلم إلى الكافر مطلقًا، ثم النقل من الميت الكافر معصوم الدم بالشروط المذكورة آنفًا.

فإن لم يوجد فيجوز النقل من الميت المسلم بشرط أن يصف ذلك الطبيب المسلم الحاذق، وقامت الضرورة وتعيَّنت في نقل العضو. ومصلحة المريض الحي في استنقاذ حياته أولى بالتقديم.

=

وفي خلال هذه المدَّة حصل على درجة الأستاذِيَّة عام ١٩٩٩م، وقام بكتابة أكثر من أربعين بحثًا علميًّا ومحاضرة في مؤتمرات علمية محلية ودولية.

- ويبقى الموقف الشرعي من «موت الدماغ» أو «موت جذع الدماغ».
وقد اختلف الفقهاء المعاصرون في هذه المسالة على مذهبيْن:
المذهب الأول: من لم يعتبر موت الدماغ نهاية للحياة الإنسانية، بل لا بد من أمارات الموت التي بها يحصل اليقين، وهو رأي يمثله المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي (بحث نهاية الحياة للدكتور محمد سليمان الأشقر- مجلة مجمع الفقه الإسلامي (ع٣ ج٢/ ١٩٨٧ ص٦٦٥، ٦٦٦) وممن قال بهذا القول فضيلة الشيخ بكر أبو زيد (فقه النوازل ١/ ٢٣٤- بحث جهاز الإنعاش وعلاقة الوفاة بين الأطباء والفقهاء) والدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، والدكتور عن الله البسام، والدكتور محمد الشنقيطي.
والمذهب الثاني: من يرى أن نهاية الحياة الإنسانية تكون بموت الدماغ أو جذعه، ويمثل هذا الرأي الدكتور محمد سليمان الأشقر، ومجمع الفقه بمنظمة المؤتمر الإسلامي (مجلة مجمع الفقه الإسلامي (ع٣ ج٢/ ١٩٨٧) (ص٨٠٩).
ولعلَّ القول الأول هو الأرجح، لصحة الأدلة النقلية والعقلية التي ذكرها أصحاب القول الأول، ذلك أن أحكام الموت أيًا ما كانت إنما تترتَّب على وقوعه الفعلي التام، لا على توقعاته ومظانه مهما كانت قوية، ولأن انتعاش المريض مرة أخرى وتوجهه مرة أخرى للحياة ليس مستحيلًا عقلًا ولا عادة، ومن ثَمَّ فليس مستحيلًا شرعًا، ولا سيما أن بعض أهل العلم نقل رجوع بعض من حكم الأطباء بموتهم بموت جذع الدماغ «بحث جهاز الإنعاش للدكتور بكر أبو زيد (ص٣)»، وما ثبت أيضًا من وجود أطفال بلا مخ وحياتهم بالمدد الطويلة، ومرضى الغيبوبة الدماغية إما أن يوصفوا بالموت أو بالحياة، ووصفهم بالموت يتنقاض مع استمرار مظاهر الحياة في أبدانهم من قبول الغذاء والدواء، والحياة البدنية هي المعتبرة مناطًا للتكليف.

دكتور السيد العقل الإنسان المُحسِن:

لقد مسَّت يد الدكتور السيد العقل المتوضئة الطاهرة الداء العضال في قلبي فنزعته -بإذن ربه- وقام بإجراء عملية قلب مفتوح واستبدال صمام الأورطى لي، وتنازل عن أجره وهو أكثر من اثنين وعشرين ألف جنيه مصري لله ﷻ ولتقوم المحبة في الله بيني وبينه، فطوَّق عنقي بجميلٍ لن أنساه له ما حييت وما دقَّت نبضات قلبي، وعند الله وحده جزاؤه.

✍ فالله أسأل أن يحيي قلبه مثلما داوى قلبي -بإذن الله-، وأن يبارك له في ذريته، وأن يجعله الله نبراسًا وقُدوة ومثلًا أعلى في عالم الطب بين الأطباء المسلمين..

يا أيها الحبرُ الذي ... عمَّتْ أياديه النبيلهْ

أقبل هدية مَن يرى ... في حقك الدنيا قليلهْ

الأستاذ الدكتور حنفي مدبولي الحائز على جائزة الدولة التشجيعية وصاحب أوَّل بحث عالمي في أثر «حبة البركة» الحبَّة السوداء في شفاء الأمراض:

الاسم: حنفي محمود مدبولي حسن.

تاريخ وجهة الميلاد: ١٠/ ١/ ١٩٥٦م القناطر الخيرية -القليوبية.

المؤهلات العلمية:

- بكالوريوس العلوم الطبية البيطرية دور مايو ١٩٧٩م.
- ماجستير العلوم الطبية البيطرية (ميكروبيولوجيا أمراض الحيوان) في ٧/ ٧/ ١٩٨٤م «تخصص فيروسات» موضوع البحث «دراسات على

سرطان الدم والفيروسات اللمفاوية في الأبقار والجاموس بمصر».

□ دكتوراة الفلسفة في العلوم الطبية البيطرية (ميكروبيولوجيا أمراض الحيوان) في ٢٥/ ٦/ ١٩٨٧م موضوع البحث «دراسة مقارنة عن الاختبارات المستعملة لتشخيص مرض الطاعون البقري».

□ الحصول على ليسانس أصول الدين قسم التفسير من جامعة الأزهر عام ١٩٩٩م.

الأنشطة العلمية:

١- نشر ٦٣ بحثًا علميًّا منهم ٦٠ بحثًا باللغة الإنجليزية وثلاثة أبحاث باللغة العربية.

٢- الإشراف العلمي على ٤٥ رسالة علمية منهم (٢٤) رسالة ماجستير، (٢١) رسالة دكتوراه.

٣- فحص وحكم ومناقشة ٦٠ رسالة علمية منهم (٣٤) رسالة ماجستير، (٢٦) رسالة دكتوراه، ومن جملة هذه الرسائل (٤٥) إشراف علمي، (١٥) تحكيم خارجي بدون إشراف.

٤- تأليف ثلاثة كتب علميَّة: الأول «أساس علم الفيروسات»، والثاني «أساس علم البيولوجيا الجزيئية»، والثالث «أساس تشخيص الأمراض الفيروسية».

٥- عزل وتصنيف ١٨ فيروسًا من الحيوانات والدواجن والأسماك المصابة.

٦- تحضير وتقيم ١٦ لقاح فيروسي ضد فيروسات تصيب الحيوانات والدواجن.

٧- المشاركة في أعمال تطوير التعليم بجمهورية مصر العربية.

٨- الحصول على براءة الاختراع في تحضير لقاح فيروسي ضد مرض الجامبورو في الدجاج باستخدام زيت حبة البركة.

٩- الحصول على جائزة أحسن بحث عؤلمي في المؤتمر العلمي الثالث لكلية الطب البيطري -بني سويف لعام ٢٠٠٢م.

١٠- الحصول على جائزة أحسن بحث علمي في المؤتمر العلمي السابع لكلية الطب البيطري -جامعة القاهرة لعام ٢٠٠٢م.

١١- الحصول على جائزة الدولة التشجيعية في العلوم البيولوجية لعام ٢٠٠٢م.

١٢- المشاركة في تحكيم ومتابعة بعض مشروعات البيولوجيا الجزيئية والهندسة الوراثية بأكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا.

١٣- المشاركة في اللجان العلمية الدائمة التابعة للمجلس الأعلى للجامعات لترقية المدرسين والأساتذة المساعدين.

١٤- المشاركة في بعض الجمعيات العلمية المتخصصة المحلية والعالمية.

١٥- المشاركة في عدة دورات علمية متخصصة مثل الميكروسكوب الإلكتروني، وتفاعل البلمرة المتسلسل، تطوير التعليم، التعليم الإلكتروني عن بعد.

١٦- المشاركة في فعاليات العديد من المؤتمرات العلمية المحلية والعالمية.

١٧- الانتداب لتدريس علم الفيروسات لكليات الطب البيطري

بكل من (كفر الشيخ- جامعة طنطا، مشتهر -جامعة بنها، الإسماعيلية- جامعة قناة السويس)، وكذلك كلية العلوم جامعة بني سويف، والمعهد الفني الصحي -بني سويف والتابع لوزارة الصحة.

١٨- إلقاء العديد من المحاضرات العلمية المتخصصة في الكثير من الندوات والمؤتمرات والجهات البحثية.

الجوائز ودرجات الشرف والمنح:

الرقم	الجائز	درجات الشرف	المنح	التاريخ	المصدر
(١)	جائزة الدولة في العلوم البيولوجية	تكريم من الدولة	جمهورية مصر العربية	٢٠٠٢م	جمهورية مصر العربية
(٢)	جائزة أحسن بحث	في المؤتمر العلمي السابع	كلية الطب البيطري الجيزة جامعة القاهرة	٢٠٠٢م	كلية الطب البيطري الجيزة جامعة القاهرة
(٣)	جائزة أحسن بحث	المؤتمر العلمي الثالث	كلية الطب البيطري جامعة القاهرة فرع بني سويف	٢٠٠٣م	كلية الطب البيطري جامعة القاهرة فرع بني سويف
(٤)	درع كلية الطب البيطري جامعة القاهرة فرع بني سويف	تكريم من الكلية	كلية الطب البيطري جامعة القاهرة فرع بني سويف	٢٠٠٣م	كلية الطب البيطري جامعة القاهرة فرع بني سويف
(٥)	درع جامعة القاهرة	تكريم من نائب	جامعة القاهرة	٢٠٠٤م	جامعة القاهرة

	فرع بني سويف	رئيس الجامعة	فرع بني سويف		فرع بني سويف
(٦)	درع جامعة القاهرة	تكريم من الجامعة في عيد العلم	جامعة القاهرة	٢٠٠٤م	جامعة القاهرة
(٧)	درع النقابة العامة	تكريم من النقيب	النقابة العامة للأطباء البيطريين	٢٠٠٧م	النقابة العامة للأطباء البيطريين
(٨)	شهادة وميدالية الأستاذ المثالي	تكريم من نادي أعضاء هيئة التدريس	نادي أعضاء هيئة التدريس جامعة القاهرة	٢٠٠٥م	نادي أعضاء هيئة التدريس جامعة القاهرة
(٩)	شهادة شكر وتقدير	شكر وتقدير من الهيئة المنظمة للمؤتمر العالمي السابع للإعجاز العلمي في القرآن والسنة	جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم والهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة	٢٠٠٤م	الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة
(١٠)	شهادة شكر وتقدير	شكر وتقدير من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت	وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت، المؤتمر العالمي	٢٠٠٦م	وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت، المؤتمر العالمي الثامن

			الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة		للإعجاز العلمي في القرآن والسنة

□ جاء في ترشيح كلية الطب البيطري بجامعة بني سويف في ترشيح الدكتور حنفي محمود مدبولي أستاذ ورئيس قسم الفيروسات للتقدّم لجائزة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي لعام ٢٠٠٧م في مجال التراث العلمي العربي والإسلامي «البيطرة وعلم الحيوان في التراث العربي ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

مبررات ترشيح سعادته لنيل الجائزة

تشهد كلية الطب البيطري جامعة بني سويف بجمهورية مصر العربية أن سعادة الأستاذ الدكتور/ حنفي محمود مدبولي من العلماء المتميزين في علم الفيروسات وله ٥٩ بحثًا منشورًا باللغة الأجنبية وثلاثة أبحاث منشورة باللغة العربية في مؤتمرات محلية ودولية وعالمية. وقد أشرف سيادته على ٢٥ رسالة ماجستير و٢١ رسالة دكتوراه وله مدرسة علمية من طلابه الموجودين في كليات الطب البيطري والمعاهد والمراكز البحثية المنتشرة في ج.م.ع. وقد انتدب سعادته لتدريس علم الفيروسات بكليات الطب البيطري لجامعات بنها، وقناة السويس، وطنطا كما أن سعادته حاصل على جائزة أحسن بحث في مؤتمر كلية الطب البيطري جامعة القاهرة لعام ٢٠٠٢م، وكذلك جائزة الدولة التشجيعية في العلوم البيولوجية لعام ٢٠٠٢م وجائزة أحسن بحث في المؤتمر العلمي الثالث

بكلية الطب البيطري جامعة بني سويف لعام ٢٠٠٣م، وتم قبول براءة الاختراع المقدم من سيادته ونشر ذلك في جريدة براءة الاختراع العدد ٦٤٥ في ٢٤/ ٥/ ٢٠٠٥م.

وقد شارك سعادته في العديد من الندوات والمؤتمرات العلمية المحلية والدولية والعالمية.

كما أن سعادته رئيس مشروع ضمان وتوكيد الجودة بالكلية، ويقوم سعادته بتحكيم المشروعات البحثية بأكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا (برنامج الإستراتيجية القومية للتكنولوجيا الحيوية والهندسة الوراثية).

□ وأما بخصوص الأبحاث المقدمة للجائزة فهي تتناول ثلاثة موضوعات مختلفة، البحث الأول منها وهو بحث تطبيقي مفيد يتناول تحضير لقاحات فيروسية باستخدام زيت الحبة السوداء «حبة البركة»، وقد تم إلقاء هذا البحث في المؤتمر العالمي السابع للإعجاز العلمي في القرآن والسنة والذي عقد بإمارة بدبي الشقيقة لعام ٢٠٠٤م، وهو منشور في كتاب هذا المؤتمر (المجلد رقم١: العلوم الطبية- الأبحاث التطبيقية) وهذا البحث يتناول فكرة جديدة على مستوى العالم وهي استخدام زيت الحبة السوداء في تحضير اللقاحات الفيروسية، واستخدم سعادته هذا الزيت بعد أن قام سعادته بدراسة الحبة السوداء وتأثيرها على جهاز المناعة لعدة سنوات «أبحاث موجودة بقائمة الأبحاث المنشورة»، وقد قارن سعادته رد الفعل المناعي في الكتاكيت المحصنة عند عمر أسبوع، والأمهات المحصنة، والكتاكيت الفاقسة من هذه الأمهات -على فترات

محددة في كل تجربة من هذه التجارب الثلاثة على حدة باستخدام اللقاحات المحضرة لهذا الغرض، وهي: لقاح زيت حبة البركة، لقاح فيتامين E مع ملح السيلنيوم، لقاح الزيت المعدني «القاحات مثبطة ضد فيروس الريو» بالإضافة إلى لقاح رابع وهو لقاح حي مستضعف لفيروس الريو وهو شائع استخدامه في الأسواق. وقد قام سعادته بقياس الأجسام المناعية المضادة في الكتاكيت والأمهات المحصنة وكذلك الكتاكيت الفاقسة منها وقياس نسبة نشاط خلايا البلعمة ومعامل نشاطها، وكذلك نشاط الخلايا الليمفاوية في الكتاكيت والأمهات المحصنة. وقد تبين من النتائج تفوق اللقاح المحضر من زيت حبة البركة على اللقاحات الثلاثة الأخرى في كل الاختبارات المستخدمة.

□ وناقش سعادته النتائج مناقشة علمية دقيقة بعد معاملتها معاملة إحصائية لبيان الفروق المعنوية، وكذلك فسر أحاديث النبي ﷺ الخاصة بالحبة السوداء على ضوء ما توصل إليه من نتائج واستئناسًا بأبحاث العلماء الآخرين في هذا الشأن مبينًا أن الحبة السوداء لا يكون لها الشفاء من كل داء إلَّا بتحفيزها القوي لجهاز المناعة، وهذا ما ثبت من خلال التجارب العلمية، واستند بهذا البحث على صدق رسالة النبي ﷺ، وأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلَّا وحي يوحى إليه ﷺ من ربه عَزَّ وَجَلَّ.

□ أما البحثان الثاني والثالث فهما يتناولان قضايا عالمية كقضية تغيير فطرة الحيوانات المأكول لحمها في طريقة غذائها من أكل العشب والكلأ إلى أكل بروتين من أصل حيواني بعد إضافة مسحوق الدم واللحم والعظم إلى أعلافها، وما أعقب ذلك من ظهور مرض جنون البقر ومصاحبًا له في نفس الوقت مرض جاكوب النوع المغاير في الإنسان

بسبب تناوله للحوم هذه الأبقار التي تغذت على علائق بها مسحوق الدم واللحم والعظم، فهذا البحث الثاني يناقش هذه القضية من خلال منظور علمي دقيق مبنيًا على الحس والمشاهدة والتقارير الدولية كتقارير منظمة الأغذية والزراعة ومنظمة الصحة العالمية ومكتب الأوبئة في باريس.

كما بين سعادته طبيعة وأنواع الأمراض ذات الاعتلال الدماغي الإسفنجي في الحيوان والإنسان وأسبابها.

كما بين سعادته أن الإنسان لما أكل لحم أخيه الميت ظهر عليه مرض من أمراض الاعتلال الدماغي الإسفنجي وهو مرض «كورو» الذي ظهر في قبائل البابوا في غينيا الجديدة باستراليا لفعلهم ذلك ولما امتنعوا عن ذلك اختفى المرض من بينهم. وقد ربط سعادته بين هذا الحدث العلمي الهائل وبين الآيات القرآنية التي ينهى الله عَزَّوَجَلَّ فيها عن تغيير وعن تبديل خلق الله فظهر البحث في أحسن ما يكون، مع بيان أوجه الإعجاز العلمي في الآيات بهذا الشأن. وقد أشار سعادته إلى صدق رسالة النبي محمد ﷺ لعدم معرفته العلمية بما تؤول إليه تغيير الفطر في الحيوان والإنسان وقد عرض سعادته هذا البحث في المؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة والذي عقد بدولة الكويت الشقيقة، وهو موجود مختصرًا في كتاب المؤتمر «مجلد علوم الحياة من ٥٤- ٨٢».

□ أما البحث الثالث فقد تم إلقاؤه في المؤتمر الوطني الأول بدولة المغرب الشقيق في الفترة ٢٦-٢٩/ ٤/ ٢٠٠٧م وملخصه منشور بكتيب المؤتمر فهو يتناول أيضًا قضية عالمية هزت الرأي العام العالمي وما زالت وهي قضية الاستنساخ فقد صال فيها وجال من خلال منظور علمي

دقيق مبينًا فيه أنواع الاستنساخ والعيوب الخفية له وأضراره على الفرد والمجتمع وهل استنساخ البشر ممكن أم مستحيل؟ وما هي آراء علماء الأجنة، والبيولوجيا، والبيولوجيا الجزيئية والساسة والمفكرين والعلماء الذين استنسخوا حيوانات؟ وكذلك آراء علماء الدين في هذا الأمر ومناقشة هذه الآراء مناقشة علمية دقيقة، وبيان القرارات الدولية التي اتخذتها بعض الدول بحظر الاستنساخ بأنواعه، وقرارات منظمة الأمم المتحدة بحظر الاستنساخ بنوعيْه، وقد بين أضرار الاستنساخ الاجتماعية من حيث الإرث وما يترتب عليه من أحكام شرعية، وضياع الغرائز الفطرية كغريزة الأمومة والأبوة والبنوة وكلها أمور تعلق بحياة الفرد ولها تأثيرها على المجتمع.

وقد بين سعادته أن مسألة إنجاب الذرية قد حسمها الله عز وجل منذ الأزل، وبين في كتابه العزيز أنه سبحانه وتعالى خلق الناس من ذكر وأنثى، وأنه سبحانه وتعالى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون، وأنه لا طريق لإنجاب الذرية غير هذا الطريق الذي بيَّنه تبارك وتعالى في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وانتهى إلى الفصل في هذه المسألة ببيان أن مسألة الاستنساخ مصيرها إلى الزوال باعتراف علماء الاستنساخ، وأنه لا يمكن بأي حال من الأحوال استنساخ كائن بشري سوى النفس والسريرة وأن الاستنساخ بكلا نوعيْه محظور علميًّا وحرام شرعًا لما يترتب عليه من مفاسد وأضرار.

لكل ما ذُكِر من بيان نبذة مختصرة عن حياته العلمية ولهذه الأبحاث المقدمة تسعد كلية الطب البيطري بجامعة بني سويف أن ترشح سعادته لنيل جائزة الكويت في مجال التراث العلمي العربي والإسلامي «البيطرة

وعلم الحيوان في التراث العربي» متمنين لسعادته التوفيق بإذن الله تعالى ودوام الرقي والتقدم.

✍ فلله درّه من علّامة في مجال تخصصه يسير على نهج سلفنا الصالح..

وأكرم به من نهج وسبيل.. وصُمّت أذن الدنيا إن لم تسمع لنا.

والأستاذ الدكتور حنفي مدبولي من أبناء الدعوة السلفية بالإسكندرية، وكان رئيسًا لمجلس إدارة الجمعية الشرعية بمدينة القناطر الخيرية، وهو رئيس قسم الميكروبيولوجي والفيروسات بكلية الطب البيطري ببني سويف، وهو حافظ للقرآن الكريم، وكان خطيبًا بمسجد الجمعية الشرعية بالقناطر الخيرية.

وهو صاحب البحث المتميز الفريد الأول من نوعه في العالم عن أثر «الحبة السوداء» «حَبَّة البركة» في شفاء الأمراض امتثالًا لقول النبي ﷺ: **«الحَبَّة السوداء فيها شِفاءٌ مِن كُلِّ داءٍ إلَّا الموت»**[1].

حصل على جائزة الدولة التقديرية تقديرًا لكفاءته العلميَّة وتفردَّه في بحثه العظيم.. سَنُطِبُّ المريض بدوائنا.. صُمَّتْ أذن الدنيا إنْ لمْ تسمع لنا.

---

(١) صحيح: رواه أبو نعيم في «الطب» عن بُريدة، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٨١٩)، و«صحيح الجامع» (٣١٦٨).



سيدنا الأستاذ الدكتور الجرَّاح العالمي العابد الزاهد السلفي صاحب الكرامة جمال برهامي أوَّل أستاذ جرَّاح جامعي يعالج الجروح والحروق بعسل النحل أنموذج مثالي لدُعاة المستقبل الوضيء:

إنه الداعية العامل الصوَّام القوَّام الزاهد الأستاذ الدكتور جمال الدين حسين محمود برهامي شقيق الداعية الكبير الدكتور ياسر برهامي، وهما من كبار دعاة الدعوة السلفية بالإسكندرية.

وُلِد الدكتور جمال برهامي في صفر ١٣٧٠هـ/ ديسمبر ١٩٥٠م، وحصل على بكالوريوس الطب والجراحة من جامعة الإسكندرية سنة ١٩٧٤م، ثم حصل على بكالوريوس طب جراحة الفم والأسنان سنة ١٩٧٩م، وحصل على الدكتوراه في جراحة الوجه والفكِّ والتجميل سنة ١٩٨٤م، وحصل على درجة الأُستاذِيَّة في جراحة الوجه والفك والتجميل والجراحة الدقيقة والمكروسكوبية سنة ١٩٩٢م.

وهو أول من بدأ باستعمال واستخدام عسل النحل في علاج الحروق والجروح سنة ١٩٧٦ - ١٩٧٧م وما يزال إلى الآن. ولقد وُوجه باستهزاء شديدٍ في ذلك الوقت حتى نشرت المجلَّات الطبية الألمانيَّة نتائج استعمال العسل في الحروق، فأصبح طريقة مُعْتمدة في ذلك في أنحاء العالم.

ولقد سافر أستاذنا وطبيبنا المبارَك ضمن البعثة الرسمية الطبيَّة لنقابة الأطباء المصرية لإغاثة ضحايا الغزو السوفيتي لأفغانستان سنة ١٩٨٤م، وشارك في تأسيس المستشفى الجراحي الأفغاني في مدينة بيشاور الحدودية الباكستانية، وانفجر به لغم في هذه المنطقة حمله عشرة أمتار في الهواء ونزل بخدش صغير وهو معافى بحمد الله، وهذه كرامة طيبة من كراماته،

وحفظ عظيم من الله لوليٍّ من أوليائه.

□ وأستاذنا الدكتور العلَّامة جمال برهامي حافظ لكتاب الله، وهو إمام مسجد الفاروق، وهو محافظ على درس التفسير والمقرأة يوميًا من بعد صلاة الفجر حتى شروق الشمس، وله درس بعد صلاة العشاء في الحديث، ويشارك في خُطب الجمعة، ولا تكاد تفوته تكبيرة الإحرام منذ سنوات طويلة، حتى أثناء العمليات الجراحية الطويلة التي تستغرق ١٢ أو ١٤ ساعة يواظب فيها على صلاة الجماعة.

□ وأثناء وجوده في باكستان معالجًا للمجاهدين أيام الغزو السوفيتي كانت هيئات الإغاثة العالمية توصي بقطع الأطراف المصابة نتيجة الألغام، وكان يرفض ذلك ويعالج هذه الإصابات بعسل النحل، ويصبر على علاج مرضاه صبرًا جميلًا، وجعل الله الشفاء على يديه لحالات كثيرة أوصى غيره بقطع أطرافها، وكان من ضمن هؤلاء المجاهد السعودي خطَّاب رحمه الله، إذ أجرى له عملية جراحية في يده، ثم صار هذا المجاهد بعد ذلك أحد قادة الجهاد في الشيشان واستشهد هناك، لتكون بطولاته في ميزان حسنات أستاذنا الدكتور جمال برهامي.

□ وأستاذنا العظيم سريع الاستجابة لأمر الله ورسوله، فقبل امتحان الماجستير عرف وجوب إعفاء اللحية، فبادر إلى ذلك، وهدّده أساتذته بالرُّسوب، فأبَى واستمر وثبت، وكتب الله له النجاح.

وهو مواظب على أداء العُمْرة سنويًّا والاعتكاف في العشر الأواخر في المسجد الحرام، والصلاة في الصف الأول.

□ وهو مواظب على التهجد والقيام والصيام.

□ وله القدحُ المُعَلَّى في الزهد، وكشفه لا يتعدى عُشر قيمة كشف زملائه من الأساتذة الدكاترة المساوين له في الكفاءة العلمية، إذ يبلغ كشفُ زملائه مئة وخمسين جنيهًا مصريًا ولا يتعدَّى كشفُه هو خمسة عشر جنيهًا أقل سعر في السوق المصري بين كبار الدكاترة من أساتذة كُلِيَّات الطب، وعنده أقلَّ سيارة لا يريد تغييرها منذ عشرين سنة.

ولشيخنا وأستاذنا الكعب العالي في علاج إصابات القدم السُّكَّرِيَّة بعسل النحل وحقق في ذلك النتائج الباهرة.. فبارك الله فيه وفي علمه وأبنائه وعمره ودعوته، ونسأ ل الله له أن يحشره مع نبيه ﷺ وأن يرزقه النظر إلى وجهه الكريم.

✍ لله در أستاذنا المبارك فهو بحق جمال الدنيا والدين..

أنـت تـدري أيُّهـا الحـيرانُ عنَّـا ... كيف فوق الشمس أزمانًـا حَلَلْنَـا

□ لسان حاله يقول:

كُنَّـا جبـالًا في الجبـال ورُبَّـما ... سرنـا عـلى مـوج البحـار بحـارا

□ لله درك يا دكتور جمال:

سَقَوْني وقالوا لا تُغَنِّي ولـو سـقوا ... جبالَ سُـلَيْمَى مـا سَـقَوْني لَغَنَّـتِ

❊❊❊

كلمات للحياة

عالي الهمة:

«وَجَد نفسَه محصورًا بين جدران..

واكتشف سَلبًا يلفّه..

فانتفض.. ولم يؤمن بمفتاح بطيء..

بل كسر القفل القديم.. ورماه..

ثم خطا خطوات العزم والتصميم..

فكانت نقلته قوية.. لمعت ببريق الإرادة..

حتى أنها كسرت العتبة..

وخرج إلى سعة وضياء وأفق رحيب..

معه العلم والكتاب..

ويدير دولاب الحضارة..

ومضى يحدوه منهجه الإلهي..

يؤكد ذاته المتميزة.. ويصنع الحياة..»[1].

عالي الهمَّة فوق التيار.. وفي أعلى الذُّرَى:

يريد تسيير الحياة كلها في تيار واحد، بما فيها من بَشَر وعلاقات وأموالٍ وعلوم وفنون، ليجعل هذا التيار يصبُّ في وادي «الإسلام» خُطَّتُه واسعة شاملةً، وتأثيره يتعدَّى توجيه الجيل الواحد، تأثيره تأثير

(١) «صناعة الحياة» لمحمد أحمد الراشد (ص٢).

حضاريٌّ يمتد إلى أجيال، ويضرب في عمق الزمن ورحابة المكان.. يصبر على هدفه صبرًا جميلًا ودهرًا طويلًا. ليمسك بزمام الحياة لله عز وجل[١].

عالي الهمة مكانه المحور.. مكانه في القيادة دائمًا ليحوز ولاء الآخرين:

«إن صورتي الذرة واللبنة الكونية تفصحان بوضوح أن «الولاء» حقيقة حيوية راسخة، ولذلك يمكن إسقاطها على العلاقات البشرية وانتظار تبعية بعض البشر لبعضهم الآخر الذين هم أنوية ومحاور، وهذا ما يظهره التاريخ الإنساني جليًا وتؤكده الحقبة الحالية التي نعيشها، ولذلك يؤذن لدعاة الإسلام أن يطلبوا لأنفسهم المكان المحوري ليحوزوا ولاء الآخرين».. لقيادة البشرية تحت راية الإسلام.. والإسلام فقط. نريد فرْي العباقرة وتسويق العبقرية والعثور على مُتفِّهمٍ لها.

حدد مستقبلك ومستقبل الإسلام في أعلى الذُّرى:

حتى تكون مصارعتك للباطل مصارعة واعية مُخطَّطة هادفة، اجعل تغييرك غير معتمد على ثورية اعتباطية بل على ثورية إيمانية عاقلة.

كل القضية تتلخَّص في سؤال صيغته: «أنا مسلم» فلمَ لا أكون بؤرة ومحورًا ومركزًا وقائدًا؟ ولمَ لا أستقطب الناس حولي؟ لله وللدار الآخرة.

أخي عالي الهمة كُن تيّارًا هادرًا:

«إن بلدًا إسلاميًّا يبلغ أهله عشرين مليونًا لا يستلزم رجحان المعادلة فيه لصالح العمل الإسلامي ملايين عديدة، بمقدار النصف أو الثلث، وإنما بإلغاء عدد النساء من المعادلة يتقلص العدد إلى تسعة ملايين، إذ ما

---

(١) المصدر السابق (ص٤).

زال دورهن في بلادنا الإسلامية أضعف من ضعيف. وبإلغاء عدد الأطفال الذين هم دون سن البلوغ وكبار السن الذين اعتزلوا الحياة يتقلص العدد إلى ثلاثة ملايين. ثم بإلغاء عدد الأميين السذج في الأرياف بخاصة، وعدد الجبناء الذين يخافون الفكر والسياسة، والمرضى الذين تنهكهم همومهم: يتقلص العدد إلى أقل من مليون بكثير، وربما إلى نصف مليون، همَ الذين يحملون فكرًا ويقفون موقفًا سياسيًّا، ولهم رأي وقول، فإذا حاز العمل الإسلامي نصفهم -أي ربع مليون قد يقوده ثلاثة آلاف من صناع الحياة المهرة ليس أكثر، وبقية عدد الدعاة يساعدون هؤلاء ويخدمونهم.

أن أكثر الناس لا شغل لهم بفكر أو إصلاح، وإنما مبدؤهم: نفسي نفسي، وأولادي أولادي، وزوجي زوجي.

فانظر ما أسهل الأمر إذا ربّت الدعوة الآلاف الثلاثة هؤلاء.

وأنا أزعم أن كل صاحب مهنة ذي مهارة فيها، وكل عالم في باب من أبواب العلم، وكل فنان، وكل ذي مركز مالي متميز: يمكنه أن يكون صانعًا للحياة ومحورًا تدور حوله أعداد كبيرة من الناس ويتحلقون في ولاء قد يتعاظم إلى طاعة، مع العلم أن الشخص الموالي قد يتعدد التأثير عليه من عدد من صناع الحياة المؤثرين في الآن الواحد.

والأمثلة المشروحة توضح ذلك»[1].

---

(١) «صناعة الحياة» (ص٢٥).

صناع الحياة:

□ فالعالم الشرعي مثلًا هو من صناع الحياة، الذي هو بحر، ويفتي فتواه عن تمكن، ويملأ الأسماع حين يقول: «قال الشافعي، وقال مالك، ورجّح ابن تيمية كذا، ووحدت هذا في «المبسوط»، وتأيد عندي ما في «المدونة»، ويشهد له حديث البخاري، وأورد ابن حجر في «فتح الباري» شواهد أخرى..

هذا نمط العالم الذي يصنع الحياة، وليس هو المقلّل المكتفي بمختصر في مذهب واحد.

ورغم تفلّت الناس فإن العِرق الإيماني ما زال ينبض فيهم، ولم يتخلوا عن الحميّة الإيمانية، ويحتاجون فتوى مثل هذا العالم في زواجهم وطلاقهم إن لم يكن في بيوعهم، ويستطع الماهر أن يتابع من يستفتيه أو تتصاعد حماسته بعد محاضرة يلقيها أو رسالة ينشرها، حتى تنضج المتابعة من بعد مدة وتتحول حاجة المستفتي أو حماسة السامع إلى ولاء له، ثم يعمق هذا الولاء على مرّ الأيام بالتوعية والتفقيه.

إن الدعوة للإسلام تقتضي بأن تنتقي بعضًا من أنقى وأذكى منتسبيها من خريجي الكليات الشرعية، وليس ذلك بشرط، وتقيم لهم الدورات العلمية، وتفرغهم من ثقل الواجبات الإدارية، وتتيح لهم سياحات إلى بلاد أخرى يجلسون فيها بين أيادي مشاهير العلماء، وتوفر للفقير منهم أمهات المراجع، ثم تخرجهم إلى المجتمع مفتين ومحاضرين وعاقدي ندوات وكاتبي مقالات في الصحف ومؤلفي كتب. فإذا أخرجت الدعوة في البلد الذي تعداده عشرين مليونًا عشرين من هذا النموذج من العلماء،

ووطأت لهم المنابر، وأشاعت أفلام الفيديو والأشرطة الصوتية لدروسهم، وانتظرتهم عشر سنوات، فإن الواحد منهم قد ينجح في تحصيل ولاء ثلاثمئة مسلم لله ولرسوله ﷺ.

فانظر إلى عظم أثر دَوْر هؤلاء العشرين لو تجرّدوا وتعبوا في تربية أنفسهم وأطالوا السهر وحني الظهر حتى يصلوا إلى مرتبة الفتوى وإمامة الناس.

والوُعَّاظ من صُنَّاع الحياة:

ومهِمَّة هؤلاء: الضَّرْب على الوتر العاطفي، وتحريك المشاعر، وإنهاض الهمم، وتناول حديث الجنة والنار، والموت والقبر، والزهديات، والرقائق، والقلبيات، والأخلاقيات الإيمانية، والتنقل بين الآية والحديث وأبيات الشعر وقصص السلف والصالحين، وقال الفضيل وقال الثوري. ويتضاعف أثر الواعظ بتعلمه قواعد النحو، ليكون فصيحًا، وبمطالعة كتب الأدب، ليكون ثري اللغة، وببذل تربية سلفية له، ليبرأ من الحديث الموضوع والإسرائيليات والبدع التي تكثر في أوراق الوعظ.

إن الواعظ الواحد قد يحوز ولاء الخمسمئة في المتوسط خلال عشر سنوات إذا استثمر تأثر السامعين به عبر اتصال فردي ورعاية خاصة، وبخاصة إذا وصلت أشرطة وعظه الأقاصي فأثرت فيمن لا يستطيع الجلوس بين يديه، وهذا يعني إضافة خمس وعشرين ألف ولاء إلى رصيد بنك الترجيح.

لا بُدَّ من ترطيب النُّفُوس بنداوة العاطِفِيَّات التي هي بضاعة الوعاظ. فوجود الوُعَّاظ من أركان بناء الحضارة الإسلامية الجديدة، ويصدُق

عليهم وصف صناعة الحياة من هذه الجهة أيضًا، ويا لها من صِنَاعة.

□ ومنهم شعراء الدعوة، ووجودهم ضرورة من الضرورات؛ لأن بعض الناس أهل عقلانية، ولذلك نقنعهم بالمنطق والتأصيل والقواعد والمحاكمات الفكرية، وأما السواد الأعظم فتحركهم العواطف، ولا يمكن تحصيل ولائهم إلَّا بالمجازيات والأخيلة والسياحة في الأقاصي البعيدة للمعاني والأمثلة والاستعارات والمترادفات، وإذا كان تأثير المفكر والمفتي علميًا، فإن تأثير الشاعر أخلاقي من جهة، وهِممي من جهة أخرى، يحبب للنفوس البذل، ويوجد فيها الاستعداد لركوب المصاعب، وبخاصة إذا نُشِر شراع الدعوة وقت هبوب الرياح، فينزل الشعراء ليضرموا حرارة التحدي ويغرسوا روح الهدم والبناء.

إن فحصًا بين شباب الدعوة عن ذوي القابلية الشعرية، والتقاط عدد منهم وتدريبهم وتشجيعهم هو من الأولويات الواجبة في الخطة الجادة، ليصْفو منهم للدعوة في القطر خمسة، من بين فحل مُجيد تعلق قصائده في أستار الكعبة، وآخر ممهد ومعين، ليضيف جميعهم خلال تسع سنوات من الترنم خمسة آلاف ولي إلى الرصيد، ثم ليرفعوا العدد إلى خمسين في السنة العاشرة يوم يهتز اللواء، فتبني أبياتهم بيوت المدينة الفاضلة[1].

□ والفلكي في مرصده يصنع الحياة أيضًا، وعلى الدعاة أن ينتدبوا منهم اثنين يتعلمان خارطة السماء وعلم البروج وأوصاف المجرات وأخبار الثقوب السوداء، والفلك علم صعب يحتاج الرياضيات المتقدمة والصبر على الرصد والنظر إلى العلياء، ولذلك لا نطمع بأكثر من اثنين،

---

(١) «صناعة الحياة» (ص٣١).

بل حيازة الواحد إنجاز دعوي كبير، وسيقال عنه: هذا عين من أعيان الأمة حَرِي إن قال أن يجاب، وسيتكلم في التلفزيون والجمعيات والجامعات، وتتسابق المدارس في دعوته للكلام، وكلهم يسمعون له وكأن على رؤوسهم الطير، لأخباره العجيبة الغريبة، وسيؤذن في الناس من مرصده كما يؤذن الواعظ من على منبره: أن أيها الناس آمنوا، فيؤمن نصف المؤمن. ويتضاعف إيمان المؤمن، ويظل يجمع الولاء على مدى عشر سنوات حتى يزداد الرصيد سبعة آلاف، مع تنقية للمحيط، وأداء دور المقدمات الحضارية، ولا تستطيع أعتى الحكومات الظالمة أن تمنعه عن اعتلاء المنصّات، لهيبة علم الفلك في نقوس الناس ولذته(١).

والأطبَّاء من صُنَّاع الحياة:

□ وينتسب إلى صفوف الدعوة مئات الأطباء، ولكن خمسين منهم يمكن أن يكونوا من صناع الحياة حقًّا، وهم الذين تخصصوا بجراحة القلب والدماغ والعمليات الصعبة ونالوا أعلى الشهادات في ذلك، والذين تخصصوا بعلاج السرطان والطب النفسي، وما وازى ذلك، فإن الجرَّاح يجري ألف عملية خلال عشر سنوات، على الأقل، ومع كل عملية يشكره أبناء المريض وأشقاؤه وأصدقاؤه وجيرانه، فإذا كان نبهًا: انتقى منهم عشرة فوطد بهم علاقته من مركز القوة، ويظل يتصل بهم تلفونيًا وبالمراسلة، ويبارك لهم في أعيادهم، ويُعزِّيهم عند المصائب، ويرسل لهم الكتب والأشرطة، وهو خلال كل ذلك يُؤَذِّنُ فيهم أن آمنوا، وأن الإسلام حق، وأن رجال الإسلام أخيار، وتعاونه سكرتارية نشطة في

(١) المصدر السابق (ص٣٢- ٣٣).

ذلك وتقوم بتذكيره، فيحصل بذلك على ولاء واحد على الأقل منهم حتى لو أهدرنا التسعة، أي يقدم للدعوة ألف ولي خلال حياته الطبية الدعوية، أي تحوز الدعوة خمسين ألفًا عبر أذان الأطباء الخمسين من صناع الحياة، وهذه ثروة عظيمة تضاف إلى رصيد مصرفنا أعظم بها، بل بنصفها، بل بربعها[1].

والمعماريون من صُنَّاع الحياة:

إن الناس إذا عرفت مقاييس الجمال فليس أجمل من الإيمان والأخلاق والمعروف، ولذلك فإن على خطة الدعوة في كل بلد أن تدفع مئة لدراسة العمارة، لينبغ منهم عشرة ويصلوا إلى درجة الإبداع والاجتهاد وجودة العطاء فيكون هؤلاء العشرة من صناع الحياة، بمشاركتهم في تحسين المحيط وترويض الأذواق، وباللبنات الحضارية التي يُرسونها في أساس النهضة الإسلامية المستأنفة، وبألوف أهل الولاء الذين يضيفونهم إلى رصيد مصرف الترجيح.

بل المتأمل يذهب إلى أبعد من هذا، ويجد في الموازين المعمارية مادة لتعميق الوعي التنظيمي والتربوي وإتقان فقه الدعوة[2].

فكن المعماري المسلم، أو المجهز له، أو الناظر لما تقترف يده الملائكية، لتفتح عرصات الحياة وتدق أبواب الحضارة.. لا تكن الرابع فتتربع من بعد ما أردت لك المنطلق.

- والنسَّابة العالم بأنساب القبائل والعوائل وشجرات الشرف هو من

---

(١) المصدر السابق (ص٣٣- ٣٤).

(٢) المصدر السابق (ص٣٧).

صناع الحياة، فإن الناس يحتاجونه ويأنسون به، والدعوة تحتاجه بعد ما تعمَّدت حكومات الاشتراكية طمس أنساب الناس لإتاحة مجال الصعود والأمر والنهي للغوغاء والنكرات والدخلاء، حتى صدرت قوانين بتحريم الانتساب إلى قبيلة أو مدينة، وما كان «كوهين» ليصل إلى مرافقة علي علي عامر في تفتيشه لدفاعات الجولان لولا أن التربية الاشتراكية علَّمتَ من هنالك أن لا يسأل عن نسب رفيقه!

ليس علم الأنساب من الباطل، ولا تكبر ثَمَّ، وإنما إذا اجتمع النسب الشريف مع العمل الصالح فنعمًا وهو، والشافعية ميزوا الشافعي على الفقهاء بأنه قرشي، ورأيت إمام الحَرَمَين الجويني متحمسًا لذلك في كتابه: الكافية في الجَدَل.

وقد وجدنا بالاستقراء الاجتماعي أن الأخلاق الطبيعية الأساسية هي أوفر لدى أبناء العائلات العريقة، من شجاعة وكرم ووفاء وعدم غدر وصدق وكراهة الطعن من الخلف، مع أنهم يتلبسون بمنكرات، من زنا وشرب خمر، إلَّا أن هذه سيئات طارئة، يمكن التوبة منها من قريب، إنما البناء في الحياة: بناء تلك الأخلاق الأساسية.

وتساؤل: وهل تزني الحرة؟ جوابٌ على كل اعتراض [(١)].

□ ثم التاجر المسلم هو من صناع الحياة، ونِعم الصناع هم، بل هم صناع الصناع، وعلى خطة الدعوة أن تتوب توبة نصوحة من إسرافها القديم في تعليم الدعاة كراهة المال وحب الوظائف الحكومية.

كلنا يجيد سب اليهود الذين استحوذوا على الأموال والأسواق،

---

(١) «صناعة الحياة» (ص٤٦).

ويضجر من المارون والأقباط والبُهرة والقاديانية والمبتدعة والأقليات إذ كان منهم السبق إلى المال، بتسهيل من الدوائر الاستعمارية في فترة الاستعمار جزمًا، وبمساعدة من قوى خفية أخرى ربما، ولكننا لم نُحسِن غير المسبة.

بدل أن تلعن الظلام أوقد شمعة.

يجب أن نزيح الفاسقين ونحلّ بدلهم، على نظرية الفيزياء في الإزاحة والإحلال.

إن قوة الاقتصاد الإسلامي ستكون عاملًا من عوامل قوة الدعوة الإسلامية، إذ إضافة إلى اطمئنان المسلمين في التعامل مع سوق إسلامي ومنظومة شركات إسلامية، وإضافة إلى ما سيشيعه رجل المال المسلم من معنويات في النفوس وأذان في المسلمين أنْ كونوا أقوياء وزاحموا بالمناكب، فإن قوة المال ستكون في خدمة الأمة والدعوة والسياسة والفكر، وسيسند العملية الإيمانية الشاملة، وبدل أن ينطلق الداعية من الرباطات والحصران الرثة ودهاليز الدروشة، فإنه سينطلق من مواطن التأثير ومباني الشركات.

نعم، سبقتْ حصيرة في الميزان ناطحة سحاب، لكنها الناطحة النفاقية الفاجرة، أما حين تنطح السحاب استمدادًا من عزها الإسلامي وشموخًا بالعفاف الإيماني، فإنها تسبق مليون حصيرة.

لنترك المنطق غير المسؤول، فقد آن لنا أن نكتسب بعض الوعي، وأن نتعلم بعض أسرار الحياة.

لا بد أن ننزل إلى ميدان الصناعة والزراعة والعقار والاستيراد

والتصدير، وبخاصة في البلاد الحرة التي لا ينال أموالنا فيهم ظلم، وفي العالم الفسيح متسع للاستثمار.

يجب أن نوجد معادلة اقتصادية جديدة، وأن نشكر المقتحم.

المال ينطق، ورنَّة الذهب قرينة هدير الواعظ من على منبره وهتاف المتحمس في حفلته وشارعه.

فحتى متى نذهل.. حتى متى؟

كن حمَّالًا في السوق، لكنْ قرِّر مع أول خطوة لك فيه أن تصير تاجرًا أو عقاريًا أو مدير شركة، فستصير وتصل بإذن الله، المهم تصميمك وأن لا تستطيب جلسة الوظيفة الحكومية.

قرر قبول الجوع سنة تأكل الخبز بالخل، هذا هو المهم، إذ ستأتيك الأموال من بعد، وستجد مراغمًا كثيرًا في الأرض وسعة، وتكون من صناع الحياة، فستكتسب علمًا إذ أنت في الطريق، وتُهدَى إليك الأسرار في مجالسك، وتتجمل بالأذواق من خلال ندمائك، وتتولد عندك الأفكار عبر سياحاتك والمعارض التجارية التي تزورها وقد حَشَدَ لك فيها أهلها خلاصة عقول البشر ومبتكراتهم وهممهم في مكان واحد.

□ معادلة المال والعلم والجمال تجعلنا الأكْفاء.

وهكذا أهل العلوم والفنون والمهن الأخرى [1].

□ وكان الأمير «عمر طوسون» من صناع الحياة الإسلامية أيام فؤاد ملك مصر وقبله، وهو من عائلته، ولكنه عفيف معروف بالحمية الإيمانية،

---

(١) «صناعة الحياة» (ص٤٦ - ٤٧).

وكان وحده يقوم بما تقوم به الآن جمعيات الإصلاح وصناديق الزكاة والمؤسسات الخيرية، فما أن تكون هناك حاجة لإغاثة إسلامية في أنحاء العالم الإسلامي حتى يتصدى لجمع المال وإرسال المعونات والنجدات، وقد خلَّد شكيب أرسلان ذكره في أكثر من مكان من كتاباته رحمه الله [1].

والفيزياوي من صُنَّاع الحياة:

□ هكذا الفيزياوي الذي يشارك في بحوث الذرة والليزر ويكون فخر الناس في بلده أو لدى أبناء الأمة الإسلامية عمومًا، والمدرس في المدرسة الثانوية الذي يبني أساس العقول والمعنويات لدى الجيل الصاعد، والأستاذ الجامعي الذي يملأ الأسماع ببحوثه ومحاضراته، والمؤرخ، والاقتصادي المنظِّر، والخبير النفطي الذي يستوعب خبر الأسعار وأوبك وأوابك وينقد ويصحح، والمجاهد في أرض الثورات، والإعلامي الجريء المتبكر، والفنان المصور بالكاميرا، والرسام التجريدي، والمهندس المخترع، وخبير المخطوطات، إلى ألف تخصص ومهنة، وإنما مَثَّلْنا لك الأمثلة وعليك القياس، والأمر كما قال عليٌّ لأبي الأسود الدؤلي رضي الله عنهما يعلمه أصل النحو: الكلام حرف واسم وفعل، وانح منحى هذا، فكان علم النحو الواسع بالاستقراء ثم بالاشتقاق، وقد قلنا لك: إن صناع الحياة واعظ وشاعر ومعماري وتاجر، وانح منحى هذا، وارفع الأذان مع ألف وصلوا درجة الاجتهاد في فنهم: تمنحك الحياة زمامها لتقودها.

حتى أصحاب الصوت الجميل الذين يتلون القرآن، فإنهم سبب

---

(١) المصدر السابق (ص٨٥).

استرواح أنفُس المؤمنين، وتغمر سامعيهم السكينة [(١)].

□ **إن نظرية صناعة الحياة في خلاصتها هي تنبيه لضرورة إمساك** الدعاة بمصادر القوة العلمية والمحركات العاطفية والجاذبية الجمالية والتسهيلات المالية.

إنها نظرية القدوات، والنقاط الجامعة، والبؤر اللامعة.

□ **وعلى صُنَّاع الحياة من الدعاة أن** يدركوا أنهم يعاكسون تربية جاهلية علمانية ممتدة عميقة الجذور كثيرة الرجال، قد سخرت العلوم والآداب والفنون، من باب، ثم أن يدركوا من باب آخر أنهم في محاولة بناء حضاري شامل، ولذلك لا يعني الاستعجال، ولا رد الفعل المتطرف والمكفِّر والمتكلف لمعنى الجهاد، وإنما هو الطريق العلمي الجاري مع شمولية العلم، والتوزع التخصُّصي المتعمِّق، والتربية الذَّوْقية التي ترتفع بالأحاسيس إلى أوج الإرهاب وتُنكِر الإرهاب.

□ والتابع ضرورة من ضرورات الدعوة أيضًا، وكلٌّ مُيسر لما خلق له. وكانت الحياة الإسلامية زمن النبي ﷺ تعتمد على طبقات من الأتباع مثلما تعتمد على وزراء النبي ﷺ وبقية العشرة المبشرة وقادة السرايا وفقهاء الصحابة.

□ ففي «صحيح البخاري» عن سهل بن سعد قال: «بَعَثَ رسول الله ﷺ إلى امرأة: مُرِي غُلامك النجار يعمل لي أعوادًا أجلس عليهن» [(٢)].

• وفي «الصحيح» أيضًا: أن رجلًا أسود أو امرأةً سوداء كان يَقُمّ

---

(١) المصدر السابق (ص٤٧).

(٢) رواه البخاري (١/ ١١٥).

المسجد، فمات، فسأل النبي ﷺ عنه فقالوا: مات. قال: «**أفلا كنتم آذنتُموني به؟ دُلُّوني على قبره**»، أو قال: «**قبرها، فأتى قبرها فصلى عليها**»[(١)].

والمرأة السوداءُ كانت مَضْرَبًا ... ولمثلها تتطامن الأعلامُ

قامت بتطهير لبيت مليكنا ... ولَنِعْمَ ما سارتْ له الأقدامُ

ثم انْقَضَت أنفاسُها وتوقَّفتْ ... عند الذي كَتَبَتْ به الأقلامُ

عَلِمَ الصحابةُ موتها لكنَّهم ... لم يخبِرُوا المسؤول وهو إمامُ

أَخَذَ الرسولُ بحسِّه وبلُطْفِه ... يُعطي الدروسَ وقبلها استفهامُ

أين التي كانت تُطهِّرُ مسجدًا؟ ... الله يشهدُ والأنامُ نيامُ

قال الصحابةُ: إنَّها قد فارقتْ ... هذي الحياةَ وقد مضتْ أيَّامُ

غَضِب الرسولُ عليهمُ وبحرقَةٍ ... لامَ الصحابة لم يكن إعلامُ

بدأ الكرام يُحقِّرون لشأنِها ... عَتَبٌ عليهم ظاهرٌ وتلامُ

طلبَ الرسولُ من الكِرام دلالةً ... عن قبرها حيث البِلَى وعظامُ

وأمامهم بدأ الرحيمُ بدعوةٍ ... فدعاؤُهُ أمْنٌ لها وسَلَامُ

لم يحتقِرْ لونًا ولا جُهْدًا لها ... فالظلمُ حُكْمٌ جائرٌ وحرامُ

هذا الذي قدرت عليه بجهدها ... أين الرجالُ مُهَنَّدٌ وعِصَامُ؟[(٢)]

---

(١) رواه البخاري (١/ ١١٧).

(٢) من قصيدة «دُلُّوني على قبرها» لخالد الخليوي- مجلة البيان العدد ٢٤٨ (ص٢٦-
=

□ فالسوداء الضعيفة جزء من الحياة الإسلامية، وصانع المنبر جزء، في ألوف كان بهم قوام الحياة، وهي ظاهرة تطرد في كل جيل وبلد ومدينة، ونحن نريد الفرسان، وبين يدي كل فارس مجموعة تسعى بين يديه وتمهد له، كالطيار الذي تخدمه مجموعة أرضية تضع له الوقود وتحشو له القنابل وتفحص المحركات وتجسّ له مقادير الضغط والحرارة واتجاه الريح، فيأتي امتطاؤه لصهوة طائرته سهلًا ومفيدًا، فصانع الحياة ننتدب له من بيننا سكرتيرًا وطبَّاعًا وحارسًا ومسوقًا، فإن لم تكن فارسًا أيها الأخ فكن تابعًا وَفِيًّا(١).

□ وصانع الحياة في الوصف الأخر هو: مؤسسة ليس بمعنى أنه يقوم بدور كبير يشبه أدوار المؤسسات، وهذا وصف صحيح، وإنما بمعنى قدرته على توظيف طاقات أخرى معه أيضًا، فكثرة من الدعاة أصحاب القابليات الضعيفة والمتوسطة لا يستطيعون شق طريقهم الدعوي بأنفسهم، ويريدون مَن يأخذ بأيديهم ويقطع شق طريقهم الدعوي بأنفسهم، ويريدون مَن يأخذ بأيديهم ويقطع حيرتهم وتلفّتهم، ويبقون كالغرباء في مدينتهم، من أثر فطرة فُطروا عليها وحياء وخوف من مسؤولية تَحمُّلِ القرار، وحب للظل، وضمور عندهم في جانب الابتكار، فيأتي صانع الحياة ويجعلهم من حوله حلقة دائمة النفير، ويستخرج من طاقاتها المكنونة ما لم تكن هي نفسها تعلم امتلاكها له، فيحدث بذلك زخم دعوى قوي يترك آثاره، وتنقطع نفوس الأتباع عن الوسوسة

---

٢٨).

(١) «صناعة الحياة» (ص٥٥).

والحسد، فما تعود ثم فتنة أو لغط، وإنما يكون الصانع وأتباعه كتلة عاطفية فكرية مادية ثقيلة الوزن، تفعل الأفاعيل وتأتي بالأعاجيب [١].

اقتحم يا عالي الهمة فأنت لها، لِيَكُنْ شعارك: إن الله ابتعثنا:

شرطٌ لازم لصناعة الحياة أن تُبدِعَ وأن تكونَ مُجتَهدًا، وأن تأتيَ بالنادر الطَّريف، لا تنسج على منوال الآخرين مُقَلِّدًا. اترك بصماتَك الخاصة في حياة الآخرين شعارُك: «إن الله ابتعثنا».

اقتحام في موطن الانخزال، ووفاء في ساعة النكوص، وفصاحة إذا رطنت الألسن، وكرم إذا اختبأت الأيدي، وسمو إذا نطق الإغراء، ونبل عندما يسفل التعامل، وسِتر إذا استرسلت الفضائح، وفناء إذا قُدست الذات.

انتشال من وَهدة، وتوجيه في ساحة حيرة، وتخصيص من بعد تعميم، وتعميم لبادرة، وأذان في نيام، وسلوة بين أحزان، وتحقيق عند الجزاف، وإثقال لكفة الميزان إذا هبطت صاعدة، وانتباه لتبكيت النفس إذا استبدت مُنْحَدِرة في الهاوية وهي تتوهم الارتقاء.

اقتحم أنت لها.. لا وجه لاستضعافك نفسك واستصغارك صحبك.. اقتحم.. فأنت لها.

□ كن من صُنَّاع الحياة بشموخك وضربك المثل العالي، كذاك الذي انقطع به حبل المشنقة لحظة إعدامه بالباطل فقال: كل جاهليتكم رديئة.. حتى حبالكم رديئة!

---

(١) المصدر السابق (ص٥٥).

وليس وراء صنعة الشموخ حبة خردل من معنى دعوي.

□ الحياة يبنيها صُنَّاعٌ، كُلٌّ منهم يؤثِّرُ في جانبٍ منها.

فالشاعر مؤسسة، ويستعمل جمال اللفظ وسمو المعنى والمؤرخ صانع حياة يدل الناس على مجدهم ودور بطولتهم من ماضيهم التليد ليصنع تباشير الصباح والمستقبل الآتي.

□ إن قيادتنا للحياة هي القيادة، وصانع الحياة يدوسُ الألقابَ برجله ويحطمِهُا، ويمضي يصنع الحياة من موطن التخصُّص والفن والإبداع، هو ملءِ النَّفْس ولا يحتاج أحدٌ لملئها.

□ لو مشينا في مدينة من حواضر الإسلام الكبرى التي كان لها دور وشأن ورأينا مدارسها وخاناتها ومساجدها العظيمة وأسواقها وأسوارها وغير ذلك مما فيه إظهار هيبة الإسلام وعظمته ومعطياته الحضارية ونفخته الحماسية في الأرواح لأدركنا أن نخبة المهندسين الذين بنوا تلك المعالم المنيفة عبر الأجيال هم مثل أي فقيه أو شاعر تفخر به الأمة، أو حاكم عادل يتسابق الوعاظ في ذكر مناقبه.

المهندس يضيف من اللمسات الجمالية إلى الحياة الإسلامية ما يعدل أثر فقيه، ورُبَّ فلكي مسلم يكون له من الأثر الإيماني عند تفهيمه الناس حقائق الفلك وأرقامه وسر السماء ما يعدل مئة واعظ. وليس أقل منهما الأديب الذي يتكلم بالوصف المحض، فيصف جمال الوردة وأمواج البحر ونور الشمس وحركة السحاب وفطرة الحيوان وألوان الطير وأمثال ذلك من المعاني الابتدائية البسيطة، فإن مثل هذا الأدب يزيح ما يعدله حجمًا من أدب المجون والتخذيل، ويقترب بالسامع مرحلة نحو

التوحيد.

▫ كذلك يبرز رجال من الدعاة يقودون فقراء المسلمين وعامتهم بالأخلاق التي يحملونها، ويجدد أحدهم صورة الفارس النبيل العفيف الشجاع الذي لا يكذب ولا يعتدي على عرض، ودأبه نصر المظلوم وإجابة المستغيث اللهفان، وفي المسلمين اليوم إحباط وتراجع وانسحابية ونفسية انهزامية لا يعالجها إلَّا وجود مثل هؤلاء القدوات الذين يتركون الخنادق والمعتزلات وينزلون إلى مخالطة الناس. الناس تتجمع حول نقطة مركزية وتأمل أن يقودها أحد إلى شيء فيه عزها وتسليتها وتعويضها، وهي في فراغ أوجدته النكسات وحاجة ولدتها النكبات وتطلب من يملأ عليها فراغها ويسد حاجتها، لتسلمه قلوبها.

▫ لقد منحنا الله الحواس لنستخدمها لا لنعطلها، وقد آن لنا أن ندق على صدورنا ونقول: «نحن نُصْلِح الحياة»[(١)].

أخي عالي الهمة:

انظر لسعة آفاق الحياة وَصِلَتنا بها، وصلتها بنا وبيان مهمَّتنا في إصلاحها وتجميلها وتمدينها، وأن هذه المهمة الدعوية الحضارية لا يمكن القيام بها إلَّا بإعداد حضاري للداعية المسلم، يمنحه الشمول ورحابة الأفق، ويتركه صابرًا طويل النَفَس، مسترسلًا مع عملية بنائية علمية فكرية فنية نفسية ممتدة من ناحية الزمن امتدادًا مستقبليًا عميقًا يزهده بالفورات العاطفية المجردة، ويحيد به عن الاستعجال والقفز والتسلل الجانبي، وإنما يواجه الحياة بثقة، وجهًا لوجه، مُبرزًا صدره، غير آبهٍ

---

(١) «صناعة الحياة» (ص٦٥ - ٦٦).

بالتُّرَّهات والعوائق والمساومات والإغراءات وسخافات الطواغيت حين يفتحون أبواب السجون وينصبون المشانق، فيمضي في البناء بخطو ثابت، ويد متينة ترفع، ونفس شامخة تحلق، إذ الجبابرة يهدمون أركان الحياة، ويكممون الأفواه، ويضيقون على المبدعين، فإن الناس تميز الهدم من الصناعة وهي مع الأحرار في النهاية، ومع كل بَناء [(١)].

□ فانطلق ثابت الخطو أخي، واصنع الحياة، وارفع بناء الحضارة الإسلامية الجديدة، فإن المجال مُتاح، والناس تنتظرك، وقد أسرف الطواغيت في الهدم، ولن تَعْدُ أقدارهم ذلك، ليتميز ما تصنع أيادي المؤمنين.. انطلق فليس للصدارة والريادة والقيادة والحضارة.. والحياة غيرك فأنت كبير صُنَّاع الحياة..

أَبْشِر أُخَيَّ سيظهرُ الإسلامُ ... ولسوفَ تُمحَى ذِلَّةٌ وظلامُ

ولسوف تعلو رايةٌ ومبادئٌ ... يعلو بها بين الأنامِ كِرَامُ

يعلوُ بها مَن للإله تجرَّدَتْ ... منهم قلوبٌ صاغَها الإسلامُ

ليست قلوبًا مِلؤُها الدنيا التي ... جَعَلَتْ فِئَامًا فوقها الأنعامُ

لن ينصرَ الإسلامَ إلَّا زمرةٌ ... صَدَقتْ فِعالٌ منهمُ وكلامُ

لين ينصَر الإسلامَ إلَّا زمرةٌ ... كانت لهم فوق السماء مرامُ

ومتى دُعُوا للحقِّ دومًا أسرعوا ... قد كان ديدنُهُمْ هو الإقدامُ

هم يطلبون رضى الإله يسير في ... درب الكراهة وجهُهُ بسَّامُ

---

(١) «صناعة الحياة» (ص٨٢).

فليبتعـــد عنَّـــا المخـــذِّلُ دائـــمًا ... تلـك النفـوسُ أصـابها استـسلامُ

يـــا أيهـــا المـــرءُ المحقِّـــرُ نفـــسه ... بـــالقول: إنِي مُعْـــدَمٌ وغـــلامُ

ويقـــولُ: إني بـــالقُعودِ لمُغْـــرَمٌ ... قـــد كبَّلتنـــي بـــالهَوَى آثـــامُ

ابذل -هُدِيتَ إلى المعـالي- دعـوةً ... مـــن عمـــقِ قلـــبٍ ملـــؤهُ الآلامُ

واعلم بأنك لست وحدك عـاملًا ... فهنـاك جُنْـدٌ كُلُّهـم «هَمَّـام» (١)

ﮂﮃﮂﮃ

(١) من قصيدة «من يَدُلُّني على قبرها» لخالد الخليوي مجلة البيان- العدد (٢٤٨) (ص٢٦-- ٢٧) وفي القصيدة «عزّام» بدلًا من هَمَّام.

منارات مُضيئة في طريق الحضارة

الحضارة الغربية المادية خبثت فلا تخرج إلا نكدا «إفلاس الحضارة المادية» :

* صدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ ﴾ [الأعراف: ٥٨].

لقد ظهرت الحضارة الغربية في أمة لم يكن عندها معين صافٍ ولا نبع عذب للحكمة الإلهية، فنبذوا الدين بالعراء، وانصرفوا عن عبادة الله إلى عبادة النفس واتخذوا إلههم هواهم، وفتنتهم عبادة هذا الإله، وسارت بهم هذه العبادة في كل ميدان عن ميادين الفكر والعمل على طرق زائغة خلابة رائعة، ولكن مصيرها إلى الهلاك.

هذا هو الذي مسخ العلوم الطبيعية فصارت آلة لهلاك الإنسان، وصاغ الأخلاق في قالب الشهوات والرياء والخلاعة والإباحة، وسلَّط على المعيشة شيطان الأثرة والشُّح والفتك بين النوع، ودَسَّ في عروق الاجتماع وشرايينه سموم عبادة النَّفْس والأنانية والإخلاد إلى الراحة والتنعُّم.

والحاصل أن هذه البذرة الخبيثة التي أُلقِيَت في تربة أوروبا لم تأت عليها قرون حتى نبتت منها دوحة خبيثةٍ، ثمارها حلوة، لكنها سامة، أزهارها جميلة لكنها شائكة، وفروعها مخضرَّة لكنها تنفث غازًا سامًّا لا يُرَى، ولكنه يُسمِّمُ دَم البشر.

إن أهل الغرب الذين غرسوا هذه الشجرة الخبيثة قد مقتوها، وأصبحوا يتذمرون منها؛ لأنها خلقت في كل ناحية من نواحي حياتهم

مشاكل وعُقُدًا لا يَسْعَوْن لحلِّها إلَّا وظهرت مشاكل جديدة، ولا يفصلون فرعًا من فروعها إلَّا وتطلع فروعٌ كثيرة ذات شوك؛ فهم في معالجة أدوائهم وإصلاح شؤونهم كمعالج الداء بالداء وناقش الشوكة بالشوكة، فلا ينتهي شر إلَّا إلى شرٍ، ولا فساد إلَّا إلى فساد أكبر منه، ولا تزال هذه الشجرة تثمر لهم شرورًا ومصائب، حتى صارت الحياة الغربية جسدًا مقروحًا، يشكو كل جزء منه أوجاعًا وآلامًا، وأعيا الداء الأطباء، واتسع الخَرْق على الراقع؛ الأمم الغربيَّة تململ ألمًا، قلوبها مضطربة وأرواحها متعطِّشة إلى ماء الحياة ولكنها لا تعلم أين معين الحياة.

إن الأكثرية من رجالهم لا تزال تتوهَّم أن منبع المصائب في فروع هذه الشجرة، فهم يفصلونها ويستأصلونها من الشجرة ويضيّعون أوقاتهم وجهودهم في قطعها، إنهم لا يعلمون أن منبع الفساد في أصل الشجرة، وفيهم جماعة قليلة من العقلاء أدركوا أن أصل حضارتهم فاسد، ولكنهم لَمَّا نشأوا قرونًا في ظلِّ هذه الشجرة، وبأثمارها نبت لحمهم ونشز عظمهم -كلَّت أذهانهم عن أن يعتقدوا أصلًا آخر غير هذا الأصل يستطيع أن يُخرِج فروعًا وأوراقًا صالحة سليمة وكلا الفريقيْن في النتيجة سواء؛ إنهم يتطلَّبون شيئًا يُعالج سقمهم ويريحهم من كربهم ولكنهم لا يعلمونه ولا مكانه»[1].

حضارة الدجَّال العوراء ستزول:

إن الحضارة الغربية حضارة مادية بحتة، لا تُلَبِّي مطالب الروح

---

(١) «تنقيحات» لأبي الأعلى المودودي «مقالة أمم العصر المريضة» ملُخَّصة (ص٢٤، ٢٥، ٢٦).

مطلقًا.

إن هذه الحضارة الأوروبيَّة الغربية نسخة صادقة من حضارة اليونان وروما الوثنيتين الجاهليَّتيْن..

□ قال الأستاذ الألماني محمد أسد الذي أسلم في كتابه «الإسلام على مفترق الطرق»: «لا شك أن لا يزال في الغرب أفراد يعيشون ويفكرون على أسلوب ديني ويبذلون جهدهم في تطبيق عقائدهم بروح حضارتهم، ولكنهم شواذ. إن الرجل العادي في أوروبا، ديمقراطيًّا كان أو فاشيًا، رأسماليًّا كان أو اشتراكيًّا، عاملًا باليد أو رجلًا فكريًّا، إنما يعرف دينًا واحدًا، وهو عبادة الرقي المادي والاعتقاد بأنه لا غاية في الحياة غير أن يجعلها الإنسان أسهل، والتعبير الدارج «حرة مطلقة» من قيود الطبيعة. أما كنائس هذا «الدين» فهي المصانع الضخمة ودور السينما والمختبرات الكيماوية ودور الرقص ومراكز توليد الكهرباء، وأما كهنتها فهم رؤساء الصيارف والمهندسون والممثلات وكواكب السينما وأقطاب التجارة والصناعة والطيارون والمبرزون الذين يضربون رقمًا قياسيًّا، ونتيجة هذه النهامة للقوة، والشره للذة، النتيجة اللازمة هي ظهور طوائف متنافسة مدججة بالسلاح، والاستعدادات الحربية، مستعدة لإبادة بعضها بعضًا إذا تصادمت أهواؤها ومصالحها، أما في جانب الحضارة فنتيجتها ظهور طراز للإنسان يعتقد الفضيلة في الفائدة العملية، والمثل الكامل عنده والفارق بين الخير والشر هو النجاح المادي لا غير»(١).

□ «إن الحضارة الغربية لا تجحد الله في شدة وصراحة، ولكن ليس في

---

(١) Islam At the Cross Roads. P. ٥٠ Fifth edition.

نظامها الفكري موضع لله في الحقيقة، ولا تعرف له فائدة، ولا تشعر بحاجة إليه»(١).

ربما يقلل من قيمة هذه الشهادات على مركز الدين في الحياة الأوربية ومدى تأثيره كون صاحبها قد انتقل من النصرانية إلى الإسلام ومن أوروبا إلى الشرق الإسلامي، فهناك شهادة أصرح منها، وأدل على اضمحلال الدين الرسمي في أكثر مراكزه، واستنكاف أهله من الانتساب إليه لأحد كبار المعلمين في «لندن» وكتاب الإنكليزية البارزين.

□ قال الأستاذ «جود Joad» رئيس الفلسفة وعلم النفس في جامعة لندن في كتابه: «Cuide to Modern Wickedness»: «سألت عشرين طالبًا وتلميذة كلهم في أوائل العقد الثاني من أعمارهم: كم منهم مسيحي بأي معنى من معاني الكلمة، فلم يجب بـ «نعم» إلَّا ثلاثة فقط، وقال سبعة منهم: إنهم لم يفكروا في هذه المسألة أبدًا. أما العشرة الباقية فقط صرحوا أنهم معادون للمسيحية، أنا أرى أن هذه النسبة بين من يؤمن بالمسيحية ويدين بها وبين من لا يؤمن في هذه البلاد ليست شاذة ولا غريبة، نعم إذا وجه هذا السؤال إلى مثل هذه الجماعة قبل خمسين سنة أو عشرين، كانت الأجوبة مختلفة، بناء على ذلك الذين يتفقون في الرأي مع « Canon Parry» ويزعمون أن نهضة مسيحية كبيرة يمكن أن تنقذ العالم سيكونون قليلًا جدًا، فإني لا أرى لرأيه هذا مؤيدًا ومبررًا إلَّا أن يكون ذلك رغبته وهواه، فإن الأهواء كثيرًا ما تخلق الأفكار، ولكنها لا تولد الشهادات والوثائق، وإن الأحوال والآثار في هذه البلاد لتدل على أن الكنيسة

---

(١) Islam At the Cross Roads.p. ٤٠.

النصرانية ستموت في القرن الآتي، وإليك ما يؤيد هذا الرأي نقلًا من صحيفة يومية:

اخترع رجل في السابعة والسبعين من عمره طريقة تحول بها نسخ الكتاب المقدس العتيقة إلى حشو البنادق والحرير الصناعي واللدائن وأوراق النقد الثمينة، وإن آلته ق نصبت في «Cardiff Factor» وفي ثمانية مصانع أخرى وتصنع بنسخ التوراة القديمة أسلحة حربية، وقد استثمر المخترع بالآلة ثروة عظيمة بعدما عاش في ضنك من العيش.

□ ويختم الأستاذ مقالته هذه بجملة من التوراة –ولا أجمل منها– لمخاطبة القسوس ورجال الدين أمثال «كينين بيري» وغيره: «فليسمع من له أذنان»[1].

□ ويقول هذا المؤلف في كتابه الثاني «Philosophy For our Times»: «لم يزل سائدًا على عقلية إنكلترا منذ قرون شره المال والتملك، وكانت رغبة نيل الثروة أقوى عامل في حياة البلاد وأكبر باعث على العمل؛ لأن الثورة وسيلة للتملك، وضخامته ووفرته مقياس لكفاءة الإنسان، ولم يزل الناس يتلقون من طرق السياسة والأدب والتمثيل والسينما والإذاعة اللاسلكية، وفي بعض الأحيان من منابر الكنائس في كل عام وشهر –التحريضات على جمع المال واقتنائه، والإقناع بأن الأمة المتمدنة هي التي ارتقب فيها عاطفة الشره والتملك.

□ ويقول في مكان آخر من الكتاب: «إن نظرية الحياة التي تسودُ هذا العصر وتحكمُ عليه هي النظر في كل مسألة وشأن من ناحية المعدة

(١) Cuide to Modern Wickedness P. ١١٤. ١١٥.



والجيب».

□ وقد أجاد الصحفي الأمريكي المشهور «John Gunther» تمثيل هذه النفسيَّة في كتابه «داخل أوروبا» بقوله: «إن الإنجليز إنما يعبدون بنك إنجلترا ستة أيام في الأسبوع، ويتوجَّهون في اليوم السابع إلى الكنيسة»(١).

وعامَّة المسلمين على إثر الغرب حذو القُذَّة بالقُذَّة:

«من الغريب الواقع أن المسلمين قد أصبحوا في الزمن الأخير في كثير من نواحي الأرض حتى في مراكز الإسلام وعواصمه حلفاء للجاهلية الأوربية وجنودًا متطوعين لها، بل صار بعض الشعوب والدول الإسلامية يرى في الشعوب الأوروبية التي تزعمت حركة الجاهلية منذ قرون ونفخت فيها روحًا جديدة، وركزت أعلامها على الشرق والغرب: ناصرًا للمسلمين، حاميًا لذمار الإسلام المستضعف، حاملًا لراية العدل في العالم، قوامًا بالقسط.

ورضى عامة المسلمين بأن يكونوا ساقة عسكر الجاهلية بدل أن يكونوا قادة الجيش الإسلامي، وسرت فيهم الأخلاق الجاهلية ومبادئ الفلسفة الأوروبية سريان الماء في عروق الشجر والكهرباء في الأسلاك، فترى المادية الغربية في البلاد الإسلامية في كثير من مظاهرها وآثارها، وترى تهافتًا على الشهوات ونهمًا للحياة، نهم من لا يؤمن بالآخرةِ، ولا يوقن بحياة بعد هذه الحياة، ولا يدخر من طيباتها شيئًا، وترى تنافسًا في أسباب الجاه والفخار وتكالبًا عليها فعل من يغلو في تقويم هذه الحياة وأسبابها، وترى إيثارًا للمصالح والمنافع الشخصية على المبادئ

---

(١) «ماذا خَسِر العالم بانحطاط المسلمين» (ص٢٠٣).

والأخلاق، شأن من لا يؤمن بنبي ولا بكتاب، ولا يرجو معادًا، ولا يخشى حسابًا. وترى حبًا للحياة وكراهة للموت، دأب من يعد الحياة الدنيا رأس بضاعته، ومنتهى أمله وبملغ علمه، وترى افتتانًا بالزخارف والمظاهر الجوفاء كالأمم المادية التي ليس عندها أخلاق ولا حقيقة حية، وترى خضوعًا للإنسان، واستكانة للملوك والأمراء ورجال الحكومة والمناصب وتقديسهم شأن الأمم الوثنية وعبدة الأصنام (١).

المسلمون على علاتهم موئل الإنسانية وأمة المستقبل:

«ولكن برغم كل ما أصيب به المسلمون من علة وضعف، فإنهم هم الأمة الوحيدة على وجه الأرض التي تعد خصيم الأمم الغربية وغريمتها ومنافستها في قيادة الأمم، ومزاحمتها في وضع العالم، والتي يعزم عليها دينها أن تراقب سير العالم وتحاسب الأمم على أخلاقها وأعمالها ونزعاتها، وأن تقودها إلى الفضيلة والتقوى، وإلى السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، وتحول بينها وبين جهنم ما استطاعت من القوة، والتي يحرم عليها دينها ويأبى وضعها وفطرتها أن تتحول أمة جاهلية.

هذه هي الأمة التي يمكن أن تعود في حين من الأحيان خطرًا على النظام الجاهلي الذي بسطته أوروبا في الشرق والغرب وأن تحبط مساعيها.

□ وقد وصف هذا الخطر شاعر الإسلام الحكيم «محمد إقبال» في قصيدته البديعة «برلمان إبليس» على لسان إبليس، ذكر فيها أن الشياطين وزملاء إبليس وأعوانه اجتمعوا في مجلس شورى، وتباحثوا في سير العالم وأخطار الغد وفتنه، وما يتوجسون من خيفة على نظامهم الإبليسي

(١) «ماذا خَسر العالم بانحطاط المسلمين» (ص٢٨٤).

ومهمتهم الشيطانية فتذاكروا في فتن وأخطار قد أحدقت بهم وهددت نظامهم، وجللوا خطبها وتناذروا شرها[1].. فتكَلَّم رئيس المجلس إبليس فقال: إن كنت خائفًا فإني أخاف أمة لا تزال شرارة الحياة والطموح كامنة في رمادها، ولا يزال فيها رجال تتجافى جنوبهم عن المضاجع، وتسيل دموعهم على خدودهم سحرًا، لا يخفى على الخبير المتفرس أن الإسلام هو فتنة الغد وداهية المستقبل، ليست الاشتراكية.

أنا لا أجهل أن هذه الأمة قد اتخذت القرآن مهجورًا، وأنها فتنت بالمال وشغفت بجمعه وادخاره كغيرها من الأمم، أنا خبير أن ليل الشرق داج مكفهر، وأن علماء الإسلام وشيوخه ليست عندهم تلك اليد البيضاء التي تشرق لها الظلمات ويضيء لها العالم، ولكني أخاف أن قوارع هذا العصر وهزءه ستقض مضجعها وتوقظ هذه الأمة وتوجهها إلى شريعة «محمد ﷺ» إني أحذركم وأنذركم من دين محمد ﷺ حامي الذمار، حارس الذمم والأعراض، دين الكفاح والجهاد، يلغي كل نوع من أنواع الرق، يمحو كل أثر من آثار استعباد الإنسان، لا يفرق بين مالك ومملوك، ولا يؤثر سلطانًا على صعلوك، يزكي المال من كل دنس ورجس ويجعله نقيًا صافيًا، ويجعل أصحاب الثروة والملاك مستخلفين في أموالهم أمناء لله وكلاء على المال، وأي ثورة أعظم وأي انقلاب أشد خطرًا مما أحدثه هذا الدين في عالم الفكر والعمل يوم صرخ أن الأرض لله لا للملوك والسلاطين.

فابذلوا جهدكم أن يظل هذا الدين متواريًا عن أعين الناس، وليهنكم

---

(١) المصدر السابق (ص٢٨٤، ٢٨٥).

أن المسلم بنفسه هو ضعيف الثقة بربه قليل الإيمان بدينه، فخير لنا أن يبقى مشتغلًا بمسائل علم الكلام والإلهيات وتأويل كتاب الله والآيات، اضربوا على آذان المسلم؛ فإنه يستطيع أن يكسر طلاسم العالم ويبطل سحرنا بأذانه وتكبيره، واجتهدوا أن يطول ليله ويبطئ سحره، اشغلوه يا إخواني عن الجد والعمل حتى يخسر الرهان في العالم. خير لنا أن يبقى المسلم عبدًا لغيره، ويهجر هذا العالم ويعتزله ويتنازل عنه لغيره زهدًا فيه، واستخفافًا لخطره، ويا ويلتنا ويا شقوتنا لو انتبهت هذه الأمة يعزم عليها دينها أن تراقب العالم وتعسه»[١].

المنارة الأولى: «الإسلام هو الحل الوحيد لكل العالم»:

□ قال الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه القيِّم: «ماذا خَسِر العالم بانحطاط المسلمين»: «والحل الوحيد هو تحول القيادة العالمية وانتقال دفة الحياة من اليد الأثيمة الخرقاء التي أساءت استعمالها إلى يد أخرى بريئة حاذقة.

إن تحول القيادة من بريطانيا إلى أمريكا ومنهما جميعًا إلى روسيا لا يغني غناء ولا يغير من الموقف شيئًا، فإن هذا التحول ليس إلَّا نقل المجداف من اليمين إلى الشمال إذا تعبت الأولى أو بالعكس، فما دام المجداف واحدًا فلا فرق بين يمينه وشماله، وليست بريطانيا وأمريكا وروسيا إلَّا أيدي رجل واحد تتداول دفة الحياة، وتتناوب تجديف السفينة على خط واحد إلى جهة واحدة.

إن التحول المؤثر الواضح هو تحول من أوروبا -بالمعنى الواسع الذي

---

(١) المصدر السابق (ص٢٨٦- ٢٨٧).



يشمل بريطانيا وأمريكا وروسيا ومن كان على شاكلتها من الأمم الآسيوية والشرقية- التي تقودها المادية والجاهلية، إلى العالم الإسلامي الذي يقوده سيدنا محمد ﷺ برسالته الخالدة ودينه الحكيم.

هذا هو التحول الذي يغير وجه التاريخ، ويحول مجرى الأمور وينقذ العالم من الساعة الرهيبة التي ترقبه.

إن حقًّا على العالم الإسلامي أن يمني نفسه بهذا المنصب الخطير، ويطمح إليه، وإن حقًّا على كل بلد إسلامي وشعب إسلامي أن يشد حيازمه لذلك، وإن حقًّا على كل مسلم أن يجاهد في سبيله ويبذل ما في وسعه، فهذه هي المهمة الشريفة التي نيطت بالأمة الإسلامية يوم برزت إلى عالم الوجود، ويوم ظهرت نواتها في جزيرة العرب»[١].

لا نهضة ولا حضارة إلا تحت راية الإسلام:

لا ينهض العالم الإسلامي إلَّا برسالة الإسلام، وتحت راية الإسلام فقط والإيمان بها والاستماتة في سبيلها، وهي رسالة قوية واضحة مشرقة، لم يعرف العالم رسالة أعدل منها ولا أفضل ولا أيمن للبشرية منها.

وهي نفس الرسالة التي حملها المسلمون في فتوحهم الأولى، والتي لخصها أحد رسلهم في مجلس يزدجرد ملك إيران بقوله: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»، رسالة لا تحتاج إلى تغيير كلمة وزيادة حرف، فهي منطقية تمام الانطباق على القرن العشرين انطباقها على القرن السادس المسيحي، كأن الزمان قد استدار كهيئته يوم

---

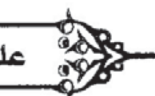
(١) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» (ص٢٨٣).

خرج المسلمون من جزيرتهم لإنقاذ العالم من براثن الوثنية والجاهلية.

فلا يزال الناس اليوم عاكفين على أصنام لهم -من أوثان منحوتة ومنجورة ومقبورة ومنصوبة- ولا تزال عبادة الله وحده مغلوبة غريبة، ولا تزال الفتنة قائمة على قدم وساق ولا يزال إله الهوى يعبد، ولا يزال الأحبار والرهبان والملوك والسلاطين وأصحاب القوة والثروة والزعماء والأحزاب السياسية أربابًا من دون الله تقرب لها القرابين وينصب لها الجبين.

وكذلك العالم اليوم رغم اتساعه وتوافر وسائل السفر والانتقال من مكان إلى مكان، واتصال الشعوب والأمم بعضها ببعض أضيق بأهله منه بالأمس، قد ضيقته المادية التي لا تنظر إلَّا إلى قدمها ولا تؤمن إلَّا بفائدة صاحبها، ولا نعرف غير العكوف على الشهوات وعبادة اللذات، وقد خنقته الأثرة التي لا تسمح لاثنين بالعيش في إقليم واسع، والوطنية الضيقة التي تنظر إلى كل أجنبي شزرًا وتجحد له كل فضل وتحرمه كل حق.

ثم ضيق خناق هذه الحياة المادية المسيطرون السياسيون الذين يحتكرون وسائل الحياة والرزق والقوت، يضيقون هذه الحياة لمن شاءوا ويوسعونها لمن شاءوا، ويبسطون الرزق -زعموا- لمن شاءوا ويقدرونه لمن شاءوا، فأصبحت المدن الواسعة أضيق من جحر ضب، وأصبح الناس في بلادهم في شبه حجر كحجر السفيه واليتيم، وضاقت على الناس الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم، وأصبح الناس في أغلال وأصفاد من المدينة والمملكة مهددين في كل وقت بمجاعات



مصطنعة وحقيقية، وحروب خارجية وداخلية، واضرابات واضطرابات أسبوعية ويومية.

نعم ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ولا تزال في هذا العصر المتنور الراقي المثقف أديان تعبث بعقول الناس وتسخرهم كالحمير والبقر، وتزين لأتباعها قتل مئات من البشر لأجل بقرة ذبحت في عيد الأضحى، أو شجرة مقدسة عضدت في قرية من القرى.

وهنالك أديان بغير اسم الأديان لا تقل في نفوذها وسلطانها، ولا تقل في جورها وعدوانها وعبثها بعقول أتباعها وفي عجائبها عن الأديان القديمة: وهي النظم السياسية والنظريات الاقتصادية التي يؤمن بها الناس كدين ورسالة، كالجنسية والوطنية، والديمقراطية والاشتراكية، والدكتاتورية والشيوعية، وهي أقل مسامحة لمن لا يدين بها وأشد قسوة على منافسيها، وأضيق عطفًا من الأديان الجاهلية، والاضطهاد السياسي اليوم أفظع من الاضطهاد الديني في القرون المظلمة، فإذا تغلب حزب من الأحزاب الوطنية أو ساد مبدأ من المبادئ السياسية، أو انتصر فريق على فريق في الانتخاب، سد في وجه منافسه الأبواب وعذبه أشد العذاب، وما حرب أسبانيا الأهلية التي دامت مدة طويلة، وسفكت فيها دماء غزيرة، وما حرب الصين التي قامت بين الجمهوريين والشيوعيين من أهل الصين، وحرب «كوريا» التي قامت بين الجنوبيين والشماليين، وحرب فيتنام التي تقوم بين جنوبها وشمالها، وبين أمريكا المتطفلة، وأهل البلاد إلَّا نتيجة اختلاف في العقيدة السياسية والنظريات الاقتصادية.

فرسالة العالم الإسلامي هي الدعوة إلى الله ورسوله والإيمان باليوم

الآخر، وجائزته الخروج من الظلمات إلى النور، ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده، والخروج من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، وقد ظهر فضل هذه الرسالة وسهل فهمها في هذا العصر أكثر من كل عصر، فقد افتضحت الجاهلية وبدت سوأتها للناس واشتد تذمر الناس منها، فهذا طور انتقال العالم من قيادة الجاهلية إلى قيادة الإسلام، لو نهض العالم الإسلامي، واحتضن هذه الرسالة بكل إخلاص وحماسة وعزيمة، ودان بها كالرسالة الوحيدة التي تستطيع أن تنقذ العالم من الانهيار والانحلال.

الاستعداد الروحي:

ولكن العالم الإسلامي لا يؤدي رسالته بالمظاهر المدنية التي جادت بها أوروبا على العالم، وبحذق لغاتها وتقليد أساليب الحياة التي ليست من نهضة الأمم في شيء، إنما يؤدي رسالته بالروح والقوة المعنوية التي تزداد أوروبا كل يوم إفلاسًا فيها، وينتصر بالإيمان والاستهانة بالحياة والعزوف عن الشهوات، والشوق إلى الشهادة، والحنين إلى الجنة، والزهد في حطام الدنيا وتحمل الأذى في ذات الله صابرًا محتسبًا، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء: ١٠٤] فقوة المؤمن سر انتصاره في إيمانه ورجائه لثواب الله، فإذا كان العالم الإسلامي لا يرى إلَّا ما تراه أوروبا من العرض القريب، ولا يطمح إلَّا فيما تطمح فيه أوروبا من حطام الدنيا، ولا يؤمن إلَّا بما تؤمن به أوروبا من المحسوسات والماديات، كانت أوروبا بقوتها المادية أحق بالانتصار والسيادة من العالم الإسلامي الذي

يتخلف عنها في القوة المادية تخلفًا شائنًا ولا يفوقها في المدنية.

لقد أتى على العالم الإسلامي حين من الدهر وهو مستخف بهذه القوة المعنوية لا يحتفل بها، ولا يحتفظ بالبقية منها، ولا يغذيها، حتى نضب معينها في قلبه، فلما خاض العالم الإسلامي المعارك التي تحتاج إلى الإيمان، والصبر والثبات، وتحمل الشدائد والنكبات؛ وزلزل بعض الزلزال، ولجأ إلى القوة المعنوية الكامنة في نفوس المسلمين، كانت كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، هنالك عرف أنه قد جنى على نفسه جناية عظيمة بإهمال هذه القوة الروحية وتضييعها، وبحث في جعبته فلم يجد شيئًا يسد مكانها ويغني غناءها.

وخاض العالم الإسلامي في معارك حاسمة، وهو يرى أن المسلمين تقوم قيامتهم، وسوف يهرعون للدفاع عن الإسلام وحماية بلادهم المقدسة، ويغضبون لله ورسوله وحرماته، وإن الأقطار الإسلامية تشتعل نارًا وتتوقد حمية وحماسة فإذا الحادث لم يؤثر في العالم الإسلامي التأثير المنتظر، وإذا النظر ضئيل والسخط خافت، وإذا العالم الإسلامي كعادته -في غدواته وروحاته- منهمك في لذاته وشهواته، كأن لم يحدث كبير شيء، فعرف أن الحملة الدينية قد ضعفت في العالم الإسلامي، وأن شعلة الجهاد قد انطفأت أو كادت، وهناك عرف الناس ضعف العالم الإسلامي وخذلانه وهوانه على أنفسهم.

فالمهم الأهم لقادة العالم الإسلامي، وجمعياته وهيئاته الدينية وللدول الإسلامية غرس الإيمان في قلوب المسلمين، وإشعال العاطفة الدينية، ونشر الدعوة إلى الله ورسوله، والإيمان بالآخرة على منهاج الدعوة

الإسلامية الأولى، لا تدخر في ذلك وسعًا، وتستخدم لذلك جميع الوسائل القديمة والحديثة، وطرق النشر والتعليم، كتجوال الدعاة في القرى والمدن، وتنظيم الخطب والدروس، ونشر الكتب والمقالات، ومدارسة كتب السيرة، وأخبار الصحافة وكتب المغازي والفتوح الإسلامية، وأخبار أبطال الإسلام وشهدائه؛ ومذاكرة أبواب الجهاد، وفضائل الشهداء، وتستخدم لذلك «الإذاعة» والصحافة وكتب الأدب، وجميع القوى والوسائل العصرية.

والقرآن وسيرة محمد ﷺ قوتان عظيمتان تستطيعان أن تشعلا في العالم الإسلامي نار الحماسة والإيمان، وتحدثا في كل وقت ثورة عظيمة على العصر الجاهلي، وتجعلا من أمة مستسلمة، منخذلة ناعسة، أمة فتية ملتهبة حماسة وغيرة وحنقًا على الجاهلية وسخطًا على النظم الجائرة.

إن علة العالم الإسلامي اليوم هي الرضا بالحياة الدنيا والاطمئنان بها، والارتياح إلى الأوضاع الفاسدة والهدوء الزائد في الحياة، فلا يقلقه فساد، ولا يزعجه انحراف، ولا يهيجه منكر، ولا يهمه غير مسائل الطعام واللباس، ولكن بتأثير القرآن والسيرة النبوية -إن وجدا إلى القلب سبيلا- يحدث صراع بين الإيمان والنفاق، واليقين والشك، وبين المنافع العاجلة والدار الآخرة، وبين راحة الجسم ونعيم القلب، وبين حياة البطالة وموت الشهادة، صراع أحدثه كل نبي في وقته، ولا يصلح العالم إلَّا به، حينئذٍ يقوم في كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي، بل في كل أسرة إسلامية في كل بلد إسلامي ﴿فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ [الكهف].



هنالك تتجدد ذكرى بلال، وعمار، وخباب، وخبيب، وصهيب، ومصعب بن عمير، وعثمان بن مظعون، وأنس بن النضر، هنالك تفوح روائح الجنة وتهب نفحات القرن الأول، ويولد للإسلام عالم جديد لا يشبه العالم القديم في شيء..»[(١)].

وهذه قطعة من قصيدة خاطب بها إقبال الأمة الإسلامية لِتعرف مكانتها في العالم ودورها بين أدوار الشعوب والأمم:

«إنَّ نَفَس ذلك الأميّ [(٢)] الريَّان، نقل صحراء العرب القاحلة إلى رَوْحٍ وريحان، إن الحرية نشأت في أحضانه، وإن حاضر الشعوب ليس إلَّا وليدَ أمسه، إن الجسد البشري كان بلا قلب وروح، فأعطاه القلب والروح، وكشف اللثام عن جمال وجهه، إنه حطَّم كل صنم قديم، وأفاض الحياة على كل غصن ذاوٍ من أغصان العلوم والمدنيَّة، وأنجب أبطالًا وقادة مؤمنين، أقاموا المعارك الفاصلة بين الحق والباطل، فتارة يدوِّي الأذان في ساحة الحروب، وتارة تتحلَّى الآذان بقراءة «الصافات» بين صليل السيوف وصهيل الخيول، إن سيف البطل المغوار صلاح الدين، ونظرة الزاهد الأوَّاب «كأبي ذر»[(٣)] مفتاحان لكنوز الدنيا والآخرة»[(٤)].

---

(١) «ماذا خَسِر العالم بانحطاط المسلمين» (ص٢٨٨- ٢٩٢).

(٢) يعني بذلك النبي الأمي محمدًا ﷺ.

(٣) بدلًا من كأبي يزيد البسطامي التي في أصل القصيدة.

(٤) «الإسلام والحضارة الإسلامية وواقع العالم الإسلامي» للندوي (ص٧٩- ٨٠)- طبع دار القلم- الكويت.

المنارة الثانية : الاستعداد الصناعي الحرب والأخذ بأسباب القوة لازم وركن من أركان حضارة المستقبل تحت راية الإسلام :

لا تنتهي مهمة العالم الإسلامي عند الاستعداد الروحي فقط، ولا بد أن يُضمَّ إلى ذلك الاستعداد الصناعي الحربي.

□ يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه الماتع «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»: «ولكن مهمة العالم الإسلامي لا تنتهي هنا، فإذا أراد أن يضطلع برسالة الإسلام ويملك قيادة العالم فعليه بالمقدرة الفائقة، والاستعداد التام في العلوم والصناعة والتجارة وفن الحرب، وأن يستغنى عن الغرب في كل مرفق من مرافق الحياة؛ وفي كل حاجة من الحاجات، يقوت ويكسو نفسه، ويصنع سلاحه، وينظم شؤون حياته، ويستخرج كنوز أرضه وينتفع بها؛ ويدير حكوماته برجاله وماله، ويمخر البحار المحيطة به بسفنه وأساطيله، ويحارب العدو ببوارجه ودباباته وأسلحة بلاده، وتزيد صادراته على وارداته، ولا يحتاج إلى الاستدانة من الغرب، ولا يضطر إلى أن يلجأ إلى راية من راياته وينضم إلى معسكر من معسكراته.

أما ما دام العالم الإسلامي خاضعًا للغرب في العلم والسياسة والصناعة والتجارة، يمتص الغرب دمه، ويحفر أرضه فيستخرج منها ماء الحياة وتغزو بضائعه أسواق العالم الإسلامي وبيوته وجيوبه كل يوم فتستخرج منها كل شيء، وما دام العالم الإسلامي يستدين من الغرب الأموال، ويستعير منه الرجال، ليدبروا حكومته، ويشغلوا الوظائف الخطيرة ويدربوا جيوشه ويستورد منه البضائع، ويجلب منه المنتجات،

وينظر إليه كأستاذ ومرب، وسيد ورب، لا يبرم أمرًا إلَّا بإذنه ولا يصدر إلَّا عن رأيه، فلا يستطيع أبدًا أن يواجه الغرب فضلًا عن أن يناهضه ويغالبه.

هذه هي الناحية العلمية والصناعية التي أخل بها العالم الإسلامي في الماضي فعوقب بالعبودية الطويلة والحياة الذليلة، وابتلى العالم الإسلامي بالسيادة الأوربية الجائرة التي ساقت العالم إلَّا النار والدمار والتناحر والانتحار، فإن فرط العالم الإسلامي مرة ثانية في الاستعداد العلمي والصناعي والاستقلال في شؤون حياته كتب الشقاء للعالم وطالت محنة الإنسانية وبلاؤها»[1].

المنارة الثالثة: الاستقلال العلمي تحت راية الإسلام:

ما بلغت الحضارة العلمية أَوْجَهَا وعظمتها إلَّا في زمن تمسّك المسلمين بدينهم وشدة إتباعهم لهدى رسولهم ﷺ، ويوم انحرفوا عن دينهم صاروا في ذيْل الركب هذه حقيقة أضوأ من الشعب في رابعة النهار.. لا يمارى فيها إلَّا خبيث النفس، ولا ينتطح فيها عنزان.

□ يقول الأستاذ الندوي تحت عنوان «تبوؤ الزعامة في العلم والتحقيق» من كتابه «ماذا خسر العالم»: «وقد تنازل العالم الإسلامي -بما فيه العالم العربي- منذ زمن طويل عن مكانته في القيادة العلمية والتوجيه، والاستقلال الفكري، وأصبح عيالًا على الغرب متطفلًا على مائدته حتى في اللغة العربية وآداب اللغة وعلومها، وحتى في علوم الدين كالتفسير والحديث والفقه، وأصبح المستشرقون هم المرشدين الموجهين في البحث

(١) «ماذا خسر العالم» (ص٢٩٢- ٢٩٣).

والتحقيق، والدراسة والتأليف، وهم المنتهي والمرجع والحجة في الأحكام والآراء الإسلامية والنظريات العلمية والتاريخية، وهم الأسوة في النقض والإبرام، وعدد كبير منهم قساوس وإرساليون ويهود ومسيحيون متعصبون، يضمرون للإسلام وصاحب رسالته ﷺ العداء والبغضاء وللحضارة الإسلامية السخرية والاستهزاء، ويخونون في النصوص والنقول. ويحرفون الكلام عن مواضعه، ومنهم عدد لم يتقن اللغة العربية ولم يبرع فيها، وهم يخطئون في فهم النصوص وترجمتها أخطاء فاحشة، وقد تغلغلت أفكارهم ودعاياتهم في الأوساط العلمية الحديثة في العالم الإسلامي وتجلت بصورة واضحة في الدعوة إلى فصل الدين عن السياسة وأن الدين قضية شخصية لا شأن له بالمجتمع، وأن الدين عقيدة وعبادة وخلق لا شأن له بالسياسة والحكم، وفي الدعوة إلى تغيير مفهوم الدين وأحكام الشريعة الإسلامية على أساس الحضارة الغربية وفلسفتها، إلى غير ذلك من الأفكار التي يدعو إليها تلاميذ المستشرقين والخاضعون لهم في الشرق الإسلامي.

وقد عجز كتاب الشرق المسلمون والمفكرون الشرقيون عن مواجهة الحضارة الغربية وجهًا لوجه ونقد أسسها وقيمها نقدًا حرًا جريئًا. فيه الابتكار، وفيه الاستقلال، وقد بلغ بعضهم من ضعف التفكير، والإغراق في التقليد منزلة رأى فيها أن الحضارة الغربية هي آخر ما وصل إليه العقل البشرى وأنه لا منزلة وراءها، ومنهم من دعا إلى تطبيق الحضارة الغربية برمتها، وعلى علاتها في الشرق، ودعا بعض الأقطار الإسلامية العربية إلى اعتبار نفسها جزءً لا يتجزأ من القارة الأوروبية

وإذابتها فيها واختيار الثقافة اليونانية التي هي أصل الثقافات الأوروبية[١].

وندر في هذه الطبقة وجود «عملاق» يكفر بالحضارة الغربية وفلسفة حياتها وقيمها ويشرح الحضارة الغربية وأسسها التي قامت عليها في ثقة واعتداد وعلم وبصيرة، ونستثنى من هذه الكلية بعض الأفراد الأفذاذ.

ولا بد -إذا أراد العالم الإسلامي أن يقوم على قدميه ويفر بعقله- أن يقاوم هذا الخضوع ويكون فيه علماء عماليق وكتاب جهابذة يتناولون الحضارة الغربية بالنقد والتشريح، وكتابات المستشرقين وآراءهم بالجرح والعديل، ويتبحرون في العلوم الإسلامية ويتعمقون فيها حتى يفيد منهم كبار المستشرقين في أوروبا وأمريكا ويصححون بهم آراءهم وأخطاءهم، ويتوجه رواد العلم والتحقيق والدراسات العالية إلى عواصم العالم العربي وحواضر العالم الإسلامي، كما اعتادوا أن يتوجهوا إلى عواصم أوروبا وأمريكا. فهذه المدن الإسلامية أولى بأن تكون مركزًا للثقافة الإسلامية والعلوم الدينية وآداب اللغة العربية من العواصم الأوروبية وجامعات أوروبا، ومن سقوط الهمة والقناعة بالدون أن تتخلى هذه العواصم العريقة في العلم والدين عن زعامتها العلمية ومكانتها الرئيسية.

التنظيم العلمي الجديد:

ولا بد للعالم الإسلامي من تنظيم العلم الجديد بما يوافق روحه ورسالته. وقد ساد العالم الإسلامي على العالم القديم بزعامته العلمية فتسرب بذلك في عقلية العالم وثقافته، وتغلغل في أحشاء الأدب والفلسفة، وظل العالم المتمدن قرونًا يفكر بعقله ويكتب بقلمه ويؤلف

(١) اقرأ كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» للدكتور طه حسين.

بلغته، فكان المؤلفون في إيران وتركستان وأفغانستان والهند لا يؤلفون كتابًا له شأن إلَّا باللغة العربية، وكان بعضهم يؤلف الأصل بالعربية ويلخصه بالفارسية كما فعل الغزالي في «كيمياء السعادة».

وإن كانت هذه الحركة العلمية التي ظهرت في صدر الدولة العباسية متأثرة باليونان والعجم، وغير مؤسسة على الفكر الإسلامي النقي والروح الإسلامي؛ وإن كانت فيها مواضع من الناحية العلمية والدينية، ولكنها سادت على العالم بقوتها ونشاطها، واضمحلت أمامها النظم العلمية القديمة.

وجاءت نهضة أوروبا فنسخت هذا النظام القديم باختباراتها ونقدها العلمي، ووضعت منهاجًا جديدًا للعلم والدراسة كان نسخة صادقة لروحها وعقليتها ونفسيتها المادية، فلا يخرج منه الطالب إلَّا وهو متشبع بهذه الروح، وخضع العالم مرة ثانية لهذا النظام التعليمي، وخضع له العالم الإسلامي بطبيعة الحال -إذ كان مصابًا بالانحطاط العلمي والشلل الفكري من زمان، وكان لا يجد المدد والغوث إلَّا في أوروبا- فقبل هذا النظام التعليمي على علاته، فهو النظام السائد اليوم في إنحاء العالم الإسلامي.

وكانت نتيجة هذا النظام الطبيعية، صراعًا بين النفسية الإسلامية -إن كانت لا تزال في الشباب لم تقتلها البيئة- وبين النفسية الجديدة، وبين وجهة الأخلاق الإسلامية ووجهة الأخلاق الأوروبية، وبين الميزان القديم والجديد للأشياء وقيمتها، وكانت نتيجة هذا النظام حدوث الشك والنفاق في الطبقة المثقفة، وقلة الصبر والنهم للحياة، وترجيح العاجل

على الآجل، إلى غير ذلك مما هو من طبائع المدنية الأوربية.

فإذا أراد العالم الإسلامي أن يستأنف حياته، ويتحرر من رق غيره، وإذا كان يطمح إلى القيادة، فلا بد إذن من الاستقلال التعليمي، بل لا بد من الزعامة العلمية، وما هي بالأمر الهين، إنها تحتاج إلى تفكير عميق، وحركة التدوين والتأليف الواسعة، وخبرة إلى درجة التحقيق والنقد بعلوم العصر مع التشبع بروح الإسلام والإيمان الراسخ بأصوله وتعاليمه، إنها لمهمة تنوء بالعصبة أولى القوة، إنما هي من شأن الحكومات الإسلامية، فتنظم لذلك جمعيات، وتختار لها أساتذة بارعين في كل فن فيضعون منهاجًا تعليميًّا يجمع بين محكمات الكتاب والسنة وحقائق الدين التي لا تتبدل وبين العلوم العصرية النافعة والتجربة والاختبار، ويدونون العلوم العصرية للشباب الإسلامي على أساس الإسلام وبروح الإسلام، وفيها كل ما يحتاج إليه النشء الجديد، مما ينظمون به حياتهم ويحافظون به على كيانهم، ويستغنون به عن الغرب ويستعدون للحرب، ويستخرجون به كنوز أرضهم وينتفعون بخيرات بلادهم، وينظمون مالية البلاد الإسلامية، ويديرون حكوماتهم على تعاليم الإسلام، بحيث يظهر فضل النظام الإسلامي في إدارة البلاد، وتنظيم الشؤون المالية على النظم الأوروبية، وتنحل مشاكل اقتصادية عجزت أوروبا عن حلها.

وبالاستعداد الروحي والاستعداد الصناعي والحربي والاستقلال التعليمي ينهض العالم الإسلامي، ويؤدي رسالته وينقذ العام من الانهيار الذي يهدده. فليست القيادة بالهزل، إنما هي جد الجد، فتحتاج إلى جد واجتهاد، وكفاح وجهاد، واستعداد أي استعداد:

كــــل امـــــرئ يجـــــري إلى ـــــــ يـــــوم الهيـــاج بـــــما اســــتعدا

«دور القيادة الجديدة»:

لقد وقف العالم -نتيجة لقيادة الغرب- على فوهة بركان، مستعدٍّ للانفجار، أو على شفا جرف هار، ولا صلاح للعالم، ولا بقاء للإنسانية، ما دام الغرب في وضعه الحاضر، هو المهيمن على الحياة كلها وهو مصدر التوجيه والإرادة في جميع القارات، فضلًا عن البلاد والحكومات، كالدمل الممد في جسم الإنسانية السليم، وهو مرد كل قلق، وكل فوضى، وكل ثورة وانقلاب في أقصى الشرق، وفي أبعد أطراف العالم الإسلامي، لا تثمر مع سيطرته جهود إصلاحية، ولا تبقى رغم إرادته ومصالحه حكومات صالحه، ولا نظام راشد، ولا أمل في السعادة إلَّا في تحول القيادة والقوة من الغرب المادي الأناني الذي لم يعد قادرًا على إسعاد البشرية، ولا رغبة له فيها، إلى من يحمل للعالم وللإنسانية روحًا جديدًا، وتصميمًا جديدًا، ويعتبر نفسه مسئولًا عن ذلك أمام الله، مكلفًا به من قبله، وهو المسلم الذي ينتظره العالم من جديد، ويهيب به شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال، فيقول: «أنت للسر الأزلي حارس وأمين، ولسيد هذا الكون يسار ويمين [(١)] لقد كانت نشأتك من التراب، ولكن بك قوام العالم وبقاء الأمم، اشرب كأسًا فائضة من اليقين، وانهض من حضيض الظن والتخمين، انتبه من السبات العميق، الذي طال أمده، واشتدت وطأته.

---

(١) «زبور عجم» لإقبال (ص١١٦- ١١٨) باختصار، «روائع إقبال» للندوي (ص١٠٠- ١٠١).

الغياث من الأفرنج الذين خلبوا العقول، وسحروا النفوس، الغياث من هؤلاء الذين خدعوا مرة بالرقة والدلال، ومرة بالقيود والأغلال، لقد مثل الأوربيون في العصر الحديث دور جنكس وهلاكو، وأصبح العالم كله خرابًا يبابًا بإغاراتهم وغزوهم، ياباني الحرم! ويا خليفة إبراهيم! نهض لبناء العالم من جديد، انتبه من السبات العميق، الذي طال أمده واشتدت وطأته»(١).

المنارة الرابعة: كفالة الكوادر العلمية النادرة والتخصصات العلمية العالية:

لا بد للأمة إن أرادت الفلاح أن ترعى النابغين من الكوادر العلمية النادرة والتخصصات العالية وعلى رأس ذلك المجتهدين من طلبة العلوم الشرعية، لا بد أن يُكفَلُوا كفالة تامة..

□ قال الشافعي رحمه الله: «يحتاج طالب العلم إلى ثلاث خصال: أولها: طول العمر، وثانيها: سعة اليد، والثالثة: الذكاء»(٢).

* قال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ﴾ [البقرة].

وقد ذَكَر العلماءُ أن الإنفاقَ على الدعاء وطلبة العلم داخلٌ في عموم هذه الآية الكريمة؛ لأن «الحَصْر» -لغةً- معناه الحبسُ، والدعاةُ حَبسوا

---

(١) «ماذا خسر العالم» (ص٢٩٣- ٢٩٨).

(٢) «أدب الدنيا والدين» للماوردي.

أنفسَهم ووقفوا حياتَهم على الطلب والدعوةِ للإسلام والدفاعِ عن ساحته، فكانوا من أولى الناس أخذًا للمال الذي يستعينون به على إقامةِ هذا الواجب الأكيد[1].

* وقال تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [التوبة].

ففي هذه الآية بيانٌ أنه يلزمُ أن يكون من المؤمنين طائفةٌ تَنفِرُ لتعلُّمِ العلمِ الشرعي، ثم تعود لتعلِّم الناس أحكام الشرع الحنيف.

• وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: كان أخَوان على عهدِ النبيِّ ﷺ، فكان أحدُهُما يأتي النبيَّ ﷺ، والآخَرُ يحتَرِفُ[2]، فشكا المُحترِفُ أخاه إلى النبيِّ ﷺ، فقال له النبيُّ ﷺ: «**لعلَّك تُرزَقُ به**»[3].

□ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إنكم تقولون: إن أبا هريرة يُكثِرُ الحديث عن رسول الله ﷺ! وتقولون: ما بالُ المُهاجِرين والأنصارِ لا يُحدِّثون عن رسول الله ﷺ بمثل حديث أبي هريرة؟! وإنَّ إخوتي من المهاجرين كان يشغلُهُم الصَّفقُ بالأسواق[4]، وكنتُ ألزمُ رسول الله ﷺ

---

(١) «مفاتيح الرزق» للشيخ فضل إلهي ظهير (ص٧٩).

(٢) أي: يعمل عملًا دنيويًّا ويحصِّلُ من ورائه مالًا وفيرًا. يقال: «أحرف الرجل إحرافًا»: إذا نما مالُه وكثر. واسم الحرفة من هذا المعنى. قال قُطرُب: والحرفة عند الناس: الفقر وقلة الكسب، وليست من كلام العرب، وإنما تقولها العامة. انظر: «تاريخ آداب العرب»، للرافعي (١/ ٢٣ –ط: العصرية).

(٣) صحيح: رواه الترمذي وابن عبد البر في «جامع بيان العلم».

(٤) أي: العمل في التجارة والبيع والشراء.

على مَلْءِ بطني، فأشهَدُ إذا غابوا، وأحفظُ إذا نَسُوا..» الحديث[1].

• وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أن رسول الله ﷺ قال: «من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه»[2].

□ أنظر إلى بذل المسلمين في المُلِمّات وبذل اليهود، وكيف ضاعت فلسطين؟ يقول أمير البيان شكيب أرسلان: «عندنا مثالٌ حديثُ العهد، وهو مسألة فلسطين؛ إذ حدثت وقائعُ دمويةٌ بين العرب واليهود في فلسطين، فأُصيب بها أناسٌ من الفريقين، فأخذ اليهود في جميع أقطار الدنيا يُساعدون المصابين من يهودِ فلسطين، وأراد العالَمُ الإسلامي أن يساعدَ عرب فلسطين كما هو طبيعي-، فبلغت تبرعات اليهود لأبناء ملتهم «مليون» جنيه. وبلغت تبرعات المسلمين كلها (١٣) ألف جنيه -أي: نَحو جزء من المئة-!!.

إن اليهود وإن كانوا أغنى بالأموال من المسلمين، فإن المسلمين أكثرُ جدًّا بالعدد؛ لأن اليهود عشرون مليونًا، والمسلمون نحو أربعمئة مليون[3]؛ فلو أن كلَّ واحد من المسلمين تبرَّع لفلسطين بقرشٍ واحد- وهو الذي لا يعجز عنه أحد في عالم مهما اشتدَّ فقره-، لاجتمع من ذلك ثلاثةُ ملايين جنيه ونصف.

فالمسلمون إذن تبرعوا لإخوانهم في فلسطين بثلاثة عشر ألف جنيه، أي بما يُساوي نحو ثلثي عشر القُرش عن كل نسمةٍ من عشر عددهم!!

---

(١) رواه أحمد والشيخان.

(٢) رواه أحمد ومسلم.

(٣) واليوم مليار وربع على الأقل.

أهذا ما ترون أن تسمُّوه تضحية؟! أَوَ بمِثل هذا تجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم؟! أو هذه درجة نجدتكم لإخوانكم في الدين وجيرانكم في الوطن؟!.

وبعد هذا يقولون: لماذا سادت الأمة الإنكليزية (١) هذه السيادة كلها في العالم؟!(٢).

□ وقد ذكر المرداوي أن شيخ الإسلام ابن تيمية ذَهب إلى أن طالب العلم يجوز له أن يأخذ من زكاة المال لشراء الكتب التي يحتاج إليها في دينه ودنياه، وعقَّب المرداوي قائلاً: «وهو الصواب»(٣).

□ واستمع إلى لفتة نفيسة للإمام الغزَّالي رحمه الله وهو يتحدَّثُ عن آداب الصدقة: «كما ينبغي أن يطلبَ «المتصدِّقُ» بصدقته مَن تزكو به الصدقة، كأنْ يكون أهل علم، فإن ذلك إعانةٌ له على العلم، والعلمُ أشرف العبادات -مهما صحَّت فيه النية-، وقد كان ابن المبارك يخصِّصُ بمعروفه أهلَ العلم، فقيل له: لو عمَّمت!! فقال: إني لا أعرفُ بعد مقام النبوةِ أفضلَ من مقام العلماء، فإذا اشتغل قلبُ أحدهم بحاجته، لم يتفرغ لطلب العلم، ولم يُقبل على التعلم، فتفريغُهم للعلم أفضل»(٤) انتهى.

□ ولما عاتب بعض الناس شيخ الإسلام عبد الله بن المبارك في إنفاقه على طلبة العلم في البلدان البعيدة دون بلده، فقال: «إنِّي أعرفُ مكان قومٍ

(١) هذا في وقته، أمَّا الآن فأمريكا.

(٢) «لماذا تأخَّر المسلمون» لشكيب أرسلان (ص٢٧) وما بعدها -بتصرف- طبع دار القلم.

(٣) انظر: «مشمولات مصرف في سبيل الله» للشيخ عمر الأشقر (ص٣٨، ٣٩).

(٤) نقلًا عن «مفاتيح الرزق» (ص٧٩، ٨٠).

لهم فضل وصِدق، طلبوا الحديث فأحسَنوا طلبه لحاجةِ الناس إليهم، احتاجوا، فإن تركناهم ضاع علمُهم، وإن أعنَّاهم بثُّوا العلم لأمةِ محمد ﷺ؛ لا أعلمُ بعد النبوة أفضل من بث العلم»[(١)].

□ وكان يقول رحمه الله للفضيل بن عياض: «لولاك وأصحابك ما اتَّجرتُ».

□ وكان رحمه الله يعطي العلماء -بجانب المال- الثيابَ الحسنة والهدايا الطيِّبة [(٢)].

□ والإمامُ سفيان الثوري، يقول عن نفسه: «لما أردت أن أطلب العلم قلت: يا رب، إنه لا بد لي من معيشةٍ، ورأيتُ العلم يدرُس، فقلتُ: أفرِّغُ نفسي للطلب.. وسألت ربي الكفاية»[(٣)].

□ فاستجاب الكريمُ الرحيم لدعوته، وإذا بأمه تدعوه وتقول له: «يا بنَي، اذهب، فاطلب العلم، وأنا أكفيك بمغزلي [(٤)]»[(٥)].

□ ويقول الإمام أبو يوسف -تلميذ الإمام أبي حنيفة-: «كنت أطلب الحديث والفقه، وأنا مُقِلٌّ رثُّ الحال [(٦)]، فجاء أبي يومًا وأنا عند أبي حنيفة، فانصرفتُ معه، فقال: يا بُني، لا تَمُدَّنَّ رِجْلَك مع أبي حنيفة، فإن

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٣٨٧).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤١٠).

(٣) «علو الهمة» للشيخ المقدم (١٤٨).

(٤) أي: أغزل الثياب وأبيعها وأنفق عليك.

(٥) «الآداب الشرعية» للعلامة ابن مفلح الحنبلي (٢/ ١٣٩).

(٦) أي: فقير المال والثياب.

أبا حنيفة خُبزُه مشوي، وأنت تحتاج إلى المعاش [١]. فقصَّرتُ عن كثيرٍ من الطلب، وآثرتُ طاعة أبي، ففقدني أبو حنيفة، وسأل عنِّي، فجعلتُ أتعاهد مَجلسه، فلما كان أولُ يوم بعد تأخُّري عنه قال لي: ما شَغَلك عنا؟ قلت: الشغلُ بالمعاش وطاعةُ والدي. فجلست، فلما انصرف الناس دفع إليَّ صُرَّةً [٢]، وقال: استمتع بهذه. فنظرت، فإذا فيها مئةُ درهم، فقال لي: الزَم الحلْقة، وإذا نفِدت فأعْلِمني.

فلزمتُ الحلقة، فلما مضت مدةٌ يسيرة دفع إليَّ مئةً أخرى، ثم كان يتعاهدني [٣]، وما أعلمتُه بخَلَّةٍ قط [٤]، ولا أخبَرته بنفاد شيء، كأنه كان يُخبَر بنفادها، حتى استغنيتُ وتَمولت [٥]، فلزمتُ مَجلسه حتى بلغتُ حاجتي، وفتح اللهُ لي ببَركته وحُسن نيته ما فتح من العلم والمال؛ فأحسَن الله عنِّي مكافأته، وغفر له»[٦].

□ ولما حَضر أسدُ بن الفرات عند مُحمد بن الحسن الشيباني قال له: «إنِّي غريبٌ، قليلُ النفقة، والسماع منك نذْرٌ، والطلبةُ عندك كثير، فما حيلتي؟ فقال له محمد: اسْمع مع العراقيِّين بالنهار، وقد جعلتُ لك الليل وحدك، فتبيت عندي وأسْمعك».

قال أسد: فكنت أبيتُ عنده، وينْزل إلي، ويَجعل بين يدي قدَحًا من

---

(١) يقصد أبوه: أن أبا حنيفة مكفيٌّ، وأما أنت فمحتاج للتكسب.
(٢) الصُّرَّة: كيس النقود.
(٣) أي: يراعي أحوالي ويسأل عني.
(٤) أي: بنفاد المال.
(٥) أي: فتح الله عليَّ من المال
(٦) «تاريخ بغداد» (١٤/ ٢٤٤).



الماء، ثم يأخذُ في القراءة، فإذا طال الليل ونعستُ، ملأ يده ونضح في وجهي الماء، فأنتبه؛ فكان ذلك دأبَه ودأبي، حتى أتيتُ على ما أريد من السماع عليه».

وكان مُحمد بن الحسن يتعهَّدُه بالنفقة حين علم أن نفقته نفدت، وأعطاه مرة ثَمانين دينارًا [١] حين رآه يشرب من ماء السبيل [٢].

□ وبشرُ بن الحارث، الزاهد العابد الورع، تفرَّغ لطلب العلم ونشر السنة، وكان يأكلُ من كسب أُخته، ولم ينظرْ أحدٌ من الناس إلى أن هذه بطالة أو عيبًا [٣].

□ والإمام ابن؟ُ خزيْمة كان لا يدَّخِرُ شيئًا من أرباح ماله، بل كان ينفقُها على طلبة العلم [٤].

□ والإمامُ الليث بن سعد أَعطى منصورَ بن عمار كيسًا فيه ألفُ دينار، وقال له: «يا أبا السَّري، خذْ هذا إليك، وصُنْ هذا الكلام؟َ أن تقفَ به على أبواب السلاطين [٥]، ولك في كل سَنةٍ مثلها. فقال منصور: رحِمك الله، إن اللهَ قد أنعم إليَّ وأحسن. قال: لا تردَّ عليَّ شيئًا أصِلُك به.

قال منصور: فقبضتُها، وخرجت، فلما كان في الجمعة الثانية أتيتُه، فقال لي: اذكر شيئًا [٦]. فأخذت في مَجلس لي، فتكلمت، فبكى الشيخ وكثُر

---

(١) دينارًا: أي من الذهب.

(٢) «شجرة النور الزكيَّة في طبقات المالكية» لمحمد مخلوف المالكي

(٣) «المنطلق» للشيخ محمد بن أحمد الراشد (١٥ - ط: دار المنطلق).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٣٧٠).

(٥) أي: حتى لا تسألهم شيئًا.

(٦) أي: من الوعظ.

بكاؤه، فلما أردت أن أقوم قال: انظر ما في ثِنْيِ الوسادة [(١)]. فإذا خمسمئة دينار. فقلت: رحمك الله، عهدي بصلتك بالأمس![(٢)] قال: لا تردَّ عليَّ شيئًا أصِلُك به. فلما كانت الجمعة الداخلة أتيته مودِّعًا، فقال لي: خذْ في شيءٍ أذكرك به. فتكلمت، فبكى الشيخ وكثُر بكاؤه، ثم قال لي: يا منصور، انظر ما في ثِنْيِ الوسادة، فإذا ثلاثُمئة دينار، فقال: أعِدَّها للحج. ثم قال: يا جارية، هاتي ثيابَ إحرام منصور. فجاءت بإزارٍ فيه أربعون ثوبًا. قلت: رحمك الله، أكتفي بثوبين. فقال لي: أنت رجلٌ كريم، فيصحبُك قومٌ، فأعطِهم. وقال للجارية التي تحمل الثياب معه: وهذه الجارية لك»[(٣)].

□ وقال منصورٌ أيضًا: «دخلت على الليث بن سعدٍ يومًا –وعلى رأسه خادم يغمزُه–، فخرج، ثم ضرب الليثُ بيده إلى مصلَّاه، فاستخرج من تحته كيسًا فيه ألفُ دينار، ثم رمى بها إليَّ، ثم قال: يا أبا السَّري، لا تُعلم بها ابني فتهونَ عليه»[(٤)].

وأعطى الليثُ يومًا أسدَ بن موسى مالًا، وقال له: «ادفعها إلى بعض أصحاب الحديث مِن تراه مستحقًا لها».

فأخذها، ففرقها على جَماعة منهم [(٥)].

□ وقال يَحيَى بن بُكير: «وصل الليثُ بن سعد ثلاثةَ أنفس بثلاثةِ

(١) أي: ما تحتها.

(٢) أي: لا زال معي مال مما أعطيتني آخر مرة.

(٣) انظر كتابنا: «من يظلهم الله» (٢/ ٤٨).

(٤) «التهذيب الموضوعي لحلية الأولياء» (٨٦).

(٥) «حلية الأولياء» (ج٧).

آلاف دينار:

- احترقت دارُ ابن لهيعة، فبعث إليه بألف دينار.
- وحجَّ [(١)]، فأهدى إليه مالكُ بن أنس رُطَبًا على طبق، فردَّ إليه على الطبق ألفَ دينار.
- ووصل منصورَ بن عمار القاضي بألف دينار، وقال: لا تُسمح بهذا ابني فتهونَ عليه.
- فبلغ ذلك شعيبَ بن الليث، فوصله بألف دينار إلَّا دينارًا، وقال: إنَّما نقصتُك هذا التيار لئلَّا أساويَ الشيخ [(٢)] في عطيَّته»[(٣)].

وها هو العلامة أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي، ذلكم الإمام الجبل مَعْلَمةُ العلوم [(٤)]، ذكر العلماء أنه عانَى كثيرًا من الفقر وشظَف العيش حتى يسَّر اللهُ له الشيخ أبا منصور عبد الملك بن يوسف، فكفاه مشقةَ البحث عن الرزق، ليتفرغ إلى طلب العلم [(٥)].

□ والإمامُ أبو إسحاق الشيْرازي -شيخ الشافعية وإمامهم-، كان له رفيق وصاحب يقال له: «رافع الحمَّال»، كان يعملُ بالنهار حمَّالًا، وينفق على نفسه وعلى أبي إسحاق [(٦)].

---

(١) أي: الليث.

(٢) يعني: أباه «الليث».

(٣) «حلية الأولياء» (ج٧).

(٤) المَعلمة: ما يُسمَّى «الموسوعة».

(٥) وهذه الأخيرة لفظة خاطئة.

(٦) «الواضح في أصول الفقه» للإمام ابن عقيل (١/ ٩)- ط: الرسالة.

□ والإمام بدرُ الدين الزَّركشي، لَمَّا دخل إحدى المدُن ورأى فقهاءُ الشافعية نَجابته أخذوه وبنَوا له بيتًا وزوَّجوه، وجعلوا له راتبًا معلومًا، كلُّ هذا نظيرُ نُصرة المذهب الشافعي، فما هو إلَّا فترةً من الزمان حتى خرج عليهم بكتابه الفذ: «البُرهان في علوم القرآن».

□ والإمام ابن أبي زيد القيرواني المالكي، وكان يُلَقَّبُ «بمالك الصغير»، كان مع عظمته في العلم ذا بِرٍّ وإيثارٍ وإنفاقٍ على طلبة العلم، وقد وصل الفقيه يحيى بن عبد العزيز العُمري حين قدم القيروان بمئةٍ وخَمسين دينارًا، وجُهِّزت بنتُ الشيخ أبي الحسن القابسي بأربعِمئة دينار من مال ابن أبي زيد رحمه الله [١].

□ وكان الإمامُ عبد الغني المقدسي مجتهدًا في طلب العلم، يُكرمُ الطلبة وينفق عليهم، وكان بعضُ العلماء إذا أراد السفرَ أعطاه نفقاتِ السفر وزوَّده بما يَحتاج إليه [٢].

□ والملكُ العادل الزاهد نور الدين زنكي، كان يُحب العلماء ويعظمهم، ويرسل إليهم بالمال والعطايا [٣].

□ وقال الإمام شعبة: «إذا رأيتَ المَحبرة في بيت إنسانٍ فارحَمه، وإن كان في كُمِّك شيءٌ فأطعِمْه» [٤].

□ وكان أبو محمد بن ماسي يُرسل بين الفَينة والفينة إلى أبي عمر الزاهد

---

(١) «السير» (١٧/ ١٠- ١٢).

(٢) «السير» (٢١/ ٤٤٣- ٤٧١).

(٣) انظر كتابنا «نداء الريان» (١/ ١٥٥).

(٤) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي (١/ ١٤٩).

من النفقة لينفقَ على نفسه [١].

□ وكان الإمام أحمدُ بن حنبل تمر عليه أيام، وتنفق زوجتُه عليه وعلى أولاده، فقد قال الإمام أحمد لابنه صالح: «كانت والدتُك في الغلاء تَغزِلُ غزلًا دقيقًا، فتبيعُ الأستار بدرهمين -أو أقل أو أكثر-، فكان ذلك قوتَنا» [٢].

□ وكان الخليفةُ المأمون يُعطي الأموال إلى إسحاق بن موسى الأنصاري ويقول له: «قسِّمه على أصحاب الحديث، فإن فيهم ضعفاء» [٣].

□ قال أبو منصور عليُّ بنُ علي الأمين: «لما رجع الخطيبُ من الشام كانت له ثروةٌ من الثياب والذهب، وما كان له عَقِبٌ، فكتب إلى القائم بأمر الله: إن عالي يصيرُ إلى بيت مال، فائذن لي حتى أُفرِّقَهُ فيمن شئتُ. فأذنَ له، ففرَّقها على المُحدِّثين» [٤].

□ وجاء في ترجمة الحافظ ابن حجر رحمه الله وعلاقته بتلاميذه ما يلي: «وكان يَبسُط لهم وجهه، ولا يُغلِقُ دونهم بابه، ويوسِّعُ عليهم من ماله، ويسعى بجاهه لقضاء حوائجهم العِلمية والدنيوية.

وإذا قصده أحدُهم -بعد فراغ الدرس وقد هم بدخول بيته-، وقف له طويلًا لا يفارقه حتى يكون الطالبُ هو المنصرف، ويُعيرهم كُتبَه، حتى

---

(١) «فقه الائتلاف» للشيخ الخزندار (٢٢٨).

(٢) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (ص١١).

(٣) «مناقب الإمام أحمد» (ص١٢).

(٤) «مقدمة تاريخ بغداد» بتحقيق الشيخ بشَّار عواد معروف.

ضاع منها زيادةٌ على مئةٍ وخمسين سِفرًا، التمسها في السوق فلم يجدها.

وكثيرًا ما يتفقَّدُ الطلبة -سيَّما الغرباء والوافدين عليه-، منفقًا عليهم، ويُعينهم بكُتبه، ويُغدِقُ عليهم من هداياه وما شاكلها، وعندما يطلبون منه الإجازاتِ يكتبُ لهم بها، ويشجِّعُهم خلالها بالانكباب على طلب العلم وتحصيله، ويعودُ مرضاهم، بل ويصبر عليهم في اشتغالهم عليه في مرضه»[١] انتهى.

□ وقال الحافظ أبو طاهر السِّلَفي: «استفتيت شيخنا إلكيا الهرسي[٢]: ما يقول الإمام -وفقه الله تعالى-: في رجلٍ أوصى بثُلث ماله للعلماء والفقهاء، أتدخلُ كَتَبَةُ الحديث تحت هذه الوصية؟ فقال: نعم»[٣] انتهى.

□ ويقول العلامة الشنقيطي عن نفسه: «ولما حفِظتُ القرآن، وأخذتُ الرسم العثماني، وتفوَّقتُ فيه على الأقران، عُنيت بي والدتي وأخوالي أشدَّ العناية[٤]، وعزموا على توجيهي للدراسة في بقية الفنن، فجهَّزتني والدتي بجَمَلين، أحدهما عليه مَركبي وكتبي، والآخر عليه نفقتي وزادي، وصحبني خادمٌ ومعه عدَّةُ بقَرات، وقد هيَّأت لي مركبي كأحسنِ، ما يكون من مركب، وملابسَ كأحسن ما يكون، فرحًا بي، وترغيبًا لي في طلب العلم، وهكذا سلكتُ سبيل الطلب والتحصيل»[٥] انتهى.

---

(١) مقدمة تحقيق «هدي الساري» (١/ ٥٤)- طبعة: طيبة.

(٢) إلكيا: كلمة فارسية معناها: الكبير القدر المُقدَّم بين القوم، قاله ابن خلّكان كما جاء في «صفحات من صبر العلماء» لأبي غُدَّة (ص٩٢)- ط. البشائر الإسلامية.

(٣) «شذرات الذهب في أخبار من ذَهَب» لابن العماد الحنبلي (٦/ ١٥).

(٤) تُوُفِّي والده وهو صبي صغير.

(٥) مقدمة تحقيق «آثار العلَّامة الشنقيطي» (١/ ٢١) -طبع عالم الفوائد.

□ وجاء في ترجمة الإمام الغزَّالي رحمه الله: «ولد بـ «طُوس»، وكان أبوه يغزل الصوف ويبيعُه في دكانه، فلما حضرته الوفاةُ أوصى به -وبأخيه أحمد- إلى صديقٍ له متصوِّفٍ من أهل الخير، وقال له: إن لي لتأسُّفًا عظيمًا على تعلُّم الخط، وإني أشتهي استدراكَ ما فاتنني في ولديَّ هذين، فعَلِّمْهما ولا عليك أن تُنفدَ في ذلك جميع ما أخلفه لهما»(١) انتهى.

□ وعن أبي جمرة قال: «كنت أقعدُ مع ابن عباس، فكان يُجلِسُني معه على سريره، فقال لي: أقِمْ عندي حتَّى أجعل لك سهمًا من مالي»(٢).

□ قال الخطيبُ البغدادي رحمه الله: «وفَرضٌ على الإمام أيضًا أن يأخذَ الناسَ بذلك (٣)، ويُرتِّبَ أقوامًا لتعليمِ الجُهَّال، ويُفرِّض لهم الرُّزْقَ (٤) من بيت المال»(٥) انتهى.

□ وبوَّب بابًا -في موضع آخر-، فقال: «باب: ذِكرُ ما يَلزمُ الإمامَ (٦) أن يَفرضَ للفقهاء ومَن نصَّب نفسه للفتوى مِن الرِّزقِ والعطاء»(٧).

لا يسوغُ للمفتي أن يأخذ الأُجرةَ مِن أعيانِ مَن يفتيه، كالحاكم الذي لا يجوز له أن يأخذ الرزق من أعيان من يحكم له وعليه.

وعلى الإمام أن يَفرض لمن نصَّب نفسه لتدريس الفقه والفتوى في

---

(١) «أبو حامد الغزالي والتصوُّف» للشيخ عبد الرحمن دمشقية (ص٢٧)- طبع دار طيبة.
(٢) البخاري (٥٣)، و«الفقيه والمتفقِّه» للخيطب البغدادي (٢/ ٢٤١).
(٣) أي: بطلب العلم والحث عليه.
(٤) أي: المال المُعَدُّ لأهل الوظائف الدينية.
(٥) «الفقيه والمتفقِّه» (١/ ١٧٤).
(٦) أي: الحاكم.
(٧) «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٣٤٧).

الأحكام ما يُغنيه عن الاحتراف والتكسب، ويجعلُ ذلك من بيتِ مال المسلمين، فإن لم يكن هناك بيتُ مال أو لم يفرض الإمام للمفتي شيئًا، واجتمع أهل بلدٍ على أن يجعلوا له من أموالهم رزْقًا ليتفرَّغ لفتاويهم وجوابات نواز لهم ساغ لهم ذلك».

فقد كَتب عمر بن عبد العزيز لوالي حمص: «انظر إلى القوم الذين نصَّبوا أنفسهم للفقه وحَبسوها في المسجد عن طلب الدنيا، فأعطِ كلَّ رجلٍ منهم مئةَ دينارٍ يستعينون بها على ما هو عليه من بيت مال المسلمين حينَ يأتيك كتابي هذا، فإن خيرَ أعجلُه، والسلامُ عليك».

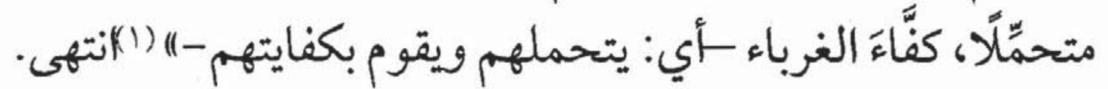
□ فقد كَتب عمر بن عبد العزيز لوالي حمص: «انظر إلى القوم الذين نصَّبوا أنفسهم للفقه وحَبسوها في المسجد عن طلب الدنيا، فأعطِ كلَّ رجلٍ منهم مئةَ دينارٍ يستعينون بها على ما هم عليه من بيت مال المسلمين حينَ يأتيك كتابي هذا، فإن خيرَ الخير أعجلُه، والسلامُ عليك».

فكان عمرُو بن قيس وأسد بن وداعة فِيمن أخذها.

□ وعن ابن أبي غيلان قال: «بَعث عمرُ بن عبد العزيز يزيدَ بن أبي مالك الدمشقي والحارث بن يمجد الأشعري يفقِّهانِ الناس في البدو، وأجرى عليهما رُزقًا، فأما يزيد فقبل، وأما الحارث فأبى أن يَقبل، فكتب إلى عمر بن عبد العزيز بذلك، فكتب عمر: إنا لا نعلمُ بما صنع يزيدُ بأسًا، وأكثَرَ اللهُ فينا مثل الحارث بن يمجد»[1].

□ وقال الإمام الذهبي في ترجمة الإمام أبي طاهر السِّلَفي: «كان حليمًا،

(١) «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٣٤٧).



متحمِّلًا، كفَّاءَ الغرباء -أي: يتحملهم ويقوم بكفايتهم-»[١] انتهى.

□ وفي ترجمة علي بن عاصم: أن أباه دفع له مئة ألف، وقال: «اذهب، فلا أرى لك وجهًا إلَّا بمئة ألف حديث».

□ وقال الأعمش: «ورث خيثمة بن عبد الرحمن مئتي ألف درهم، فأنفقها على الفقراء والفقهاء»[٢].

□ وفي ترجمة الإمام أبي العلاء الهمداني: «كان يُفتح عليه من الدنيا جُمَل، فلا يدخرها، بل ينفقها على تلامذته»[٣] انتهى.

□ ورحم اللهُ العلامةَ ابن مفلح إذ يقول: «واجبٌ على الإمام أن يتعاهدَ المعلِّم والمتعلم، ويرزقَهما من بيت المال؛ لأن في ذلك قوامًا للدين، فهو أولى من الجهاد؛ لأنه ربما نشأ الولدُ على مذهبٍ فاسد، فيتعذَّرُ زوالُه من قلبه»[٤] اهـ.

□ وهذا واجب الأمة نحو علماء الشرع وطلبة العلم الأفذاذ أن يفرِّغوهم لتحصيل العلم الشرعي وبلوغ أقصى المراتب فيه؛ فحاجة الأمة إليهم أشد من حاجتها إلى الطعام والشراب.

□ قال يحيى بن معاذ الرازي: «العلماء أرأف بأمة بمحمد ﷺ من آبائهم وأمهاتهم؛ لأنهم يحفظونهم من نار الآخرة وأهوالها، وآباؤهم وأمهاتُهم يحفظونهم من الدنيا وآفاتها»[٥].

---

(١) «سير أعلام النبلاء».

(٢) «التهذيب الموضوعي لحلية الأولياء» (ص١٢٠).

(٣) «السير» (٢١/ ٤٠).

(٤) «الآداب الشرعية» لابن مفلح (٢/ ١٤٢).

(٥) نقلًا عن «تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين النووي».

ويندرج هذا الكلام على أفذاذ العلماء من أصحاب التخصصات في كل فن وعلم من علوم الحياة ينفع الأمة، أو تكون الأمة بحاجة ماسة إليه. حتى تنال الأمة المكانة العالية والصدارة بين الأمم في علوم الدنيا ونقول: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ﴾ [يوسف: ٦٥].